فلسفة اللغة

نشأتها.. تطورها.. أبرز أعلامها



فلسفة اللغة

نشأتها .. تطورها .. أبرز أعلامها

الدكتور
إبراهيم مصطفى إبراهيم

٢٠٠٩م

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة ت: ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ ش قناة السويس - الشاطبى ت: ٥٩٢٣١٤٦



بسم الله الرحمن الرحيم

(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم):

« أوتيت جوامع الكلم، واختصر ليَّ الكلام اختصاراً »

وقال الإمام الشافعي (رضيَّ الله تعالى عنه):

« ما يحيط بلسان العرب إلا نبيّ »



المقدمة

اللهم لك الحمد، أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد، أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق ، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنّة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) حق، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ، ولا إله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (1) .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية ، ولمعة القبضة الرّحمانية ، وأفضل الخليقة الإنسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية ، وخزائن العلوم الاصطفائية ، صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السّنيّة ، والرتبة العلية من اندرجت النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه وصلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت وأمتّ وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت وسلم تسليماً كثيراً ...

وبعد ...

فالحقيقة بنت البحث ..

وفي البدء كانت الكلمة ..

من هنا كان موضوع « اللغة » من الموضوعات الأساسية والجوهرية . وفي نفس الوقت كانت من الموضوعات الشائكة في تناولها ، والمهمة في التعرف إليها... والتماس مراميها... حتى وإن صعب الطريق إليها أو كثرت توجهاتها... وطالما أن الكلمة كانت في البدء ... وأن الحقيقة بنت البحث فعلينا ألا نألوا

---

(١) البخاري : كتاب الجمعة – باب التهجد بالليل (٢/ ٦٠)، ومسلم : كتاب صلاة المسافرين – باب الدعاء في صلاة الليل (١/ ٥٣٢ ، ٥٣٣) ، رقم (١٩٩)، والنسائي : كتاب قيام الليل وتطوع النهار (١/ ٢٠٩ ، ٢١٠) باب ذكر ما يستفتح به القيام ، والترمذي : كتاب الدعوات – باب ما يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة (٥/ ٤٨١، ٤٨٢) رقم (٣٤١٨) ، وابن ماجه : كتاب إقامة الصلاة – باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل (١/ ٤٣٠) رقم (١٣٥٥) .

جهداً في السعي الحثيث وراءها من أجل محاولة بلوغها ... وإن كان من الصعب علينا بلوغها فعلى الأقل من أجل الحصول على شرف محاولة الوصول إليها واكتنائها والبحث في دروبها الوعرة ...

إذاً فلا بأس ... إن المضطر يركب الصعاب ... وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم ، كما تأتي المكارم على قدر أهل المكارم .

يفرّق الفلاسفة والنقاد والدارسون على اختلاف توجهاتهم بين فلسفة اللغة كإطار نظري وبحث نظري في اللغة من جهة، وباعتبارها جزء من المنطق أو أن المنطق جزء من اللغة أو أن كلاهما جزء من الآخر، وبين علم اللغة باعتباره الإطار العملي أو التطبيقي لها من جهة أخرى. وقد نظر علم اللغويات الحديث بدءاً من جون روبرت فيرث وميشيل هاليداي وحتى ريتشارد هادسون وهم من علماء اللغة الإنجليز إلى هذا العلم على أساس أن اللغة « منظومة » متكاملة ومتطورة تنتظم جوانب عديدة منها الفزيولوجية التي تتعلق بقدرات ووظائف خاصة بمخ الإنسان ، وعصبية تتعلق بقدرات مراكز النطق والتذكر والإبصار وغيرها ، وبيئية تتعلق بما يمارسه الإنسان من أعمال وبمراحل العمر المختلفة ، واجتماعية تتعلق باحتياجاته إلى التواصل مع غيره، كما تتعلق بنوع ومستوى المعرفة المتاح وبالسياق الذي تستخدم فيه ، وثقافية وفكرية تتعلق بنوع المنطق الذي يحكم العلاقات بين مكونات اللغة من أصوات أو علامات مرقومة مكتوبه وبالمعاني المطلوب توصيلها أو تبادلها ، وبنوع ومستوى الثقافة والعلاقات الاجتماعية السائدة ، والجوانب كثيرة والحديث عنها لا ينتهي .

إن محاولة إقامة فلسفة لغوية على أسس منطقية أو عقلية أي على أسس مجردة بات أمراً لا تقره محاولات السعي نحو مبدأ « الترابط » بين العلوم ... أي مبدأ وحدة المنطق النحوي العام لكل اللغات البشرية بشقيها النظري والعملي... المجردات والأصوات ، وإن كان هناك اتجاه يرى أن من أكثر العلامات على ارتقاء اللغة هو تحقيقها لأكبر قدر ممكن من التجريد .

يقول العقاد في ذلك :

« من أشهر العلامات التي يستدل بها على ارتقاء اللغة أن تكون وافية بوسائل التعبير عن المعاني المجردة ؛ لأن تجريد المعاني من المحسوسات عمل من أعمال التفكير يتقدم إليه الإنسان مع تقدمه في الحضارة واستمراره زمناً

طويلاً على تعوّد البحث، واستخلاص الحقائق المعنوية من حقائق الحس والعيان » [١] .

إن المنطق يدرس مقولات Categories الفكر من ناحية منطقية عقلية صورية ، والنحو يدرس الفكر كمقولات نحوية عقلية لا تفيد في تحديد أصل اللغة أو نشأتها أو كيفية التعبير بها عما يجول داخل الإنسان من أفكار وآراء ومعتقدات وعواطف وأحاسيس ومشاعر سلبية وإيجابية... كراهية وحب وهي كثيرة ومعقدة... وكثيراً ما كان يذهب هؤلاء المناطقة والنحاة إلى إنكار العلاقة بين اللغة والواقع ... مما يجعل اللغة بلا هوية ... ويظل الواقع مبهماً دون التعبير عنه [٢] .

لقد أثبت الواقع نفسه ... والممارسة العملية ذاتها ، صعوبة التفرقة بين الإطار النظري وبين التطبيق العملي، فكلاهما وجهان لعملة واحدة ... لا سبيل إلى الأخذ بوجه دون آخر، والذي ينظر إلى اللغة على أساس أنها علم فقط فيهتم بالصوت والفونيم وغيرها ويدّعي أنه لا داعي لفهم أو معرفة أصل اللغة أو الدراسات اللغوية الأخرى التي تتناول علاقة اللغة بالنحو وبالمنطق وبالجماعات التي نعيش بينها فإنه بذلك يريد أن يقطع الصلة التي تربط الإنسان بأصله ... فيظل إنسان بلا جذور أو هوية أو معالم ... لا شخصية له ... ولا طابع مميز يميزه .

لذلك حاولت أن أطوّر هذه المفاهيم وأن أمزج في هذا الكتاب بين فلسفة اللغة كدراسة مجردة وبين علم اللغة كدراسة عملية تطبيقية فجاءت متكاملة الأطراف إلى حد بعيد... ومازال المجال مفتوحاً ... وسيظل كذلك إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ... وذلك من أجل مزيد من العطاء والفهم والإيضاح .

من هنا جاء هذا الكتاب ليؤكد هذه الحقيقة ... فقد حاولت ربط الفروع

---

(١) عباس محمود العقاد : بحوث في اللغة والأدب ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص٦٢ (المقال تحت عنوان : المصدر في اللغات) .

(٢) لمزيد من الإيضاح انظر :

د. محمود السعران ، علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة رجب ١٤١٢هـ - يناير ١٩٩٢م ، ص٧٤ وغيرها .

بالأصول ، والحاضر بالماضي ، والعلم بالفلسفة ، والعملي بالنظري ، والشرقي بالغربي دون أن أغرق نفسي ومعي القارىء في تجريدات شديدة التجريد ... وتفصيلات لا طائل من ورائها ، أو أمثلة عملية تتجاوز الحد لا يعيها غير المتخصص في هذه النقطة أو تلك ... حتى يكون الكتاب مفيداً ومهماً لمن يشرفه بالقراءة والنقد .

وتكاد تجمع المدارس الحديثة لعلوم اللغة على نقطتين مهمتين : الأولى أن اللغة جزء أساسي من ثقافة مجتمعها ، إنها معجم أو موسوعة تحتوي هذه الثقافة، وأنها أكثر رموز الثقافة خطورة لاحتوائها لها ودلالتها عليها ؛ والثانية ، هي أن «تغير » أو تطور أو تقدم أو تحسن أي جزء من المنظومة اللغوية يحتم تغير أو تطور أو تقدم أو تحسين المنظومة بأكملها ، وإلا فسدت وتجمدت معها الثقافة ، فإذا كانت « الحقيقة بنت البحث » فإن « اللغة بنت الثقافة » .

ولقد حظيت الدراسات اللغوية باهتمامات بالغة من جانب المسلمين الأوائل إبّان حضارتهم العظيمة التي سطعت شمسها على الدنيا بأكملها ومازالت تنير للدنيا دروب الظلام فقد تأسست هذه الحضارة على مبادئ دينية وأخلاقية راسخة ثم زانها العلم والمعرفة كعقد النور الفريد ، إلا أنها لم تحظ بهذا الاهتمام في العالم الغربي إلا في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين ، وقد ألحقوها أولاً بعلم أنثروبولوجيا السكان باعتبار أن هذا العلم يدرس الجماعات الإنسانية في تطورها البدائي ، وكانت دراساتهم تقدم على مجرد « التخمين » Guessing وليس على التأكيد ومبدأ اليقين بل على فروض بدائية ساذجة .

لقد افترضوا أنه لابد أن تكون للغات الحديثة جذور لغوية أو أصول واحدة أو أكثر تضرب في تاريخ البشرية السحيق معتمدين في ذلك على المنهج المقارن فيقارنون بين التشابهات في بعض المفردات أو الأفعال أو أصول الصرف ونحو ذلك حتي بدأ علم اجتماع الثقافة يخطت لنفسه مجالات خاصة وجعل اللغة من بينها وانصبت دراساتهم على التحقق من مدى قدرة اللغة المنطوقة والمكتوبة على تجسيد الثقافة التي ترتبط بها هذه اللغة ، وعلى تجسيد « العقلية » Mentality لمن يستخدم اللغة ، وحصر الفيلسوف الفرنسي « ميشيل فوكو » -أحد رواد البنيوية -- دراساته في اللغة أو ما يحلو للبعض أن يطلق عليه « الخطاب اللغوي » في مجال السياسة ، ثم توسع في استخدامه علماء أنجلو أمريكيين أمثال

جون بوكوك ، وبيترس بيرك وريتشارد بورتو وغيرهم وحاولوا تطبيق المفهوم على فئات اجتماعية أوسع ، وتتبعوا ما عرف « بعلامات الخطاب » أي الصياغات في التراكيب والاصطلاحات والمعلومات السائدة بين مجموعات اجتماعية مختلفة أطلقوا عليها اسم « مجالات الخطاب » لمعرفة كيفية عمل اللغة في الثقافة والمجتمع .

ومن هنا جاءت هذه المحاولة التي أردت أن أضيفها إلى ما سبق من محاولات ، وإذا كانت بحوث علماء اللغة المحدثين الجادة قد اهتمت باكتشاف أسرارها لمعرفة نظامها فإن السلف الصالح من علمائنا أنفقوا أعمارهم في اكتشاف تلك الأسرار. ولا نغالي إذا قلنا : إن جهودنا الحديثة عيال على نتائجهم الباهرة التي توصلوا إليها ولعل جهودهم في جانب البحث الصرفي (*) في مقدمة الجهود التي أسهمت في اكتشاف كثير من أسرار اللفظ ودلالته وذلك بعد أن استطاعوا وضع أقيسة دقيقة مبنية على الاستقراء اللغوي » [1] .

هذا وبالله تعالى التوفيق وهو يهدي السبيل .

الإسكندرية في :
١٦ من ربيع الأول ١٤٢٩هـ
٢٤ من مارس ٢٠٠٨م

الدكتور

إبراهيم مصطفى إبراهيم

(*) (١) الصرف من التصريف وهو من الناحية اللغوية التحويل والتغيير والتقليب، فتصريف الرياح : تحويلها من وجه إلى وجه ومن حال إلى حال، والتصريف اصطلاحاً : علم بأصول أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب (انظر : أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب : شرح الشافية ١/١) . أما النحو فهو علم يبحث عن أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً ، فهو يتعلق بالعوارض من فاعلية ومفعولية وإضافة وغيرها . ويلخص ابن جني في المنصف (٤/١) كل ذلك بقوله : فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة . والنحو هو لمعرفة أحواله المتنقلة ، ألا ترى أنك إذا قلت قام بكرٌ، ورأيت بكراً، ومررت ببكرٍ، فإنك إنما خالفت بين حركات حروف الإعراب لاختلاف العامل ولم تتعرض لباقي الكلمة » .
انظر : د. هاشم طه شلاش وآخرون ، المهذب في علم التصريف، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد ، بيت الحكمة، د.ت، ص ص٢٢ ، ٢٥، ٢٧ – ٢٨ .



الفصل الاول

اللغة ... المعنى والمنهج ...



الفصل الأول

اللغة .. المعنى والمنهج ..

مقدمة

إن اللغة هي العلاقة الأكثر شيوعاً وعالمية وسيادة في المجتمع الإنساني، فهي من أكثر الأنشطة الإنسانية تغلغلاً في المعرفة الإنسانية بل وفي حياتنا ككل، من أكثر أنواع السلوك عمومية إلى أكثر أفكارنا خصوصية ، فنحن قد لا نرى -على سبيل المثال - في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية أنظمة صورية من الأرقام أو من علم الحساب، وقد لا نرى فيه أية اهتمامات بالفنون أو الموسيقى أو علم البيولوجيا (الأحياء) أو علم الجغرافيا أو ما شابه ذلك ، ولكننا لابد وأن نرى فيها لغة ما يتفاهم بها الناس، فكل ثقافة سواء أكانت بدائية - إن جاز لي استخدام هذا اللفظ - أو منعزلة، لابد لها من لغة، وكل فرد منا يحاول جاهداً تنمية مهاراته اللغوية ، اللهم إلا إذا كان يعاني من اضطرابات خلقية أو من أثر حادثة ما ، أما ماعدا ذلك فلابد أن يتمتع الفرد بمعرفة لغة ما وأن يمارسها وأن يقوم بتطويرها ما أمكنه ذلك . كما أنه لا يمكن أن نستفيد من الخبرات التي نمر بها نحن أو أحد أفراد المجتمع إلا عن طريق اللغة ... فهي السبيل إلى الرقي ... وإلى الفهم... وإلى وضوح التعبير ... وإلى تنمية خبراتنا وتراكم تجاربنا وتطورنا . إذاً فعلم اللغويات Linguistics هو النظام الرسمي الأكاديمي الذي يتناول اللغة الموجودة بالفعل per se وكل ما نتعامل به ونقرأه إنما يأتينا عن طريق هذا النظام اللغوي [1] .

وإذا أراد أي فرد منا - مهما كان موقعه العلمي - أن يقوّم بحثاً علمياً على أسس متينة. ومبادىء قوية ، وأن يمضي فيه دون أن ينحرف انحرافاً يعرضه للزلل أو ينأى به عن اليقين فلابد أن يطرح على نفسه هذا السؤال أو التساؤل الذي تساءله منذ القدم سقراط ومازلنا نتساءله حتى يومنا هذا ... من أين نبدأ ؟ وكيف السبيل إلى اليقين ؟

---

(1) Ashcraft, Mark H., Human Memory and Cognition, Scott, Foresman and Company, Glenview, Illinois, 1989, p. 362 . (بتصرف)

وكانت الإجابة دائماً : إبدأ من اللغة [1] .

فما اللغة التي يجب أن نبدأ منها ؟

أولاً : معنى اللغة

لكل لغة أو لكل نظام لغوي معنى يضعه علماء اللغة ... ومعنى يضعه فلاسفة اللغة ... فأما المعنى الذي يضعه علماء اللغة فنجده في قواميس اللغة وأما المعنى الذي يضعه فلاسفة اللغة فنجده في قواميس ومعاجم الفلسفة .

١- معنى اللغة لغوياً

حظيّ مفهوم « اللغة » language باهتمام المفكرين على مر العصور والدهور والأيام على اختلاف اهتماماتهم العلمية والفكرية والعملية ، لذلك كثرت تعريفات اللغة ، وتعددت معانيها حتى أصبحنا لا نستطيع أن نقرر أن هذا التعريف أصح أو أدق من غيره . وقد جاء في « الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية أن « اللغة من لغَا نلْغو لغواً ، أي قال باطلاً . يقال : لغوت باليمين ... واللغة أصلها لُغَيٌ أو لُغَوٌ، والهاء عوض ، وجمعها لغىً مثل بُرَةٍ، وبرىً. ولُغَاتٌ أيضاً . وقال بعضهم : سمعت لغاتهم (بفتح التاء)، وشبّهها بالتاء التى يوقف عليها بالهاء . والنسبة إليها لغوى ولا تقل لَغوى بفتح اللام ولكن يجب ضم اللام » [2] .

وقد اهتم العرب باللغة لا من حيث تعريفها فقط ولكن من حيث تعريفها ودراستها دراسة مستفيضة وعميقة تناولت الألفاظ والنحو والتراكيب والغريب منها وغير ذلك ، فهي عند العرب ملكة يقتدر بها الإنسان على النطق واللفظ ، وهي : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ؛ أو يعبر بها كل جيل عن وجداناتهم ؛ أو تعبر بها كل أمة عن علومها ، ويبين بها كل شخص عما يراود نفسه ، عقله ووجدانه [3] .

---

(١) أحمد عبد المعطي حجازي، ابدأ من اللغة، الأهرام ، القاهرة ، العدد ٣٩٠٠٦، السنة ١١٨ ، ص١٤ (بتصرف) .

(٢) إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، القاهرة (١٢ ربيع أول) ١٣٧٧هـ، ص ص ٢٤٨٣ - ٢٤٨٤ . (فصل لغا) .

(٣) انظر : ابن منظور ، لسان العرب فصل « لغا » ، والقاموس المحيط والوسيط نفس الفصل، ودائرة معارف القرن العشرين، و د. علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة .

والكلمة عند العرب – كما رأينا – مشتقة من الفعل : « لغا » فيقال : لغا بالشيء أي : لهج به ؛ ويقال : لغوت بكذا ، أي : لفظت أو أعربت عما أردت بالكلمات.

وإذا كانت هذه هي معاني « اللغة » في حالة كونها « منطوقة » فاللغة «المكتوبة » هي الإعراب عن المعاني وبنائها باستخدام « الرموز » أو «العلامات» التي هي حروف متجمعة في كلمات أو مفردات ولها دلالات واقعية أو وجدانية.

من التعريفات السابقة وغيرها كثير مما سيأتي يدل دلالة قاطعة على اهتمام العرب باللغة وما يقع تحتها من دراسات لغوية تشير إلى أكثر الدلالات الحديثة أهمية وهي الدلالات الذهنية والاتصالية والوظيفية للغة [1].

وقد تأتي اللغة بمعنى « اللسان » فيقال عن العلوم اللغوية « اللسانيات » «واللسن » مصدر لسنه أى أخذه بلسانه وغلبه في الملاسنة ، والنقل خرط صدرها ودقق أعلاها، والجارية تناوله لسانها ترشفا ، والعقرب لدغت. وبالكسر : الكلام واللغة فيقال « لسان » وبالضم : الفصحى جمع لسن [2] . (بضم اللام وسكون السين) .

فإذا عدنا إلى القرآن الكريم نجد أن الله تعالى استخدم كلمة اللسان بعدة طرق مختلفة ولكنها تدور جميعها حول اللغة (*) .

قال الله تعالى « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربي مبين » (النحل /١٠٣) .

---

(١) انظر : * فردريك جارلاند (إيطالي) Fredric Garland ، فلسفة اللغة .
* هنري دولاكروا (Henri Delacroix) ، اللغة والتفكير .
* ڤ. دوكسا (V. Dauxat) ، فلسفة اللغة .
* ريبو (Ribot) ، تطور المعاني الكلية L'évolution des idées Générales .

(٢) الفيروز ابادي (ت٨١٧هـ)، المثلث المختلف المعنى، تحقيق ودراسة د. عبد الجليل مغناظ عودة التميمي، منشورات جامعة سبها، (ليبيا)، ١٩٨٨، ص٣٢٠ .

(*) وردت كلمة اللسان في عدة سور قرآنية هي : آل عمران (٧٨) ، والنساء (٤٦)، والنحل (١٠٣) ، ومريم (٥٠ ، ٩٧)، وطه (٢٧) والنور (٢٤)، والشعراء (١٣ ، ٨٤) والأحزاب (١٩) والدخان (٥٨) ، والأحقاف (١٢) .

ويفسر ابن كثير هذه الآية بقوله إن المشركين افتروا كذباً وبهتاناً أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) إنما يعلمه هذا الذي يتلوه من القرآن الكريم بشر ، ويشيرون إلى بعض الأعاجم مثل سبيعة وهو غلام نصراني يقال له جبر. عبد لبعض بني الحضرمي، أو شخص اسمه يعيش أو بلعام أو غيرهم من الأعاجم الذين لم يكونوا يعرفون اللغة العربية التي أشار إليها الله تعالى بقوله « لسان » إلا بالقدر اليسير الذي يتعاملون به مع الناس فكيف وهم يجهلون اللغة العربية يعلمون الرسول (صلى الله عليه وسلم) القرآن الكريم على ما به من فصاحة وبلاغة ومعانٍ تامة شاملة هي أكمل معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، وبالطبع فهو قول مردود لا يصمد للنقد والفحص والتحليل [1] .

ويقول الله تعالى : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُداً » ولا يخفي على أحد أن لفظة « بلسانك » تعني بلسانك الطاهر يا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل لتبشر به المستجيبين لله تعالى ، وتنذر به القوم الذي يميلون إلى الباطل دون الحق، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : قوماً لداً لا يستقيمون ، وذهب إلى مثل ذلك إسماعيل وهو السدي عن أبي صالح والقرظي والحسن البصري وغيرهم ، [2] .

ويقول الله تعالى أيضاً : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » . قال ابن أبي حاتم حدثنا فلان ابن فلان حتى يصل إلى ابن عباس (رضى الله تعالى عنه) قال : إنهم المشركون إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، قالوا حتى نجحد فيجحدون ، فيختم على أفواهم وتشهد أيديهم وأرجلهم بلغة يفهمها المشركون ولا يكتمون الله تعالى حديثاً ... أي كلاماً باعترافهم بما كسبت أيديهم وأرجلهم [3] .

---

(١) الإمام أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم جـ٢ ، كتب هوامشه وضبطه حسين بن إبراهيم زهران، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ص٩٠٩ - ٩١٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص٢٢٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص٤٤٣ .

وأخيراً قوله تعالى : « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » . يقول ابن كثير أي إنما يسرنا هذا القرآن الكريم الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيّناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها لعلهم يتفهمون ويعلمون [١] .

٢- معنى اللغة اصطلاحاً

اللغة نسق من الإشارات والرموز. يشكل هذا النسق أداة في المعرفة، وفي حفظ واستعادة مردودات الثقافة الروحية والحياة الاجتماعية الإنسانية ، وقد ظهرت اللغة في مجرى احتكاك البشر مما تطلب معه التنسيق بين أفعال الناس. وبواسطة اللغة ، بواسطة النطق ، تمكن البشر من أن يتبادلوا خبراتهم ومهاراتهم وأفكارهم وانفعالاتهم . وأن ينظموا ، بالتالي ، نشاطهم المشترك ومن ثم تحولت اللغة تدريجياً إلى أن تصبح من أهم أدوات التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع المجالات. ويتعذر نشاط الناس المعرفي ويصعب بدون اللغة ، وهي ترتبط بالتفكير ارتباطاً وثيقاً [٢] .

وتصاغ أفكار الإنسان في قالب لُغوي، حتى في حال تفكيره الباطني ، لذلك قال بعض علماء النفس إن التفكير لغة مهموسة غير منطوقة وغير مسموعة للغير. واللغة ترمز إلى الأشياء المنعكسة فيها. فرموزها تبدو وكأنها تحل محل الأشياء الفعلية، أي الأشياء المادية الملموسة . وبفضل ذلك تمكن الإنسان، من خلال نشاطه العقلي أو الذهني ، من أن يتعامل لا مع الأشياء نفسها، بل مع رموزها... أي بعد تجريد الأشياء من صورتها المادية وتحويلها إلى رموز. وبواسطة اللغة يتم التفكير التعميمي، ويصبح الفكر قادراً على استجلاء ما للأشياء المادية من صفات داخلية عميقة. وبهذا تصبح اللغة هي أداة توصيل نتائج نشاط الناس الذهني وانجازات العلم حتى يستفيد منها الآخرون [٣] .

وبالإضافة إلى ذلك فإن اللغة (وبخاصة المكتوبة) تصبح هي الأداة الرئيسة للذاكرة الاجتماعية، ومن خلالها تتجسد نتائج المعرفة العلمية والآداب والفنون

---

(١) نفس المرجع السابق ، الجزء الرابع ، ص٢٢٤ .

(٢) لفيف من الأساتذة، المعجم الفلسفي المختصر ، ترجمة توفيق سلوم ، دار التقدم ، موسكو، ١٩٨٦، ص٣٩٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ، نفس الموضع .

وغيرها من المعارف. وهذه لغات اصطناعية ، لها منطوق معينة من الحروف الأبجدية (رموزاً لها) وقواعد التأليف بين هذه الرموز وكيفية استخدامها (النحو) ، ومنها ما هو مستخدم في الرياضيات والكيمياء والحاسبات الآلية. وهذه اللغات الاصطناعية لا تحل أبداً محل اللغة العادية، إلا أنها تقوم بدور مهم في نمو المعرفة العلمية [1] .

ويذهب أحمد عبد الغفور عطار – رحمه الله – إلى أن « اللغة جهاز من الرموز أو نسق من العلامات ترمز بها إلى ما نريد أن نعبّر عنه، ونبلغه إلى غيرنا ونوصله إليه، وهي أصوات، تنفذ من السمع، أما الكتابة فلا صلة لها – في أساسها – بحقيقة اللغة ؛ لأنها نشأت بعد نشوء الرسم، وما نشأت إلا للتدوين ، وما الكتابة إلا رموز بوساطة الصور والرسوم لأشياء تدل عليها الصورة ، فنحن إذ نرى صورة إنسان لا نحتاج إلى من يعبّر لنا بالصوت حتى ندرك لأن الصورة أفصحت لنا عن حقيقتها ، فاللغة أصوات لغوية » [2] .

وهذا ما ذهب إليه أنيس فريحه [*] في كتابه « نظريات في اللغة » حيث قال :

« اللغة ظاهرة سيكولوجية (نفسية) اجتماعية ثقافية ، مكتسبة، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية، اكتسبت عن طريق الاختبار ، معاني مقررة في الذهن (العقل) ، وبهذا النظام الرمزي الصوتي ، تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل » [3] .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص٣٩٧ .

(٢) أحمد عبد الغفور عطار ، آراء في اللغة ، المؤسسة العربية للطباعة ، جدة، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م، ص ص٩ – ١٠ .

(*) د. أنيس فريحه (١٩٠٢ – ؟) لغوي وأديب لبناني . ولد في قرية رأس المتن من أعمال جبل لبنان ، تخصص في اللغات السامية. نال درجة الدكتوراه فيها من جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية . له مؤلفات عدة منها : « نظريات في اللغة » و « تبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة » و « نحو عربية ميسّرة » و « اسمع يا رضا » .

(٣) د. أنيس فريحه ، نظريات في اللغة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م ، ص١٤ .

ومن التعرفين السابقين نجد أنهما اتفقا في أشياء واختلفا في أشياء أخرى، فقد اتفقا على أن اللغة مجموعة من الرموز ، وأنها صوتية وليست مكتوبة، وأن الكتابة ظهرت متأخرة كلغة تختلف عن اللغة المسموعة (الصوتية)، واتفقا كذلك في أن اللغة وجدت للاتصال والتفاهم. ولكنهما اختلفا وزاد أنيس فريحه على هذا الاختلاف أنه أرجع اللغة إلى علم النفس وعلم الاجتماع والثقافة، وأن اللغة مكتسبة وليست فطرية ، وليس لها علاقة بالجهاز البيولوجي للإنسان ولكن لها علاقة بالعمليات العقلية (الذهنية) للإنسان . ولن أناقش أصول اللغة هل هي نفسية أم اجتماعية. وهل هي مكتسبة أم فطرية الآن، ولكن في الفصل الثاني من الكتاب.

ودارت تعريفات كثيرة حول نفس المضمون وإن كان بعض الباحثين يميل إلى قصر لفظ ومصطلح اللغة على تلك الرموز المنطوقة ، ويخرجون منها كل وسائل التعبير والاتصال الأخرى غير الصوتية من حركات وإشارات وإيماءات وكتابة وغيرها . وسوف نكتشف فيما بعد فساد هذا الرأى وعدم دقته. يعرّف جون كارول اللغة بقوله : « إنها ذلك النظام المتشكّل من الأصوات اللفظية الإتفاقية Arbitrary وتتابعات هذ الأصوات التي تستخدم أو يمكن أن تستخدم في الاتصال المتبادل بين جماعة من الناس والتي يمكنها أن تصنف بشكل عام الأشياء والأحداث والعمليات في البيئة الإنسانية » (١) .

وهكذا نجد أن جون كارول يركز على اللغة المسموعة الصوتية وينظر إليها باعتبارها هي الأصل في اللغة ، وهي قادرة على تحقيق الوظيفة المنوطة بها وهي الاتصال بين الناس . أما كونها اتفاقية أم غير اتفاقية فذلك الأمر هو مجال البحث في الفصل الثاني .

وهذا أيضاً ما ذهب إليه تعريف اللغة في قاموس وبستر Webster حيث عرفها بقوله : « إنها التعبير عن المشاعر والاتصال فيما بين الأفكار عن طريق الأصوات والترابط فيما بينها لإدراك أو فهم معنى ما ... إنها الكلام الإنساني » .

---

(١) د. سيد محمد غنيم، اللغة والفكر عند الطفل، في : عالم الفكر، المجلد الثاني ، العدد الأول، وزارة الاعلام ، الكويت ، أبريل - مايو - يونيو ١٩٧١ ، ص٩٢ .

عن : Carroll, John, B., The study of language, Harvard University Press, Cambridge, 1966 .

أما لونجمان Longman فقد عرّف اللغة بأنها « دراسة اللغة بوجه عام واللغات بوجه خاص من حيث بنائها ، وقواعدها وتاريخها » [١] .

" The study of language in general and of particular languages, their structure, grammar, and history " .

وهناك تعريفات أخرى مثل : اللغة « نظام يشترك فيه الناس عن طريق الاتصال الرمزي » . أو « كل ما يمكن قبوله وإخضاعه للقواعد، وهي (أي اللغة) عبارات مبنية بناءً حسناً [٢] . أو أنها « فن التفكير النظري في معناه الحقيقي من حيث أنها تمثل التعبير الخارجي عنه» [٣] أو أنها ذلك « النسق من العلامات، والعلامات دعامة ضرورية للفكر، فالفكر هو الذي يتخاطب به المجتمع (مرحلة الاتصال) وكذلك الذي هو بسبيله إلى مخاطبة المجتمع (مرحلة الصياغة والتكوين) فإن نسق العلامات الأكثر شيوعاً هو اللغة بالمعنى الدقيق للكلمة ، بينما يميل الفكر الباطني وبخاصة حين يكون فكراً ابداعياً إلى استخدام أنساق أخرى من العلامات تكون أكثر مرونة وأقل خضوعاً للقواعد من اللغة، بحيث تتيح قدراً أكبر من الحرية والديناميكية للفكر المبدع » [٤] كما يقول عالم اللغة الشهير رومان جاكوبسون Roman Jakobson (١٨٨٤ - ١٩٣٣) .

بينما يذهب ادوارد سابير Edward Sapir في كتابه « مقدمة لدراسة الكلام» An introduction to the study of speech إلى أن اللغة هي وسيلة إنسانية خالصة غير غريزية non - instinctive لتوصيل الأفكار والعواطف،

---

(1) Longman Dictionary of contemporary English, Addison Wesley longman limited, Essex, Third Edition 1995 , (First published 1978), p. 830 .

(2) Ashcraft, Mark H., Human Memory and Cognition, p. 364 .

(3) Hegel, F., Philosophy of History, trans. J. L. Homes, Wiley and Sons, 1973, p. 291 .

(4) Koestler. Arthur, Act of creation, Pan Books. London, 1964, pp. 173 - 174.

عن : د. مها معاذ ، أنثروبولوجيا اللغة، في كتاب : المدخل إلى علم الإنسان ، مركز سروات للأبحاث، الإسكندرية ، ٩٧ - ١٩٩٨، ص٢١٩ .

والرغبات بواسطة نص من الرموز التى تم اختيارها مسبقاً . أو أنها «نسق بنائي structural system » من الأصوات المعرفية المنطوقة يستخدمها الإنسان في بيئته الإنسانية . ويتفق معه عالم اللغة ماريو بابيه Mario Pei في أنها مجموعة من الكلمات ، تؤلف جملاً ذات معنى، ترمز لفكرة ، فاللغة هي محتوى الرموز الذي يحمل أفكارنا وتصوراتنا (١) .

ثانياً : مجالات الدراسات اللغوية

علمنا مما سبق أن علم اللغة Linguistics هو العلم الذي يقوم على دراسة اللغة دراسة علمية . فضلاً عن وصف اللغة في جميع مظاهرها، كما يضع النظريات التي تحدد الطريقة التي تعمل بها، من حيث أن اللغة وظيفة إنسانية تخضع لأنساق يضعها الإنسان كفرد والجماعة كمجتمع مما جعلها تتشعب وفقاً لما قدّر لها أن تتشعب .

وقد تشعب البحث حول اللغة فاهتم المفكرون على اختلاف اتجاهاتهم بدراستها من حيث طبيعة اللغة ذاتها ، وطبيعة الدراسات اللغوية والمناهج التي يمكن اتباعها، وامتدت الدراسات الى القاء الضوء على طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، وأيهما أسبق في الوجود ، وعلاقة التفكير بالكلمات المنطوقة والكلمات المرسومة (المكتوبة) . ونظر بعضهم إلى اللغة نظرة أقرب إلى العلوم الطبيعية ، فاعتبرها العالم اللغوى أوجست شلاشر August Schleicher كائناً عضوياً واعتبر أن علم اللغة ذاته علماً بيولوجياً (١) .

من هنا كثرت مجالات علم اللغة بكثرة علمائها وفلاسفتها ، فأصبحت هناك مجالات شتى منها (٣) :

١- علم اللغة الوصفي .

٢- النظام الصرفي .

٣- النظام النحوي والمعجم .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) د. أحمد أبو زيد ، الفكر واللغة ، في : عالم الفكر ، مرجع سابق ، ص٤ .

(٣) د. فاطمة محجوب ، دراسات في علم اللغة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص هـ .

٤- علم اللغة الرياضي .

٥- علم اللغة الأنثروبولوجى (علم الأجناس البشرية) .

٦- علم اللغة النفسي .

٧- علم اللغة الإثنولوجي .

٨- علم اللغة البيولوجي .

٩- علم اللغة الاجتماعي .

١٠- علم اللغة التاريخي .

١١- علم اللغة المقارن .

أما مجالات تطبيق علم اللغة فهي :

١- عيوب الكلام والترجمة .

٢- علم اللهجات (Dialectology) .

٣- علم المعاني ، أو الدلالة (السيمانتيك) (Semantic) .

٤- علم الخط .

- تعليم اللغات .

٦- علم اللغة التقابلي .

٧- تحليل الأخطاء .

٨- علم الأصوات (الفونيتيك) (Phonetics) .

٩- علم النحو ، الإعراب ، السينتاكس (Syntax) .

١٠- علم البنية (المورفولوجيا) (Morphology) .

١١- علم المفردات (Lexicology) .

ومن هنا أيضاً كثرت العلوم ذات الصلة بعلم اللغة فنذكر منها :

١- علم النفس Psychology .

٢- علم الاجتماع Sociology .

٣- المنطق Logic .

٤- الأنثروبولوجيا Anthropology .

٥- اللغات وهندسة الاتصالات Languages and communication .

٦- الآداب والفلسفة Arts and philosophy .

٧- علم الحركة الجسمية أو علم « الكينات » (*) Kinesics .

٨- علم الأصوات الكلامية Phonology .

٩- علم الوحدات الكلامية Morphemics .

وسوف أتناول هنا صلة اللغة ببعض العلوم كأمثلة على مدى الارتباط بينهم، وكأمثلة لمجالات تمارس اللغة فيها دوراً مهماً وخطيراً .

١- اللغة والمنطق

إذا كان الفكر هو المضمون فإن اللغة هي القالب الذي ينصب فيه الفكر، فالعلاقة بينهما علاقة تبادلية جدلية لذلك يقال أنهما كوجهي العملة الواحدة لا غنى لوجه عن الآخر. وقد نشأت العلاقة بين اللغة والمنطق من باب صون الفكر من الزلل فكان لابد من وجود علاقة ما بينهما ، ومادام المنطق يعنى بضبط قواعد الفكر فلابد من دراسة وسائل التعبير عن هذا الفكر ، ومن هنا كانت عنايته بالحدود المنطقية والأحكام والقضايا هي في ذات الآن عناية بألفاظ اللغة وتراكيبها . ولما كان علم النحو هو العلم الذي تنصب دراساته على ضبط قواعد اللغة، فثمة مواجهة بينه وبين المنطق الذي يعنى بضبط قواعد الفكر، ولذلك لا نعجب حين نقرأ ما أورده «أبو حيان التوحيدي» في «المقابسات» من « أن النحو منطق لغوي ، والمنطق نحو عقلي » (١) .

ولقد استفاد أرسطو من علم المنطق الجدلي السوفسطائي في يقينه أن المنطق وثيق الصلة باللغة اليونانية فوضع التقسيم المنطقي في التصورات والتصديقات متناظراً مع التقسيم اللغوي إلى مفردات وجمل ، كما جاءت

(*) هو علم يحلل الحركة الجسمية تحليلاً علمياً وفقاً للأنموذج الذي يتبعه علم اللغة في تحليل اللغة. وقد ابتدع هذا العلم عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي « رى بردويسل .Roy L Birdwhistell » .

انظر : Miller, G. A., Language and Communication, McGraw Hill, New York, 1946.

(١) د. محمد فتحي الشنيطي، أسس المنطق والمنهج العلمي ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠، ص٣٢.

المقولات الأرسطية مشابهة للتقسيمات اللغوية ، ليس عند أرسطو فحسب بل كذلك عند الرواقيين الذين تصوروا أن الجدل لابد له من مبحثين متكاملين لا غنى لأحدهما عن الآخر : المبحث اللغوي الخاص بالتعبير ، والمبحث الفكرى الخاص بالمضمون العقلي المعبر عنه [1] .

وهاجم مفكرو الإسلام منطق أرسطو لأنه يستند إلى اللغة اليونانية ولا يصلح بغيرها . وأن مقومات اللغة العربية تختلف اختلافاً بيّناً في مقوماتها وخصائصها عن اللغة اليونانية لذلك فليس من الطبيعي تطبيق المنطق على اللغة العربية . ودعا المهاجمون ومن بينهم الإمام الشافعي وابن تيمية إلى منطق يتفق مع أصول اللغة العربية ومقوماتها وخصائصها.

« وبدأت العناية بالبحث في الصلة بين النحو والمنطق جلية في القرن الثالث الهجرى بعد أن صاحبت نشأة النحو حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة ترجمة كتب المنطق إلى العربية، بحيث يمكن القول بأنه ثمة تأثيراً للمنطق في مباحث الخليل وسيبويه في النحو » [2] .

واتسعت دراسة العلاقة بين اللغة والمنطق في أوائل القرن العشرين بفضل أصحاب الاتجاه التحليلي چورچ إدوارد مور (١٨٧٣-١٩٥٨) George Edward Moore وبرتراند رسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠) Bertrand Russell ولودفيج ڤتجنشتين (١٨٨٩ - ١٩٥١) Ludwig Wittgenstein وأصحاب الوضعية المنطقية والمنطقي الرياضي چورچ بول ورامزي وغيرهم حيث نادوا جميعاً بأهمية اعطاء لغة الفلسفة نوعاً من الوضوح والدقة حيث تنشأ أغلب إشكاليات الفلسفة من سوء فهم منطق اللغة [3] .

---

(١) نفس المرجع السابق، ص٣٣ .
وأيضاً : د. عثمان أمين، الفلسفة الرواقية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، الطبعة الثالثة، ١٩٧١ ، الفصل الثاني .

(٢) نفس المرجع ، ص٣٤ .

(٣) د. عزمي إسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات ، الكويت، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠، ص٢٣٥ .
وأيضاً : Ayer, A.J., The Genesis of Metaphysics, in : philosophy and Analysis, by : M. Macdonald, p. 23 .

واعتمد جورج مور في تحليل إشكاليات الفلسفة (وخاصة الأخلاق) على استخدام اللغة العادية وهي اللغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية التي تعبر تعبيراً صادقاً عن التصورات والمفاهيم التي يمكننا التوصل إليها عن طريق الفهم المشترك . ويفرق مور بين الكلمات أو الألفاظ وبين المفاهيم أو التصورات، وكذلك بين الجمل والعبارات اللغوية ، وبين القضايا ، وهو يقصر التحليل على توضيح وتعريف التصورات والمفاهيم والقضايا، دون الألفاظ والعبارات [1] .

وكذلك فعل فلاسفة الوضعية المنطقية فقد أدركوا زيف الإشكاليات الفلسفية التي تنشأ بسبب سوء استعمال « الفلاسفة للألفاظ والعبارات ، فهم يستخدمونها على نحو يختلف عما اتفق الناس عليه فيما بينهم – اتفاقاً مفهوماً بالعرف – على استخدام الرموز اللغوية بطريقة معينة . فاستخدمها الفلاسفة على نحو مختلف، نشأ عنه عبارات ليست بذات معنى مفهوم ... مجرد لغو، وذهب فتجنشتين إلى القول : « معظم ما كتب من قضايا وما سئل من تساؤلات عن الموضوعات الفلسفية ، ليس باطلاً فحسب ، بل خالياً من المعنى؛ فلسنا نستطيع أن نجيب عن هذه التساؤلات إطلاقاً، وكل ما نستطيعه حيالها هو أن نقرر خلوها من المعنى؛ إن معظم تساؤلات الفلاسفة وقضاياهم ناتجة عن عدم فهمنا لمنطق لغتنا ... فلا عجب إذاً أن تكون أعمق إشكالياتهم ليست بإشكاليات » [2].

وأخذ رسل موقف مور ورأى أن مهمة الفلسفة هي التحليل الذي يفحص الأفكار ويوضحها، واهتم بمسألة اللغة وعلاقتها بالمنطق، ورأى أن اللغة تضللنا بألفاظها وتراكيبها ، ولهذا ينبغي أن نحذر منها، ونادى بوجوب التمايز بين الشكل النظمي Syntactical form للجملة . وبين الشكل المنطقي لها : لأن الأول لا يناظر الثاني ... وتوصل في النهاية إلى وجود ثلاثة أنواع من القضايا : القضية الصادقة، والقضية الكاذبة، والقضية الخالية من المعنى [3] .

---

(١) نفس المرجع السابق، ص٢٤٥ .

(٢) د. زكى نجيب محمود ، موقف من الميتافيزيقا ، دار الشروق، القاهرة ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧، ص٤ .

وأيضاً : . Wittgenstein, L., Tractatus logico - philosophicus, pp. 3 - 4

(٣) د. عبد الرحمن بدوي، اللغة والمنطق في الدراسات الحالية، في عالم المعرفة، مرجع سبق ذكره، ص٦٨ .

وفلسفة المنطق عند رسل تسمى فلسفة الذرية المنطقية ، وقد حاول أن يجعل فلسفته نمطاً يختلف عن الفلسفة الكلاسيكية من ناحية، ومذهب التطور من ناحية أخرى. وسميت فلسفته « بالذرية » لأنها تنظر إلى العالم باعتباره مؤلفاً من كثرة من الأشياء منفصلة ، ولا تعد الكثرة الظاهرة في العالم مظاهر وتقسيمات غير حقيقية لحقيقة واحدة لا تقبل الانقسام . وهي « منطقية » لأن الذرات التي أريد التوصل إليها هي في التحليل النهائي ذرات منطقية، وليست ذرات فيزيقية... أي أن الذرة التي يريد التوصل إليها هي ذرة التحليل المنطقي لا ذرة التحليل الفيزيقي [1] .

ومن بين فلاسفة العصر الحديث الذين اهتموا باللغة وعلاقتها بالمنطق الفيلسوف الألماني جوتفريد ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) الذي قال : « إن اللغات هي أصدق مرآة للعقل الإنساني ، وإن التحليل الدقيق لمعاني الكلمات يمكننا -خيراً من أي شيء آخر- من فهم عمليات العقل » [2] . إلا أن أحداً من الفلاسفة لم يهتم بذلك، بل وجهوا اهتماماتهم نحو صلة اللغة بالفكر، واهتموا أكثر بالجانب المادي الفزيولوجي من اللغة، وهو علم الصوتيات Phonetics ، كما اهتموا بالجزئيات الغريبة وغير المنطقية عندما درسوا علم المعاني Semantic وهو الجانب الفكري أو المعنوي من اللغويات [3] .

وتوصل الفيلسوف الراحل عبد الرحمن بدوي إلى نتائج نذكرها باختصار فيما يأتي [4] :

أ- إن اللغة لا تخضع دائماً لمبادىء الفكر وإن كانت هي أداته سواء عن عمد أم عن غير وعي .

---

(١) د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، دار المعارف ، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦، (الطبعة الأولى ١٩٧٧) ، ص ص٢٢٤ - ٢٢٥ .

عن: Russell, Bertrand, Our Knowledge of External World, George Allen and Unwin, London 2nd Ed., 1926, p. 179.

(٢) د. عبد الرحمن بدوي ، اللغة والمنطق في الدراسات الحالية، ص٨٠ .

عن: Leibniz, Nouveaux Essais, III, VII

(٣) المرجع نفسه، ص٨١ .

(٤) المرجع نفسه، ص٩٠ .

ب- لم تنجح المحاولات التي حاولها اللغويون لتعليل التراكيب والقواعد اللغوية والنحوية بطريقة عقلية ، فلابد من افساح المجال للمنقول الجماعي غير الواعي ، إلى جانب القياس العقلي والتطبيق المنطقي .

جـ- لابد من التفرقة بين اللغة العادية واللغة العلمية، فالأولى طبيعية لا تحكمها قواعد العقل، والثانية صناعية أو اصطناعية تلتزم بمبادىء المنطق .

د- إذا أردنا إنشاء لغة مثالية فلابد من مبدأين : مبدأ التواطؤ (العلامة الواحدة للمعنى الواحد) ومبدأ القلب (كل اشتقاق للمعنى يجب أن يقابله اشتقاق للشكل)، ولكن هذه المحاولة لم تنلح .

هـ- إن قيمة اللغة في قدرتها على التعبير الدقيق عن المعاني والأفكار ، وليس في كثرة مترادفاتها، فاللغة أداة، والأداة ينبغي ألا تتحول إلى غاية، ولا أن تتعارض مع الفكر أو المنطق .

٢- اللغة وعلم النفس

ينبثق فرع من علم نفس المعرفة Cognitive psychology يسمى بعلم نفس اللغة أو علم اللغة النفسى Psycholinguistics وهو عبارة عن فرع من العلم تختلط فيه دراسات علم النفس المختلفة والخاصة بالعمليات الذهنية / العقلية mental processes وتركيباتها مع الدراسات اللغوية . ويحدد عالم النفس اللغوي العمليات الذهنيـة والتركيبات اللغوية مع مـا يناسبها من قدراتنا لإنتاج لغة مفهومة [1] .

ويوجه معظم الناس جل اهتماماتهم نحو لغة الحياة اليومية على الرغم من أنها مجرد أداة a tool يتم بها وعن طريقها الاتصال مع الآخرين. ولهذا فلا يوجد مبرر للتركيز عليها في معظم الدراسات التى يقوم بها الدارسون ، وأكثر من ذلك فإن اللغة هي مجرد جزء من حياتنا اليومية وجزء من مهاراتنا التي نمتلكها .

وهناك متعة في دراسة علم نفس اللغة وهي أننا نكسب احترام وإعجاب

---

(1) Howard, Darline V., Cognitive Psychology, Macmillian Publishing Co., Inc., New York, 1983, p. 264.

جديدين للقدرات اللغوية التي نتشارك فيها جميعاً ... يميز الإنسان على الحيوان هو قدرته على استخدام اللغة . وقد قامت المجتمعات البشرية لوجود هذه القدرة عند الإنسان. ورأينا أن اللغة من أهم سبل الاتصال الذي يستخدمها في التفاعل مع غيره من بني جنسه ومشاركتهم خبراتهم. وقد أدت مشاركة الغير في خبراتهم والتفاهم معهم باستخدام اللغة إلى قيام المجتمعات ، لكل مجتمع ثقافته التي تميزه عن غيره » [1] . ولكن لماذا يغزو علم النفس مجال اللغويات ؟

لقد غزا علم النفس وعلماؤه مجال اللغويات لسببين [2] :

أ- اهتمام اللغويون بتحديد طبيعة اللغة تحديداً دقيقاً خاصة فيما يتعلق بالمفاهيم والنظريات التي أصبحت هي ذاتها أدوات علماء نفس اللغة الذين كانوا يبحثون عن وسيلة تمكّن الناس من استخدام اللغة.

ب- أعطى اللغويون قوة دافعة لقيام الثورة المعرفية في علم النفس، فقد بينت دراسات تشومسكي اللغوية لعلماء النفس عدم كفاءة نظريات علم النفس السلوكي التقليدي، مما دفعهم إلى دراسة كيفية اكتساب الأطفال اللغة .

تذكر الدراسات أن مدارس علم النفس المعاصرة المختلفة فشلت في بيان كيفية اكتساب الأطفال لغة خاصة لغتهم القومية أو اللغة الأم . فقد ركزت مدرسة الجشطلت على نمو إدراكات الطفل في مرحلة ما قبل اللغة . بينما ركزت النظرية الإرتباطية التي قال بها هولت على المنعكس الدائري في المناغاة ، وأثبت كل من دولار وميللر في كتابهما التعلم الاجتماعى والتقليد فسادها [3] .

واستطاعت نظرية بافلوف وواطسون عن اكتساب اللغة تقديم أنواعاً من نظريات التدعيم وأن تحل محل النظريات السابقة ، وتذهب نظريتهما إلى أن

---

(١) د. سعد جلال ، علم النفس الاجتماعي ، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٣٩٢هـ - مايو ١٩٧٢م. ص ص٢٧٢ - ٢٧٣ .

(2) Op. Cit., p. 255 .

(3) Millar, Neal & Dollar, John, social learning and imitation, New York, Appleton Century crofts, 1957 .

عن : د. سيد محمد غنيم، اللغة والفكر عند الطفل، ص٩٨ .

الطفل يميل إلى تعلم الإستجابة التى تدعم ، سواء كان التدعيم عن طريق الثواب المباشر الذي يؤدي إلى خفض حدة التوتر، أم كان عن طريق بعض الأدلة الثانوية غير المباشرة للثواب النهائى. أما الإستجابات التي لا تدعم فتميل إلى الإنطفاء والإختفاء (*) من حصيلة إستجابات الطفل. والإستجابات المتضمنة في هذه الأحداث قد تكون إستجابات لمثيرات خارجية أو قد تكون إستجابات أدائية (كالمناغاة) تستثار داخلياً إلى حد ما (١) .

ودارت معظم مناهج الدراسات اللغوية التي تبحث في كيفية اكتساب الطفل للغة حول اكتسابه المفردات الغوية منذ ظهور الكلمة الأولى لديه إلى أن يصل عامه الرابع أو الخامس ، حتى يصبح محصوله اللغوي من الكثرة بحيث يتعذر على الباحث القيام بملاحظته أو تتبعه (٢) .

ويرجع الفضل إلى عالم النفس الأمريكي ليونارد بلومفيلد Leonard Blomfield (١٨٨٧ - ١٩٤٩) في إبراز العلاقة بين اللغة والسلوك الإنساني وذلك في مؤلفه « اللغة » (١٩٣١) حيث بيّن أن الكلام ، أو الحدث الكلامي -كما يسميه البعض- تسبقه دائماً أحداث عملية ، وتلحق به نتائج مترتبة عليه أيضاً .

وعرفت الدراسات التي قام بها بلومفيلد في مجال اللغة باسم «النزعة التوزيعية » distributionalism ، وغطى في دراساته معظم مجالات البحث اللغوي بما فيها تصنيف اللغات، وجغرافية اللهجات ، واللغويات التاريخية،

(*) وتذكرنا هذه النظرية بنظرية المثير والإستجابة لبافلوف التي طبقها على الكلب ، فكان يقدم له الطعام مصحوباً بصوت الجرس فيسيل لعاب الكلب لعدة مرات ثم كان يعطيه صوت الجرس ولا يصحبه طعاماً فيسيل اللعاب عدة مرات وعندما تتكرر يختفي سيل اللعاب لأن الإستجابة فقدت ما يثيرها (المثير) .

(١) د. سيد محمد غنيم، اللغة والفكر عند الطفل، ص ص٩٨ - ٩٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٩٩ .

وانظر أيضاً :

Mc Carthy, Dorothea, Language development in children, in : L. carmichael (ed.), Manual of child Psychology, New York, Wiley, 1965.

واقترح وضع مبادىء منهجية لتطبيقها على عملية تحليل اللغات، ونادى باستخدام اللغة الوصفية (سانكرونية synchronic) دقيقة تقتصر على « وصف » اللغة [١] .

ونظراً لتأثر بلومفيلد بآراء المدرسة السلوكية الأمريكية في علم النفس فقد رأى أن اللغة مجرد سلوك بشري شبيه بماعداه من أصناف السلوك الأخرى. وأن النشاط الكلامي/ الصوتي الذي يقوم بين شخصين يتحدثان معاً إنما هو نوع من « المؤثر والإستجابة » [٢] .

إذاً يمكننا القول بأن بلومفيلد أراد أن يطور اللغات البنيوية بإقامة « لغات وصفية » (لسانيات وصفية)، أو كما يقال لغات تصنيفية Taxonomique/ Toxonomic تستند إلى مناهج توزيعية، وبذلك يكمل بلومفيلد ما بدأه سوسير الذي وضع أسس البنوية الوصفية كما سيرد شرحه في الفصل الثالث، مبحث ٧ .

أما سكينر Skinner (١٩٠٤ -) فقد عرض هذه النظرية عرضاً واضحاً لا لبس فيه في كتابه « السلوك اللفظي (١٩٥٧) » verbal behavior ، أوضح فيه أن إستجابات اللغة اللفظية إنما تكون نتيجة لمثيرات معينة، وعنى بالتحليل الوظيفي للسلوك اللفظي أي تحديد المتغيرات التي تضبط هذا السلوك، ووصف لنا كيفية تفاعلها بغرض تحديد الإستجابات اللفظية والتنبؤ بها، وتوصيف هذه المتغيرات وطبيعة تفاعلهما معاً من خلال المفاهيم السلوكية في علم النفس مثل: المثير والإستجابة والتعزيز وغيرها [٣] .

---

(١) د. زكريا إبراهيم ، مشكلة البنية (سلسلة مشكلات فلسفية ٨)، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٧٦م، ص٥٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٥٤.

(٣) د. رمضان بسطاويسي محمد ، علم اللغة النفسي ، في : المجلة العربية ، العدد ٢٢٢ لسنة ٢٠ ، الرياض رجب ١٤١٦هـ- ديسمبر ١٩٩٥ ، ص٥٤.
أيضاً :

Katz, Jerrald, J., Linguistic Philosophy, George Allen and Unwin, London, 1972.

أيضاً : د. رمضان محمد القذافي ، علم النفس العام، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٩٨٣ ، ص ص٩٦ - ١٠٧ .

وتتضمن دراسة اللغة من زاوية علم النفس عمليات الفهم والاستخدام واكتساب اللغة إلى جانب تراكيب الذاكرة التي يجري اختزان اللغة فيها، ولابد لفهم اللغة - على سبيل المثال - من توافر حساسية الذاكرة تجاه المعاني والوظائف النحوية، للكلمات والعمليات الإعرابية التي تحدد فرادى ومجتمعة المعنى الكلي الإجمالي لهذه الجملة أو تلك... وبالتالي فإن مجموعة الأفكار الناجمة عن قراءة مادة لغوية يمكن أن تضاف إلى الذاكرة الذكرياتية أو الذاكرة ذات المعنى أو لكليهما. وفي كل الظروف والأحوال ، فإن التذكرات الناجمة عن مدخلات لغوية بخصوص حدث ما يمكن أن تكون ذات تأثير وفعالية تعادل تأثير وفعالية ملاحظة ذلك الحدث في مجال الواقع ، [١] .

وقد تناولت نشأة دراسة اللغة كأداة للاتصال في علم النفس عدة فروع داخل علم النفس اللغوي أو علم اللغة النفسي ، وهذه الفروع هي [٢] :

أ- علم اللغويات البحت ويتناول تكوين الرسائل أو بنياناتها، والإشارات الموجودة في القناة التي تربط بين من يقومون بعملية الاتصال. وذلك كأحداث مستقلة دون التعرض لخصائص المستمع أو المتحدث . فإذا ما تمت صياغة الرسالة في شفرة لغوية وأصبحت ، على الهواء ، كما يقولون . فإنهم يقومون بوصفها كظاهرة علمية طبيعية موضوعياً. وإذا حاولنا التخصيص فإن عالم اللغة يقوم بتحديد شفرة أي نسق من أنساق الإشارات ، والخصائص التي تميز بين رسالة وأخرى Microlinguistics .

---

(١) د. إبراهيم قشقوش ، مدخل لدراسة علم النفس المعرفي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص٤٩ .

(٢) د. سعد جلال، علم النفس الاجتماعي ، ص ص٢٧٣ - ٢٧٥ .
أيضاً :

Osgood, C. E., & Sebeok, T. A., Psycholinguistics A survey of theory and research problems, supplement to the journal of abnormal & social psychology, 49, No. 4, Part2, New York, 1954.

ب- وهناك فئة من علماء اللغة يهتمون بمظاهر اللغة التي تتعلق بالعلاقات بين خصائص الرسائل وخصائص الأفراد الذين تصدر عنهم هذه الرسائل وخصائص مستقبليها بما في ذلك ثقافاتهم وسلوكهم . ويدخل في ذلك ما إذا كانت التركيبات النحوية للغة تؤثر أو لا تؤثر على تفكير من يتحدثون هذه اللغة Exolinguistics .

جـ- أما العلوم الاجتماعية عامة كعلم النفس وعلم الاجتماع وخاصة علم الأنثروبولوجيا فتهتم بخصائص الكائنات البشرية والمجتمعات التي تؤثر في اختيار الرسائل وتفسيرها مثل الاتجاهات النفسية، والمعاني ، والأدوار الاجتماعية، والقيم وما إلى ذلك .

د- وهناك فرع جديد هو علم النفس اللغوي Psycholinguistics ويهتم -بالمعنى الواسع - بالعلاقة بين الرسائل وخصائص الآدميين الذين يختارونها ويفسرونها . أما بالمعنى الضيق فإن علم النفس اللغوي يقوم بدراسة تلك العمليات التي تتحول فيها مقاصد المتحدث إلى إشارات تحولت إلى شفرة مقبولة ثقافياً ، وتتحول فيها بالتالي هذه الإشارات إلى تفسيرات لدى المستمع . وبعبارة أخرى، يتناول علم النفس اللغوي عمليات التحويل إلى شفرة وعمليات حل الشفرة من ناحية صلة الرسائل بمن يتناولونها .

هـ- الدراسة النفسية للصوتيات وتهتم بحل الشفرة في الحديث حين تبدأ الذبذبات الصوتية تتحول إلى تيارات في أنسجة الأعصاب السمعية لتصل إلى اللحاء.

و- دراسة الاتصال البشري ، وينصب الاهتمام فيها بالعلاقة بين المصادر التى تختار الرسائل ومستقبليها الذين يقومون بتفسيرها ويتأثرون بها. ويتضمن هذا العلم بالمعنى الواسع كل أنواع الدراسات السابقة. والآن يهتم علماء دراسة الاتصال بمصادر الرسائل مثل الإذاعة المسموعة والمرئية والصحف ومستقبليها من الجماهير وأبناء الثقافات الأخرى وما إلى ذلك .

وتدور معظم الدراسات في مجال علم النفس اللغوي حول عملية الاتصال لما لها من أهمية في عملية التفاعل الاجتماعي وبناء الثقافة ومن ثم بناء

الحضارات. وحول عملية الاحساس وفيها يستقبل الإنسان الفرد إشاراته الحسية عن طريق الحواس الخمس المعروفة، ثم يقوم بفرز ما استقبله منها ويختزن بعضاً منها في الذاكرة حتى يتسنى له تنظيم إدراكاته بالعالم المحيط به، ويقوم باستدعاء المعلومات التي يريدها وقتما شاء فتأثير المعلومات تترى سواء من ذاكرة الخبرة، أو ذاكرة المفاهيم، أو ذاكرة اللغة ، وترتبط هذه الأنساق ببعضها البعض بطريقة لا يستطيعها إلا من خلقها. وتنشأ عن هذه الإشارات التي يستقبلها الإنسان عملية تفسير لما اختزنه من معلومات، وهذه العملية هي التي تقوم بإرساء البناء المعرفي.

« إذاً فمجال الدراسة النفسية للغة هو : كيفية تحويل المتحدث للإستجابة إلى رموز لغوية To encode وهذه عملية عقلية، ينتج عنها إصدار الجهاز الصوتي للغة. وعندما تصل اللغة إلى المخاطب أو المتلقي ، يقوم بترجمة وتحويل هذه الرموز اللغوية في ذهنه إلى المعنى المراد To decode وبهذا تتم عملية عقلية أخرى » [1] .

والغرض من هذه العملية تحويل المعلومات ، فالإشارات التي يستقبلها الإنسان هي في الواقع أنواع من الشفرة، فإذا وصلته فإنه يريد تحويلها إلى الآخرين، ويتم ذلك عن طريق تحويل الإشارات التي هي شفرة لغوية وغير لغوية إلى كلمات ذات معنى أو إيحاءات جسمية حتى نتعارف فيما بيننا ، وتزداد معارفنا ونخفف ما بداخلنا من توتر [2] .

ويلخص وودورث Woodworth عمليتيّ التفكير والكلام في كتابه التقليدي «علم النفس التجريبي» بقوله :

« إننا كثيراً ما نحتاج إلى الابتعاد عن الكلام حتى نستطيع التفكير بوضوح. بل وكثيراً ما كان العلماء يقولون إنهم لكي يتمكنوا من الابتكار والابداع كان

---

(١) د. نوال محمد عطية، علم النفس اللغوي ، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥، ص٢٣ .

(٢) د. سعد جلال، علم النفس الاجتماعي، ص ص٢٦٤ - ٢٦٥ .

وانظر كذلك للمؤلف، إشكالية المعرفة عبر العصور ، الجزء الثاني، الفصل الخاص بعلم نفس المعرفة.

يتحتم عليهم من حين لآخر أن يرتدّوا من الكلمة إلى الصورة. ومن الرمزية اللفظية إلى الرمزية البصرية Visual symbolism التي تعتبر وسيلة للتفكير أقدم بكثير من التفكير اللفظي أو الكلامي، على ما يقول كيسلر. فالإشارات والعلامات والرموز البصرية هي على ما يقول رومان جاكوبسون Roman Jakobson سند قوي للتفكير . واللغة بمعناها الدقيق هي أهم نسق من العلامات يساعد التفكير في عملية الاتصال بوجه خاص. إلا أن التفكير الباطني أو الداخلي وبخاصة التفكير المبدع، يستخدم أنساقاً ونظماً أخرى من العلامات تتميز بأنها أكثر مرونة من اللغة وأقل منها خضوعاً للمعايير والمقاييس، كما أنها أكثر قابلية للتطويع بالنسبة للتفكير المبدع؛ لأنها تتيح مجالاً أوسع وأفسح للحركة [1] .

٢- اللغة وعلم الاجتماع

تجاذبت العلوم المختلفة علم اللغة كما تجاذبت من قبل بقية العلوم ، فقد اختلفت العلوم فيما بينها على نسب ال[illegible]ق وهل هو علم يتبع الفلسفة أم يتبع علم النفس أم يتبع علم الاجتماع أم تشترك فيه جميعها ، أم هو علم مستقل ، وهل هو في الأصل علم أم فن ؟ وهكذا ... فكل علم يرى في نفسه الأصل في رد بقية العلوم -- خاصة الإنسانية -- إليه ... وقد رأينا وسنرى أن اللغة تتجاذبها أطراف عديدة منها الفلسفة والفلاسفة، ومنها أصحاب الدراسات اللغوية مثل اللغة العربية، وعلم النفس الذي يرى أنه يعالج العمليات العقلية مناط استخدام اللغة ومحط التفكير، وعلم الاجتماع الذي يرى أن البنية الاجتماعية هي التي تعطي وتمنع فهي أولى برد اللغة إليها .

ويرى أصحاب علم الاجتماع بأن اللغة ظاهرة اجتماعية وأن للغة دور مهم في المجتمع تعتمد على مقدار التفاعل وحجم الصلات بين الإنسان وبيئته على اعتبار أن اللغة ضرورة اجتماعية فهي الصفة الأساسية التي تميز الإنسان ككائن بشري عن غيره من المخلوقات . فالإنسان عندما يولد طفلاً يكتسب كل شيء

---

(١) د. أحمد أبو زيد ، الفكر واللغة، ص٨ .

عن : Koestler, A., Act of creation, pp. 172 - 173 .

من بيئته الاجتماعية كالكلام والمواضعات الاجتماعية والتعلم وغيرها «وعلى الرغم من أن اللغة تستلزم وجود نظام داخلي (عقلي) يسمح للفرد بتصور الأشياء والتفكير فيها فإن ذلك يتم بطريقة طبيعية وتدريجية بحيث يسير التطور في هذا المجال موازياً للنمو الجسمي » [١] .

ويعارض علماء الوراثة علماء الاجتماع في هذا الشأن ويرون أن اللغة صفة وراثية مثلها مثل المشى ، فالإنسان يمشي طالما زوّد بالعضلات والأعصاب اللازمة لممارسة عملية المشي دون الحاجة إلى البيئة الاجتماعية ويؤكد إدوارد سابير هذه الحقيقة بقوله : « إن الكائن الحي مخلوق للمشي لا بسبب المحيطين به ولكن لأنه مزود بالأدوات التي تساعده على ذلك منذ البداية، ولذا يمكن القول بأن المشي هو صفة طبيعية وحيوية متوازنة ... » [٢] .

ويرى علماء الاجتماع أيضاً أن اللغة تعتبر حجر الزاوية في كل تراث اجتماعى وثقافي؛ لأنها الوسيلة الأولى للتخاطب والتفاهم وتبادل الآراء والاتفاق على أساليب العمل والتفكير ؛ وبدونها يتعذر الاجتماع الإنسانى . وقد إختصت الطبيعة الإنسان بالنطق واللغة لأنه يمتاز عن سائر الكائنات الحية بالتعبير عن الإحساسات التي تخالجه » [٣] .

والإنسان عندما يولد في جماعة فإنه يتعلم اللغة عن طريق « التقليد اللغوي» فيقلد والديه وإخوته وأقربائه وجيرانه وأصدقائه وغيرهم كثيرون ، واليوم وبعد انتشار وسائل الإذاعة المرئية أصبح يقلد ما يراه فيها من خير قليل وشر مستطير كثير. إذاً يبدأ الإنسان بالتقليد والمحاكاة الذاتية حتى يتعلم اللغة ومفرداتها ... وقد حباه الله تعالى القدرة على تعلم أكثر من لغة واحدة في وقت واحد أو متتابع... فهو استعداد فطري innate disposition حباه الله تعالى

---

(١) د. رمضان محمد القذافي، علم النفس العام، ص١٠٤ .

(٢) المرجع نفسه، نفس الموضع .

عن : Sapir, Edward, Language, Harvest books, London, 1921, p. 5 .

(٣) د. مصطفي الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه (المدخل إلى علم الاجتماع)، الكتاب الثانى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٦٢ .

للإنسان منذ أن كان يعيش في عالم المثل، أي في الجنة وهناك علمه الله تعالى كل شيء .

وللأسرة والمدرسة وغيرهما من الهيئات الاجتماعية الفضل في نقل التراث الاجتماعي عن طريق اللغة فهي « عربة الوعي الجمعي » و « مصب العقل الجمعي » Collective mind (*) : وهي وسيلة من وسائل الاتصالات اعتمد عليها المجتمع في نقل تراثه الثقافي والاجتماعي (١) .

واللغة في ظل الإطار الاجتماعي أو في علم اجتماع اللغة (علم اللغة الاجتماعي) Sociolinguistics تؤثر في حضارات الأمم ومظاهر ثقافاتها لأنها تتأثر بحضارة البيئة ونظمها وتقاليدها وعقائدها واتجاهاتها العقلية ودرجة ثقافتها وأحوال البيئة الجغرافية والمناخية والاجتماعية ، فكل ما يحدث في نواحي الحياة الاجتماعية يتردد صداه في اللغة باعتبار أنها أداة التعبير وعربة الوعي الاجتماعي ومرآة المجتمع والحضارة ، فضلاً عن كونها أصدق سجل يعبر عن تاريخ الأمم ، وهو تاريخ الحياة الاجتماعية . وكلما اتسعت حضارة الأمة، نهضت لغتها وتعددت فنونها وأشكالها ودقت مفرداتها وغير ذلك من مظاهر التقدم الاجتماعي (٢) .

إذاً هناك تأثيرات متبادلة بين اللغة والمجتمع، وبين اللغة والثقافة بكل ما تحتويه من عناصر ومقومات مثلما هي متبادلة بين اللغة والفكر ، فاللغة تؤلف عاملاً أساسياً مهماً في قيام الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من نظم وأنساق اجتماعية وسياسية واقتصادية وأنماط ثقافية ، وهو رأي تأثر به من ذهب إليه عندما نظر في تجمعات القردة العليا Apes والحشرات الاجتماعية كالنمل والنحل

(*) مصطلح العقل الجمعي هو مصطلح قال به إميل دوركايم الفيلسوف الفرنسي ويقصد به أن العقل الجماعي يؤثر في عقل الفرد فينصاع الفرد للجماعة ولا يعمل بعقله هو . ومن هنا فالوقائع الاجتماعية والعقل الجمعي يكتسبان قوة قهرية إلزامية تمكنها من فرض سيطرتها ونفوذها على الأفراد وإن كان ضد إرادتهم. (انظر : د. السيد عبد العاطي ، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٩٩، ص٢٥١ .

(١) المرجع نفسه ، ص١٦٣ .

(٢) المرجع نفسه ، نفس الموضع .

وغيرها، فاللغة في المجتمع – أي مجتمع – هي أداة للبحث والاتصال ، وهي مظهر أساسي من مظاهر السلوك الإنساني . وتكشف هي عن ذلك إذا نظرنا في تركيبها وبنائها وقواعدها ومفرداتها [1] .

وتستلزم التأثيرات المتبادلة بين اللغة والمجتمع نظام للاتصال في مواقف التفاعل الاجتماعي ويكمن إيجاز خصائص الاتصال الاجتماعي فيما يأتي [2] :

أ- يعنى الاتصال التفاهم وتبادل الرسائل بين طرفين يشتركان في علاقة اجتماعية دائمة أو مؤقتة ، فإذا حدث خلل في وسائل الاتصال تبعه خللاً في التفاهم يؤدي إلى فساد العلاقات الاجتماعية سواء أكانت بين اثنين أو أكثر .

ب- يعني الاتصال وجود قدرة لدى المتصلين فهما لابد أن يشتركا في نظام اجتماعي واحد، ولابد لهما من استخدام لغة مشتركة، وبينهما مدركات مشتركة، وإلا ما حدث التفاهم .

جـ- تتضمن أي رسالة معلومات لها مظاهرها الصريحة ومظاهرها الضمنية، كما يتضمن الاتصال عدداً من المعاني والمقاصد .

د- من خصائص شبكات الاتصال أنها مقيدة ومحددة فالمعلومات المستخدمة لابد أن تحقق هدفاً ما مقصوداً لذاته، ولابد من وجود متلقى لها منتبه لما يتلقاه من رسائل محددة.

هـ- يحدد الاتصال الاجتماعي هوية الآخرين .

و- تعتبر اللغة من أهم أشكال التفاعل الاجتماعي لاستمرار الهوية الثقافية .

ز- يمكن تمييز المستوى التعليمي والطبقة الاجتماعية للفرد عن طريق أسلوبه في التعبير. أى عن طريق اللغة، وينجح الاتصال كلما زاد التقارب في المستوى التعليمي والاجتماعي .

ح- تعتبر المعلومات المشتركة هي محور الاتصال القائم على أساس التبادل .

---

(١) د. أحمد أبو زيد ، الفكر واللغة، ص٥ .

(٢) د. سيد جلال، علم النفس الاجتماعي، ص ص٢٦٧ – ٢٧١ .

وانظر :

Darley, J., Bercheid, E., Increased liking as a result of the anticipation of personal contact : Human relations, New York, 1967, pp. 29 - 40.

وإذا كانت اللغة إحدى عناصر التراث الاجتماعي كما يرى الاجتماعيون ، إلا أن هناك عناصر أخرى مثل العادات (فردية واجتماعية) والعرف وهو عبارة عن طائفة من الأفكار والآراء والمعتقدات تنشأ في جماعة ما وفي جو الجماعة وتنعكس في نشاط الأفراد . بالإضافة إلى التقاليد التي هي مجموعة من قواعد السلوك والتراث الثقافي لها صلة باللغة من ناحية وبمظاهر الفنون والعلوم والمعارف والفلسفة والعقائد وغيرها من ناحية أخرى [1] .

٤- اللغة وعلم الإنسان

لما كانت اللغة تقوم بدور مهم وأساسي في حياة الأفراد كما في حياة المجتمعات . كان لابد لها أن تتسم بالمرونة واليسر والإمتلاء بالمعاني الدقيقة المختلفة كما يقول « فندريس » J. Vendryes في كتابه « اللغة » Language «ولولا اللغة لظل الفرد حبيس العزلة الاجتماعية ، غير عالم بكل ما يجري حوله من الأحداث الفردية والاجتماعية » [2] .

من هنا جاء اهتمام علماء الإنسان (الأنثروبولوجيا) والاجتماع والنفس ، والفلاسفة ، واللغويون بها . فالناس لا تعيش في عالم الحركة والنشاطات الاجتماعية المختلفة فقط ، ولكنهم يضطرون إلى استخدام اللغة بنظامها المركب ، وتراكيبها المعقدة لأنها أداة التعبير بين أفراد هذه المجتمعات ؛ ومن الوهم أن نتخيل إنساناً يتكيف داخل هذه المجتمعات بدون استخدام اللغة باعتبارها الأساس الفعلي لكل شيء ، « فالحياة داخل المجتمع بنيت إلى حد كبير على العادات اللغوية للجماعة » [3] .

---

(١) للمزيد انظر : د. مصطفي الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، ص ص١٦٧، ١٧٠ - ١٧٢ .

(٢) د. مها معاذ، أنثروبولوجيا اللغة، في كتاب : المدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، نخبة من الأساتذة ، مركز سروات للأبحاث ، الإسكندرية، ٩٧ - ١٩٩٨ . ص ص٢١١ - ٢١٢ .
وأيضاً : Vendryes, J., language : A linguistics introduction to history, New York, R. 4. D., First Ed., 1925, p. 321.

(٣) نفس المرجع ، ص٢١٣ .
عن : R..n, N., An Enquiry into its Meaning and Education, New York, 1957, p. 18 .

ولقد ذهب كبير الأنثروبولوجيون برنيسلاف مالينوفسكي Bronislaw Malinowski إلى أن اللغة ضرب من العمل وليست مجرد أداة عاكسة للفكر وذلك بسبب قدرة اللغة على توصيل الأفكار والتعبير عن الفكر حتى أصبحت حلقة خطيرة ومهمة - لا غنى عنها - للإنسان في سلسلة النشاط الإنساني المنظم ، كما أنها أصبحت تعتبر جزءاً أساسياً من السلوك الإنساني ، ولم ، يكن ذلك التغير الجذري في النظرة إلى اللغة راجعاً فقط إلى اعتبار اللغة هي وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع الذين يؤلفون ما يعرف باسم الجماعة الكلامية Community of speech ، بل وأيضاً - وهذا هو المهم - إلى أن اللغة تؤلف جزءاً مهماً في الثقافة، وأن فهمها يتطلب فهم الثقافة السائدة في المجتمع، تماماً مثلما يحتاج الأمر إلى دراسة اللغة لفهم الثقافة ككل » (١).

يتضح لنا من هذا النص ومن نصوص كثيرة غيره مدى ارتباط اللغة بكل من الفكر والثقافة، والعلاقة بين الفكر واللغة واضحة وضوح الشمس في نهار شهري يوليو وأغسطس، وأسوق هنا نصاً استعان به الدكتور سيد محمد غنيم في بحثه عن اللغة والفكر عند الطفل. وهو نص مأخوذ من كتاب الدكتور طه حسين - رحمه الله - في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » . يقول الدكتور عميد الأدب العربي ما نصه :

التفكير « هو الأداة الطبيعية التي نصطنعها في كل يوم ، بل في كل لحظة، ليفهم بعضنا بعضاً، وليعاون بعضنا بعضاً على تحقيق حاجاتنا العاجلة والآجلة، وعلى تحقيق منافعنا الخاصة والعامة، وعلى تحقيق مهمتنا الفردية والاجتماعية في الحياة - إن كانت لنا مهمة في الحياة (*) - . ونحن نصطنع هذه الأداة ليفهم بعضنا بعضاً ، كما قلنا، ولنفهم أنفسنا أيضاً . فنحن إنما نشعر بوجودنا

---

(١) د. أحمد أبو زيد، الفكر واللغة، ص٤ .

(*) أعتقد أنه لم يكن يخفي على الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي أن للإنسان مهمة في الحياة حتى وإن قصر فيها أو أهملها أو ضيعها، وأهم مهمات الإنسان في الحياة عبادة الله تعالى الواحد القهار « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، وعمارة الأرض بالسعي فيها ، وأن سعيه سوف يرى ، وذلك لكي يبلو الإنسان بالخير والشر حتى يمحص الناس ومن يستحق أن يسكن الجنة خالداً فيها، ومن يستحق أن يسكن جهنم خالداً فيها .

وبحاجاتنا المختلفة وعواطفنا المتباينة وميولنا المتناقضة حين نفكر. ومعنى ذلك أننا لا نفهم أنفسنا إلا بالتفكير، ونحن لا نفكر في الهواء. ولا نستطيع أن نعرض الأشياء على أنفسنا إلا مصورة في هذه الألفاظ التي نقدرها وندبرها في رؤوسنا، ونظهر منها للناس ما نريد، ونحتفظ منها لأنفسنا بما نريد. فنحن نفكر باللغة، ونحن لا نغلو إذا قلنا انها ليست أداة للتعامل والتعاون الاجتماعيين فحسب، وإنما هي أداة للتفكير والحس والشعور بالقياس إلى الأفراد من حيث هم أفراد أيضاً » [1] .

وقد ذهب أبو الفتح عثمان ابن جني، في كتابه « الخصائص » إلى نفس ما ذهب إليه الدكتور العميد، ورأى ابن جني أن علاقة الإنسان باللغة تتمثل في وعيه للعلاقة بين وجوده وتكامل بعده اللغوي، وأن الإنسان بنى لغته لسد الحاجة أولاً وهي حاجة فردية واجتماعية. كما ذهب أبو على مسكويه . إلى نفس ما ذهب إليه ابن جني؛ فالإنسان كان غير مكتف بنفسه في حياته، مما جعله يحتاج إلى استدعاء ضروراته في مدة بقائه على الأرض، وهذه المعاونات والضرورات المقتسمة بين الناس هي التي بها يصح بقاؤهم وتتم حياتهم، وتحسن معيشتهم ... [2] .

إذاً فلا غنى للتفكير عن اللغة، ولا للغة عن التفكير، فكلاهما رداء واحد، بل ويذهب آرثر كيسلر Ather Koestler إلى القول بأن التفكير ليس شيئاً سوى الحركات اللاشعورية للأحبال الصوتية وأنه نوع من الهمس غير المسموع الذي يدور بين المرء ونفسه [3] .

ومن ناحية أخرى ارتبطت اللغة بالثقافة culture والثقافة مجال يضم كل أنواع وألوان النشاط الإنساني - فردي وجماعي - سواء أكان النشاط مادياً

---

(١) د. سيد محمد غنيم، اللغة والفكر عند الطفل، ص١١٠ .

(٢) أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، الجزء الأول، تحقيق الشيخ محمد على النجار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٢، ص٦٧ .

وأيضاً : أبو حيان التوحيدي، وأبو على مسكويه، الهوامل والشوامل، نشر أحمد أمين والسيد أحمد صقر، القاهرة، ١٩٥١، ص ص٦-٧ .

في كتاب : المدخل إلى علم الإنسان، ص٢٢٥ .

(3) Koestler, A., Act of Creation, p. 609 .

(الثقافة المادية) أو معنوياً روحياً فكرياً (الثقافة الروحية) ، اللون الأول يضم كافة أنواع الأنشطة المادية : بينما يشمل اللون الثاني كافة أنواع المعارف، وكل أنواع وأشكال الوعي – فردي وجماعي – مثل الدين ، والفلسفة ، والعلم، والأخلاق، والقيم والحق والخير والجمال ، والفن وغيرها... وجميعها لابد وأن يعبر عنها باللغة باعتباره أهم وسائل الاتصال (١) .

« إن اللغة (وخاصة اللغة المكتوبة) هي الأداة الرئيسة للذاكرة الاجتماعية . ومن خلال وسائط اللغة لا تتجسد نتائج المعرفة العلمية وحدها، بل والجزء الأساسي من ثمار الثقافة الروحية كلها » (٢) .

وهذا ما أكده علماء الأنثروبولوجيا على اختلاف اتجاهاتهم وخاصة الأنثروبولوجيا الثقافية. كما أكد ذلك مالينوفسكي الذي رفض أن تكون اللغة مجرد أداة لنقل الأفكار بل تعدى ذلك إلى ربطها بالعمل ، العمل الفردى والجماعي. وخرج علينا بنظرية معروفة في أنثروبولوجيا اللغة تعرف بنظرية «سياق الموقف أو الحال» Context of situation ، وقد توصل إليها بعد دراسة جديرة بالإهتمام لمجتمع « التروبرياند» ، فقد صادف صعوبات جمة في العثور على مرادفات لفظية حرفية لتعبيرات كثيرة يستخدمها أهالي المنطقة ، ولم يجد لها تفسيراً أو دلالة إلا داخل إطار السياق الاجتماعي والثقافي الحقيقي الذي تنتسب إليه » (٣) .

نخلص مما تقدم إلى أن الحضارة الإنسانية برمتها – وإن كان الأنثروبولوجيون يفضلون تسمية الحضارة بالثقافة– وهي حصيلة النشاط البشري برمته، وتتمثل في إنتاج الإنسان المادي والروحي مما يجعل أهم خاصية تميز هذه الحضارة هي خاصية الإستمرار والقدرة على الانتقال من جيل لآخر. وهناك خاصية أخرى هي خاصية التراكم accumulation التي تميز أيضاً

---

(١) المعجم الفلسفي المختصر، ص ص١٥٥ – ١٥٦ .

(٢) نفس المرجع السابق، ص٢٩٧ .

(٣) د. مها معاذ، أنثروبولوجيا اللغة، ص٢٢٤ .

وأيضاً : د. عبده الراجحي ، اللغة وعلوم المجتمع ، مطبعة الإسكندرية ، كلية الآداب، ١٩٧٧، ص٢٦ .

الحضارة الإنسانية عن سائر أنواع الأنشطة عند جماعات حيوانية اتسمت حياتها بالغريزة المطلقة مثل النمل والنحل، أو بقدر من المعرفة استطاعت أنواع معينة من القردة العليا اكتسابها. ويتم هذا التواصل في الحضارة الإنسانية عن طريق اللغة والفكر ومرآتها العاكسة الثقافة أو الحضارة أو التراث الإنساني التي يتبين من خلال دراستها العلاقة الخارجية الواضحة بين مفردات اللغة ومحتوى الثقافة [1].

ومن بين الذين درسوا الحضارة الإنسانية في أطوارها الأولى « لوسيان ليفي برول » Levy Bruhl و « فرانز بواس » Franz Boas فقد درسا صلة اللغة البدائية بالأعداد والأرقام ، حيث درس الأول مختلف اللغات البدائية في المجتمعات الهندية وكيفية تصورها للأرقام ، بينما درس الثاني اللغات البدائية عند الاسكيمو، ومدى فهمهم الساذج البسيط لفكرة العدد [2] .

ورأى بواس أن يرد سطحية الاسكيمو في فهم فكرة العدد « إلى عدم وجود الموضوعات المتعددة القابلة للعد في تلك المجتمعات المغلقة المحدودة ، فإن من يملك قطيعاً من الحيوان يستطيع أن يتعرف عليها بأسمائها ومميزاتها الخاصة، دون ما حاجة إلى عدّها » [3] .

ولا يعني ذلك في رأي « بواس » أن هناك نقصاً في القدرة العقلية ، على عكس ما زعم « ليفي برول » بصدد المنطق واللغة والعدد أن العقلية البدائية «سابقة على التفكير المنطقي» . حيث أن اللغة في رأي « بواس » لا ينبغي أن تكون وسيلة للكشف عن الاختلافات العقلية بين سائر البشر. ولكن الاحتكاك الثقافي بين المجتمعات البدائية والأكثر حداثة وتطوراً ، ساعد على ادخال عناصر ساعدت أفراد المجتمع على تكوين صيغ عددية متقدمة ، كما ساعدت على ممارسة عمليات العدّ والحساب .

---

(١) د. أحمد أبو زيد، حضارة اللغة، في عالم الفكر، المجلد الثاني ، العدد الأول (سبق ذكره) ص ص٢٢ – ٢٤ .

(٢) د. قباري محمد إسماعيل ، علم الاجتماع والفلسفة ، الجزء الثاني (نظرية المعرفة) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٦ ، ص٦٣ .

(٣) نفس المرجع السابق، ص٦٥ .

ثالثاً : أنماط اللغـة

علمنا ما اللغة وأنها أداة لا غنى عنها للبشر ، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، ولا يوجد مجتمع على وجه الأرض بغير لغة، وهي من أهم عوامل بقاء المجتمع ، فاللغة ، في أي مجتمع لا توجد من أجل ذاتها ، وإنما هي نشاط اجتماعي يخدم ما يسميه « سابير » بالتشارك الاجتماعي، فهي التي تفصح عن العلاقات الشخصية والقيم الثقافية (١) .

واللغة التي يتكلمها الإنسان عبارة عن أصوات تخرج من أعضاء النطق، وهي ليست أصوات بلا معنى ، فهي أصوات دلالية وليست مجرد أصداء، وعلى الرغم من أنها أصوات إلا أنها متنوعة تنوعاً كبيراً . ولكل نوع مزاياه التي تميزه عن سواه من الأنواع، بل إن لكل صوت سماته الخاصة به والتى تجعله يختلف عن سواه من الأصوات . وهذه الأصوات هي (٢) :

الصوت المجهور، والمهموس، والإنفجاري، والاحتكاكي، والجانبي، والأنفي، والمزجي، والشفوي، والشفتاني، والأسناني، والبيأسناني، واللثوي، والغاري، والطبقي، والحلقي، والارتدادي، والمتساقط، والصامت، والصائت (كل صوت ليس بصامت) ، والعالي (الصائت) ، والوسطي (الصائت) ، والصائت المنخفض، والصائت الأمامي، والصائت المركزي، والصائت الخلفي، والصائت المدوّر، والصائت غير المدوّر، والصوت المشفّه ، والصفيري، والمكثف، والشائع (وهو الصوت الذي يكثر استخدامه في لغة ما أو مجموعة من اللغات) ، والصوت البيصائتي (وهو صوت يقع بين حرفيّ علة مثل ماء باللغة الانجليزية water والصوت البيصامتي هو الصوت الذي يقع بين صامتين مثل هام العربية و sit (يجلس) الإنجليزية، والصوت الاستهلالي (في أول الكلمة) والصوت الختامي (في اخرها) والصوت الوسطي ، والصوت الهائي مثل hen (دجاجة) و pen (قلم حبر أو جاف) .

ومن الصوت ندرك الكلمة ومن الكلمة ندرك المعنى .

---

(١) د. مها معاذ، أنثروبولوجيا اللغة، ص٢٣٨ .

(٢) د. محمد على الخولي، دراسات لغوية، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، الفصل الثالث، ص ص٤١ - ٤٩ .

وقد انقسمت هذه الأصوات إلى كلمات كوّنت اللغة، واللغة ذات أنماط كثيرة ومتعددة، يجدها دارس اللغة فهي ليست نمطاً واحداً فهي إما والدة وإما سليلة، وإما شقيقة أو غير ذلك مما سنفصله في النقاط الآتية [1] :

١- **اللغة الوالدة :** هي اللغة التي انحدرت منها عدة لغات أخري مثل الساسانية والدة الفارسية والأفغانية، واللاتينية والدة البرتغالية والأسبانية والفرنسية والإيطالية والرومانية، واللغة السنسكريتية والدة الأوروبية والهندية .

٢- **اللغة السّليلة :** هي اللغة التي تتفرع عن اللغة الوالدة : فالفرنسية سليلة اللاتينية، والألمانية سليلة الجرمانية الغربية ، والسويدية سليلة الجرمانية الشمالية ، والروسية سليلة السلافية الشرقية .

٣- **اللغة الشقيقة :** هي اللغة التي تشترك مع أخري في الأصل مثل الدانماركية شقيقة النرويجية وهما تنتميان إلى الجرمانية الشمالية ، والبولندية شقيقة البوهيمية وهما تنتميان إلى السلافية الغربية وهكذا .

٤- **اللغة الطبيعية :** هي اللغة التي نشأت وتطورت دون التدخل القصدي من الإنسان، وتنطبق اللغة الطبيعية على جميع اللغات التي انتشرت في الماضي والحاضر.

٥- **اللغة الاصطناعية :** هي اللغة غير الطبيعية وفقها شخص أو مجموعة أشخاص (جماعة) من اللغات الموجودة أصلاً لتسهيل تعلم لغة ما مثل لغة الإسبرانتو ، ولم تنجح المحاولة .

٦- **اللغة الصوتية :** هي اللغة التي تنقل المعاني عن طريق الأصوات الكلامية ومنها تتكون الكلمات والجمل والعبارات على شكل موجات صوتية تنقل إلى الأذان .

٧- **اللغة المكتوبة :** هي اللغة التي تنقل المعاني عن طريق الحروف التي تنتقل على شكل موجات ضوئية إلى العيون فيراها القارئ ، وهي جميع اللغات المدونة التي نقرأها فيما تلقي به المطابع إلينا من كتب وجرائد ومجلات أو نراها مكتوبة على شاشات التليفزيون والكومبيوتر وغيرها .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص٢٥ – ٣٤ .

٨- **اللغة الإشارية :** هي لغة من إشارات الأصابع أو من أي مصدر آخر كالإشارات التي يتبادلها الصم والبكم ، ومنها إشارات أخرى يفهمها أصحاب المهنة الواحدة مثل ربابنة السفن وموجهو الطائرات على الممرات والسائقون وغيرهم كثير .

٩- **اللغة الجسمية :** هي حركات وإشارات تصدر عن الجسم مصاحبة للغة الصوتية وهي لا تصاحبها وتعرف بلغة الكينات .

١٠- **لغة الأطفال :** هي اللغة التي يتبادلها الأطفال دون الخامسة ، محدودة الكلمات وقد تكون مركبة تركيباً بسيطاً أو خالية منها، تتصف بلكنة خاصة يستخدم فيها الأطفال الكثير من القلب والابدال (قلب الكلمات والحروف) مثل جعل السين شيناً أو الراء لاماً وغيرها . ويغلب عليها استخدام أسلوب القياس .

١١- **لغة البالغين :** هي اللغة التي يتكلمها الراشدون، وتكون أغزر في ألفاظها ، وأعقد في تراكيبها ، وأوسع في معانيها، وأصح نطقاً ما لم يكن هناك عيباً ما، ويقل فيها القياس .

١٢- **اللغة اللهجية :** هي اللغة التي تظهر فيها اللهجة الخاصة للمتكلم ، وكثيراً ما نعرف قطر الشخص من لهجته. فاللهجة تدل على جغرافية المكان أو على مستوى الشخص الثقافي .

١٣- **اللغة غير اللهجية :** هي اللغة التي يتكلمها المرء بطريقة لا تدل على لهجة خاصة، فلا نستطيع معها معرفة المكان الجغرافي وهي عادة تكون لغة فصحي محايدة .

١٤- **اللغة الفصحى :** هي لغة الأدب والعلم، وهي عادة ما تكون لغة التعليم، والمحاضرات في الجامعات، تخلو من الألفاظ العامية والسوقية أو المبتذلة، تتبع نظاماً ثابتاً في النطق وحركات الإعراب ، ولذلك يراعى فيها الدقة في اختيار الكلمات وتطبيق قواعد النحو والصرف .

١٥- **اللغة العامية :** هي اللغة الدارجة بين الناس ، لغة الحياة اليومية ، ومعاملات السوق، والتخاطب غير الرسمي، وتستخدم في المنازل والبيوت وبين الأصدقاء ، تظهر فيها اللهجة الجغرافية للمتكلم ، وفيها عدة لهجات عامية .

١٦- **اللغة الحيَّة :** هي اللغة التي ماتزال تستعمل في الكلام اليومي العادي، لم تنقرض لا هي ولا الناطقين بها، وهي ليست اللغة التي تستخدم في بعض المناسبات الدينية أو العلمية .

١٧- **اللغة البائدة :** هي اللغة التي كانت تستخدم ثم اندثرت أو ماتت مع اندثار وموت أهلها أو بقيت معروفة من الناحية النظرية دون أن يستعملها أحد في الحياة اليومية مثل الساسانية والقوطية والهيروغليفية والمسمارية وغيرها .

١٨- **اللغة نصف الحيَّة :** هي اللغة التي لا تستعمل في الحياة اليومية العادية ، بل يقتصر استخدامها على بعض الفئات في المجتمع، وفي بعض المناسبات دينية أو علمية أو غير ذلك مثل اللغة اللاتينية فهي تسمى لغة بين ... بين. (أى بين الحية وغير الحية) .

١٩- **اللغة الداخلية :** هي اللغة التي يستعملها المرء وهو يفكر دون إحداث أصوات أو موجات صوتية ، وهي لغة لا يمكن لأحد أن يسمعها ، ولا لأي جهاز يقيسها، وتدعى أيضاً اللغة دون السمعية .

٢٠- **اللغة الأولى :** هي اللغة التي يتعلمها المرء لأول مرة في حياته ، وهي التي يلتقطها الطفل من أبويه عادة، ويتعلمها في البيت قبل ذهابه إلى المدرسة أو أي دور علم أخر، كما أنها لا تتعرض لمنافسة لغة أخرى .

٢١- **اللغة الثانية :** هي اللغة التي يتعلمها الإنسان بعد اتقانه للغته الأولى، ومصدرها البيت أو المدرسة أو المجتمع، واستخدام المجتمع لها شرط لتسميتها باللغة الثانية كالعربي الذي يسافر إلى دولة أوروبية ويتعلم لغتها فهي لغة ثانية لأن المجتمع يستخدمها .

٢٢- **اللغة الأجنبية :** هي اللغة التي يتعلمها الإنسان إضافة إلى لغته الأم (لغته الأساسية الأولى) دون أن يستخدمها في الحياة اليومية خارج المدرسة أو الجامعة أو أي معهد علمي آخر، فنحن نتعلم الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو غيرها في بلادنا العربية كلغة أجنبية وليس كلغة ثانية .

٢٣- **لغة التفكير :** قد تكون لغة الشخص هي اللغة العربية ، ولكنه حين يفكر أو يكتب أو يشرح يفعل ذلك باللغة الإنجليزية . فلغته الأولى هي العربية ولغة

التفكير لديه الإنجليزية، ويحدث هذا أحياناً للشخص الذي عاش في مجتمع آخر فترة ليست بالقصيرة وتأثر بثقافته ونمط حياته، أو أن تعوز شخص ما المصطلحات اللازمة للتعبير في لغته الأولي .

٢٤- **لغة التعليم :** قد يحدث أن تكون لغة التعليم في بلد ما ليست اللغة الأولي لمعظم سكانه، وذلك بتأثير دولة أجنبية محتلة أو مسيطرة ، كما حدث في الجزائر أيام الاستعمار الفرنسي . وقد يحدث هذا أيضاً في شعب متعدد اللغات فتلجأ الدولة إلى توحيد لغة التعليم لإكتساب إحدي اللغات صفة السيادة، كما حدث مع اللغة الروسية في الإتحاد السوفيتي المنهار .

٢٥- **اللغة المشتركة :** اللغة المشتركة هي اللغة التي يعرفها جميع أو معظم أفراد بلد متعدد الشعوب متعدد اللغات ، وتستخدم هذه اللغة للتفاهم بين شعوب البلد الواحد . ففي الولايات المتحدة على سبيل المثال أقليات عديدة لها لغاتها الخاصة ، ولكن اللغة المشتركة هناك هي اللغة الإنجليزية بلكنة أمريكية ، وفي البلاد العربية فإن العربية هي اللغة المشتركة .

٢٦- **اللغة الرسمية :** هي اللغة الـ ي تتعامل الحكومة في مراسلاتها ودواوينها ووثائقها وسجلاتها. وقد تتطابق هذه اللغة مع اللغة السائدة في بلد ما ، ولكنها قد تكون لغة أقلية ذات نفوذ أو لغة غازٍ محتل، أو إحدي اللغات المهمة في بلد متعدد اللغات أو لغة خاصة بالمعاملات الرسمية فقط وليست واحدة من لغات شعوب بلد ما .

٢٧- **اللغة النقية :** اللغة النقية هي اللغة التي لم تتعرض لتأثير لغات أخري بشكل كبير. وهي لغة معظم كلماتها تنتمي إليها أصلاً . وينطبق هذا الوصف على اللغة العربية .

٢٨- **اللغة المولدة :** هي لغة مزيج من لغتين أو أكثر ، ويسميها البعض لغة هجينة ومنها اللغة الإنجليزية الحديثة فهي خليط من الإنجليزية الوسطي والفرنسية . والأردية مولدة من الهندية والفارسية والعربية .

٢٩- **اللغة المحلية :** هي لغة خاصة بقوم دون سواهم . وهي لغة غير معروفة خارج بلد أهلها إلا قليلاً أو نادراً ، مثل اللغة الألبانية أو اللغة الرومانية .

٢٠- **اللغة العالمية :** هي لغة واسعة الانتشار خارج حدود بلدها . ويعرفها ويستخدمها كثير من الناس في العديد من البلاد كلغة أولي أو لغة ثانية أو لغة أجنبية ، وهي لغة تستخدم في العلم على نطاق واسع أو في التجارة أو في السياسة مثل اللغة الإنجليزية .

٢١- **اللغة الحالّة :** هي لغة تحلّ محلّ أخري بالتدريج فتطردها من دائرة الاستعمال في بلد ما . ويقال ذلك على الانجليزية / الأمريكية التي حلّت محل لغة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ، والإسبانية التي حلّت محل العديد من لغات البلاد التي احتلتها في أمريكا الجنوبية، وعلي العربية التي حلّت محل لغات كانت سائدة في بلاد الشام وشمال أفريقيا عندما دخلت هذه البلدان الإسلام .

٢٢- **اللغة المزاحة :** هي اللغة التي تم إزاحتها ومن ثم تراجعها أمام اللغات الحالّة وهي لغة القوم الذين خضعوا لقوم آخرين أقوي منهم حضارياً أو عسكرياً أو اقتصادياً أو ثقافياً ، وكان هذا حال لغة الهنود الحمر وهم أصحاب البلاد الأصليين في أمريكا الشمالية. وشعوب أمريكا الجنوبية .

٢٣- **اللغة السائدة :** هي لغة أشيّع من سواها من اللغات في بلد تعددت فيه اللغات مثال الفارسية في إيران لأنها سادت علي لغات أخرى تمثل أقليات بالنسبة لمن يتحدثون بالفارسية هناك .

٢٤- **اللغة العامّة :** اللغة العامّة غير اللغة العامية، فالعامية تقابلها الفصحى، أما العامّة فتقابلها الخاصة ، ويقصد باللغة العامّة التي يلتزم بها جميع الناس ويتكلمونها ويستخدمونها في بلد ما، وهي لغة لا تخص مهنة معينة أو مجالاً معيناً من مجالات المعرفة .

٢٥- **اللغة الخاصة :** وهي اللغة التي يختص بها أحد مجالات العلم، فالمفردات في علم اللغة غير المفردات في علم الهندسة، ومفردات علم الطب غير مفردات علم التربية ؛ ومفردات علم النفس غير مفردات علم الفقه ، وتشكل هذه المفردات لغة خاصة يجد المرء غير المتخصص صعوبة كبيرة في فهمها .

٢٦- **اللغة المثالية :** وهي اللغة التي تكتب كما تقرأ، وتقرأ كما تكتب . وتتفاوت

اللغات في وصولها إلى درجة المثالية ، فكثير من اللغات الحديثة ليست لغات مثالية مثل الإنجليزية التي يكتب فيها حرف S وينطق Z ، أو يكتب حرف C وينطق S أو K مثل : ceilling (S) و call (K) . وينظر كل من ليبنتز ورسل إلى لغة الرياضيات باعتبارها لغة مثالية لأنها لغة مجردة يقينية ويسميها رسل أحياناً باللغة الاصطناعية ، أو اللغة الكاملة منطقياً ، واللغة المنطقية المثالية وغيرها وهي لغة قادرة على تفادي غموض اللغة العادية وقصورها، وقادرة أيضاً على الوفاء بمتطلبات التعبير الدقيق عن المفاهيم ، وقد ربطها رسل بعملية التحليل للوصول إلى أبسط العناصر التي لا يمكن أن تحلل إلى أبسط منها، باستخدام أدوات التحليل المعروفة لديه نصل أوكام ، والبناء المنطقي واللغة المثالية الاصطناعية التي أشرت إليها (*) . أما اللغة المثالية فهي لغة القرآن الكريم التي تكتب باللغة العربية المشكولة والتي يرمز فيها الحرف الواحد إلى صوت واحد ويكتب الصوت الواحد بحرف واحد فقط .

٣٧- **اللغة الواصفة :** هي اللغة التي نستخدمها في وصف لغة أخري مدروسة ، فقد نستخدم اللغة العربية لوصف اللغة الإنجليزية والتعليق عليها، ففي هذه الحالة تكون العربية هي اللغة الواصفة وتكون الإنجليزية هي اللغة المدروسة، والعكس صحيح، وتستخدم هذه الطريقة في العملية التعليمية عندما تكون لغة الكتاب مزدوجة .

٣٨- **اللغة المدروسة :** هي اللغة موضع الدراسة والتعليق والتحليل ، وقد يتم التعبير عن نتائج الدراسة بلغة أخرى ، كما في المثال السابق إذا عكسناه .

رابعاً : مناهج البحث في اللغة

أصبح من البدهي أن نقول إن لكل علم أو لكل مجموعة من العلوم منهج واحد أو عدة مناهج تستخدم فيه. كما أصبح من البدهي والمسلم به أن المنهج Method يعني الطريقة أو أسلوب العمل الذي يتبعه الباحث أياً كان في بحثه للوصول به إلى نتائج مثمرة، إذاً فالمنهج أسلوب متبع عن قصد في كافة مجالات المعرفة البشرية. وقد يكون المنهج تحليلياً أو تاريخياً أو تركيبياً أو

(*) سوف نناقش اللغة العادية واللغة المثالية في الفصل الثالث .

تصورياً أو قياسياً أو استقرائياً أو مقارناً أو وصفياً أو استرداديا أو رديا أو غير ذلك مما يقع في دائرة علم المناهج Methodology وعلي الباحث أن يختار منها ما يلائم بحثه ، وقد يكون المنهج أحادياً أو ثنائياً أو أكثر من ذلك بحسب طبيعة البحث .

وعلي العموم يراد بمناهج البحث الطرق التي يسير عليها العلماء في علاج المسائل الداخلة في تخصصات كل منهم ، والتي يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض تتمثل في نتائج ونظريات وقوانين وتنبؤات ، وقد تكون مناهج البحث فردية خاصة بعلم ما دون سائر العلوم وقد تكون مناهج بحث مشتركة.

وهناك عدة مناهج لها من الأهمية مكانة علمية يمكن للباحث في مجال اللغة أن يستفيد منها في تحليله اللغوي على كافة المستويات : الصوتية ، والتركيبية، والدلالية . ومن هذا المنطلق سوف ألقي الضوء على عدة مناهج مستخدمة في الدراسات اللغوية على سبيل المثال : المنهج الوصفي ، والمنهج التاريخي ، والمنهج المقارن .

١- المنهج الوصفي

يقوم المنهج الوصفي Descriptive Method على الوصف الخارجي لأية لغة من اللغات المعروفة عند شعب من الشعوب أو جماعة من الجماعات ، أو الاهتمام بوصف لهجة قوم دون لهجة . ويكتفي الباحث هنا بالوصف الخارجي أو الظاهري لمظاهر اللغة المختلفة ، كالأصوات ، أو شكل الكتابة أو غيرها . ويقوم الباحث بالتسجيل الأمين لما يراه ، ويصف « أنطوان مييه » Antoine Meiliet هذا المنهج بقوله : « يعني المنهج الوصفي بدراسة الاستعمال اللغوي في عمومه، عند شخص بعينه، في زمان بعينه، ومكان بعينه » [(١)] .

« فالمنهج الوصفي يقوم على أساس وصف اللغة أو اللهجة في مستوياتها المختلفة ، أي في نواحي أصواتها، ومقاطعها، وأبنيتها، ودلالاتها، وتراكيبها، وألفاظها، أو في بعض هذه النواحي ، ولا يتخطى مرحلة الوصف . والأطالس

---

(١) د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، ص١٨٦ .

عن : أنطوان مييه، علم اللسان، ص٤٥٣ .

اللغوبة هي خير ما يُطبق هذا المنهج على اللغات واللهجات ، فهي لا تعرض علينا سوي الواقع اللغوي مُصنفاً ، دون تدخل من الباحث بتفسير ظاهرة، أو تعليل لاتجاه لغوي، هنا أو هناك ، [1] .

وتساعد الدراسة الوصفية الباحث على تحقيق تلك الدراسة للغاية المنشودة منها، وقيامها على أساس علمي سليم ووصولها إلى درجة عالية من الدقة والإتقان، سواء أكان ذلك من خلال دراسة الأصوات والصرف أو النحو والدلالة[2]، فإذا إنحرف الباحث عن هذا المنهج فقد الموضوعية العلمية اللازمة، كما إنه يفقد مصداقية الدقة والموضوعية، كما يفقد البحث ذاته نفس المصداقية التي كان يتطلع إليها الباحث .

ويدخل منهج الملاحظة ضمن المنهج الوصفي الذي يعتمد على وصف الظاهرة ، وتنقسم الملاحظة إلى : ملاحظة صوتية Phonetic وهي ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت، وملاحظة دلالية Semantic وهي ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة. وتنقسم أيضاً إلى ملاحظة اللغات الحية، وملاحظة اللغات غير الحية عن طريق المؤلفات والوثائق والآثار، فضلاً عن انقسام الملاحظة إلى ذاتية وموضوعية، وتنقسم أيضاً الملاحظة الموضوعية إلى إيجابية وسلبية. أما أكثر الملاحظات نفعاً وفائدة للدراسات اللغوية فهي الملاحظة المباشرة المتعلقة بالدلالة [3] .

٢- المنهج التاريخي

يهتم المنهج التاريخي Historical Method بالتغيرات التي تصيب اللغة على مر العصور وذلك من خلال البحث في أصواتها ، وأبنيتها الصرفية، وتركيبها النحوية، ونظام الجملة فيها، ودلالة ألفاظها ، ومحاولة معرفة أسباب التغيرات، وقد يلجأ الباحث إلى أقدم المصادر والنقوش المكتوبة، والآداب شعرها ونثرها، وما أحاط باللغة من تغيرات وظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية

---

(١) نفس المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٢) د. محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٠، ص١١٠ .

(٣) د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة ، ص٣٦ .

وتاريخية وجغرافية وغيرها تكون وراء ما أصابها من تغير وتحول ، أو ارتقاء وتطور [١] .

ويوصف المنهج التاريخي بأنه ديناميكي dynamic أي يتسم بفاعلية مستمرة بسبب تتبع ظاهرة لغوية معينة من خلال تغيراتها المختلفة وفي إطارات مختلفة تكون قد أحاطت بها، وذلك في مقابل المنهج الوصفي الذي ذكرناه واتصافه بأنه منهج ساكن لأنه يقوم بتثبيت اللغة على صورة معينة، في زمن محدد ومكان محدد حتى يستطيع دراستها ، « وإذا كانت الوظيفة الأولى لعلم اللغة الوصفي، هي أن يصف ، ولعلم اللغة التاريخي هي أن يعرض التغيرات اللغوية ، فمن الصعب كثيراً الفصل بين النوعين في مجال التطبيق العملي، وذلك لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي، قابلة من الناحية العملية للاستعمال مع الفرع التاريخي » [٢] .

ومما لا شك فيه أن كل شيء ينتقل من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع، ومن تخلف إلى تقدم. وكذلك اللغة تعرضت لمثل هذه التنقلات بسبب تطور وتغير الظروف الاجتماعية والسياسية والجغرافية والثقافية وغيرها، وبسبب تطور العلوم المختلفة وتقدم العقل البشري ذاته. وقد أثبت فرديناند دي سوسور هذه التغيرات في كتابه « مقرر في علم اللغة العام » Course in general linguistics (ص١٨٩) حيث ذكر أننا إذا رجعنا بالتاريخ إلى الوراء خاصة تاريخ الكلمات فسنجد ما نفسره فيها ، إن تطور علم الكلمات Etymology لا يفسر الكلمات التي تكون في حالة عزلة عن غيرها ونتوقف عندها، بل يجب النظر في تاريخ « عائلات الكلمات» Words families وعائلات العناصر التي كونتها مثل السوابق Prefixes واللواحق Suffixes [٣] .

« وقد ساد المنهج التاريخي في الدراسات الغربية ، ودرس اللغويون في ضوئه اللغات الأوروبية القديمة كاليونانية واللاتينية : وأهملوا اللغات الحديثة،

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص١٠٩.

(٢) ماريو باي، أسس علم اللغة ، ص١٣٧ .

في كتاب : د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص١٨٨ .

(3) De Saussure, F., Course de linguistique Générqle, Pub. Par Charles Balley et Albert Sechehaye, Payot, Lausanne, 1916, p. 189.

لأنهم نظروا إليها على أنها « شيء متغير خدّاع » ، وأن الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الجزء الموجود في اللغة المكتوبة » [١] .

ويقوم المنهج التاريخي على طريقة قياس الغابر على الحاضر، أو الغائب على الشاهد ، خاصة في مجال علم اللغات القديمة، إلا أن استخدام هذه الطريقة في دراسة تطورات علم الدلالة استخدام محفوف بالمخاطر خاصة عند تناول تطور المعاني والكلمات (الألفاظ) في اللغة وقواعدها وأساليبها ، وقلّما تتحدد هذه الموضوعات في عصرين أو لغتين، أما استخدامها في مجال علم الأصوات فإنه استخدام آمن لا ضير منه [٢] .

ويشمل التطور اللغوي الذي يدرسه علم اللغة التاريخي مجالان :

أ- التطور في بنية الكلمة .

ب- مجالات الإنتشار والاستخدام اللغوي .

ويرجع السبب في التركيز على هذين المجالين إلى الطبيعة الرمزية للبنية اللغوية، وكذلك الوظيفة الاجتماعية لها، وكل مجال أو شق يكمل أحدهما الآخر، وعليه فيجب العناية بهما معاً [٣] .

وقد أفاد « المنهج التاريخي » في إعداد « المعجم التاريخي لألفاظ العربية » الذي يتتبع حياة الكلمات والتطور الدلالي الذي أصابها على مر العصور، لكل فصل إلى أخر استخدام للكلمة . وقد اهتم بمثل هذه الأعمال المستشرقون أمثال الهولندي دوزي والألماني فيشر وغيرهما .

وذكر فيشر أنه يجب أن يشتمل المعجم على كل كلمة بلا استثناء وجدت في اللغة، وأن تعرض وجهات النظر السبع الآتية : التاريخية ، والاشتقاقية، والتصريفية، والتعبيرية، والنحوية، والبيانية، والأسلوبية (*) .

---

(١) د. محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص١١٠ .
عن : ماريو باي، أسس علم اللغة، ص١٦٤ .

(٢) د. على عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ص٤٤ - ٤٥ .

(٣) د. محمود فهمي حجازي ، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، دار غريب ، القاهرة ، د.ت .
وأيضاً : د. محمود سليمان ياقوت ، منهج البحث اللغوي، ص١١١ .

(*) Historical, Etymological, Flexional, Semasiological, Syntatical, Phraseological, Stylistic.
انظر ، د. محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص ص١١٣ - ١١٥ .

٢- المنهج المقارن

ارتبط كل من المنهج التاريخي والمنهج المقارن Comparative method في كثير من الأحيان حتي أن بعض المعاجم مثل « المعجم الفلسفي المختصر » يذكرهما باعتبارهما منهجاً واحداً تحت اسم « المنهج التاريخي المقارن » (١) Comparative historical method ويعتبره طريقة تستخدم في مجال المعرفة، تتيح تسجيل التشابه والاختلاف بين الظواهر المدروسة، والكشف عما بينها من قرابة – أي ارتباط الأصل، أو ارتباطها ما بأصل واحد مشترك -. وكان هذا المنهج وراء ظهور مجموعة كاملة من العلوم، سواء منها الطبيعية أو الاجتماعية أي العلوم الإنسانية بصفة عامة. وقام هذا المنهج بدور مهم في تاريخ فقه اللغة والإثنوجرافيا (علم السكان) Ethnology (أو علم الأعراق البشرية). وعندما حقق هذا المنهج نجاحات متوالية خاصة في مجال العلوم الإنسانية، برزت أهمية اعتباره منهجاً علمياً وحيداً عند كل من أوجست كونت وهربرت سبنسر واميل دوركايم. كما أصبح يستخدم عالمياً وعلي نطاق واسع في الدراسات المقارنة للثقافات والحضارات والدراسات الاجتماعية.

مما سبق يتضح أن المنهج التاريخي المقارن استخدم في مجال دراسة اللغات – خاصة تلك التي تندرج تحت أصل واحد – أو التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة، حتي يجمع الخصائص والسمات المشتركة فيما بينها، للوصول إلى صياغة ما يسمى بـ « النحو المقارن » Comparative grammar لتلك اللغات، ومنها مجموعة « اللغات السامية » التي تندرج تحت أصل واحد يسمى « اللغة السامية الأم » (٢).

وقد مهّد لظهور المنهج المقارن في دراسة اللغات اكتشاف السير وليم جونز Sir William Jones الذي كان يعمل قاضياً في المحكمة العليا بالبنغال للغة السنسكريتية سنة ١٧٨٦م، وللعلاقة بينها وبين اليونانية واللاتينية وما تفرع عنهما من لغات أخرى.

---

(١) المعجم الفلسفي المختصر، مادة المنهج التاريخي المقارن، ص٤٩١. (بتصرف كبير)

(٢) انظر: * د. محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص١٠٥.

* د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص١٩١.

* ماريو باي، لغات البشر، ص٧٤.

« وتقوم هذه الطريقة على الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة ، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها ، والوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهرها » [1] . وقد أمكن التوصل إلى نتائج باهرة باستخدام المنهج المقارن ، منها أنه توصل به إلى وجود اقتباسات للغة السريانية من كلمات اللغة الاغريقية (اليونانية القديمة) مع أن السريانية من فصيلة اللغات السامية، والاغريقية من فصيلة اللغات الهندية – الأوروبية . واقتبست الفارسية الحديثة من اللغة العربية مع أنها من فصيلة اللغة الآرية والعربية من فصيلة اللغة السامية ، واقتبست اللغة التركية من العربية والفارسية مع أنها (التركية) من الفصيلة التترية والعربية من السامية والفارسية من الآرية ، كما ذكرت .

ويعتبر علم اللغة المقارن من أول فروع الدراسات اللغوية التي عرفت في وطننا العربي الكبير، منذ إنشاء الجامعة الأهلية في مصر سنة ١٩٠٨ ، ثم تولت الدولة أمر الجامعة عام ١٩٢٥ فأصبح علم اللغة المقارن للغات السامية من المقررات الأساسية التي تدرس في قسم اللغة العربية واللغات الشرقية في كلية الآداب، وعمل بها أساتذة للدراسات السامية في أوروبا أمثال برجشتراسر Berg-strasser وشاده Schaade وليتمان Littmann حيث ساهموا في تأصيل مثل هذه الدراسات التي برع فيها أساتذة مصريون وعرب من كل أنحاء الوطن العربي الكبير [2] .

وكذلك عرفها العرب الأوائل أمثال الخليل بن أحمد (المتوفي سنة ١٧٥ هـ) وأشار إلى العلاقة بين اللغتين الكنعانية والعربية في كتابه « العين » (٢٠٣/١)، وأيضاً أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفي سنة ٢٢٤هـ) وأشار إلى هذه المعرفة الدقيقة أبو حاتم الرازي في كتابه « الزينة في الكلمات الإسلامية » (١١/١) وأدرك ابن حزم الأندلسي (المتوفي سنة ٤٥٦هـ) علاقة القربى بين العربية والعبرية والسريانية في كتابه « الإحكام في أصول الأحكام » (٣٠/١) حيث قال: « من تدبر العربية والعبرانية والسريانية ، أيقن أن اختلافها ، إنما هو من تبديل

(١) د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة ، ص ص٤٥ - ٤٦ .

(٢) د. محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص ص١٠٦ ، ١٠٨ .

ألفاظ الناس على طول الزمان، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل » .

كما أدرك أبو حيان الأندلسي (المتوفي سنة ٧٥٤هـ) العلاقة بين اللغة الحبشية واللغة العربية وقارن بينهما [١] .

٤- المنهج الأداتي (*)

وهو المنهج الذي نستخدم فيه الأجهزة كأداة Instrument في دراسة الفونيتيك (علم الأصوات) بسبب موضوعيته ، وبعده عن الذاتية التي يتميز بها الانسان في معظم الحالات، ويهتم هذا المنهج بدراسة طبيعة الأصوات ومخارج الالفاظ، وانقسم هذا المنهج إلى قسمين : قسم يهتم بالتدوين المباشر، وقسم يهتم بدراسة العلامات وهي الدراسة التي نقف بفضلها على معرفة طبيعة الصوت «وقد شاع تسمية البحوث القائمة على طريقة الأجهزة باسم الفونيتيك التجريبي Experimental phonetic ، أي دراسة الصوت دراسة تجريبية. ولكن هذه التسمية غير صحيحة؛ لأننا لسنا بصدد تجارب أي تقييد الظروف العادية المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ ، بل بصدد ملاحظة في ظروف طبيعية عادية ... » [٢] .

٥- المنهج التجريبي

ويقوم المنهج التجريبي Experimental Method على محاولة تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية ما ، أو المحيطة بالشخص الذي تجري عليه الملاحظة ، بحيث يمكننا الوقوف من طريق سهل مأمون العواقب، على ما يتعذر الوقوف عليه في الظروف العادية أو على ما يقتضينا الوقوف عليه في الظروف العادية لكي لا نسرف في ضياع الوقت والجهد ، ونحن نعلم أن كافة العلوم الطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة والطب والفلك وغيرها تعتمد

---

(١) د. رمضان عبد التواب، المدخل، ص ص١٩٣ - ١٩٤ .

(*) استعرت اسم هذا المنهج عن تسمية منهج جون ديوي الأداتي أو الوسيلي أو الذرائعي ووجدته أنسب لظروف العصر، ومحتوي الدراسة .

(٢) د. على عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ص٣٨ - ٤٠ .

عليه بالإضافة إلى علم اللغة في شعبته « الفونيتيك » ، وفي دراسة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة ، وقد توصل العلماء من خلالها إلى نتائج مهمة في دراسة اللهجات واللغات العامية (الديالكتولوجي) [(١)] .

٦- المنهج الاستنباطي

ويستخدم المنهج الاستنباطي Inductive Method للوقوف على علل الظواهر ونتائجها اللازمة ولكشف علاقة السببية بين ظاهرتين أو أكثر ، وقد استخدمها جون ستيوارت مل (١٨٠٦ – ١٨٧٣) John Stuart Mill في كتابه «نسق المنطق» System of logic ، ووضعه في أربع خطوات :

أ- طريق التلازم في الوقوع Correspondence .

ب- طريقة التلازم في التخلف Difference .

جـ- طريقة التلازم في التغير Variation .

د- طريقة البواقي Residue .

٧- المنهج النفسي

وقد اهتم علم النفس اللغوي بالمناهج اللغوية التي تقسم اللغة إلى وحدات صوتية الفونيمات Phonemes : (وهي التي يعبر عنها في الكتابة برمز واحد، وكل لغة لها عدد محدود من الوحدات الصوتية، تختلف كل وحدة عن الأخرى في ملمح واحد على الأقل كالهمس، أو التفخيم أو المخرج الصوتي ، وهو ما يطلق عليه الملامح المميزة ، والوحدة الصوتية قد يكون لها صور صوتية ، مثل حرف اللام في اللغة العربية، حيث نجد لها صورتين إحداهما مضخمة والأخرى مرققة) والوحدات الحرفية Morphemes ، وهي أصغر وحدات مميزة في النحو، وتصنف إلى وحدات حرفية حرة، وهي التي يمكن أن تذكر ككلمات منفصلة . ووحدات حرفية قصيرة، وهي التي لا يمكن أن تذكر ككلمات منفصلة وتستخدم كلواحق وسوابق للكلمات مثل (ال) ، وهناك أيضاً التعبيرات Phrases ، وهي وحدة لغوية أكبر من الكلمة وأصغر من الجملة ، وتختلف اختلافاً كبيراً بحسب التحليل النحوي » [(٢)] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ص٤١ – ٤٣ .

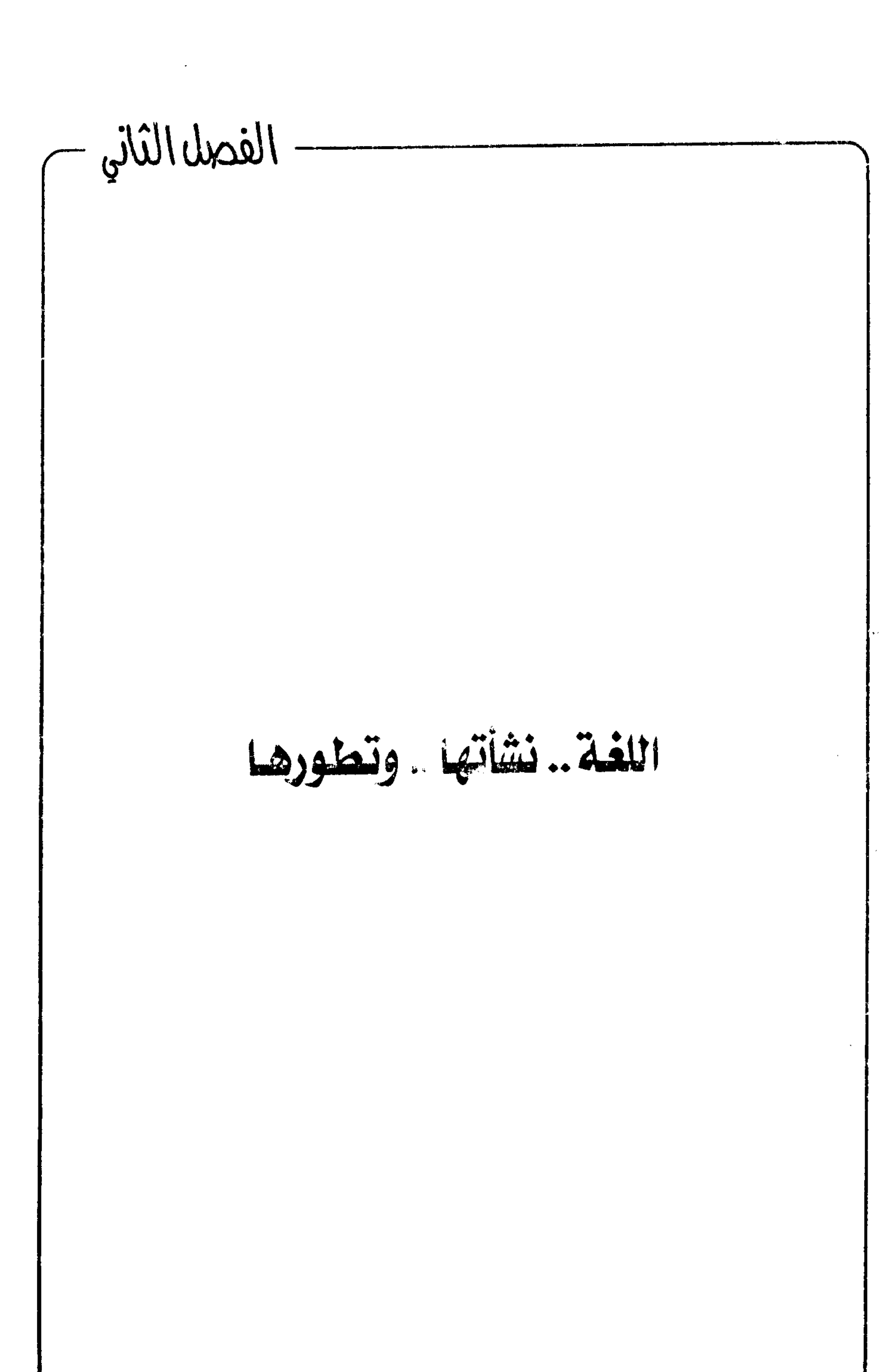
(٢) د. رمضان بسطاويسي محمد، علم اللغة النفسي، ص٥٤ .

٨- المنهج التركيبى

يقوم المنهج التركيبي Synthetic Method لتحليل اللغة على أساس تحليل الأصوات ومواقع النبر وأنماط التنغيم، وتحديد التراكيب المقطعية، والظواهر التي يحدثها تعاقب الكلم كالتماثل . وذلك كله على المستوي الصوتي، ثم يحدد الوحدات الصرفية (المورفيمات) وطرق اتصالها ببعضها وما يحدثه ذلك الاتصال من تغييرات ، ثم ينتقل إلى تحديد أنواع الجمل والقوانين التي تتحكم فيها . كذلك يتعرض علم اللغة من خلال المنهج التركيبي للهجات الجغرافية والاجتماعية، ويعتبر الثقافة جزءاً من اللغة ، وتعني الثقافة بمعناها المألوف طريقة المعيشة من المأكل والملبس والمأوى ، كما تشمل عقائد الناس وعاداتهم وشمائلهم ، وهي بذلك تنعكس على اللغة من حيث المفردات والتعبيرات الاصطلاحية ، وأيضاً من حيث المعاني [١] .

---

(١) د. فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة ، ص ص٤١ - ٤٢ .



الفصل الثاني

اللغة.. نشأتها.. وتطورها



الفصل الثانى
اللغة .. نشأتها .. وتطورها

مقدمة

شغل موضوع اللغة language الفكر الإنساني منذ نعومة أظفاره لما له من أهمية بالغة في توجيه وإدارة حياة الإنسان برمتها ، وتحقيق اتصاله بغيره من البشر وهو من أهداف خلقه ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ [1] ، فضلاً عن تحقيق علاقاته بنفسه وبالآخرين ، بل إن اللغة هي الرباط المقدس الذي يربط الإنسان بخالقه... إذ كيف يناجي الإنسان ربه... وكيف يتوجه إليه باستغفاره ودعائه وحاجاته... وكيف يبلغ رب العزة البشر... الناس.. الإنسان خليفته في الأرض الذي خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه المقدسة... كيف يبلغه بإرشاداته وتعاليمه وتوجيهاته وأوامره ونواهيه... وكيف يبلغه بشريعته ومنهاجه القويم الذي عليه اتباعه لينجو... كيف يحذره ربه وكيف ينذره... يتهدده ويطمأنه إن كان من المؤمنين الصالحين ...

كيف يتم ذلك كله إن لم يكن باللغة ... وسيلة التفاهم واكتساب العلم والمعرفة... ووسيلة الحياة الأساسية وبها يتم تحقيق ثورة المعلومات في كل مكان وكافة المجالات .

إذاً كان لابد وأن ينظر الإنسان في أهم وسائل حياته تأثيراً وأخطرها على حياته... وأبعدها أثراً وتأثراً ... مما جعل الإنسان منذ البدايات الأولى لحياته ينظر في اللغة باحثاً ومنقباً عن نشأتها وتطورها وسبب تكاثرها وتعددها ... وينظر في معانيها ودلالاتها وتراكيبها ونحوها وصرفها، وفي وضوحها وغموضها... لقد كانت الكلمة في البدء ... وكانت الكلمة في الختام.

أولاً : نظريات نشأة اللغة

يُطلق على البحوث المتعلقة بنشأة اللغة الإنسانية ، سواء في أشكالها الأولي في التعبير، أو المراحل التي مرت بها حتي وصلت إلى « مرحلة الأصوات ذات

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

الدلالات الوضعية » [1] ، يطلق على هذا النوع من البحوث اسم « أصل اللغة ... أو أصل نشأة اللغة ... The origin of language ويدخل فيها البحوث الفلسفية الميتافيزيقية وهي البحوث الأولي التي عالجت اللغة واهتمت بها اهتماماً بالغاً وإن كان يغلب عليها الظن والتخمين بسبب بدائية وسائل البحث ... وطفولة الإنسانية ، لذلك يعرض عنها فلاسفة اللغة المحدثون وعلماؤها ويوجهون اهتماماتهم إلى نوعيات أخري من البحث سنعرض لها – إن شاء الله تعالى – في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب.

كما تسمي البحوث المتعلقة بحياة اللغة وما يطرأ عليها من غني وفقر، وسعة وضيق ، ولهجات وأسماء ، ثم تحولاً بعد ذلك إلى لغات سائدة وأخرى بائدة... بالإضافة إلى عوامل سيطرة لغة أو ضعفها ... ظهورها أو اختفائها اسم حياة اللغة life of language (vie du langage) ، وهو بحث يختص بما يسمي علم اللهجات « الديالكتولوجي Dialectology » ، هذا غير أنواع أخرى من البحوث سأذكرها في حينها [2] .

ولقد اختلفت النظريات التي تبحث وتحاول تفسير نشأة اللغة عند الإنسان، وتساءل الباحثون هل اللغة إلهاماً وتوقيفاً أو أنها اصطلاحاً وتوفيقاً ؟ وللإجابة عن مثل هذه التساؤلات توافر لدينا عدد من النظريات أذكرها هنا في إيجاز غير مخل إن شاء الله تعالى .

١- نظرية التوفيق الإلهي

يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة هي وحيٌ من عند الله تعالى، وذهب إلى هذا الرأي كثيرون منهم فيثاغورس وهيراقليطس Heraclitus (حوالي ٥٤٠ – حوالي ٤٨٠ ق.م) الذي إنتهى إلى القول بأن الأسماء تعطى وتمنح من قوة إلهية، ولذا جاءت وقفاً على المسميات وأفلاطون والرواقيون وأحمد بن فارس في كتابه « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » . واستندوا في رأيهم

---

(١) د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ملتزم الطبع والنشر (لجنة البيان العربي)، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠م (الطبعة الأولي ١٩٤٥)، ص٥.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٦.

هذا إلى أن اللغة نشأت نشأة طبيعية استجابة للفطرة السليمة الإنسانية التي تفرض عليه حاجات مادية وعقلية كان لابد من وجود اللغة وفاءً بها، واستناداً إلى ما جاء في العهد القديم (التوراة) « وجلب الربّ الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليري ماذا يدعوها . وكل ما دعا به آدم ذا نفس حيّة فهو اسمها . فدعا أدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » (١) . وكذلك في البدء كانت الكلمة .

كما يستند آخرون ممن قالوا بهذه النظرية إلى ما جاء في القرآن الكريم : ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (٢) .

وجاء في تفسير هذه الآيات الكريمات للإمام أبى الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (٣) أن الله تعالى علّم آدم (عليه السلام) الأسماء كلها أي أسماء ولده إنساناً إنساناً ، والدواب فقيل هذا الحمار ، وهذا الجمل، وهذا الفرس وهكذا . قال الضحّاك عن ابن عباس (رضيّ الله عنهما) « وعلم آدم الأسماء كلها » قال هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وروي ابن أبي حاتم وابن جرير من حيث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس (رضى الله عنهم أجمعين) وعلّم ... قال علّمه اسم الصحفة والقدر، قال نعم حتى الفسوة والفسية، وقال مجاهد : قال علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء ، قال الربيع في رواية عنه أسماء الملائكة . وقال حميد الشامي أسماء النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته كلهم. وقد اختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال « ثم عرضهم » , وهذه عبارة تقال عما يعقل ، وهذا الذي رجح به ليس بلازم فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن

---

(١) العهد القديم (التوراة) سفر التكوين الآيات ٢ : ١٩ – ٢١ (العدد ٢ يرمز إلى الاصحاح الثاني) .
(٢) سورة البقرة ، الآيات ٣١ – ٣٣ .
(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، الجزء الأول ، ص ص٧٢ – ٧٣ .

الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ [١] . وقرأ بن كعب ثم عرضها أي المسميات. والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها ، كما قال ابن عباس حتي الفسوة والفسية يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر .

وقال خليفة، حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبي – ﷺ – قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ فاشفع لنا إلى ربك حتي يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هنا كم ويذكر ذنبه فيستحيّ ... حتي يأتوا محمداً ﷺ فيقول له رب العزة أرفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع ...

ويقول أبو الفتح عثمان بن جنيّ في كتابه «الخصائص» إن الله سبحانه وتعالى علّم آدم أسماء جميع المخلوقات ، بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية ، وغير ذلك من سائر اللغات ، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه، واضمحل عنه ما سواها ، لبعد عهدهم بها. وقد خص الله تعالى الأسماء دون الأفعال والحروف لأنها أقوي الثلاثة، وقد تستغني الجملة عن أحد عناصرها إلا الاسم [١] . ثم ترك بن جنيّ هذا الرأي ومال إلى غيره كما سنتبين .

كما يذهب البعض إلى أن القول بالتوفيق يأتي من استنباط ما أتت به آيات القرآن الكريم الخاصة بأصل اللغة، ويرون أن هذا نوع من إسقاط منطلق اللغة على أصل الخلق. فإذا رجعنا إلى بدء الخليقة أدركنا عمق لحظة الاتصال التي تمت بين الإنسان واللغة باعتبار أن الفاعل هو الله تعالي، وطالما أن الفاعل هو الله تعالي فقد فعل ذلك بالوحيّ والإلهام. وللنظر في النص التالي الذي أتي به

---

(١) سورة النور ، الآية ٤٥ .

(٢) أبو الفتح عثمان بن جنيّ، الخصائص ، تحقيق محمد على النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت ، الطبعة الثانية د. ت ، ص٤١ .

الدكتور عبد السلام المسدي في كتابه « التفكير اللساني في الحضارة العربية » ويتضمن ما سبق شرحه :

« إن القول بالتوفيق متولد رأساً من محاولة استنباط مخبّات الآية القرآنية المتعلقة بأصل نشأة اللغة (يقصد وعلّم أدم الأسماء كلها ...)، فكان لذلك نوعاً من إسقاط منطلق اللغة على مبتدأ الخليقة أصلاً، وفي حدود هذه المعطيات اندرج المشكل اللغويّ في سياق عقائدي تأويليّ أعم بكثير مما يستوجبه النظر المباشر في اللغة . لأن الرجوع إلى ابتداء الخليقة لكشف لحظة الاتصال بين الإنسان والكلام على مدارج الزمن الطبيعي هو رجوع إلى فحص العلاقة الرابطة بين مبتدأ الوجود البشري وعلة هذا الوجود ، أي بين الإنسان ومصدر خلقه وهو الله ... فالنظرية توصف بالإلهام أو الوحي أو التوقيف وكلها مصادر تحيلنا ضمنياً على فاعلها وهو الله » (١) .

كما تساءل بعض المفسرين واللغويين في سياق تفسير الآية الكريمة « وعلّم آدم الأسماء كلها ... » هل التعليم هنا يعني التلقين كما يلقن الأستاذ طلبته، أم أنه يعني مجرد الوحي والإلهام، أم أن الله تعالي علّم آدم المسميات أي عرّفه بالكون وما فيه ثم ترك لملكته التي أودعها فيه ابتكار الأسماء لهذه المسميات (٢) ؟

وأرى أن مثل هذه التساؤلات تريد أن تنتقص من عمل الله تعالى وتنسب شيئاً أو أشياء كثيرة للإنسان ، كما سنرى في نظرية التوفيق والاصطلاح، وكأن الإنسان أقدر على إيجاد لغة يتفاهم بها مع بني جنسه بعيداً عن عين الله

---

(١) د. عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس الطبعة الثانية، ١٩٨٦ ، ص٦٧ . (الطبعة الأولي ١٩٨١) .
ويشرح لنا د. المسدي أن كلمة التوفيق من المصدر وفّق (بالتضعيف) وتستعمل في اللغة لازمة ومتعدية، ومنه وقفت الشيء أي قيدته . ووقف الأرض أي حبسها . وعبارة التوقيف التي نحن بصددها تأتي بمعنيين: الأول: توفيق الله اللغة بمعني بيانها وتوضيحها وبالتالي تشريعها. وتوقيف آدم على اللغة بمعني إلهامه إياها ، وفي كلا السّياقين يبقي الله تعالي فاعلاً ضمنياً للمصدر : ولا يتغير إلا المفعول فإما هو اللغة وإما هو آدم (عليه السلام) .
(نفس المرجع ص٦٧ . وأيضاً ابن منظور ، اللسان ، ج٩ ، ص ص٣٥٩ – ٣٦٢ . وابن حزم الأندلسي، الجزء الخامس، ص٣٠ ، وابن فارس، الصاحبيّ، ص٦ .
(٢) د. عبد الرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، ص١١ .

تعالى، وهذا محال، فما بالنا والإنسان لا يتكلم لغة واحدة بل هناك آلاف اللغات منها السائد بيننا الآن ومنها البائد الذي نعلم الكثير عنه ، ومنها البائد المندثر الذي لا نعلم عنه إلا القليل عن طريق الآثار التي تركها لنا الأقدمون « هذه آثارنا تدل علينا » .

إن عملية الخلق في العقيدة عموماً ، والعقيدة الإسلامية على وجه الخصوص، عملية تلقائية مباشرة بين تعلّق إرادة الخالق – عز وجل – وموضوع ما تعلقت به.

ويفسر الشيخ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي المعروف بالسمين (ت٧٥٦هـ) قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » بقوله : أي عرّفه إياها ، وأصل العلم إدراك الشيء على حقيقته وهو معرفة الشيء على ما هو عليه. وقد اختلف الناس فيه، هل يدرك بالحد أم لا ؟ ومن منع من تحديده ؟ اختلفوا : فقال بعضهم– ويقصد به الراغب الأصفهاني في كتابه « المفردات » (ص٣٤٣) لا يحد لعسره وآخرون ليسره ، وقال بعضهم العلم ضربان : الأول إدراك ذات الشيء ، والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له ، أو نفي شيء هو منفي عنه. فالأول يتعدي لواحد قال تعالى « لا تعلمهم نحن نعلمهم » [(١)] . والثاني يتعدي لاثنين كقوله تعالى : « فإن علمتموهن مؤمنات » [(٢)] .

أما قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب » [(٣)] . قال بعضهم إشارة إلى أن علمهم قد تضاءل مع علمه ، لذلك عقّبوه بقوله: « إنك أنت علاّم الغيوب » ، والعلم من وجه آخر نوعان: نظري وعملي ، فالنظري ما إذا علم فقد كمل نمو العلم بموجودات العالم. والعملي ما لا يتم إلا بأن يعمل كالعلم بالعبارات، ومن وجه آخر نوعان : عقليّ وسمعي وهكذا ، فتعليمه الأسماء هو أن جعل له قوة بها نطق ووضع أسماء الأشياء وذلك بإلقائها في روعه [(٤)] .

---

(١) التوبة ، الآية ١٠١ .

(٢) الممتحنة ، الآية ١٠ .

(٣) المائدة ، الآية ١٠٩ .

(٤) الشيخ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق عبد السلام أحمد التونجي الحلبي، مكتب الإعلام والبحوث والنشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، ديسمبر ١٩٩٥م، ص ص١٧٩٤ – ١٧٩٥.

ونقطة اللقاء تتجسّد في فعل الأمر الكون : « كن » ... « فيكون » . أما والأمر يتعلق باللغة واللغة لا حقيقة لها خارج صاحبها ، ولا وجود لها خارج حدود الإنسان ذاته، فقد تتشعب الإشكالية تشعبات كثيرة .

ويقف ابن حزم الأندلسي موقفاً مؤيداً لرأي التوقيف وقد ساق لنا في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام » رأياً قوياً مستنيراً يدعم موقف المؤيدين للتوقيف فيقول : « وأما الضروري بالبرهان فهو أنّ الكلام لو كان اصطلاحاً لما جاز أن يصطلح إلاّ قوم قد كملت أذهانهم وتدّربت عقولهم ، وتمت علومهم ، ووقفوا على الأشياء كلّها الموجودة في العالم وعرفوا حدودها واتفاقها واختلافها وطبائعها. وبالضرورة نعلم أنّ بين أوّل وجود الإنسان وبين بلوغه هذه الصفة سنين كثيرة جداً يقتضي في ذلك تربية وحياطة وكفالة من غيره : إذ المرء لا يقوم بنفسه إلا بعد سنين من ولادته » [1] .

وهذا الرأي لابن حزم رأي صائب لا محالة : إذ أن الدراسات اللغوية التي بين أيدينا الآن لم يتوصل إليها الإنسان دفعة واحدة، وفي وقت قريب، من الخلق، بل إنه توصل إليها بعد رحلة طويلة عبر الزمان، تطورت فيها الحضارات، ونمت فيها الثقافات. وازدهرت فيها العلوم، وتخطت فيها العقول مراحل الطفولة والشباب إلى النضج والرجولة، فلو كانت اللغة اصطلاحاً لتوصل الإنسان إلى هذه الدراسات اللغوية المعقدة والمتقدمة في حينها وتواضع عليها، ثم إن اللغة نفسها تتطور والألفاظ تتغير وتتبدل، ويظهر منها الجديد، وينزوي منها القديم ، لغات سائدة ولغات بائدة بعد سيادة قرون طويلة ... أين الهيروغليفية التي شاركت المصريين القدماء تطورهم وحضارتهم التي عاشت آلاف السنين ، أين اللغة المسمارية في الشام والعراق، أين اللغة اليونانية التي استخدمها أرسطو ومن قبله عشرات الفلاسفة والأدباء ، بل أين اللغة العربية التي كانت سائدة قبل الإسلام وبعد الإسلام ... تطورت كثيراً من ألفاظها ودخل عليها ألفاظ ومصطلحات ما كان يفكر فيها سيبويه وأبو الحسن على المسعودي صاحب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » (٤ أجزاء - دار الرجاء) ، ولا فكر فيها أحمد بن فارس وعثمان بن جني وغيرهم .

---

(١) ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام ص٢٨، عن كتاب : د. عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني ... ، ص٦٨ .

وكما نؤيد ابن حزم الأندلسي فيما ذهب إليه يؤيده إخوان الصفاء الذين ساروا على نفس نهج ابن حزم الزماني أي أنهم استندوا إلى فكرة أسبقية الزمان في استتباع الأدلة الواضحة وراء دليل نشأة اللغة التوقيفي « ويقرنون فكرة الإلهام بمبدأ التأييد الرباني الذي يتجسد في إعمال الفكرة وإنتاج القريحة ووجوب الرّوية » [1] .

ويؤيد كل من أبو يعقوب محمد بن على السكاكيني في كتابه « مفتاح العلوم » بقوله : « وهذا والحق بعد إمّا التوقيف والإلهام قولاً بأن المخصص هو تعالى . وأما الوضع والاصطلاح قولاً بإسناد التخصيص إلى العقلاء . والمرجع بالآخرة فيهما أمر واحد وهو الوضع . لكن الواضع إما الله عز وجل وإمّا غيره . والوضع عبارة عن تعيين اللفظة بإزاء معنىً بنفسها . وكذلك الغزاليّ في كتابه المستصفى في علم الأصول (الجزء الأول ، ص١٤٥) وفخر الدين الرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب » (الجزء الأول ص٢٢ ، والثاني ص١٧٥) . والجاحظ في « الرسائل » (الجزء الأول ص٢٦٢ ، وابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان في تفسير القرآن ، الجزء الأول ص٢١٦) .

٢- **نظرية التوفيق أو الاصطلاح**

يرى معتنقو هذا الرأى أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتوفيق والتواضع وارتجال ألفاظها اصطلاحاً واتفاقاً فيما بينهم [2] ، ومن بين هؤلاء ديموقريطس Democritus (حوالي ٤٦٠ – ٣٧٠ق.م) فيلسوف الذرة اليوناني، وأرسطو Aristotle (٣٨٤ – ٣٢٢ق.م) والأبيقوريون The Epicurians ، والاسفرائيني وأبو إسحق والسيوطي وعبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ – ١٣٣٢م – ٨٠٨هـ – ١٤٠٦م) وابن جني الذي أري أنه يتأرجح بين النظريتين التوقيفية والتوفيقية، وذهب يؤول نص الآية الكريمة « وعلّم آدم الأسماء كلها » بأن الله تعالي أعطي الإنسان القدرة على أن يتواضع على اللغة [3] ، كما ذهب إلى هذا الرأى أيضاً

---

(١) إخوان الصفاء، الرسائل، الجزء الثالث، ص١٤٩ .
وأيضاً كتاب د. المسدي ، التفكير اللساني، ص٦٨ .

(٢) جرجي زيدان ، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، دار الهلال ، القاهرة، د. ت ، ص٥٦ .

(٣) د. على عبد الواحد وافي ، علم اللغة ، ص٩٨ .

آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ – ١٧٩٠) ، وتوماس ريد Thomas Reid (١٧١٠ – ١٧٩٦) ، ودوجلد ستيوارت Duglad Stewart وأبو نصر الفارابي (٨٧٠ – ٩٥٠) ، كما سنتبين فيما بعد .

ويقول ابن جني في « الخصائص » شرحاً لهذا الرأي : « ثم لنعد فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً . وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة، لابد فيه من المواضعة ، قالوا : وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف به سمّاه ، ليمتاز من غيره، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلّف إحضاره لبلوغ الغرض في إبانة حاله » (١) .

ولكن هل فيما ذهب إليه الاصطلاحيون قول معقول ، كيف يجتمع رهط من الناس فيضعوا لكل شيء مسمى، وهناك أشياء كثيرة مادية ومعنوية يعجز الإنسان عن حصرها ، ومن أين لهم بهذا الكم الهائل من الأسماء ، ومن أين استقوها ، هل من شكل الأشياء ، أم من أصواتها ، أو من الغرض من وجودها ، واستعمالها .

لست أدري كيف ذهب الاصطلاحيون إلى مثل هذا الرأي .

ويري الدكتور السدي أنه لا فرق بين من قالوا بالرأي الأول ، إن اللغة توقيف ، وبين من قالوا بالرأي الثاني ، أن اللغة توفيق ، ويري أن الفرق بين الرأيين هو فرق « منهجي تحدده المسافة الفاصلة بين منظور البدء في نقطة الإنطلاق ومنظور الصيرورة عبر النشوء والارتقاء » (٢) .

ويضيف أن وجود رابطة عضوية بين حاجة الإنسان التي تبدو في حياته البيولوجية والاجتماعية تجعل على اللغة أن تستجيب لتلك الحاجات بالذات وليس بغيرها من أجل إحداث نوع من التوازن بين الحاجة وسد الحاجة ، وهذا التوازن ليس عفوياً وإنما لابد فيه من « التعيين » على حد تعبير السكاكي

---

(١) ابن جني ، الخصائص ، الجزء الأول ، ص٤٤ .
(٢) د. عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني ، ص٧٢ .

فالواضع للغة هو المخصص للمدلولات إزاء دوالها . فوظيفته تتمثل في بثّ التعيين « عند الوضع الذي « يستدعي في تحقيق مؤثراً مخصصاً » [(١)] .

ويذهب الفارابي في كتابه « شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة » ، إلى أن ضرورة وجود توازن بين سن دساتير اللغة وضبط بنود القوانين المنظمة للمجتمع « فلما كانت للخطوط دلالتها على الألفاظ باصطلاح ، كذلك دلالة الألفاظ على المعقولات التي في النفس باصطلاح ووضع وشريعة ، فإن الألفاظ تشّرع للأمم كما تشّرع الشرائع في أفعالهم ، يعني أن الألفاظ تشرعها الأمم وتضعها كما تشّرع الشرائع في الأفعال وغيرها » [(٢)] .

وقد ذهب إلى مثل ذلك أخوان الصفاء في رسائلهم [(*)] .

وعلي كل حال فليس لهذه النظرية من سند عقلي ؛ لأنها تتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية ، كما يقول الدكتور عبد الواحد وافي – رحمه الله – في كتابه « علم اللغة » .

ولم يخص عبد الرحمن بن خلدون في « المقدمة » مناقشة الخلاف الناشب بين المفكرين حول أصل اللغة ونشأتها وهل هي توقيفية أم توفيقية ، بل إنه ناقش الأمر باعتباره أمراً واقعاً وشبّه اللغة بالصناعة والصناعة ليست إلهاماً أو وحياً بل هي تعلم وخبرة وكذلك اللغة يلوكها اللسان فيجيدها بالممارسة حتي تصبح عنده صفة راسخة وملكة مكتسبة . ولعل النص الآتي يؤيد ما ذهبنا إليه الآن :

« اعلم أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة إذ هي ملَكَات في اللسان للعبارة عن المعاني ، وجودتها وتصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها ، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب . فإذا حصلت الملكة التامة

---

(١) نفس المرجع ، ص٧٣ .
عن أبو يعقوب بن على السكاكي ، مفتاح العلوم ، القاهرة ، الطبعة الأولي ١٩٣٧ ، ص١٦٩ .

(٢) أبو نصر الفارابي ، شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة ، نشر فلهلم كوتش اليسوعي ، وستانلي مارو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، ببروت ١٩٦٠ ، ص٢٧ .

(*) رسائل أخوان الصفاء ، خاصة الجزء الثالث ، وعلي الأخص الصحف ١١٤ – ١١٥ ، ١٤٩ – ١٥٠ .

في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع ، وهذا هو معني البلاغة . والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ؛ لأن الفصل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ، ثم تكرار فتكون حالاً ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة » [1] .

ومن نص ابن خلدون السابق نرى أنه أخذ جانب نظرية التوفيق والاصطلاح والتواضع ، فاللغة صناعة لا يمتلكها الإنسان إلا بالتدريب عليها حتي يجيدها، وإذا ما حدث نقصان فالسبب يعود إلى قلة التدريب وعدم تمامه. والمعاني لا تصاغ إلا بالتأليف ؛ فيقوم الإنسان بتأليف الألفاظ والمعاني حتي يكون لكلامه معنى فإذا سمع سامع هذا الكلام أدرك معناه ، فإذا لم يدرك المعني منه كان هناك نقص في اختيار الألفاظ أو فساد في تركيب اللفظ مع المعنى حتي يرى الغرض المطلوب منه . فإذا أراد المرء اكتساب ملكة اللغة فعليه بالتكرار الأفعال ، أي فعل التحصيل وفعل التركيب والتأليف حتى يمتلك ناصية اللغة فتؤدي الغرض منها وهي تحقيق الاتصال مع الآخر وهذا يعني أن اللغة ليست إلهاماً ، وإنكار أو تأويل للآية الكريمة « وعلّم آدم الأسماء » بحيث ينتفي الإلهام وتنتفي صفة التعلم من الله تعالى للإنسان سواء بالوحي أو الإلهام أو بأي وسيلة إلهية أخرى .

٣- نظرية المحاكاة الطبيعية

يمكن أن نطلق على المحاكاة الطبيعية لفظة « نظرية » تجاوزاً ، فهي موقف أكثر منها نظرية ، وهي وجهة نظر أكثر منها نظرية ، ويرى أصحاب هذه النظرية بوجه عام أن اللغة نشأت من الأصوات الطبيعية بسبب تقليد الإنسان في بداياته الأولى على الأرض أصوات الأشياء من حوله ، ويريد أن يخبر عنها ، أو يشير إليها ، كصوت الحيوانات والأشياء كما سنوضح فيما يأتي . ونتجت اللغة من قدرته على إصدار أصواتاً مركبة من مقاطع ، ثم بدأ الإنسان

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة .

في الاستغناء رويداً رويداً ، وشيئاً فشيئاً عن الإشارات ، رهم يرجعون التغير الذي حدث بين اللغة الحالية واللغة في بداياتها إلى تغير أعضاء النطق والعلاقات المجاورة والمشابهة . ويميل جرجي زيدان نحو هذه النظرية ويعتبر من المؤيدين لوجهة نظر المحاكاة الطبيعية [١] .

وتنقسم نظرية المحاكاة الطبيعية إلى أربعة أقسام ويسميها الدكتور علي عبد الواحد وافي – رحمه الله – الطوائف الأربع بين أصوات الكلمة ومدلولاتها وتوجد في جميع اللغات ، وسببها – كما ذكرت – في الفقرة السابقة محاكاة (تقليد) الإنسان للأصوات التي تصدر من الحيوانات والأشياء وأصواتها عند وقوعها . وهذه الأقسام أو الطوائف هي [٢] :

أ- نظرية محاكاة أصوات الطبيعة ، أو نظرية البو - وو/ واو Bow - wow :

يذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن أصل اللغة هو محاكاة الأصوات الطبيعية ، مثل أصوات الحيوانات، وأصوات مظاهر الطبيعية من رياح وأمطار وبرق ورعد وغيرها ، ثم تطورت الألفاظ الدالة على المحاكاة ، وارتفعت بفعل ارتقاء القدرات العقلية عند الإنسان ، وتقدمه في الحضارة والثقافة ويوافق ابن جنيّ أصحاب هذه النظرية فيما ذهبوا إليه فنجده يقول في « الخصائص » : «وذهب بعضهم إلى أن اللغات كلها إنما هي من الأصوات المسموعات كدويّ الريح، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيح الحمار ، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس ، ونزيب (صوت تيس الظباء عند السقاء) الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل » [٣] .

كما يستدل أصحاب هذه النظرية على صحتها – من وجهة نظرهم – على لغة الطفل في بداياته الأولي الذي يلجأ إلى التعبير الإرادي بمحاكاة الأصوات الطبيعية ، فضلاً عن التشابه في خصائص اللغات لدي الأمم البدائية Primitive nations .

---

(١) جرجى زيدان، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، ص ص٥٧ – ٥٩ .

(٢) د. على عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، ص١٧٧ وعلم اللغة ، ص ص١٠٣ – ١٠٦ .

(٣) ابن جنيّ ، الخصائص ، الجزء الأول ، ص ص٤٦ – ٤٧ .

ب- نظرية محاكاة الأصوات معانيها ، أو نظرية دينج دونج Ding dong :

وهي تشبه النظرية السابقة Bow - wow من حيث تأكيدها على جرس الكلمة . وقد أعجب ابن جني بهذه النظرية حتى أنه أطلق على الباب الأول من كتابه « باب في تعاقب الألفاظ لتعاقب المعاني » والثاني « باب في امساس الألفاظ أشباه المعاني » وينسب للخليل بن أحمد (٧١٨م – ٧٨٦م) صاحب كتاب « العين » وعمرو بن عثمان (٧٦٥م – ٧٩٦م) الملقب بسيبويه (ومعناه بالفارسية رائحة التفاح) اتفاقهما معه في هذا الرأي .

فقد قال الخليل بن أحمد : « كأنهم توّهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا : صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : « صرصر » . بينما قال سيبويه إن المصادر التي جاءت على الفعلان نحو : النقزان، والغليان، والغثيان، إنما جاءت للتعبير عن الاضطراب والحركة . كما أعجب بهذه النظرية الباحث اللغوي والفقيه اللبناني العلامة الشيخ صبحي الصالح وبين ذلك في كتابه «دراسات في فقه اللغة » [١] .

جـ- نظرية الأصوات التعجبية العاطفية ، أو نظرية بوه - بوه Pooh - Pooh :

يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية لا ترد إلى التوقيف أو التوفيق ولكنها ترد إلى العواطف الإنسانية وصيحات التعجب وكلها صور غريزية عفوية تعبر عن مشاعر الفرح أو الألم ، أو الحزن والاستغراب مثل تعبير الأه ... والأف والوي وغيرها [٢] .

د- نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية ، أو نظرية يو - هي - هو yô - hê - hô :

فقد رأى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية بدأت بالمقاطع الطبيعية التي تصدر عن الإنسان بطريقة تلقائية ، خاصة إذا استخدم اللغة الجسمية ويقصد بها استخدام أعضاء الجسم في العمل اليدوي، أو في التعبير عن حاجة ما.

---

(١) صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة التاسعة ١٩٨١ ، ص١٤١ .

(٢) د. أنيس فريحة ، نظريات في اللغة ، ص١٨ .

وقد لخص الدكتور علي عبد الواحد وافي - رحمه الله تعالى - في كتابه «فقه اللغة» هذه النظريات بطريقة أخرى، أعرضها هنا أمام أعين القارئ الكريم لتزداد الصورة وضوحاً [1] .

يذكر الدكتور وافي أن هناك علاقة طبيعية توجد وتوّحد بين المجموعات الأربع لأصوات اللغة سواء أكان ذلك في اللغة العربية ومدلولها أو التي يوجد مثلها في سائر اللغات الأخرى . ويرجع السبب في هذه العلاقة إلى النشأة الأولى للغة الإنسان. ويزيد الدكتور وافي الأمر وضوحاً بقوله إن الرأي الراجح لنشأتها إنما يرجع إلى محاكاة الإنسان للأصوات التي تصدر عن الحيوانات والأشياء ومظاهر الطبيعة .

وقد بنى بعض العلماء على فرض تشارلز دارون Charles Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذي افترض في كتابه «أصل الأنواع» وأقصد به فرض «الاستعمال والإغفال» Use and disuse ومؤداه أن العضو المستعمل يظل «في الخدمة» والعضو الذي لا يستعمل يضمحل . وبناءً عليه افترض أتباع دارون والسائرون على نهجه أن الانسان الأول كان يعبّر عن حاجاته بالإشارة . وأنه استعمل في عصر متأخر حركات الفم والوجه للتعبير عن هذه الحاجات بدلاً من يديه التي كان يتصادف أنهما مشغولتان بعمل ما من الأعمال . وقد تطور الفم بحيث أصبح أكثر ملاءمة لهذه الوظائف، وساهمت الأوتار الصوتية في هذا العمل ... فنشأت اللغة [2] .

١ - ويقصد بالمجموعات الأربع لأصوات الكلمة العربية ومدلولها : الكلمات الدالة على أصوات الإنسان مثل القهقهة والتمطق (صوت المتذوق إذا صوّت باللسان) والدندنة والتغمغم (صوت بكلام غير واضح) والضوضاء ، والصراخ ، والزعقة، والنحنحة، والتنحنح، والهمهمة ، والرنين وغيرها .

٢ - ومن الكلمات الدالة على صوت الحيوان : رغاء الناقة وبغامها ، وهدير الجمل وقرقرته ، وصهيل الفرس وضبحه إذا عدا وحمحمته عند الجوع

---

(١) د. علي عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية، د.ت (الطبعة الأولي ١٩٤٥) ، ص ص١٠٣ - ١٠٦ .

(٢) د. عبد الرحمن أيوب ، محاضرات في اللغة ، ص١٢ .

والاستئناس ، وشحيح البغل ، ونهيق الحمار، وخوار البقر، وثغاء الغنم، وزئير الأسد، وعواء الذئب وتضوره وتلعله عند جوعه ، ونباح الكلب وضغاؤه إذا جاع وقوقته إذا خاف وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء القطة (الهرة)، وصرصرة البازي ، وقعقعة الصقر، وهدير الحمام، وشجع القمري، وزقزقة العصفور، ونعيق الغراب، وفحيح الحيات بفيها وكشيشها بجلدها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونقيق الضفدع، وطنين الذباب والبعوض، وما إليها ، مثل هدر وقرقر وصهل وحمحم ونهق وزأر وعوى وتلعلع ونبح وزقزق ونعق وما إليها .

٣- ومن الكلمات الدالة على أصوات الأشياء : خرير الماء والقرقرة (صوت الإناء إذا استخرج منه الشراب)، والنشيش (صوت غليان الشراب)، والشخب (صوت اللبن عند حلبه)، والحسيس والمعمعة (صوت النار)، والأزيز (صوت المرجل عند الغليان)، وهزير الريح ، وهزيم الرعد، وجعجعة الرحى، وصرير القلم والباب، وقلقلة القفل، وخفق النعل... وهلم جرا .

٤- ومن الكلمات الدالة على الأفعال التي يحدثها الإنسان أو غيره : القَطع ، والقطف ، والقضم، والقط ، والقد، والفري، والفرز، والكسر ، والدق، والقرع، والهد... وغيرها (١) .

وهناك مجموعة أخرى سمّاها الكلمات ذات العلاقات الوضعية وهي غير مؤسسة على محاكاة الأصوات ، ومنها الاشتقاق العام مثل ومقلّم : والاشتقاق الكبير ويقصد به ترابط مجموعات ثلاثية من الأصوات ببعض المعاني ارتباطاً مطلقاً غير مقي١د بترتيب مثل : ج ب ر ، ق س و ، ن ج د ، ر ك ب ، س ل م أ وبحسب ترتيبها فقط مثل : امتقع لونه وانتفع، وكبحت الفرس وكمحته وغيرها كثير .

ولمعرفة كيف نشأت لغة الإنسان الأول افترض بعض اللغويين وسيلتين ظنيتين لمعرفتها وهما :

* لغة البدائيين من البشر وهم المتأثرون بالثقافات البدائية Ethnologists .

* لغة الطفل ويقول بها المتأثرون بنظرية التلخيص التي جاء بها علماء

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .

الأحياء Biologists وقد ذهبوا إلى أن حياة الفرد إنما هي تلخيص لحياة الجنس البشري كله (١) .

٤- نظرية الغريزة :

يري أصحاب هذه النظرية ومنهم إرنست رينان وماكس موللر أن اللغة غريزة instinct مزود بها كل أفراد النوع الإنساني ، وكانت تحمل التعبير عن كل ما هو حسي أو معنوي كل بحسب طريقته ، وكانت هذه الغريزة متحدة ومترابطة مما أدي إلى ظهور اللغة الإنسانية التي بدأت تسود وفي نفس الوقت بدأت الغريزة في التلاشي شيئاً فشيئاً (٢) .

وقد استدل موللر على غريزية اللغة من بحثه في اللغات الهندية الأوروبية واتضح له من خلال البحث والتمحيص أن لهذه اللغات خمسمائة أصل مشترك، وفي نفس الوقت نفي أن يكون المظهر الصوتي للغة هو سبب اشتراكها معاً في أصل واحد ، وكذلك نفي أن يكون مظهر الإشارة سبباً لها فلابد لديه من وجود الألفاظ ودلل على ذلك بإصدار الإنسان لأصوات مركبة من مقاطع ، وأن إدراك الإنسان للمعاني الكلية إنما هي بقايا لغة قطعت شوطاً طويلاً ومضنياً في سبيل الرقي والكمال .

ويقص علينا ماريون بي Marion Pei في كتابه « قصة اللغة » The story of language » قصة تبين لنا أن اللغة ليست ظاهرة غريزة تلقائية (٣) .

قام الملك المصري القديم « بسماتيك » بأول محاولة للتأكد من غريزية اللغة عند الإنسان ، بينما قام الملك فردريك الثاني في صقلية عام ١٢٠٠ ميلادية بالمحاولة الثانية، وقام الملك جيمس الرابع بالمحاولة الثالثة في اسكتلندا حوالي عام ١٥٠٠ ميلادية. ولم تضف هذه القصص والمحاولات شيئاً لمعرفة إذا كانت اللغة غريزية في الإنسان أم لا . فإن الأطفال الذين لم يتعلموا منذ صغرهم

---

(١) د. عبد الرحمن أيوب ، محاضرات في اللغة ، ص ص١٤ - ١٥ .

(٢) جرجي زيدان ، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، ص٥٧ .

(3) Pei, Marion, The story of language, Mentor Books, New York, 1960, pp. 161 - 66 .

عن : د. أحمد أبو زيد ، حضارة اللغة ، ص١٥ .

اللغات الإنسانية ، أو الذين نشأوا بين الحيوانات مثل القردة أو الذئاب أو الكلاب أو الغزلان . لم يلبثوا أن تقبلوا تلك اللغات بسهولة وبسرعة ، اتصلوا بالناس، وعاشوا بينهم عيشة سوية ، وهو أمر لا يمكن للحيوانات التي كانوا يلعبون معها أو نشأوا وسط تجمعاتهم أن تفعله ، فالإنسان مكيف تكيفاً طبيعياً إلهياً على تقبل اللغة والكلام مادام يمتلك أجهزة صوتية سليمة. فإذا اعتبرنا أن أصوات الحيوانات «لغات » فإنها لغات تتميز بالرتابة وعدم التنوع أو التغير، فضلاً عن عدم امتلاكها القدرة على تطوير هذه اللغات أو اشتقاق معانٍ جديدة منها ، أنها أصوات – قد تكون لغوية – ولكنها تتم بالغريزة ، وهذه إحدى قدرات الله تعالى المطلقة التي لا بداية لها ولا إنتهاء .

ثانياً : نقد النظريات السابقة :

تعرضت كافة النظريات السابقة للنقد والاعتراض كل بحسب موقفه وإيمانه الذي يؤمن به ؛ فقد اعترض المعترضون على نظرية التوقيف الإلهي بسبب اعتمادها على النقل لا العقل، فقد استند مؤيدوها على الآيات التي وردت في العهد القديم « سفر التكوين » وفي القرآن الكريم « سورة البقرة » ، وذهب النقاد إلى أن الله تعالي لم يلهم الإنسان باللغة ولم يعلمه إياها بل إنه منح الإنسان القدرة على وضع الألفاظ ومنهم ابن جنيّ .

بينما تعرضت نظرية التوفيق والاصطلاح لنفس الاعتراض والنقد بسبب عدم اعتمادها على سند نقلي أو عقلي ، فهي مجرد فرض يقوم على التخمين والظن ؛ لأن الاصطلاح نفسه يحتاج إلى نواميس عامة قد يسير بمقتضاها أي نظام إنساني سواء كان نظماً اجتماعية أم نظماً لغوية ، فكيف نشأ التواضع الأول أو الاتفاق والاصطلاح... إن هذا التواضع الأول كان يحتاج إلى لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون . فإن كانت غائبة في ذلك الوقت فكيف اتفقوا فيما بينهم ؟

ولئن كانت نظرية التوفيق الإلاهي لها صفة التنزيل الزماني المطلق الذي تتصف به الذات الإلهية، ولئن كانت نظرية التشريع الوضعي نظرية أنيّة زمانية تصور صدور قوانين الضبط اللغوي صدوراً إجرائياً شأنه شأن بقية النظم الاجتماعية والسياسية والقانونية الخ ... فإن نظرية المحاكاة الطبيعية جاءت

ائتلافاً وتمازجاً بين المنظورين ، التوقيفي والتوفيقي ، فهي ترى أن اللغة سارت منذ نشأتها على درب التطور والتوالد ، بالإضافة إلى أن أصحابها ينظرون إلى اللغة كما لو كانت كائناً سكونياً ثابتاً لا يتطور [1] .

ويرى أصحاب هذه الاتجاهات التي تعتمد على المحاكاة الطبيعية بكافة اتجاهاتها أن اللغة سواء أكان ذلك في ألفاظها واتساع حروفها أو في تعريف تراكيبها إنما هي من نتاج طبائع البشر، أو كما يقول إخوان الصفاء « طبائع أهلها وهوية بلدانهم وأغذيتهم وما أوجبته لهم دلائل مواليدهم ... وبقاعهم وأمزجتهم وطباعهم وأبدانهم وأهويتهم » [2] .

وإذا كان ابن جني يرى أن اللغة في مبتدئها محاكاة لأصوات طبيعية، فقد أكد أبو نصر الفارابي على ذلك بل وأنزل قضية المحاكاة في سياق التماثل الحاصل بين الألفاظ والمعاني على أساس وبعد اقرار مبدأ التأمل بأن « أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحيٌ وتوقيف » [3] .

إن أصحاب نظريات المحاكاة الطبيعية لم يستطيعوا تقديم أدلة مقنعة على صدق نظرياتهم ووجهات نظرهم ، إذ كيف استغل الإنسان « الأصوات » في وضع آلاف الكلمات التي ليس لها علاقة واضحة بين معناها وصوتها ، مثل لفظة « إبريق » و « كتاب » و « شجرة » ، و « سقف » وغيرها : لابد من تدخل العقل ، وكيف يتدخل العقل بدون لغة واضحة يفكر بها » ولو كانت هذه النظرية صحيحة ، لكان كل إنسان يهتدي إلى كل لغة ، ولما صحّ وضع اللفظ للضدّين، كالحميم للبارد والحار، والجون للأبيض والأسود، ولما كانت اللغات مختلفة في الرمز على الشيء الواحد » [4] .

« وهكذا نرى أن النظريات التي حاولت تفسير نشأة اللغة ، رُفضت جميعاً ، لأنها لم تفسّر إلا جانباً ضيقاً جداً من اللغة . وتطوّر الإنسان من حيوان أبكم ،

---

(١) د. عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني ...، ص٧٨ .

(٢) إخوان الصفاء ، الرسائل ، الجزء الثالث ، ص ص١١٤ ، ١٥١ – ١٥٢ .
عن : د. عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني ، ص ص٧٨ – ٧٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص٧٩ .

(٤) د. أنيس فريحة ، نظريات في اللغة ، ص ص١٩ – ٢٠ .

إن صح التعبير، إلى « حيوان ناطق » يكتنفه كثير من الحجب والغموض بسبب رجوعه إلى عهود سحيقة في القدم، ولا نستطيع هتك هذه الحجب، إلا بالحدس والخيال ، والغيبيات، وهذه الأمور ، يرفضها علم اللغة الحديث؛ لأن هذا العلم، لا يبحث إلا فيما توكّده « المادة المحسوسة » [1] .

ثالثاً : تطور الدراسات اللغوية :

يعني تطور الدراسات اللغوية أن اللغة كائن حيٌّ تخضع للنمو والتطور شأنها في ذلك شأن كل الكائنات ، فإذا كنا نري أن اللغة هي الإنسان والإنسان هو اللغة ، وأن الإنسان يتطور وينمو بحيث تأخذ حياته سواء أكانت فزيولوجية أم روحية أم عقلية أم جنسية أم علمية أشكالاً متعددة من أشكال النمو والتطور فتبدأ من الأقل إلى الأكثر ، ومن الأدنى إلى الأعلى ، ومن الدونية إلى الرقيّ ، فكذلك اللغة شأنها شأن كل كائن .

ولا شك أن الاهتمام باللغة والدراسات التي دارت من حولها شملت جميع الأمم القديمة تقريباً ، وهي الأمم ذات الحضارات المؤثرة في مسيرة التاريخ البشري ، لذلك فلابد من القاء – ولو بعض الأضواء – على مثل هذه الدراسات لمعرفة كيفية التطور وأشكاله، وإلي أي مدي وصلت هذه الدراسات بتاريخ اللغة History of language ، فهي تجسيد للثقافة التي ترتبط بها، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخري فإنها تعبر عن « الفئات الاجتماعية » Social classes عبر مراحل التغيرات الاجتماعية، والسياسية ، والثقافية ، إن هدف الذين درسوا اللغة، كان دراسة كيفية تطور اللغة ذاتها أي دراسة القاموس اللغري الكميّ والمنطوق والمستخدم بالفعل ، بالإضافة إلى دراسة كيفية تأثير ثقافة الفئة الاجتماعية أو حتى ثقافة المجتمع ككل في تطور اللغة وبالتالي تطور الثقافة ، وهناك هدف ثالث يتركز حول دراسة تأثير تغير اللغة في تطور « العقليات الاجتماعية » ، ومن هنا أصبح علم « تاريخ اللغة » من المصادر المهمة في دراسة علم التاريخ العام ، أي الحضارة وكل ما يمت بصلة لها .

---

(١) انظر :

* د. عبده الراجحي ، فقه اللغة في الكتب العربية ، ص ٧٧ .
* د. أنيس فريحة ، نظريات في اللغة ، ص١٦ .

وسوف أعرض لتطور الدراسات اللغوية عند الأمم السابقة فيما يأتي :

١- الهنـود

ظهرت لدى الهنود دراسات لغوية مهمة تناولت اللغة السنسكريتية Sanskrit (لغة الهند الكلاسيكية) وكانت هذه الدراسات على مستوى عالٍ من التنظيم والدقة، وشملت مختلف فروع علم اللغة من أصوات واشتقاقات ونحو ومعاجم فضلاً عن إشكاليات فقه اللغة ، وأقدم فترة لهذه الدراسات وصلت إلينا كانت حوالى القرن الخامس قبل الميلاد .

« أما الدراسة الصوتية عندهم فكانت متنوعة وشاملة لمعظم هذا العلم فدرسوا الصوت المفرد وقسّموه إلى علل وأنصاف علل وسواكن ، وقسّموا العللِ إلى بسيطة ومركبة، كما قسّموا السواكن بحسب مخارجها. وتوصل الهنود إلى أثر القفل في إنتاج الأصوات الإنفجارية ، والفتح في إنتاج أصوات العلة، والتضييق في إنتاج الأصوات الاحتكاكية ، وتحدث الهنود عن كيفية تسرب الهواء من التجويف الحنجري ، وذكروا أنه إذا فتح ما بين الوِترين الصوتيين ينتج النفس ، وإذا ضيّق ما بينهما ينتج الصوت، وصرحوا بأن النفس يحدث في حالة الأصوات الساكنة المهموسة ، والصوت في حالة السواكن المجهورة أو العلل» [١].

وتحدثوا أيضاً بالتفصيل عن المقاطع، كما وضعوا قواعد دقيقة للنبر في لغتهم القديمة ، واعتبروه من خصائص العلل لا السواكن ، وقسّموه إلى درجات ثلاث.

وقد أشاد علماء اللغة الأوروبيون بالدراسات الصوتية الهندية ومنهم البروفيسور ألن Allan الذي قال: « إن الاتصال بين الهنود القدماء والمدارس الغربية الحديثة في دراسة علم اللغة أشد وأوثق في مجال الأصوات عنه في مجال النحو » . وقال العالم جون روبرت فيرث (من العلماء البريطانيين في علم اللغة) : إن المدرسة الأصواتية الإنجليزية لم تنشأ في القرن التاسع عشر إلا على أكتاف المعلومات التي قدمها وليم جونز عن النحاة والأصواتيين الهنود » [٢] .

---

(١) د. أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب (مع دراسة لقضية التأثير والتأثر)، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ ، ص٤١ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص٤٢ .

ويمثل كتاب « بانيني » « الأقسام الثمانية » Ashtàdhyàyi قمة نضج هذه الدراسات وقد كتبه « بانينيُ » في شكل قواعد مختصرة حاول فيه التوفيق بين الآراء المتعارضة في هذا الخصوص .

وأهم ما يميز « النحو » الهندي ما يأتي :

أ- جمع المادة اللغوية ثم استخلاص الحقائق منها .

ب- أنه سبق النحو اليوناني في تحديد أقسام الكلام : اسم وفعل وحرف وإضافة وأدوات .

جـ- أنه حلل هذه الأقسام إلى عواملها الأولية فميّز بين الجذر أو الأصل وبين الزيادة أو الحروف التشكيلية .

د- عرّف النحو الهندي الأعداد الثلاثة : المفرد والمثني والجمع .

هـ- قسّم النحو الهندي الفعل السنسكريتي إلى ثلاثة أقسام بحسب الزمن وهي : ماضي وحاضر ومستقبل .

وكانت لدى الهنود القدماء أعمال معجمية بدأوها بوضع قوائم تضم الألفاظ الصعبة الموجودة في نصوصهم المقدسة . ثم تطور هذا النظام فالحق بكل لفظ في القائمة شرح لمعناه ، ويمكن أن يعتبر هذا العمل من نوع « معاجم الموضوعات » ، أو « معاجم المعاني » . وبعد ذلك ظهرت كتب لا تقتصر على ألفاظ النصوص المقدسة فقط، بل تتعداها إلى غيرها من الألفاظ .

ويعتبر أقدم معجم هندي وصل إلينا المعجم الذي ظهر في القرن السادس الميلادي أو قبله بقليل لمؤلف بوذي يدعي « أمارا سنها » Amara Sinha وقد ضم هذا المعجم الذي سمي باسمه « أمارا كوسا » Amara Kosa جزءاً به كلمات المترادفات ، وجزءاً آخر في كلمات المشترك اللفظي ، وجزءاً ثالثاً عن الكلمات غير المتصرفة ، والكلمات المذكرة أو المؤنثة أو المحايدة . ويعيب هذا الكتاب وأمثاله أنه كتب في شكل منظوم ليسهل حفظه ، وأنه لم يتبع أي ترتيب ييسر اللجوء إليه والعثور على المراد منه بسرعة ، فيماعدا جزء « المشترك اللغوي » الذي رتب بحسب الحروف الساكنة في أواخر كلماته (١) .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤٣ .

٢- اليونانيون

ظهرت فلسفة اللغة The philosophy of language لدى اليونانيين القدماء في عصر ما قبل سقراط Presocratic era ، وهو تعبير يعتبره البعض غامضاً ، ففي عصر ما قبل سقراط كان هناك مفكرون ولكنهم ليسوا فلاسفة بالمعنى الذي يطلق على سقراط وأفلاطون وأرسطو . فقد أسس هؤلاء الثلاثة الميتافيزيقا اليونانية، بينما لم يترك المفكرون الآخرون - وهم الذين ظهروا في عصر ما قبل سقراط - كتابات بالمعنى المفهوم ولكن مجرد شذرات Fragments وحتى هذه الشذرات قد كتبت بلغة أصبحت الآن لغة ميتة a dead and primordial language ، فلم تعد تستخدم هذه اللغة الآن ماعدا في حالات محدودة يطلبها المتخصصون فيما بينهم ولكنها لم تعد تستخدم بين الناس على الرغم من مكانتها السابقة في إرساء دعائم الخطاب الفلسفي philosophical discourse للبشرية [١] .

وارتبط التفكير اللغوي عند اليونان القديمة بالفلسفة philosophia وهي علم كان يغطي مجالاً أوسع عندهم من مصطلح الفلسفة philosophy اليوم ، لذلك نجد أن أسماء اللغويين اليونانيين الأوائل هي هي أسماء فلاسفتهم الأولين ، ويقال إن أول عمل لغوي في اليونان - وقد تم بالطبع قبل وصول أي تسجيلات- كان تطوير نظام هجائي للكتابة في أوائل الألف سنة قبل الميلاد ، أي قبل بداية ظهور الفلاسفة الطبيعيين الأوائل بعدة قرون . وفي هذا النظام الهجائي استطاع اليونانيون الأوائل تمثيل كل الأصوات سواء السواكن أو العلل ، وكذلك مثّل للنبر برموز خاصة [٢] . وقسّموا « الجنس » قسمة ثلاثية إلى « مذكر »

---

(1) Borgmann, Albert, The philosophy of language : Historical Foundations and contemporary Issues, Martinus Nijhoff, The Hague, 1974, p. 3.

وأيضاً :

Kirk, G. S. and Raven, J. E., The presocratic philosophers, Cambridge, London, 1966 .

(٢) د. أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب ، ص٤٤ .

عن : Robins, R. H., A short history of linguistics, 1967 .

و«مؤنث» و « محايد » . كما نجد أن أسماء الذوات لا تتطابق في اللغات جميعاً من حيث الجنس : وأوضح مثال على ذلك « القمر » و « الشمس » ، فالقمر مذكر في العربية مؤنث في الفرنسية ، والشمس على العكس (١) .

ويعد هيراقليطس Heraclitus (حوالى ٥٤٠ -حوالي ٤٨٠ق.م) هو أول من بدأ تناول فلسفة اللغة وذلك من خلال ما وصلنا من شذرات لكتاب « الطبيعة » Nature وقد حذرنا فيه من تعلم أشياء كثيرة فهي لن تعلمنا شيء (*) .

ويعاود القول في الشذرة التي تليها :

« الحكمة هي شيء واحد : أن تفهم الفكر الذي يوجه جميع الأشياء من خلال جميع الأشياء » (*) .

إن اللغة التي استخدمها هيراقليطس لتبين لنا نشأة فلسفة اللغة ، فقد ارتبطت اللغة بالفلسفة منذ البداية . كما يعتبر هيراقليطس هو أول من استخدم التجانس اللفظي Homonymy وعلم دراسة أصل الكلمات وتاريخها Etymology . فالتجانس اللفظي وعلم دراسة أصل الكلمات وتاريخها إشكاليتان مترابطتان منذ بداية الفكر الإنساني، ولكن هيراقليطس لم يخض فيهما كاشكاليتان نظريتان ، بل إنه خاض فيهما تطبيقاً وعملاً، بمعني أنه استخدم في شذراته كلمات تدخل في الإشكالية ولم ينظّر لهما. وبهذا يرى ألبرت بورجمان أن هيراقليطس ولّد فلسفة اللغة ولكنه لم يقدم فلسفة للغة بالمعني الذي نفهمه اليوم، فظلت الإشكالية مطروحة على الساحة لمن يمتلك ناصية القدرة على البحث فيها (٢) .

---

(١) د. محمود السعران ، علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٤١٢هـ ، يناير ١٩٩٢م ، ص٧٦ .

(*) Fr. 40 : learning of many things does not teach one to have insight .

(*) Fr. 41 : Wisdom is but one thing : to understand the thought which steers all things through all things.

(2) Borgmann, Albert, The philosophy of language, pp. 5 - 7 .

وأيضاً :

* Kirk, G. S., Heraclitus' contribution to the development of a language for philosophy .
* Kahn, Charles E., A new look at Heraclitus, American philosophical quarterly, I, 1964, pp. 189 - 203.

ولما ظهر السوفسطائيون أدركوا إشكالية اللغة إلا أنهم لم يمايزوا بين اللغة والواقع . فاللغة بالنسبة إليهم كانت جزءاً من الواقع ، والواقع هو أساس الوجود، أو هو الوجود الحقيقي. ولكنهم بدلاً من معالجتها كإشكالية لغوية ذهب بروتاجوراس Protogoras (٤٨٠ - ٤١٠ ق.م) إلى القول بأن « الإنسان مقياس الأشياء جميعاً، مقياس الأشياء التي توجد والأشياء التي لا توجد وهو مصدرها (أو عقلها) ، فلا شيء يوجد في الحقيقة. ومستحيل على الإنسان أن يفعل شيئاً خطأ طالما أنه لا يوجد معيار آخر خارج الإنسان ومستقل عنه يمكن أن نقيس به الأفعال التي يأتي بها . فالإنسان يتعامل بنجاح مع الواقع من خلال الكلام والجدل والحجج ، واللغة هي الشكل أو هي الإطار الذي يعبر من خلاله الإنسان عن الواقع [1] .

ثم عاد السوفسطائيون يقولون إن اللغة هي التي تمنح الواقع وتعطيه وجوده، فمن المستحيل أن تكون جزءاً منه ، وأن الواقع مستحيل أن يكون سابقاً على اللغة .

وإذا كان موقف بروتاجوراس قد بيّن أنه لا يوجد استخدام خاطئ للغة ، فإن جورجياس Gorgias (٤٨٣ - ٣٧٥ ق.م) يري أنه لا يوجد استخدام صحيح للغة، فقد برهن في كتابه Not-Being أو « في الطبيعة » On Nature عن طريق قضاياه الثلاث التي ساقها وهي : أنه لا يوجد شيء . وحتى لو وجد هذا الشيء فإن الناس لن تعرفه . وحتى إذا عرفوه فإنهم لن يستطيعوا توصيله إلى الغير. بهذا أغلق الطريق أمام المعرفة وفتح طريقاً آخر أمام الشك والإستحالة .

وعلي الرغم من أن السوفسطائيين لم يمايزوا بين اللغة والواقع ، فإنهم كانوا على وعي بتركيبات اللغة وتقنياتها . وقد فقدت نتائج أبحاثهم اللغوية ، ولكن قد نجدها حية في الأعمال اللاحقة التي قام بها النحويون والفلاسفة الذين أتوا من بعدهم [2] .

ثم أتي سقراط Socrates (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م) الذي كان يرى أن لكل شيء طبيعة أو ماهية هي حقيقته ، ويتم كشفها عن طريق العقل ، لذلك يذهب

---

(1) Ibid. p. 17.

(2) Ibid., p. 18 .

إلى ما وراء الأعراض المحسوسة الزائلة والمتغيرة إلى التعبير عن المعاني باستخدام الحد لأن غاية العلم هي إدراك الماهيات أي صفات الأشياء الجوهرية .

واستعان سقراط بالمنهج الاستقرائي حتى يتسنى له التدرج من الجزئيات إلى الماهيات المشتركة فيما بينها ، يتساءل سقراط ما الخير ، وما الشر ، وما العدل ، وما الظلم ، وما الحكمة ، وما الجنون ، وما الشجاعة ، وما الجبن ، وما التقوى، وما الإلحاد، فكان اجتهاده في حد الألفاظ والمعاني لكي يكون حداً جامعاً مانعاً ، ومن هنا حق لنا أن نقول عن سقراط إنه مؤسس علم المعاني المعاصر.

وكان سقراط يضع الأشياء في أجناس وأنواع ليمنع الخلط فيما بينها، في حين كان السوفسطائيون يستفيدون من اشتراط الألفاظ وإبهام المعاني، ويتهربون من الحد الذي يكشف المغالطة . فكان الحد الكلي عنده يقوم على اكتساب الحد بالاستقراء ، وتركيب القياس بالحد (1) .

إذاً فقد أقام سقراط بحثه على أساس الربط بين الكليات والتعريفات بالإضافة إلى استخدامه للاستدلال الاستقرائي، فهو أول من أقام العلم على التعريفات وسبق بها مدرسة التحليل الحديثة والمعاصرة خاصة عند چورچ أدوارد مور وبرتراند رسل . فالتعريف يؤكد كلية المعرفة، وضرورة قضاياه ضرورة منطقية مطلقة ، أي أن إنكارها يوقعنا في الخطأ والتناقض (2) .

وقد أكد أرسطو في كتابه « الميتافيزيقا » في مقالة الألف الفصل السادس وما بعده ، ومقالة الميم الفصل الرابع وما بعده ، على جدارة سقراط واستحقاقه أن يكون هو أول من وضع قواعد فلسفة المعاني أو الماهيات وعرّف بها الناس ، وعالجها بعد ذلك كل من أفلاطون وأرسطو .

وانتقل البحث في اللغة بعد ذلك إلى أفلاطون Plato (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) وبهذه النقلة انتقل البحث من البحث في التناسق في اللغة The harmony with

---

(1) Aristotle, Metaphysics, B4, ch.6, 987, a 1-4, and 1078 B16, 4- 13.
وأيضاً : د. محمد فتحي عبد الله ، نظرية المعرفة عند فلاسفة اليونان ، الدار الأندلسية، الإسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص١٩ .

(٢) د. محمد على أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس إلى أفلاطون ، الجزء الأول ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٦٥ ، ص ص١٣٨ - ١٣٩ .

language إلى البحث في اللغة ذاتها The investigation of language ، وهو أول من تناول هذا البحث كإشكالية في محاورة « اقراطيلوس » Cratylus ، حيث أشار إلى أهمية الاسم Name والاسم لديه هو أي كلمة يقابلها موجود entity ، وبهذا وجدنا لأول مرة ثالوثاً محدداً في هذا المبحث : لغة (الأسماء) ، وواقع (الأشياء) وعلاقة (صحة correctness) ، وتساءل أفلاطون من أين يكتسب الاسم صحته هل من طبيعة الاسم ذاته ، أم من التقليد أو التعوّد convention [١] ؟

وكان من بين الموضوعات التي شغلت بال اليونانيون القدماء ولفتت أنظارهم موضوع اعتبار اللغة طبيعية أم عرضية (أي عرف وتقليد وتعوّد) ناتج عن اتفاق البشر واصطلاحهم . وكانت هذه القضية هي إحدى القضايا التي عالجها أفلاطون في « أقراطيلوس » وعرض فيها وجهات النظر المختلفة ، كما عالج أصل اللغات وتاريخها ، وموضوع العلاقة بين الاسم والمسمى. وتطور النقاش بعد ذلك على أيدي من سمّوا بالقياسيين Analogists والشذوذيين Anomalists ، فقد قال الفريق الأول بمطردية اللغة وقياسيتها ومنطقيتها ، بينما قال الفريق الثاني ببطلان الرأي الأول مستندين في ذلك على عدم إطراد اللغة .

وعلى الرغم من أن أفلاطون يعرض آراءه اللغوية بشكل مترابط ، ولم يجمعها في مكان واحد ، فقد عدّه الباحثون رائد الدراسات النحوية اليونانية ، وأول من بحث المشكلات النحويه ، وأول من فرّق بين الاسم والفعل وأعطانا تقسيماً ثلاثياً للأصوات . أصوات العلة ، الأصوات الساكنة المجهورة ، الأصوات الساكنة المهموسة . وأقرّ أرسطو تقسيم أفلاطون للكلمة إلى اسم وفعل وزاد عليهما قسماً ثالثاً سمّاه « الرابطة » : لأن الأسماء والأفعال تؤدي إلى معانٍ مستقلة ، بينما بقية الكلمات ليس لها إلا « الوظيفة » فقط [٢] .

---

(1) Borgmann, op. cit., p. 19 .

(٢) د. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب ، ص٤٤ ومابعدها .
وأيضاً :

* Solus, P. H. (ed.), On language from plato to Von Humboldt, 1969 .
* Forber, Greek pioneers in philosophy and Grammar, The classical Review, vol. 47, 1933 .

وإذا عدنا لمناقشة قضية أصل اللغة وإشكالية نشأتها هل هي طبيعية أم اصطلاحية فإن الطريقة الوحيدة لتجنب الخوض في المشكلة بشكل جدلي لا طائل من تحته، فعلينا أن نبين أن هناك كلمات ذات جذور محددة منها تشتق سائر الكلمات الأخرى ، وأن القول بأن صحة الكلمات ومصداقيتها إنما ينشأ من الطبيعة يتطلب تقديم مسوغ لهذا القول . وأن القول بوجود إشارات رمزية للغة مصدرها قوي عليا ، أو مانح إلهي ، منحنا الأسماء الملائمة والتي اتخذناها مقياساً لبقية الأسماء قول مرفوض بالنسبة للبعض [١] .

بينما ارتبطت نظرية اصطلاحية اللغة لدى اليونان القدماء بتعاليم السوفسطائيين ، فالاصطلاح بالنسبة إليهم له معنى خاص للفعل في كل لحظة من لحظات حياتنا ، ولكن لا يوجد معيار criterion مستقل عن الفرد نقيس به صحة اللغة ومصداقيتها . ومن هنا فإن استخدام الكلمات ينأى تماماً عن أي تقويم evaluation .

وقد رفض أفلاطون موقف السوفسطائيين ورأى أننا نقوم بالتمايز بين ما هو مناسب وما هو غير مناسب بصفة دائمة . ولكن أفلاطون عاد إلى الرأى باصطلاحية اللغة في محاورة « ثياتيتوس » Theaetetus . ويذكر أنه لا توجد قوة داخل اللغة ذاتها ولهذا فهي ليست موضوعات توضع بها قواعد اللغة . إن الاصطلاح إنما هو العناصر الأولية البسيطة بصفة مطلقة، ولهذا فهي لا تمثل إلا ذاتها ، ومن هذا المنطلق فنحن لا نصف هذه المبادئ الأولية البسيطة بالصدق أو بالكذب ، ولا نفسرها فنحن لا نستطيع أن نتنبأ بها أو نعرفها ولكننا فقط نستطيع إدراكها . وعلى ضوء هذه المبادئ نربط بين الكلمات فنحصل على الثالوث اللغوي المطلوب : التفسير explanation ، والخطاب discourse ، واللغة language [٢] .

---

(1) Ibid., p. 22 .
عن : Josef Derbolav, Der Dialog, im Rohmen der platonischen sprach - und Errenntnisphilosophie, Saarbrücken, 1953, pp. 30 - 32 .

(2) Ibid., p. 23 .
عن : Plato, Theaetetus, 425 D - 426 B, 436 A - D, 385 E, 386 A, 436 B - C, 385 A - E, 436 B - E, 201 D - 202 C.

ويري فتجنشتين وأصحابه أن « قواعد الاستخدام اللغوي تقوم في رأيهم (أي اليونانيين) بدور حاسم في تصور العالم وبناء الموضوعات كانت اللغة عند أفلاطون أداة تمايز بين الماهيات الأبدية المختلفة ، فأصبحت أداة « توجد » «ماهية » الموضوعات أو تشارك في تكوينها » . أفلاطون : كيف يمكن إدراك شيء واحد فريد عن طريق المفاهيم العامة ، مع أن هذه المفاهيم لا يمكن أن تشير إلا إلى فئة عامة من الموضوعات [1] ؟

ويمكن أن نجيب أفلاطون بأن هذه المفاهيم العامة تحتوي في ذاتها على موضوعات الإدراك الخاصة ، ولكن يكفي استخلاصها منها لإدراك هذا الشيء الفريد مثل الإنسان ، على الرغم من كونه فرداً ذاتياً له خواصه وملكاته التي تختلف من شخص إلى آخر إلا أنه يشترك في صفات عامة تتضمن المفاهيم العامة عن الإنسان مثل ماهياته : يتغذى ، يفكر ، يمشي على اثنين وغيرها . وكذلك اللغة ذاتها فكل مدلول خاص يحتوي على أحرف هجائية عامة تدخل في جميع المفاهيم العامة بتركيب جديد ونظام وضعي مختلف.

ولازال أفلاطون يناقش نفس الأفكار في محاوراته المتأخرة « فيدون » Phaedo (الحرف السابع) ، والجمهورية Republic ، و « بارمنيدس » Parmenides والسوفسطائي Sophist (262 E) .

وقد ناقش أرسطو Aristotle (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) أفكار أفلاطون في فلسفة اللغة بالتفصيل في أعماله ، خاصة الميتافيزيقا ، ثم أعطاها معني أكثر تحديداً عندما حدد لها مكاناً في « نظام الأشياء الوجودي » ontological order of things ، وبمعني آخر تساءل أرسطو أو حاول الإجابة عن هذا التساؤل : ما طبيعة اللغة، وما الأشياء الأخري التي لها بها علاقة، وكيف ترتبط هي بهذه الأشياء ؟ إن أرسطو يمايز بين أربعة منازل للواقع أهمها الأشياء التي نتناولها في عالمنا المعاش. ونجد في الإجابات التي عالج بها أرسطو الإشكالية جذور مباحثنا

(١) د. عبد الغفار مكاوي ، لِمَ الفلسفة ؟ ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨١ ، ص٩٦ .

الآن: البرجماتيات Pragmatics ، وعلم المعاني Semantics ، وعلم الصوتيات Phonetics [١] .

وفرّق أرسطو بين الحروف letters ، والمقاطع syllables ، والكلمات words ، وجعل الكلمة هي أصغر وحدة ذات معنى في اللغة . ثم فرّق بين الأسماء nouns ، والأفعال verbs ، وأدوات الربط conjunctions ، وبين العبارات phrases والقضايا propositions ، والجمل sentences ، ووضع تحت كل حالة من هذه الحالات ، حالات أخرى فرعية . إن ظاهر اللغة هو ، النحو ، وشكل اللغة هو معناها ومرجعها هو الأشياء والحوادث في العالم من حولنا والاستخدام النفعي للغة pragmatic [٢] .

ولا نريد أن نخوض في كل أقوال أرسطو حول هذا الموضوع حتى لا نبتعد كثيراً عن موضوع الكتاب ، مما يتطلب أن نقفز نحو نتائج أبحاثه في هذا المجال.

يري أرسطو أن التفرقة بين النحو والمنطق تفرقة ليست جذرية في أبحاثه عن اللغة وكل ما اهتم به هو ، الجملة ، sentence وأهم ملامحها لديه : وحدة الصوت univocal ، والغموض أو الالتباس ambiguous ، والإسهاب redundant ثم علاقة الجملة بالواقع . فالتفرقة بين النحو والمنطق grammar and logic يتطلب أولاً التفرقة بين الجمل الصادقة والجمل الكاذبة ، والجمل توصف بالصدق أو بالكذب عندما تشير point out إلى شيء ما في الواقع ، وليس لجميع الجمل هذه الخاصية، مما جعل أرسطو يفرّق بين الجمل بصفة عامة والجمل التي تشير إلى شيء محدد بالذات والتي يسميها أحياناً بالقضايا propositions [٣] .

---

(1) Ibid., p. 29 .
عن : R. H., Robins, Grammatical Theory, New York, 1939, pp. 12 and 37.

(2) Ibid., p. 30 .

(3) Ibid., p. 31 .
عن : Aristotle, Topics, 160 a 35 - 160 b 13.

وجعل أرسطو للغة وظيفة في مجال علميّ البيان rhetoric أو البلاغة ، والشعر poetics ، والمنطق يتناول الوظائف الممكنة للغة كأداة ، وهي التي تصاغ بها الأنساق disciplines في فلسفة اللغة ، فاللغة هي الأساس الواضح والقوي للبحث بصفة عامة investigation .

وبعد ذلك انتقلت الدراسات اللغوية إلى الرواقيين stoics الذين فصلوها عن الفلسفة واعتبرت حينئذ فرعاً مستقلاً تحت المجال الأوسع المسمى « الحكمة » philosophia . وقد تأسست الرواقية على يد زينون الكيتيومي Zeno of citium، من أعمال قبرص Cyprus وكانت جزءاً لا يتجزء من بلاد اليونان، وقد ولد حوالي ٣٣٣ – ومات حوالي عام ٢٦٢ ق.م (وهناك من يذكر تواريخ قريبة من تلك التي ذكرتها الآن فيجعلونها عام ٣٣٦ والوفاة عام ٢٦٤ ق.م) وقد اعتمد زينون الكيتيومي في مذهبه الأخلاقي على فلسفة سقراط، وكان أول من طرح فكرة إقامة دولة هيلينستية عالمية . وقد أعطي الرواقيون للغة سمة مستقلة لكل من الأصوات والنحو والاشتقاق ، وإن كان معظم اهتمامهم منصباً على النحو وحده ، لذلك يراهم البعض الجذور الحقيقية لعلم النحو بمعناه الحديث .

وإذا كان أرسطو قد قسم الكلام إلى ثلاثة أقسام الاسم والفعل والرابطة ، فقد زاد الرواقيون عليها قسمان آخران، ويبدو أن الرواقيين هم أول من درسوا العدد والمطابقة بين الاسم والفعل ، وحالات الاسم الإعرابية ، وحالات الفعل من حيث الصيغة والزمن ، ويقصد بدراسة العدد هنا دراسته في ضوء فلسفة اللغة وليس دراسته على الطريقة الفيثاغورية [1] .

كما سلّم اليونانيون على اختلاف اتجاهاتهم ووجهات نظرهم في معالجة مسألة اللغة بأن بنية اللغة اليونانية لديها القدرة على إبراز الأشكال العامة للتفكير الإنساني، بل إنها الأقدر على إبراز الأشكال العامة للنظام الكوني بأسره ، لذلك فعندما قاموا بوضع ملاحظات نحوية وحاولوا تقعيد اللغة، قصروها على اللغة اليونانية فقط ، ثم وضعوها في إطار فلسفي ، وقد تركت هذه النظرة القاصرة

---

(١) د. أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب ، ص٤٦ .

المميزة آثارها لدى اللاتين والأوروبيون المحدثون حتى ظهرت الدراسات الحديثة والمعاصرة فغيّرت من تلك النظرة بفضل ترجمة التراث العربي الإسلامي في مجال اللغة ونسبته إليهم ، وحتى تلك اللحظة كانت نظريات الغرب اللغوية تقام فقط على أسس منطقية وفلسفية .

وتحول مركز الدراسات اللغوية خاصة النحوية منها بعد ذلك إلى الإسكندرية حيث ظهرت مدرسة نحوية كاملة خلال القرن الأول قبل الميلاد كانت نواة للدراسات التي ظهرت في العصور الوسطى ، خاصة عند توماس الأكويني Thomas of Aquino (١٢٢٥ - ١٢٧٤) الذي ربط بين دراسة اللغة وعلم اللاهوت Theology ، فاللغة تعبير عن خالق أوجدها ، ولكن ألبرت بورجمان يتساءل هل يقصد توماس الأكويني بالله هنا ... إله الفلاسفة أم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب (عليهم السلام) ؟

وقد تركت مدرسة الإسكندرية عدداً ضخماً من المعاجم ، وجاء في ذكرها في دائرة المعارف البريطانية أن أثيهاوس Athehaeus اقتبس نصوصاً من ٣٥ عملاً معجمياً فقدت جميعها ، وأشهرها معجم أبوقراط Hippocrate الذي كتبه «جلاوكس» Glawcus عام ١٨٠ قبل الميلاد وهو معجم ألفبائيّ .

٢- المصريون القدماء

درس المصريون القدماء الآثار الأدبية اليونانية القديمة دراسة فيلوجية (من حيث فقه اللغة) ، ودرس البعض منهم النحو ، بينما ركز البعض الثالث دراسته على المعاجم ، وتركزت هذه الدراسات في مدينة الإسكندرية التي اختار مكانها الإسكندر المقدوني وبناها قواده من بعده بطليموس وغيره . وكانت هذه الدراسات تهدف إما إلى تصحيح النصوص المكتوبة أو تفسيرها والتعليق عليها ، وانصبت شروح كثيرة على دراسة أشعار هوميروس وغيره من شعراء اليونان مثل هزيود وإكسانوفان وأرستوفان ، هذا بالإضافة إلى دراسة المفردات اللغوية وجمع الألفاظ الصعبة والكلمات الشعرية ذات الدلالات الخاصة ، أو الكلمات التي تنتمي إلى لهجات بعينها [١] .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص٤٦ - ٤٧ .

ونبغ ديونيسيوس ثراكس Dionysius Thrax في دراسة النحو وألّف كتاباً اشتمل ضمن ما اشتمل على آراء النحاة السابقين ، كما أكد على العلاقة القائمة بين النحو والأدب ، وأهمل الكلام العاميّ ، وزاد أقسام الكلام ثلاثة أخرى فأصبحت ثمانية (وضع أفلاطون قسمين ، وأضاف إليها أرسطو قسماً ثالثاً ، وزادها الرواقيون قسمين ، ثم جاء ديونيسيوس فأضاف إليها ثلاثة حتى أصبح أقسام الكلام عند اليونان ثمانية) .

« وأهم التجديدات والإضافات التي قام بها لُغويو الإسكندرية رفضهم لبعض أقسام الكلام التي توصل إليها سابقوهم وإضافتهم أقساماً جديدة مثل حروف الإضافة prepositions والضمير pronoun ، ومن ذلك فصلهم اسم الفاعل واسم المفعول عن الفعل. وتناولوا الاسم من حيث التذكير والتأنيث ، ومن حيث العدد، وقسّموا الفعل على أساس الزمن والصيغة ، وغير ذلك كثير » [1] .

ويعتبر معجم أبولونيوس Appollonius هو أقدم معجم يوناني موجود في الإسكندرية في عصر الإمبراطور أغسطس Augustus ، وتناول فيه الكلمات التي استعملها هوميروس ، ولكن العصر الذهبي للمعاجم كان في القرون التي تلت ظهور النصرانية ومنها [2] :

أ- معجم أوريون Orion (٣٩٠ – ٤٦٠م) وهو خاص بالاشتقاق ، وقد ألفه في الإسكندرية.

ب- معجم هيلاديوس Helladius وقد ألفه في الإسكندرية أيضاً معتمداً على النظام الألفبائي .

جـ- معجم أمونيوس Ammonius وقد خصصه للكلمات المتفقة في اللفظ، المختلفة في المعنى .

د- معجم هيسيكيوس Hesychius وخصص للهجات وسماتها المحلية .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص٤٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص٤٨ .

٤ - السريان

لا شك أن الأمم السابقة اختلطت بعضها بالبعض الآخر مثلما يحدث اليوم بين الأمم، وهذا مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ (١) . وكان هذا الاختلاط إما بحكم الجوار، أو بحكم خضوع للسلطان ، مثلما خضع السريان اليونان منذ القدم. ومن هنا جاء اهتمام السريان باللغة اليونانية فترجموا النحو اليوناني إلى السريانية ، ونقلوا إلى لغتهم كثيراً من الكلمات والاصطلاحات. وليس هذا فحسب، بل قلدوا اليونان في نحوهم حين وضعوا قواعد لغتهم (١) .

وأول نحوي سرياني نعرفه هو « يوسف الأهوازي » أستاذ مدرسة نصيبين، المتوفي عام ٥٨٠م (حوالى عام ٤٢ قبل الهجرة) . وكتب يوسف الأهوازي رسالة في النحو ، وترجم كتاباً في نحو اللغة اليونانية بعنوان : « الصناعة النحوية » إلى اللغة السريانية . كذلك اخترع بعض علامات للشكل أو التشكيل ، وكتب رسالة أخرى عن الكلمات التي تكتب بصورة واحدة ، ولكن معناها يتعدد ويكثر .

وجاء بعد يوسف الأهوازي نحاة كثيرون منهم « يعقوب الرهاوي » (٦٤٠ – ٧٠٨م) (١٩ – ٩٠هـ) وهو أول من وضع نحواً شاملاً وقواعد للغة السريانية مبنية على النحو اليوناني . و « أبو زيد حنين بن اسحق » (المتوفي عام ٨٧٣م/ ٢٦٠هـ) « وأبو علي عيسى بن اسحق بن زرعة (٩٤٣ – ١٠٠٨م) و « أبو زكريا يحي بن عدي » (المتوفي عام ٩٧٤) عن إحدى وثمانين عاماً (٢) .

٥- العبرانيون

لم يهتم اليهود بدراسة اللغة العبرية إلا بعد ظهور الإسلام ، وما شاهدوه من نشاط العرب الجم في مجال الدراسات اللغوية وانتشار اللغة العربية . ويذكر كاتب مادة « النحو » Grammar في دائرة المعارف اليهودية « إن الحافز لدراسة

---

(١) نفس المرجع السابق ، نفس الموضع ، والآية من سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ص٤٩ – ٥٠ .

الفيلوجي العبري قد قوى بعامل خارجي ، وبالتحديد بالمثال الذي قدمته اللغة العربية . قد استمرت اللغة العربية تؤثر على علم اللغة العبري ، وكان النموذج العربي هو الذي احتذاه العبرانيون ثم طوّروه » (١) .

ويؤكد هرشفيلد Herschfield أن الأسماء العبرية للحركات الثلاث الرئيس هي نفسها المعروفة في اللغة العربية بأسمائها الفتحة والكسرة والضمة .

وأطلق على النحو العبري أول الأمر اسم « مازوره » Masorah ، كما اهتم المشتغلون به بالتفرقة بين الصيغ المختلفة للكلمات الموجودة في الكتاب المقدس، وتكوين مجموعات للأشكال المتشابهة ، وتسجيل غرائب النص. ولكنهم لم يهتموا بالتقسيمات النحوية، أو حصر الصيغ الموجودة في اللغة العبرية. وقد ظلت « المازورة » مزدهرة حتى بعد ظهور علم النحو عندهم ، في حين اختلفت الروايات فيمن بدأ بالأعمال النحوية هل هم الربانيون Rabbanites أم القرائين Qaraites ، غير أن الفئة الثانية كانت أكثر اهتماماً بالنحو .

وكان من بين من اهتم بالدراسات النحو والمعجمية لدى اليهود سعيد الفيومي الذي تتلخص جهوده فيما يأتي (٢) :

أ- ألّف معجماً يسمى Agron وقد فقد جزء كبير منه، اهتم فيه بتكوين الكلمات « حدد وظيفة الجمع والملكية والزمن .

ب- جمع رسائل نحوية بقدر عددها باثنتا عشرة رسالة ووضع لها عنوان «كتاب في اللغات » ضاعت معظمها إلا بعض الاقتبسات في كتاب أخر له شرح فيه « كتاب الخليقة » .

جـ- شرح « كتاب الخليقة » ، وناقش فيه الأصوات الحلقية guthural ، والتغيرات النطقية.

د- ألّف معجماً يضم قائمة مفردات الكتاب المقدس ولكنها ليست مرتبة، وأضاف إليها تعليقات وشروح متنوعة.

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص٥٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ص٥١ – ٥٣ .

وعاصر يوسف الفيومي « أبو يوسف القرقسانى » Qirgisani وقد تتلمذ الاثنان على مدارس بغداد ، وظهرت آثار ثقافته العربية في أعماله النحوية . ثم ظهر اللغوي « يهوذا بن قريش التاهرتى » اشتغل بالطب أولاً ثم اتجه نحو الدراسات اللغوية ، وله كثير من الأعمال حتى قيل عنه « ... لا يعد مبالغة أن نقول إن ابن قريش يعد بحق أبا الدراسات اللغوية السامية المقارنة ... ومن هذه الناحية فهو يعد متفوقاً على أساتذته العرب الذين قصروا أنفسهم على دراسة لغتهم وحدها من غير أن يعتبروا وجود ألسنة متقاربة » [1] . ولا يخلو هذا القول من مبالغة ممقوتة في الدراسات العلمية الهدف منها إظهار اليهود بمظهر المتفوقين على العرب حتى خلال عصور الأمجاد العربية .

ومن بين أعلامهم « داود بن إبراهيم » من مراكش وله معجم يشبه معجم سعيد الفيومى . و « مينا حيم بن سروق » وله معجم مرتب ترتيباً هجائياً وهو من سكان قرطبة في بلاد الأندلس . و « يهوذا بن حيوج ، من فاس بالمغرب أو مراكش ، ويعتبر أول النحاة العبرنيين ساعدته معرفته باللغة العربية على تعميق دراساته اللغوية العبرية ، و « أبو الوليد بن جناح » من قرطبة أيضاً وله عدة كتب منها :

* كتاب المستلحق ... وهو ذيل على عمل يهوذا بن حيوج .
* كتاب التنبيه ... عالج فيه الكثير من الصيغ الشاذة .
* كتاب « رسالة التقريب والتسهيل » ... تعليقات على كتب ابن حيوج .
* كتاب في النحو بعنوان « اللمع » يحتوي على ٤٦ فصلاً ويسير فيه وفق النمط العربي .
* كتاب « كتاب الأصول » معجم عبري باللغة العربية .

أما اللغوي العبري أبو الفرج هارون فله عمل لغوي بعنوان « الكتاب الشامل في الأصول والفروع للغة العبرية » يحتوى على ثمانية أبواب تعالج الستة الأولى منها مسائل نحوية ، والسابع يشكل معجماً ، والثامن يعالج الكلمات الأرامية الموجودة في الإنجيل .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص٤٥ وما بعدها .

٦- الصينيون

يقول فيشر في مقدمة معجمه اللغوي التاريخي : « وإذا استثنينا الصين فلا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم اللغة وبشعوره المبكر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب » [١] .

وقد اهتم الصينيون القدماء بدراسة اللغة الصينية وتصنيف مفرداتها فكان أول عمل صيني معجمي نظمه وعرّف بأشكاله التعبيرية Erh ya وهو يشبه معاجم المعاني التي توزع الكلمات تحت موضوعات أو معانٍ مختلفة .

ثم ظهر أول معجم حقيقي في نهاية القرن الأول الميلادي باسم shwo Wan لمؤلفه Hu Shin يشرح فيه حوالي ١٠,٦٠٠ كلمة وهو ليس من المعاجم الشاملة ، الجامعة المانعة ومعظم الكلمات التي وردت به كلمات وردت في النصوص الدينية .

ثم ظهر نظام المعاجم التي تعتمد على الكلمات الصوتية تبعاً لنطقها ، فكل الكلمات ذات الصوت الواحد تعالج معاً في باب واحد . وأول معجم صيني منظم هو معجم Hu Fa Yen كتب بين عاميّ ٥٨١ و[illegible]م .

وقد أفاد علماء اللغة الصينيون من الدراسات الهندية في مجال اللغة خاصة تلك التي قام بها الرهبان البوذيون [٢] .

٧- العرب

يتساءل أستاذنا الدكتور محمود زيدان – رحمه الله تعالى -- في كتابه « في فلسفة اللغة » عما إذا كان المفكرون العرب الأوائل قد بحثوا في فلسفة اللغة وقدّموا شيئاً فيها باعتبار أن تاريخ الفكر الإنساني متصل الحلقات ليس به فجوات أو هوّات سحيقة ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هل يمكن التماس ما يمكن تسميته بفلسفة اللغة العربية كما ذهب إلى ذلك أستاذنا الدكتور عثمان أمين -رحمه الله تعالى – [٣] ؟

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص٥٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص٥٨ .

(٣) د. محمود فهمي زيدان : في فلسفة اللغة ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ص ص١٤٩ – ١٥٠ .

نبدأ الإجابة على هذه التساؤلات بقولنا إن اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية [1] وأقواها وأعظمها اطلاقاً ، وهي تقوم بكل مطالب الناطقين بها ، ولم تضق عن التعبير عن كل حالات الإنسان النفسية والعاطفية وحاجاته المادية والعلمية وهي ككل لغة - كائن حيّ - يصح عليه ما يصح على غيره . ويرى البعض أن اللغة ظاهرة اجتماعية نابعة من المجتمع الذي يستطيع حملها معه أينما تقدم أو تطور . وقد قال عنها ابن النديم في « الفهرست » : « لم يزل ولد إسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ، ويضعون للأشياء أسماءً كثيرة بحسب حدوث الأشياء والموجودات وظهورها » [2] .

وقد ثبت غنى اللغة العربية ما لم يثبت لغيرها ، فلكل جزء وعضو في جسم الإنسان اسم ، وفي الزمن وضعت لكل ساعة من ساعات النهار والليل اسماء محددة ، مئات وآلاف الكلمات ، فاللغة التى تتسع لكل هذا لا تتهم بالضيق والعجز (كما يتهما به أعداء الأمة العربية وأعداء الإسلام سواء من الغرب أو من العرب الذين تولوا الغرب وأراءه فأصبحوا منهم على الرغم من أسمائهم العربية وسمتهم العربي) وكيف تتهم بذلك وقد وسعت كتاب الله (وتشريعه) وأحاديث رسول الله ﷺ (ورسالته) ، ووسعت آداب العرب وعلومهم وفلسفاتهم وفنونهم

---

(١) اللغات السامية هي الأكادية ، وهي الأشورية البابلية وتنسب إلى أكاد Accad وهو الاسم القديم للبلاد الواقعة فيما بين النهرين (العراق حاليا) وموقعها شمال بلاد الكلدانيين ، وكانت تسمى «سومار» ، ومن بين أهلها بزغ «حامورابي» وبرع في التشريع المعروف باسمه حتى اليوم «تشريع حمورابي» .

ومنها اللغات السامية الشرقية ، والسامية الغربية ، وهي التي انقسمت بدورها إلى العربية الشمالية ، والعربية الجنوبية ، أي العينية والسبئية والأثيوبية وتتقارب اللغات السامية - عدا الأكادية - في أجروميتها ونطقها بسبب الجوار وسهولة الانتقال فيما بينهم . (انظر : عباس محمود العقاد ، إبراهيم أبو الأنبياء ، نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ٢٠٠١) .

أما اللغة السريانية فهي لغة العرب الأوائل الذين سكنوا الجزيرة العربية وهناك صلات قربى ووشائج معرفة بين العربية والبابلية والعبرية .

(٢) أحمد عبد الغفور عطار ، آراء في اللغة ، ص ص١٤ - ١٥ .

وأيضاً : محمد بن إسحق ابن النديم ، الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٤٨ .

وحضاراتهم. ووسعت مطالب الإنسان كلها عندما كان هذا الإنسان سيد الأرض وسكانها ، [1] .

ونحن كعرب نملك اللغة العربية باعتبارها لغتنا الجميلة ولا تملكنا وقد صدق الدكتور طه حسين عندما قال « لغتنا العربية يسر لا عسر فيها ونحن نملكها كما كان الأقدمون يملكونها ، ولنا أن نضيف إليها » . وصدق أيضاً الشاعر حافظ إبراهيم إذ قال :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ∴ فهل سائلوا الغواص عن صدفاتي

ولقد تضاعفت لغة العرب عندما قاموا بنقل ألفاظها من الدلالات الحسية إلى الدلالات المعنوية ، ولو لم تكن هذه اللغة بهذه المرونة والتطور لذهبت كما ذهبت أخواتها من اللغات السامية الأخرى، وإذا كانت اللغة العربية الآن تقف مرتفاً حرجاً فإنما ذلك يعود إلى أبنائها الذين تحجروا فأهملوا العلم وأهملوها وضربوا عليها بسور من حديد، وصدق الشاعر إذ قال :

نعيب زمانـنـا والعيب فينـا ∴ ومـا لـزمانـنـا عـيب سوانـا

وكذلك من أسباب ضعف اللغة العربية على مر العصور فضلاً عن إهمال العرب لها وتحجرهم وفقدانهم لشهية العلم والتعلم ، حقد الشعوبيين على مر العصور على الإسلام، فهي الباب الأول إلى الإسلام ، وفي هدمها هدم له. وأيضاً إتاحة الفرصة للنصارى لكي يكتبوا عن اللغة العربية واشتراكهم في تأديب تلاميذ العرب مثلما كان يحيي النحوي الاسكولائي النصراني مؤدباً ليزيد بن معاوية . وكذلك ضعف المسلمين وتخليهم عن دينهم وعن نصرته ونصرة رب العالمين. وشيوع اللحن وسيطرة العامية . والسيطرة الاستعمارية منذ حكم الأتراك العثمانيين ومروراً بالاستعمار الغربي منذ ظهور الإسلام في العصور الوسطى وحتى اليوم . وحكم الشيوعيين لبعض بلاد المسلمين مثل بخارى وطشقند والبوسنة والهرسك . المناداة بالغاء الإعراب وهذه الدعوة ترطبت

---

(١) نفس المرجع السابق، ص١٦ .

ارتباطاً مباشراً بالدعوة إلى نشر اللغة العامية بين المسلمين لضرب الإسلام والقرآن الكريم من ناسية، وللتفريق بين بلاد المسلمين الذين سينظرون إلى اللغة العامية كأنها لغات أجنبية عليهم أن يتعلمونها بعد أن كانوا يفهمون ويتفاهمون بلغة عربية فصحى وفصيحة واحدة تجمعهم تحت ظلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة (١) .

ونعود إلى التساؤلات التي طرحها الدكتور محمود زيدان ، ونحن نطرحها معه بالتالي هل بحث المفكرون العرب الأوائل في فلسفة اللغة ؟ هل شاركوا بفكرهم في صنع الحضارة الإنسانية الواحدة ؟

يقول الدكتور محمود زيدان :

« إن المناطقة والفلاسفة العرب الأوائل أدركوا مبكراً فلسفة اللغة من حيث إنها موضوع لفرع فلسفي جديد حين رأوا أن الاستغراق في البحث اللغوى البحث والإحاطة بعلوم اللغة مدخل أساسيّ وبداية ضرورية للبحث المنطقي أو لصناعة المنطق كما يقولون، وإن لم يفصحوا في وضوح وجلاء عن وجود هذا الفرع الجديد ، وإن هؤلاء المناطقة والفلاسفة أدركوا مبكراً أيضاً فلسفة اللغة من حيث هي إتجاه فلسفي أو حركة فلسفية عمادها أن البحث الفلسفي لكي يكون مقبولاً ومفهوماً يجب أن نقدم له بتوضيح لغوي لمعاني المصطلحات الفلسفية والمشكلات الفلسفية . لكنهم كانوا ملتزمين في هذا التوضيح اللغوي بالمعاني الثابتة للكلمات كما نجدها في الفصحى » (٢) .

من النص السابق يتضح لنا أن العرب عرفوا فلسفة اللغة بأدق معانيها وإن لم يضعوا هذه الدراسات تحت هذا المسمى الحديث نسبياً ، ولكنهم كانوا على وعيّ تام بأن هذه الدراسات تقع تحت مسمى الدراسات اللغوية ليقينهم بأنها ضرورية للبحث المنطقي والفلسفي ودراسة النحو العربي . وقد نشطت هذه الدراسات عند العرب في رحاب القرآن الكريم حيث حاولوا فهمه وتفسير آياته

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص٥٣ - ٥٩ (بتصرف) .

(١) د. محمود زيدان ، في فلسفة اللغة ، ص١٦٢ .

ومعرفة أحكامها وأبعادها، خاصة وأنه نزل في أمة امتلكت ناصية اللغة امتلاكاً عجيباً قبل الإسلام وبعده ... قبل الإسلام فيما تركوه لنا من آثار شعرية وحكم وأمثال ، وبعد الإسلام فيما تركوه لنا من شعر ونثر ودراسات تدور حول القرآن الكريم حتى أنهم أنشأوا علوماً تمتزج فيها الدراسات اللغوية والدينية والفلسفية والنحوية معاً لمعرفة معاني القرآن الكريم وألفاظه ، وإعرابه ، وقراءاته، وتفسيره .

، وأكّد أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، (ت٣٩٥هـ) على أهمية فقه اللغة الشريفة التي نزل بها الكتاب الكريم، وضرورة النظر في علومها، وجعل ذلك واجباً على كل من يتعلق بعلم آي الذكر الحكيم، والسنة المطهرة، والفتيا. يقول : « إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب ، حتى لا غناء بأحد منهم عنه ؛ وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب ، ورسول الله ﷺ عربي؛ فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجل، وما في سنة رسول الله ﷺ من كلمة غريبة ، أو نظم عجيب لم يجد من العلم باللغة بدّاً » (١) .

واستطاع العلامة المسلم عبد الرحمن بن خلدون أن ينفذ بحسه اللغوي (الإنساني) والذي يكاد أن يتفرد به إلى أسباب اكتساب الإنسان للغة وقد انطلق من فكرة الملكة وملابساتها التجريبية ، وأول ما أشار إليه أن الملكة في اللغة تستند إلى الكل الذي لا يتجزأ ، وأن ممارسة الإنسان للغة بالملكة تنفي عنه أن يكون واعياً بانفصال مفرداتها عن تراكيبها ، كما أدرك ابن خلدون قوانين الإدراك الشمولي حيث يعي الإنسان الكل دون أن يكون حتماً قد وعى أجزاءه (٢) .

وبعد أن يقرر ابن خلدون كيف « إن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانيّ فلابد أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، ينطرق إلى تحديد فكرة الملكة بالاعتماد على مستويين: الأول فصل أبنية الدّوال في الكلام عن أبنية المدلولات ، والثاني بيان مراتب

---

(١) د. محمود سليمان ياقوت ، منهج البحث اللغوي ، ص ص٥٩ – ٦٠ .
وأيضاً : ابن فارس ، الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ص٦٤ .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ص٤٣٨ – ٤٣٩ .

التعبير إبلاغاً أو إبداعاً . ويحلّل صاحب المقدمة في هذا المضمار كيف تنحصر مواضعات اللغة باعتبارها جملة القوانين المرتّبة لبنائها في نسيج الدّوال اللغوية لأن الذي في اللسان والنطق هو الألفاظ . أما المعاني فهي في الضمائر موجودة عند كل واحد وفي طوع كلّ فكر. وهكذا يكون تأليف الكلام للعبارة عن المعاني محتاجاً للقوالب التي تفرزها المواضعة اللغوية [١] .

ويشبه ابن خلدون « الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن ، بالمقعد الذي يروم (يريد) النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه. إذا تقوم الملكة اللغوية على أساسين أو مبدأين جوهريين هما مبدأ العلم أو المعرفة، ومبدأ القدرة أو الاستطاعة ، وبينهما من التفاعل العضوي مثل الذي بين الإدراك والتعبير ، أي مثل ما بين التّلقى والبث ، أو قل بين التفكيك والتركيب le décodage et l'encodage ، وهذه القوانين أو المبادىء تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها [٢] .

وأخيراً أراد ابن خلدون أن يفرق بين الملكات والصناعات فقسّم الصنائع إلى بسيط ومركب، البسيط يختص بالضروريات والمركّب بالكماليات، واكتساب اللغة يتعلق بالبسيط لبساطته من ناحية ولاختصاصه بالضرورى من ناحية أخرى، ويلتقى الاثنان الملكة والصناعة في ممارسة المحسوس من الأحوال وليس الفكر حتى ترسخ صورة المحسوس وعلى نسبة الأصل تكون الملكة [٣] .

وحتى لا أطيل كثيراً على القارىء الكريم ، فسوف ألقي الضوء على ثلاث نقاط شارك بها العرب في الدراسات اللغوية مشاركة عميقة هي :

أ- نشأة النحو العربي .

ب- علم الأصوات .

جـ- دور اللغة العربية في تنمية اللغات الأفريقية .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص٥٤٦ ، وأيضاً : د. عبد السلام المسدي ، اللسانيات ، ص٢١٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ص٥٧٧ - ٥٧٨ ، ص٥٦٢ .

وأيضاً : د. المسدي ، اللسانيات ، ص ص٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص٥٠٠ .

أ- نشأة النحو العربي

يقال إن أبا الأسود الدؤلي هو أول من وضع النحو العربي ولكن الباحث أحمد عبد الغفور عطا يرى أن أول من وضع النحو العربي هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ففي الروايات الإسلامية العربية أن عليًا رضي الله عنه أعدّ رقعة رفعها إلى أبي الأسود وفيها الكلام كله : اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به ، والحرف ما أفاد معنى ، وطلب إليه أن ينحو هذا النحو ، وأعلمه أن الاسم ثلاثة : ظاهر ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، ويضيف أبو الأسود ثم وضعت باب العطف والنعت إلى أن وصلت إلى باب أن وأخواتها ما خلا ، لكن ، فلما عرضتها على علي أمرني بضم لكن إليها » (١) .

ويضيف أحمد عطار قوله : « ليس بممنوع عقلا او منطقا ألا يضع علي الخطوط الأولى للنحو استنباطاً وتأسيساً ، من الجائز عقلاً أن يكون الاهتداء الى النحو البدائي الساذج كتقسيم الكلمة نظراً فيه إلى النحو في اللغات الأخرى التى كان من أصحابها بين يدى علي طائفه كبيرة فيها أصحاب علم وفقه ودراية بنحو لغاتهم » (٢) .

إذاً كان علياً – رضيّ الله عنه – أول من وضع النحو العربي وأبا الأسود الدؤلي أول من ضبط ما رسم عليّ ، مع الاحتفاظ بفضله في ابتكار علامات الحركة بالنقط بمداد أحمر ليخالف بين نقط الأعجام التي ينسب وضعها إلى نصر بن عاصم ، ونقط أبي الأسود الدالة على حركات الإعراب في القرآن الكريم حفظاً له من التواء الألسنة في إعرابه وتمكيناً لغير أصحاب السلائق السليمة والراسخون في العلم من القراءة الصحيحة (٣) . وأيضاً غبسة الفيل، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، ونصر بن عاصم ، ويحي بن يعمر ، وميمون

---

(١) أحمد عبد الغفور عطار ، آراء في اللغة، ص٦١ .

(٢) نفس المرجع السابق، ص٦٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص٦٦ .

الأقرن ، وعبد الله بن إسحق الحضرميّ، والأخفش الأكبر، وأبو عمرو بن العلاء وهو من قدامى الباحثين البصريين، ولكن لم يصلنا شيء من مؤلفاتهم، وربما دمرت عند مجيء التتار أو غيرهم من الغزاة الهمجيين ، أو لأسباب أخرى .

وكان الغرض الأولي من النحو والصرف هو ضبط القواعد التي يسير عليها الإعراب وليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها في الحديث والكتابة، وتجنب اللحن بسبب اختلاط العرب بالعجم ، ثم اتسع نطاق علم النحو شيئاً فشيئاً حتى شمل أجزاء الجملة وترتيبها، وأثر كل جزء منها في الآخر، وعلاقة هذه الأجزاء بالأخرى ، وطريقة ربطها ، وأنواع الجمل ، وأقسام الكلمة وأنواع كل قسم منها، ووظيفته في الدلالة ، حتى شمل جميع البحوث التي يطلق عليها علماء الغرب «السنتاكس التعليمي» (أي علم التنظيم التعليمي) . وأما الصرف فموضوعه ضبط القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات العربية وتصريفها وتغير أبنيتها بتغير المعنى وغيرها وهي تدخل فيما يسميه علماء الغرب الآن «المورفولوجيا التعليمية» (أي علم البنية التعليمي) (١) .

قال الكسائي إمام مدرسة الكوفة النحوية :

إنما النحو قياس يتبع ∴ وبه في كل علم ينتفع

وقد نشأت في النحو مدرستان طبّقت شهرتهما الآفاق هما مدرسة البصرة التى اعتمدت مذهب العقل والنقل معاً. واتخذت من الحرية والمنطق، والرواية والقياس مطية لها، وجعلت قاعدتها هي قاعدة العالم الثابتة التي لا يعتورها الخلل فحق عليها أن تكون مدرسة ستاتيكية تهتم بالقواعد والقياس والثبات. آما مدرسة الكوفة فقد كانت أوسع صوراً وأكثر ديناميكية وحيوية فقبلت الشاذ والمصنوع، والموضوع والمنحول، وما لا يتفق مع المنطق اللغوي والنحوي، واستطاع أصحابها وضع لكل ما يسمع أو يحب قاعدة ومبدأ (٢).

---

(١) د. علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة ، ص٦٣ .

(٢) نفلس المرجع السابق، ص ٧٥.

وإذا كان واضع أصول علم النحو هو رابع الخلفاء الراشدين عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - وطوّره ووسّعه أبو الأسود الدؤلي فإن جذوره عربية مائة في المائة، فكيف يذهب «البعض» ويقولون إن النحو العربي تأثر بالمنطق اليوناني، وإذا كان قد تأثر ففي أي مرحلة، أم إنها نفس النعرة الكاذبة برد كل شيء إلى الغرب سواء اليونان أم غيرهم، وأخشى أن يجيء اليوم الذي نسمع فيه أن اللغة العربية نفسها مستوردة أساساً من أوروبا أو أمريكا، وأن القرآن الكريم إنما جاء بلغة أهل الغرب ونحن نقلناه عنهم، يجب أن نتقي الله تعالى في أنفسنا وفي تراثنا وفي أولادنا وفي أسلافنا الذين نفخر بهم على الرغم من محاولات التشويه التي يقوم بها «المأجورون» و «المبهورون» و «القابضون باليورو والدولار» لكي يقوموا بتشويه كل رمز سطع نجمه في الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي والفكر الإسلامي، وأحذرهم من حساب الدنيا عندما تنحسر موجة السعار الغربي ضد المسلمين ويرجعون من حيث أتوا مدحورين، وحساب الآخرة عندما يقفون بين أيادي الله تعالى ليحاسبهم بالعدل والقسطاس على ما اقترفوه في حق أوطانهم ومواطنيهم وإسلامهم ولغة الإسلام الجميلة .. اللغة العربية.

ب- علم الأصوات

يعتبر علم الأصوات من العلوم اللغوية المهمة. وكذلك يعتبره علماء اللغة المحدثون، بل إنهم يعتبرونه الخطوة الأولى في أي دراسة لغوية يقومون بها، لأنها تتناول أصغر وحدات اللغة، ونعني بها الصوت الذي يعتبر هو المادة الخام للكلام الإنساني.

أما فلاسفة اللغة العرب وعلماؤها فلم ينظروا إلى الدراسات الصوتية نفس هذه النظرة، ولم يعالجوا الأصوات علاجاً منفصلاً ومستقلاً، وإنما تنولوها دائماً مختلطة بغيرها من البحوث والدراسات لحكمة لديهم.. أن الأصوت نسيج يدخل في تركيب كل عضو من أعضاء اللغة - إن صح هذا التعبير - مثلما فعل النحاة ولم يقصدوها لذاتها وإنما لغيرها حيث اعتبروها مدخلاً لدراسة ظاهرة «الإدغام»، والحديث عن قواعد الإعلال والإبدال. وممن عالجوها سيبويه في نهاية مؤلفه «الكتاب»، وقد عالجها قبل معالجة الإدغام. وأنهى الزمخشري كتابه «المفصل» بدراسة خاصة للأصوات.

وقد فعل نفس الشيء أصحاب المعاجم، فقد عالجوها إما في مقدمة المعاجم أو في ثنايا الدراسة اللغوية التي يقومون بها. وكذلك فعل كل من الخليل بن أحمد في كتابه «العين» وابن دريد في كتابه «الجمهرة». كما أسهم علماء التجويد والقراءات القرآنية بقدر عظيم حتى قال ابن مسعود الصحابي «جوّدوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات» حتى أن ابن الجزري خصص له سبع صفحات أو صحفاً في كتابه «النشر» وكذلك فعل أبو بكر الباقلاني في كتابه «اعجاز القرآن» وغيرهم كثيرون»[1].

ولابن سينا دراسة صوتية مهمة بعنوان «أسباب حدوث الحروف»(*) قسمها إلى ستة فصول كما يأتي[2]:

الفصل الأول: في سبب حدوث الصوت.

الفصل الثاني: في سبب حدوث الحروف. (يتحدث فيه عن مخارج الأصوات ومحابسها. ويفرّق بين الصوت الشديد والصوت الرخو).

الفصل الثالث: خصصه ابن سينا لتشريح الحنجرة واللسان.

الفصل الرابع: يعالج فيه ابن سينا الحروف العربية وكيفية صدورها من المتكلم مع وصف العملية العضوية أثناء حدوث الصوت.

الفصل الخامس: خصصه للأصوات غير العربية مثل السين الزائية، والزاي السينية، والزاي الظائية وغيرها.

الفصل السادس: يبين فيه كيفية انتاج هذه الأصوات بحركات غير نطقية كالشين التي تسمع عند نشيش الرطوبات، والطاء التي تحدث عند تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان.

وقد شهد الجميع للعرب بسبقهم في مجال الدراسات اللغوية حيث سبقوا بها كثيراً من الدراسات الغوية الحديثة على الرغم من الإمكانات الهائلة التي لم تتح

(1) د. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص ص ٧٥ – ٧٦.

(*) قام بتحقيقها الدكتور إبراهيم أنيس، وطبعت في القاهرة عام ١٣٣٢هـ، وفي طهران عام ١٣٣٣هـ.

(2) نفس المرجع السابق، ص ص ٨٣ – ٨٤.

للقدماء مثل الآلات وأجهزة التصوير والتسجيل وتحليل الأصوات وغيرها.
ويكفي العرب فخراً في مجال علم الأصوات وتأسيس الدراسات اللغوية أن شهد التاريخ لهم بهذا الفضل، كما شهد لهم أعداؤهم أيضاً فهذا برجشتراسر العالم الألماني، وهذا فيرث الإنجليزي، يقول الأول: «لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان: العرب والهنود». ويقول الثاني: «إن علم الأصوات قد نما وشب في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية»[(1)].

وألخص هنا أهم النتائج في علم الأصوات التي توصل إليها العرب وهي كالآتي[(2)]:

1- وضع العرب أبجدية صوتية للغة العربية رتبت أصواتها بحسب المخارج ابتداءً من أقصاها في الحلق حتى الشفتين، وأول من وضع الأبجدية هو الخليل بن أحمد، ثم تبعه تلميذه سيبويه واختلف معه في ترتيب الحروف بينما اتفق ابن جنّي مع سيبويه في ترتيها ومخالفاً الخليل بن أحمد.

2- تحدث العرب عن أعضاء النطق وسموها مثل الرئة والحنجرة والحلق واللسان والشفتين، وقسّموا الحلق إلى أقصى ووسط وأدنى، واللسان إلى أصل وأقصى ووسط وظهر وحافة وطرف[(3)].

3- قسّم العرب الأصوات إلى شديدة ورخوة عندما توصلوا إلى أن طريقة التحكم في مجرى الهواء تقوم بدور مهم في اخراج الصوت. ووضعوا قائمة بأصوات كل نوع بطريقة يوافقهم عليها في جملتها التحليل الصوتي الحديث[(4)].

4- فصل العرب الأصوات المطبقة عن غيرها، وهي الأصوات المخمة التي يشترك مؤخر اللسان في النطق بها، وذكروا أنها هي الصاد والضاد والطاء والظاء[(5)].

---

(1) نفس المرجع السابق، ص ٨٤.

(2) نفس المرجع السابق، ص ص ٨٦ - ٨٩.

(3) انظر: كانتينو، دروس في علم الأصوات العربية، ص ص ١٨ - ١٩.

(4) انظر: ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفي السقا وآخرين، ١٩٥٤ (٩/١) الجزء الأول، ص ص ٦٩ - ٧٠.

(5) انظر: ابن دريد، الجمهرة، ٨/١.

٥- توصل العرب إلى وجود رنين يصحب نطق الأصوات المجهورة، ولذا قسّموا الأصوات من حيث وجود هذا الرنين أو عدم وجوده إلى مجهورة ومهموسة، ووضعوا لنا قائمة بكل نوع. وعرّف سيبويه المجهور والمهموس بقوله: «المهموس إذا أخفيته ثم كررته أمكنك ذلك، وأما المجهور فلا يمكنك فيه».

٦- قسّم العرب الأصوات إلى صحيحة ومعتلة على أساس اتساع المخرج مع العلة دون الصحيحة، واهتدوا إلى السمات الخاصة التي تميز بعض الأصوات مثل اللام التي وصفوها بأنها حرف منحرف، والراء التي وصفوها بأنها حرف مكرر وغيرها كثير.

٧- تحدث العرب عن أطوال أصوات العلة وقسّموها إلى قصيرة وطويلة وأطول. يقول ابن جنيّ أعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والواو والياء. فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث، وهي الكسرة والفتحة والضمة؛ فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو[1].

٨- اثبتت الدراسات اللغوية أن ما يتناسب مع أمة لا يتناسب مع أخرى من حيث ائتلاف الحروف وبناء الكلمة ومخارج الأصوات، وهذا يفسر لنا سبب تباين وكثرة اللغات في العالم بحسب المشيئة الإلهية.

٩- ناقش سيبويه الانسجام الصوتي ويعني به قلب بعض الحروف إلى حروف أخرى مثل قلب السين صاداً في كلمة مثل «التسويق» وقلب الصاد زاياً مثل كلمة «يصدق» (تنطق يزدق) ويرجعها إلى استخدام اللسان من وجه واحد، ويقصد به الاقتصاد في الجهد العضلي، وقد أخذ هذه الفكرة «أندريه مارتينيه» André Martinet ونسبها لنفسه، وذكر أن هذا يرجع إلى الميل لاستعمال الوسائل «الفونيمية» في اللغة اقتصادياً.

---

(١) انظر: ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، ص ص ١٩ - ٢٠.

جـ- دور اللغة العربية فى تنمية اللغات الأفريقية

يقول أحمد بن فارس فى الصاحبي:

«كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرائنهم فلما جاء الله جلّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأُبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شُرطت»[1].

وهذا يعنى أن اللغة العربية سادت لقرون طويلة ومازلات تسود قبل الإسلام فرضت نفسها على قبائل الحجاز بسبب حاجاتها لقريش وهي الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية وأحياناً الحماية والجوار، ثم فرضت نفسها بالإضافة إلى ما سبق بعد الإسلام، وقد جاء القرآن الكريم بهذه اللغة المشتركة وعمل على تقوية نفوذها فنمت لتواجه مستجدات الدين الجديد وأفكاره، وحملت معها ألفاظاً ذات دلالات جديدة، وأصبحت لغة التعليم والأدب والعلم»[2].

وساعد على انتشار اللغة العربية في أفريقيا بالذات الفتوحات الكبيرة والهجرات الواسعة، ودخلت في صراع مع اللغات الأخرى وخرجت منتصرة بفضل القرآن الكريم والقراءات القرآنية والحديث النبوي والشعر والشواهد النثرية، فضلاً عن القوة الذاتية لها والتي منحها إياها الله تعالى منذ البداية، وكأنه يعدها لتقوم بأشرف رسالة تقوم بها لغة في الوجود، كما ساعد على انتشارها وبقائها حية قوية أنها لغة مشتركة فهي لغة التعليم والصحافة والخطابة والأدب والعلم والإدارة في أنحاء العالم العربي الواحد، تتحمل وجود لهجات خاصة، إن كانت هذه اللهجات مستمدة أصلاً من المعجم العربي الفصيح ومن اللهجات العربية القديمة كتميم وبكر وتغلب وقريش وما إليها[3].

---

(١) أحمد بن فارس، الصاحبي...، ص ٤٤.

وكذلك: د. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني...، ص ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) د. عبدالله عبد الحميد سويد، اللغة العربية، ودورها في تنمية اللغات الأفريقية، في: الجديد للعلوم الإنسانية، المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية، العدد الخامس، طرابلس ٢٠٠٠م، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٠.

وعندما دخلت اللغة العربية وجدت بها ما يقرب من ثمانمائة وألف لغة تنتمي إلى عائلات لغوية ومجموعات لسانية كثيرة مثل لغات النيجر - الكونغو، والبانتويه والتشادية والتشادية النيلية والكوشية والعروبية (الحامية) والنيلية الصحراوية وغيرها. ومن أهم اللغات السائدة في القارة السمراء السواحيلية والفلانية والهوسا والووف والماندبكا واليوربا واللغة الفصحى وهي التي سادت حتى الآن وتركت بصماتها واضحة للعيان في سائر اللغات، واللهجات الأفريقية كما «تبنت اللغات الأفريقية الكبرى الحرف العربي وأنتجت به إنتاجاً رفيع المستوى في كل مجالات المعرفة ومن الأفارقة علماء هم موضع اعتزاز الثقافة العربية الإسلامية»[(١)].

ومن بين اللغات الأفريقية التي تأثرت تأثراً مباشراً باللغة العربية اللغة السواحيلية ويبدو ذلك عن دلالة اسمها «السواحيلي» والمأخوذة من اللفظ العربي «السواحل» وهي الشواطئ «أما من حيث الشكل فقد تنقل اللفظة إلى اللغة المقترضة كما هي دون تغيير يذكر، والأكثر أن تستعير اللغة المقترضة الكلمات وتخضعها للتغيير بما يتناسب مع قوانينها الصوتية وبنيتها الصرفية.. ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك نذكر الكلمات: كتاب Kitabu قلم Kalamu، ورق (قرطاس) Karatasi، وبحر Bahari وحساب hasabu وروح roho ويصلي sali ويعبد abudu وثروة mali (مال) ونشاط (طاقة) mishati وضرورة (طوارئ) dharura وسياسة siyasa وعلامة (رمز) alama وصور (أثار) athari»[(٢)].

لقد حمل العرب مصباح الحضارة الذي أضاء جوانب الأرض ديناً ولغة وعلماً واقتصاداً وأخلاقاً ونماذج إنسانية أثارت إعجاب العالم كله كما أثارت حقد الحاقدين عليهم. لقد أثرت اللغة العربية بثقافتها وغناها اللفظي والثري بالمعاني على اللغات الأفريقية والتي يضيق المكان هنا عن ذكر كل أبعادها[(٣)].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٥.

(٣) لمن أراد الاستزادة عليه الرجوع إلى النماذج الآتية:

أ - باتيه دياني، اللغات والتاريخ الأفريقي، في كتاب: تاريخ أفريقيا العام، المجلد الأول، اليونسكو ١٩٩٧.

-/-

٨- الغرب الحديث والمعاصر

كانت بحوث اللغة في الغرب حتى نهاية القرن الثامن عشر محصورة في دائرة ضيقة جداً لا تعدو كثيراً عن علوم البنية والتنظيم والأسلوب في أشكال وصيغ تعليمية. وكان معظم اهتمام العلماء محصوراً في دراسة أصوات اللغة أكثر من دراسة دلالة الألفاظ ومعانيها، «وفي أواخر القرن الثامن عشر حدث بهذا الصدد نهضة كبيرة يرجع معظم الفضل فيها إلى كشف اللغة السنسكريتية Sanscrit وحل رموزها؛ فقد أزاح هذا الكشف الستار عما بين اللغات الهندية والإيرانية من جهة واللغات الإغريقية واللاتينية والجرمانية من جهة أخرى من «تشابه وصلات قرابة وروابط وثيقة، ومهد السبيل لإنشاء علوم القواعد التاريدية والمقارنة، ووسع بذلك نطاق الدراسات اللغوية»[1].

ويرجع جل الفضل للفيلسوف الألماني شليجل Schlegel في مضمار الدراسات اللغوية الحديثة في أوروبا بعد ما لاحظ أوجه التشابه الكثيرة بين اللغات الأوروبية والهندية والآرية، فنشأ المنهج المقارن على يد العالمان الألمانيان فرانز بوب Franz Bopp (١٧٩١-١٨٦٧) وجاك لويس جريم Jacques Louis Grimm (١٧٨٥-١٨٦٣) وخاصة جهود جاك جريم الكبيرة، كما كانت هناك جهود لعلماء آخرين ولكن بصورة أقل لدي فردريك (فردريش) دييز Friedrich Diez (١٧٩٤-١٨٧٦)، وأوجست براشيه August Brachet (١٨٤٤-١٨٩٨) وغيرهم[2].

ب- أحمد إبراهيم دياب، اللغة العربية في اللغات الأفريقية: الخلفية التاريدية، في كتاب: العربية في اللغات الأفريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٢.

جـ- الدكتور طه حسين، في الأدب الجاهلي، طبعتى القاهرة وبيروت.

د - د. عبدالله عبد الحميد سويد، من اللغات الأفريقية، السواحيلية، اللغة والتاريخ.

هـ- د. أحمد العايد، البحث في العلاقات بين اللغة العربية واللغات الأفريقية، واقعه وآفاقه، في كتاب: العربية في اللغات الأفريقية، تونس ١٩٩٢.

و - يوسف خليفة أبو بكر، الحرف العربي واللغات الأفريقية، في كتاب العربية في اللغات الأفريقية.

(١) د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ٤٩.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٥٠.

ويذكر الدكتور على الواحد وافي أنه كان لزاماً على العلماء الذين أرادوا تعقب أصول اللغات وتطورها وارتقائها وتتبع نشأتها في العصور السحيقة التي ظهرت فيها لكي تعبر عن حاجات الإنسان المختلفة، وحاولوا الكشف عن منشأ اللغة لدي الإنسان بالذات والكشف عن الأسس والمبادىء الأولى التي قام عليها التخاطب بالأصوات ذات الدلالات الوصفية، ومن أشهر من درس هذه الموضوعات وساهم بنصيب وافر فيها الفيكونت دي بونالد Vicomte de Bonald وماكس مولر Max Müller وسايس Sayce الإنجليزى وإرنست رينان الفرنسي(*).

وقد ظهر اتجاهان مهمان في أواخر القرن التاسع عشر كان لهما أكبر الأثر في النهوض بعلم اللغة وفلسفتها وهما:

أ - اتجاه أخضع اللغة لمناهج البحث العلمي، وحاول أن يوجهها إلى الأغراض التي ترمى إليها العلوم، وحاولوا أن يجعلوا غاية الدراسات اللغوية الوصول إلى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية وفي نفس الوقت تخليصها من جميع المسائل الفلسفية التي لا تتفق وهذا المنهج العلمي. وانصرف علماء هذا الاتجاه عن البحث في موضوع نشأة اللغة (ولعلنا رأينا كيف أصدرت الجمعية اللغوية الفرنسية La Société de linguistigue قانوناً يمنع إلقاء محاضرات في موضوع نشأة اللغة)، وتركوه للفلاسفة والميتافيزيقيين.

(*) إرنست رينان Ernest Renan من أشهر المؤردين والفلاسفة وعلماء اللغة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ولد ببلدة تريجييه Trequier عام ١٨٢٣م وتوفي بباريس عام ١٨٩٠. درس اللاهوت واللغات الشرقية والعلوم المختلفة وسائر فروع الفلسفة والأدب، وتولى تدريس اللاهوت واللغة العبرية والتاريخ والفلسفة في كثير من المعاهد الفرنسية، وعين عضواً بالأكاديمية الفرنسية ومديراً للكوليج دي فرانس Collége de France. وله نحو خمسين مؤلفاً كبيراً في التاريخ العام وتاريخ الديانات وفي اللغات والأخلاق والفلسفة واللاهوت والسياسة وغيرها. وقد كان لمؤلفاته أكبر الأثر في نمو الثقافة الفرنسية وارتقائها في القرن التاسع عشر. ولكن علينا أن نأخذ دراساته ودراسات أهل الغرب بصفة عامة بحذر شديد لأنهم كثيراً ما يدسون السم في العسل. ومن أشهر كتبه في مجال الدراسات اللغوية «تاريخ اللغات السامية» و «منشأ اللغة».
(انظر: د. علي الواحد وافي، علم اللغة، ص ٥١).

وأطلق المختصون على هذا الاتجاه في المانيا اسم «علماء القواعد المحدثون» Neo - grammariens (أو علماء اللغة الجدد)، وقالوا بالجبرية أي جبرية الظواهر اللغوية التي تسير وفقاً لقوانين ثابتة وليس وفقاً لإرادة وأهواء الأفراد والجماعات. ومن أشهر علماء هذا الاتجاه ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف Ostoff وهرمان بول Herman Paul وديلبروك ..Derlbruch[1].

ويرجع الفضل لعالم اللغة الفرنسى بريال Bréal في وضع مصطلح السيمانتيك Sémantique (Semantic) وسلم واتباعه بوجود جبرية في مجال ظواهر أصوات اللغة ولكنه اعترض عليها في مجال الدلالات». وذهبت (هذه الطائفة من العلماء) إلى أن كل التغيرات التي تحدث في مدلولات اللغة عبارة عن اصلاحات مقصودة أو شبه مقصودة تعتمد على جهود يقوم بها الناطقون بهذه اللغة وتسير بها دائماً إلى حيث الكمال؛ وأن من أهم هذه الجهود ما يبذله الأدباء والكتّاب في كل عصر للنهوض باللغة»[2].

ب- نهض أصحاب الاتجاه الثاني من علماء اللغة وفلاسفتها في أواخر القرن التاسع عشر بمجهودات كبيرة للنهوض باللغة من جميع جوانبها المختلفة مثل(*):

١- الفونيتيك Phonetic.

٢- الديالكتولوجيا Dialectology (علم اللغات العامية أو الشعبية).

٣- علم النفس اللغوي Linguistic Psychology.

---

(١) انظر: د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ص ٥٢ - ٥٣.

وأيضاً:

* Sayce, Principle of Comparative philology.
* Jespersen, The progress of language.
* Jespersen, Lanquage: Its nature, development and origin.
* Bréal, Michel, Essais de sémantique.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ص ٥٣ - ٥٤.

(*) سوف نناقش هذه الدراسات - بإذن الله تعالى - في الفصل الثالث.

٤- السيمانتيك (علم الدلالة) Semantic.

٥- علم الاجتماع اللغوي Linguistic Sociology.

وانتقلت الدراسات اللغوية إلى الفلاسفة المحدثين الذين اهتموا بالعالم الباطني للإنسان والحالة النفسية التي يعبر عنها الكلام ومنهم جون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) الذي ذكر في كتابه «بحث أو مقالة في الفهم الإنساني» An Essay Concerning Human Understanding (١٦٧١) في الفصل الثالث أن هناك علاقة بين اللغة والفكر أو بين التعبير والتفكير ثم قال بالتواطؤية (التوافقية). فالإنسان - في نظر لوك - يعيش في جماعة تفرض عليه هذه العلاقة ووجود وسيلة للتخاطب، فقوة الكلام مغروسة - كما يقول - في عنقنا (الأحبال الصوتية)، والكلمة تدل على المعني، والمعنى لا يأتي من الخارج - أي من الأشياء المادية الملموسة والموجودة في العالم الخارجي - فالحجر لا يعني شيئاً، المعنى من الحجر يؤدي إليه، إذاً يمكن أن تقول إن الكلمات رموز لأفكارنا.. إشارات لأشياء حسية، فغاية اللغة الترويح عن النفس، والتعبير عما تجيش به صدورنا، ونقل الأفكار من وإلى الاخرين، اللغة علاقة بين الكلمة والفكرة، لا بين الكلمة والشيء، فالمعاني جوانية فكرية وليست برانية حسية[1]، وهذه الأقوال لجون لوك لا تتفق تماماً ونظريته التجريبية الحسية.

وقد رد كمال يوسف الحاج على جون لوك بأنه لا يرى علاقة جدية بين ما نعبِّر عنه، وما نفكر فيه «فلو كانت العلاقة موجودة لتكلم الناس جميعاً لغة واحدة،، ولأثارت الكلمات عينها في أذهان الكل المعاني ذاتها»[2].

وكان دي بونالد مفكراً لاهوتياً فرنسياً نظر إلى اللغة من منظور لاهوتي بحت، فعلاقة اللغة بالفكر لديه ليست مشكلة خاصة، يمكن دراستها بمعزل عن مشكلات الإنسان الأخرى. أنها مشكلة تعيش في صميم الكيان البشري. ومن

---

(١) كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٦، ص ٢٥.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٦.

صميمه إلى صميمه، إنها مشكلة الإنسان ككل، ومن هنا اعتبرها قلب الفلسفة برمتها[1].

ويمكن إيجاز نظرية دى بونالد فى اللغة بأن أقول:

إن العلاقة التي تربط الفكر بالكلمة هي علامة صميمية، فهما - الفكر واللغة - جسد واحد ارتباطهما ارتباط طلوع الشمس بحدوث النهار، ولو كانت اللغة تواطؤية لاتفق الناس جميعاً على لغة واحدة؛ فاللغة إذاً هبة من لدن الله تعالى. أعطى الإنسان قوة النطق منذ البداية ووضع الأحبال الصوتية في عنقه، إن الفكر ذاته كلمة، نحن نتحدث إلى أنفسنا حديثاً داخلياً (مونولوجاً) ونتحدث إلى الآخرين في حوار لا ينقطع (ديالوجاً)، والفكر لا ينقطع إلا بالموت[2].

بينما رأي ليبنتز Gottfried wilhelm Von Leibniz (١٦٤٦-١٧١٦) الفيلسوف الألمانى أن اللغة كعلم لا تختلف عن علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات، وحاول أن يربط بين اللغة والميول الذاتية وليدة البيئة والتربية والزواج والظروف الشخصية، ويذكر أن اللغات بمثابة كتاب مفتوح علينا أن نحسن القراءة فيه. ولكي نحسن القراءة ينبغى أن نقرأ أولاً لكى نفهم ثانياً.. فنحن لا نفهم قبل القرأءة (لذلك بدأ الله تعالى رسالته إلى سيد الخلق أجمعين محمد بن عبد الله (ﷺ) بـ (إقرأ..). وعلينا أن نقرأ وأذهاننا خالية من كل فكرة مسبقة (فالعقل صفحة بيضاء Tabula rasa). ولأن ليبنتز من مشجعي الرياضيات فقد تبنى الأساليب الاحصائية، فنقوم بإحصاء عدد اللغات الكائنة في العالم (على استحالتها). وأن نقابل بينها ونقارن بين حقب زمنية ثلاث: ماضي وحاضر ومستقبل، فاللغة في نظره كائن حيّ يتطور وفق نواميس معينة، لا نعرفها مسبقاً، حتى نصل إلى معرفة نشأتها وتطورها وعلاقتها بالفكر.

وقد قام ليبنتز بالفعل بأول عمل احصائي في هذا المضمار، وجمع الوثائق، وطرح تساؤلات على هيئة استبيانات، وطلب معونة الأمراء والملوك كبطرس

---

(١) راجع كتاب بونالد De Bonald «التشريع البدائي» Législation Primitive ، الفصول ١ - ٢ - ٣.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧. بتصرف.

الكبير لكي يحقق فكرته. وعلى الرغم من انجازاته التي استعان فيها بالاكتشافات العلمية الحديثة في مجال الفيلولوجيا إلا أنها كانت اكتشافات نظرية لا يختبرها محك الواقع اختباراً حقيقياً طويل الأمد.

ويقال إن ليبنتز كان ذو عقلية ديناميكية بقدر ما كان لسبينوزا عقلية هندسية نقد قام ليبنتز باستبدال زوج الوحدات المتناظرة عقلاً ومادة بمتصل من العناصر المتناظرة: الموناد، فبينما ندرك الموناد وفق نمط النفس فإنه يضم ملامح لا ترقى إلى درجة الوعي الذاتي للنفوس الكاملة تلك الملامح التي تكون جزءاً من ذلك العالم الذي ينسبه ديكارت إلى المادة. فكل من هذه المونادات يعيش في دنياه المغلقة بسلسلة سببية تامة منذ بدء الخليقة أو منذ ناقص ما لا نهاية في الزمن حتى المستقبل البعيد إلى ما لا نهاية. ولكن هذه المونادات مهما كانت مغلقة فإنها تتناظر الواحدة مع الأخرى نظراً للتجانس الذي أقامه الله تعالى من قبل.

إن ليبنتز يقارن هذه المونادات بساعات أديرت – أحد علماء الهندسة – بحيث تتفق معاً في الزمن منذ بدء الخليقة وإلى الأبد، وهي على خلاف الساعات التي يصنعها الإنسان، فهي لا يختل اتفاقها الزمنى أبداً، وهذا من بديع صنع الباري، سبحانه وتعالي «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه»[1].

وعلى الرغم من أن المونادات تعكس بعضها البعض فإن الانعكاس لا يتكوّن من تحول السلسلة السببية من واحدة لأخرى، إنها بالفعل مشمولة ذاتياً أي منطوية على نفسها. كما يقول ليبنتز لا أبواب لها ولا نوافذ..[2].

ثم طرح ليبنتز فكرة «اللغة الأنموذج» Proto Language ويعنى بها اللغة التي تشيع فيها صفات من لغات قديمة تطورت عنها اللغة التي بين أيدينا ومثال ذلك اللغة العربية ومقارنتها باللغات العبرية والسريانية والحبشية واليمنية القديمة

---

(١) سورة لقمان، الآية ١١.

(٢) نور بيرت فينر، السيبرنتيكا، ترجمة د. رمسيس شحاته، د. إسحق إبراهيم حنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ص ٧٠ – ٧١.

وغيرها. ونضع أيدينا على أوجه الشبه بينها، وبهذا نعتبر أن المصدر الذي تولدت عند هذه اللغات هى اللغة السامية الأنموذج Proto Semitic. وفي اللغات الأجنبية تعتبر اللغة الهندوأوروبية هي اللغة الأنموذج Proto Indo-European[1].

كذلك طرح ليبنتز فكرة اللغة المثالية ويقصد بها اللغة الرياضية «فالتحليل الجبري يعلمنا أن كل عدد ينشأ عن عناصر أساسية محددة، ويمكن تحليلها إلى «عوامل أولية» Primitive Factors وتمثل الناتج منها وهي ما يمكن تطبيقه على أي محتوى معرفيآخر»[2].

وعرض ليبنتز إعادة عرض إشكالية اللغة ووضعها داخل الإطار المنطقي الكلي الذي وضعه كشرط أساسي وجوهري لكل فلسفة وكل معرفة نظرية على وجه العموم. لقد كان ليبنتز على وعيٍ كامل بالصعوبات التي واجهت ديكارت على الرغم من أن ديكارت لم يقدم نظرية لغوية متكاملة.

ورفض ليبنتز استخدام اللغة الطبيعية أو اللغة العادية في الفلسفة والعلم على السواء، وفضّل عليها اللغة المثالية، وذلك بسبب اللبس والغموض الذي تكتنب به اللغة العادية وسوء استخدام الناس لها وخاصة الفلاسفة الذين تقعروا في استخدامها وأغرقوها في بحر مظلم من العبارات والمصطلحات الغامضة والمبهمة والمنحوتة، مما كان له عظيم الأثر على فكر الفلاسفة المعاصرين أمثال برتراند رسل ولودفيج فتجنشتين في أول عهده بالفلسفة، ويعد استخدام اللغة المثالية وانتشار فكرتها في النصف الأول من القرن العشرين على يد أصحاب «المذهب الذري المنطقي» Logical Atomism بسبب هذا التأثير لليبنتز، الذي قال ليبنتز إنه «بالاستطاعة رد جميع الأفكار الإنسانية إلى قلة من الأفكار

---

(١) د. عبد الرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، ص ص ١٧ - ١٨.
عن: Gray's Foundation of Language, New York, 2nd. Edition 1958, p.433.

(2) Cassier, Ernest, The Philosophy of symbolic forms, vol. I, trans. by Ralph Manheim, New Haven, Yale University press, 1961, pp. 129-130.

كأوليات Primatives، وإذا أمكن تخصيص رموز تقبل كأوليات فسيكون بالمقدور استحداث رموز أخرى للدلالة على الأفكار المشتقة...وفيها فسيتسني الاهتداء إلى تعاريف وقيم صحيحة، ومن ثم سيكون من الميسور أيضاً الاهتداء إلى الخصائص التي يمكن البرهنة على أنها متضمنة في التعاريف أو المترتبة عليها،[1].

أما الشاعر الفرنسي «لامارتين» Lamartine (١٧٩٠-١٨٦٩) فقد هاجم اللغة في قصته «رافائيل» عام ١٩١٨ ووصفها بأنها «لغة ناقصة» «قاصرة» و «كلماتها فارغة». جوفاء باردة» أمام النفس الحارة الجياشة المفعمة بالعواطف والاحساسات المرهفة.. أثيرية قد تحيط باللانهاية ولكن أن تعبر عنها باللغة فأمر محال.. إذ كيف تعبر اللغة القاصرة النهائية عن عالم النفس اللانهائى.

بينما قال الشاعر العربى اللبنانى شاعر المهجر «ميخائيل نعيمه» في كتابه «الغربال» ما يأتي[1]:

«الفكر كائن قبل اللغة، والعاطفة قبل الفكر. فهو الجوهر، وهى القشور. ومن تعس البشرية أن تفقد مقدرة قراءة الأفكار والعواطف، كما تنبت وتنمو في الأرواح، لا كما ينطق بها اللسان. وأن تراها في حاجة إلى إشارات، وعلامات مختلفة. تصطلح عليها رموزاً لأفكارها وعواطفها. لأن تلك الإشارات، والعلامات مهما دقّت، ليست لتأتي إلا بأشباح ضئيلة، مبهمة، من عالم الفكر المطلق والعاطفة الحرة. ولم تعرف الإنسانية بعد كل تاريخها من تيسر له أن يسكب كل فكرة، أو يجسّم كل عاطفته، في كلام أو خطوط أو الوان أو الحان. لذاك فهي أبداً تقرأ بين السطور. وما تقرأه بين السطور هو أفصح، وأبلغ، وأعمق، وأوسع مما تقرأه في السطور. وذاك لأنها تدرك بالفطرة أنه يستحيل على بشرى كائناً من كان - شاعراً أم كاتباً، رساماً أم نحّاتاً، مهندساً أم ملحناً - تأدية فكر أو عاطفة بكل ما فيهما من تجعد وتلوّن».

---

(١) ريتشارد شاخت، روّاد الفلسفة الحديثة، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، الألف كتاب الثاني ١٣٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص ٥٥.

(٢) ميخائيل نعيمه، الغربال، ص ٢٠٢.

عن: كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، ص ٣٩.

وبالنظر في النصين السابقين نص لامارتين ونص ميخائيل نعيمه نجد أنهما نظراً إلى اللغة نظرة دونية بمعنى أنها لغة غير قادرة على التعبير عن المشاعر والأحاسيس الإنسانية، لا تستطيع أن تسبر غور الأرواح وتعرف ما فيها فتعبر عنها تعبيراً صحيحاً دقيقاً، إن اللغة تعبر عن أشياء مادية بسيطة لذلك وصفها «نعيمه» بأنها «قشوراً» ولا تستطيع أن تعبر بذاتها بل تستعين بالإشارات والعلامات.

أما العواطف والأحاسيس وما يدور في النفوس والأرواح فمحال أن تدركه اللغة أو تعبر عنه، وليس هذا قاصراً على الكاتب وحده باعتباره يملك ناصية اللغة أكثر من غيره، بل مهما كانت وظيفته واتجاهاته وقدراته مثل الرسام والنحات والمهندس والملحن، الجميع أمام العواطف الإنسانية المرهفة الجياشة بحرارة العاطفة ولهيب الاحساسات المتدفقة يقف حائراً - صامتاً، عاجزاً وتلك قدرة أخرى من قدرات الله عز وجل في الإنسان الذي غرّه بربه الكريم الغرور.

واللغة تتطلب قدرة أخرى نافذة تنفذ منها إلى ما بين السطور والذي يكون في كثير من الأحيان أعمق من السطور المتلئلئة ذاتها.. إنها تدرك بالفطرة السليمة. والسرائر الطيبة، والعواطف النبيلة.

أما هنري برجسون Henri Bergson (١٨٥٩-١٩٤١) فيعده البعض زعيم المدرسة الإرهافية (كما ينقلها كمال الحاج عن الترجمة الأوروبية) التي تهاجم اللغة وتنعتها بالسلبية والقصور، وهو على حد التعبير «فيلسوف وأديب من معدن واحد» أي لا فرق بين الفيلسوف والأديب في القدرة التعبيرية وامتلاك القدرة على التعبير، فلا يتغلب أحدهما على الآخر» جمع فيه رجولة الفكر (الفيلسوف) وأنوثة الكلمة المجلوة (الأديب)، وعلى الرغم من أن برجسون ملك ناصية اللغة، وسحر البيان، وعمق الأفكار، إلا أنه يرفض العلاقة القائمة بين الفكر واللغة، حتى أنه يستأثر بأسماع الحاضرين في محاضراته بالكوليج دي فرانس College De France، كما اعتبر كتابه «التطور الخلاق» آية من آيات البيان الفرنسي الساحر[1].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٩.

ويرى برجسون أن اللغة لا تعبّر بدقة عن الوجدان – وهو أديب يتفق هنا مع الشاعرين مارتن ونعيمه – ولا تستطيع أن تعبر عن النفس الإنسانية الجياشة بصدق؛ فاللغة قاصرة عن بسط المعاني البسيطة المتصلة بعضها بالبعض الآخر يصعب على الإنسان إدراكها والقبض عليها. ويقول برجسون في كتابه «رسالة أو مقالة في معطيات الوجدان المباشرة (البدهية) (١٨٨٩) Essai sur les données immédiates de la conscience:

«نحن نعبّر عن أنفسنا اضطراراً بألفاظ، ونفكر في الأغلب تفكيراً فضائياً. وبعبارة أخرى، إن اللغة ترغمنا على أن نجعل بين أفكارنا الشقوق عينها، والفوارق الجلية الدقيقة ذاتها، التي نقيمها بين الأشياء المادية. إنّ هذه التسوية نافعة في حياتنا العملية، ولازمة في أكثر العلوم. ولكن يمكننا التساؤل عما إذا كانت الصعوبات المنيعة، التي تثيرها بعض الإشكاليات الفلسفية، لا تنجم عن تمسكنا الشديد بوصف الوجدانيات في حيّز فضائي... وعما إذا كنا لا نتغلب على هذه الصعوبات بتغاضينا عن الصور الثخينة، التي تحتدم حولها تلك المشاحنات. فعندما نترجم اللاممتد بالممتد، ونعبر بالكم عن الكيف – مقيمين التناقض هكذا في قلب المشكلة المعطاة، من جرّاء هذه الترجمة المشوهة – هل نعجب بعد ذلك من رؤية التناقض ثانية كائناً في الحلول التي نستخرج بها هذه المشكلة؟»[1].

ثم يقوم برجسون بالتركيز على مفهومين من المفاهيم الوجودية التي بدأت تنتشر في عصره.. اللغة والفضاء. وجعل للوجدان منطقين: وجدانية (داخلية) وبرانية (خارجية). أنا ظاهرة وأنا باطنة، ولكي ندرك الأنا الباطنة نستخدم في إدراكها اللغة واللغة قاصرة، بل إنها توقف سيلان الوجدان، وتهبط إلى المستوى العاميّ المتدني، ويعود قصورها إلى فكرة الديمومة La Durée محور فلسفته[2].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٤١.

(٢) انظر: * Wright, William Kelley, A history of Modern philosophy, The Macmillan Company, New York, 1946, p. 562.

* Bergson, Henri-Louis, L'Évolution créatice, Alcan, Paris, 1907.

يتحول الوجدان من حالة إلى أخرى.. غضب.. حزن.. إحساس.. إدراك.. تذكر، إذا الديومة التي تلوّن النفس بمختلف الألوان، فالحكم هنا للتحول التي يسميها برجسون الديمومة الوجدانية في مقابل الديمومة المادية؛ فديمومة المادة تحدث بدوافع خارجية ولا تتغير في صميمها، فالتغير يحدث في أجزائها.. في الفضاء.. أما الأجزاء الأخرى ذاتها، فإنها لا تتغير وإن ظهر لنا تغيرها الخارجي.. السطحي.. إلا أن ذراتها تظل ثابتة[1].

«قلنا بأن الحالة الوجدانية استمرار. زد على ذلك أنها كيفٌ، والكيف لا يخضع لمنطق الكم. الأشياء المادية يمكن عدُّها؛ لأنها تتكسّر أجزاءً متشابهة (فهي متكثرة). لهذا نستطيع القول عن كوب ما، بأنه يسع ماءً أكثر من غيره، نظراً لحجمه الأضخم. ولكن لا يجوز – على صعيد الوجدانيات – أن نكوّن سلسلة، متزايدة أو متناقصة، من النفسيات التي لا توصف. إن خلطنا الديمومة بالفضاء يحدونا على الظن أن الوجدانيات كالأرقام والأجسام يشتمل بعضها على البعض الآخر، الذي هو دونه في المرتبة»[2].

ويذهب برجسون إلى أن الشفقة – على سبيل المثال – تقوم على أربع حالات وجدانية متداخلة، وإن كانت لا تمت إحداها إلى الأخرى بصلة ما. وكلها كيفيات.. والكيفيات – كما يقول – لا تخضع لمنطق الكم والأشياء المادية المعدودة.. وهذه الكيفيات هى الكراهية والخوف والتعاطف والتواضع. فالشفقة تدفعنا إلى نوع من الكراهية فنهرب من البؤساء. ثم الخوف من أن نقع في حالة شبيهة بحالة البؤساء فنسرع إلى نجدتهم وهى مرحلة الشفقة والتراحم اللذان يقومان – في نظره – على الأنانية الخائفة وهى أحط مراتب الشفقة وأدناها[3].

ومازلنا مع برجسون وقضية اللغة فيقول: «إن اللغة كالفضاء تتكسر ألفاظاً متشابهة، قابلة للارتكاس، والعدد... اللفظة، إذاً، هي أس اللغة. واللفظة جامدة

---

(١) كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، ص ص ٤٣ – ٤٤.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٤.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ص ٤٥ – ٤٦.

لا تتحول... من هنا يأتي عجز اللغة التي لا تشير إلى هذا الإبداع في الحالات النفسية، إلا بألفاظ واحدة عند الجميع».. اللغة عاجزة عن إدراك خبايا الوجدان»[1].

بينما يذهب في كتابه «الضحك:مقال في دلالات الكوميديا»[*] (١٩٠٠) إلى أننا لا نرى الأشياء ذاتها، بل نكتفي غالباً بأن نقرأ عناوينها الملصقة عليها. هذا الميل الذي هو وليد الحاجة، يشتد بتأثير اللغة، فالكلمات (ما عدا أسماء الأعلام) تشير إلى أجناس، وهى لا تذكّر من الشيء غير وظيفته العامة، وجانبه المبتذل[٢].

أما الموسيقي فهي موجات تطول وتقصر ولا تقوم على جرس الحروف فهى كالنفس تتذبذب إيقاعياً بين مد وجزر دائمين، وهذا يعني أن الوجدان يتراقص علواً وهبوطاً.. على مجالات متفاوتة كالرئتان في اهتزازها وحركاتها.. أما تنقيط الفواصل فهو وحده غير كاف.. هذا التنقيط لا يبرز بالتمام أخاديد الفكر. وهناك الصورة أيضاً وما نعنيه بالصورة ههنا الألوان التي توحي.. لا الألوان التي تعبّر.. لهذا يمايز برجسون بين صور جامدة. وصور متحركة.. الأولى لا تعطي الوجدان غير وقفات.. والثانية تومىء من بعيد إلى ديمومة النفس.. الأولى تعبّر.. والثانية توحي.

هذا ما ذهب إليه برجسون في مجال فلسفة اللغة والحديث لا ينتهي فكما أننا نصف اللغة بالثراء والعمق والقدرة على التعبير - حتى وإن اتهمناها بالعجز في مجال الوجدان والأحاسيس والعواطف الجياشة - فكذلك الحديث عن اللغة وابداء الآراء حولها لا ينتهي.

ويقال إن الفيلسوف الفرنسي الملحد جان بول سارتر Jean Paul Sartre

---

(١) انظر: نفس المرجع السابق، ص ٤٨.
وأيضاً: كمال يوسف الحاج، هنري برجسون، الجزء الأول، دار النشر للجامعيين، د.ت، ص١٢٣.

(*) Le Rire: Essai sur la significations de comique.

(٢) كمال يوسف الحاج، هنري برجسون، الجزء الأول، ص ٢٣٤.

(١٩٠٥-١٩٧٠)، ركز على ما أسماه «أزمة اللغة» فيما كتبه من «مواقف» Situations فيما بين عامي ١٩١٨-١٩٣٠ (ص ١٨٨ وما يليها) ونشرها عام ١٩٤٧ جاليمار Gallimard وتوصل سارتر إلى أن اللغة تتهم بالفشل بإزاء الفكر عاجزة عن التقاط متناهيات الوجدان وهو هنا متفق مع برجسون ويتفق معهما الأديب الفرنسي «جان بولهان» Jean Paulhan الذي عبّر عن رأيه هذا في رواية بعنوان «أزهار الشر» Les fleurs de Tarbe وذكر أن لغة الإنسان لغة عاجزة عن التعبير عن حبّات قلبه.. ومكنون فؤاده؛ لأن اللغة خادعة.. آنيّة فارغة. وتعرض بولهان إلى نقد النقاد الذين هاجموه بسبب حكمه بالاعدام على اللغة[1].

ويسمى القرن العشرين - بصفة عامة - بأنه قرن علم اللغة وفلسفتها بعد أن توسعت الدراسات اللغوية على أسس علمية صحيحة ساعدها في ذلك الاكتشافات العلمية الحديثة خاصة في أعضاء النطق عند الإنسان ذاته، فضلاً عن الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية التي مدت الباحثين بمادة علمية ثرية للغاية - وإن كان بعضها مجرد اقتراحات وظنون واستنتاجات وادّعاءات - ونشط علماء اللغة لتحريرها من براثن النظريات الاجتماعية والفلسفية، والنفسية والتاريخية إنها ثورة علم اللغة ثم ثورة المعلومات كتلك الثورة التي أحدثها ارشميدس في الطفو، وكوبرنيقوس في الفلك، ونيوتن في الفيزياء وداروين في علم الأحياء.

وبدأ العلماء في التركيز على جوانب اللغة الثلاثة: الصوت Phonétique (phonetics)، وبنية تركيب الكلمات Morphology، والتركيب اللغوي للجمل Syntax. أما فلسفة اللغة فتتمثل في البحث عن نشأتها.. وعلاقتها بالفكر. وعلاقة اللغة سلباً وإيجاباً مع الكائن الحي خاصة ما يمس وجدانه وشعوره، ومما تترتب هذه اللغة، وما علاقة اللغة بقواعد اللغة وعلاقتها بالمنطق والعلوم الأخرى وغيرها من التساؤلات والإشكاليات التي تمس لب جوهر اللغة واللغة هي الإنسان.

---

(١) نشر الرواية جاليمار عام ١٩٤١، انظر ص ٦٥.

الفصل الثالث

الدراسات المعاصرة فى فلسفة اللغة



الفصل الثالث
الدراسات المعاصرة في فلسفة اللغة

مقدمة

انقسمت الدراسات المعاصرة في فلسفة اللغة إلى عدة أقسام أو اهتمامات أو فروع فهذه بنيوية اللغة، وتلك أنثروبولوجية اللغة، وهذا علم المعاني والتركيب اللغوي، وذاك علم الدلالات وغيرها من الدراسات والبحوث مما سوف نراه في هذا الفصل وما يليه من فصول.

أولاً: علم الدلالة (المعاني)

علم الدلالة Sémantique / Semantic هي كلمة أو لفظ أو مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية Sêmainô بمعنى «دلّ على» والمتولّدة هي الأخرى من الكلمة Sêma أو «العلامة» وهي منسوبة أصلاً إلى كلمة Sens» [1].

وعلم الدلالة هو الدراسة العلمية الموضوعية للمعنى في اللغة والذي لابد أن يضم في أبعاده الجانب الصوري والجانب التجريبي، والجانب البيولوجي للغة، وقد قام تشارلز موريس بهذه المهمة في كتابه «أسس نظرية العلامات» Foundations of the theory of signs. وقد أصبح يستخدم على نطاق واسع حتى القرن الحادي والعشرين، على الرغم من أنه علم قديم إذ يرجع إلى الفلاسفة والمناطق السابقين أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم على الأقل إن لم يكن قبل ذلك بكثير [2].

---

(١) بيار جيرو، علم الدلالة، ترجمة أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص ٦.

(٢) مازن الوعر، في التعليق على ترجمة موضوع علم الدلالة تأليف ديفيد كريستال، ص ٢٨٩ بتصرف كبير من جانب المؤلف.

وانظر أيضاً:

Crystal, David, in: The Cambridge Encyclopedia of Language, Cambridge University Press, 1989, pp. 100-107.

وأيضاً د. ياسين خليل، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دراسة تحليلية ونقدية للاتجاهات العلمية في فلسفة القرن العشرين، الجامعة الليبية (كلية الآداب)، بنغازي، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠)، ص ٣١٤.

ويقال إن الفلاسفة اليونانيين هم أول من تعرض لمسألة طبيعة المعنى؛ أ هي إلهام أم اتفاق، وأخذ أفلاطون بالاتجاه القائل بأن للدلالة أو المعنى وجهة طبيعة فهي إلهام -- كما ذكرنا من قبل – حيث يرى أن هناك صلة داخلية أساسية موجبة بين الصوت وبين الكلمة التي تدل عليه، أي بين الدال والمدلول. بينما ذكر أرسطو بأن للدلالة أو المعنى وجهة وضعية فهي اتفاق، ورأى أن مثل هذه الصلة بين الاسم والمسمى، أو بين الدال والمدلول أو بين الصوت وبين الكلمة إنما هي صلة اعتباطية لأنها وضعت بالاتفاق بين الجماعات التي تستخدم هذه اللغة، وبالتالي اختلف الناس حتى وقتنا هذا بين وجهتي النظر وسيظل الاختلاف قائماً إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ثم يقضي بعلمه المطلق فيما يختلف فيه الناس من قضايا وإشكاليات.

ويقول فرانك بالمر Frank Palmer – أحد المتخصصين الغربيين في دراسة اللسانيات أو علم اللغة وفلسفتها في كتابه «علم الدلالة أو المعنى» Semantics.

«إن علم الدلالة ليس نسقاً واحداً متكامل البنيان تكاملاً جيداً، وهو أيضاً ليس مستوى لغوي محدد بوضوح، كما أنه ليس علماً نحوياً، ولكنه مجموعة من الدراسات في كيفية استخدام اللغة في علاقاتها بخبرات كثيرة مختلفة ومتباينة، بإزاء السياق اللغوي Linguistic وغير اللغوي non-linguistic context، وكذلك بالنسبة لأطراف الحوار بما لديهم من خبرات ومعارف، وأيضاً بالنسبة للظروف المحيطة التي يتناولون فيها هذه اللغة» [1].

بينما جاء في قاموس الفلسفة والدين [2] لوليم ريز أن نظريات المعنى قد تكونت من خلال تحديد موقع المعنى Significance والعلاقات المتداخلة للمعطيات الحسية Sense-data، والكلمات Words والعبارات Sentences. إن استخدام الكلمات والعبارات في اللغة العادية، والأفكار، وإشكالية الدلالة Reference بإزاء الكلمات والعبارات أو الجمل والأفكار.

(1) Palmer, Frank, Semantics, 1981, p. 206, in: Jackson, Howard, Words and their meaning, , Longman, New York, Second impression 1989 (first Published 1988), p. 245.

(2) Reese, William L., Dictionary of philosophy and Religion Eastern and Western Thought, New Jersey, Humanities Press, 1980, pp. 345.

وأشهر نظريات المعنى تلك التي ترى أننا نحصل على معنى الكلمة أو الفكرة عن طريق إيجاد مدلولها في العالم غير اللغوى In the non - linguistic world ، ولكن هذه النظرية واجهت كثيراً من الاعتراضات بسبب امكانية وجود معنيين لنفس المدلول Referent ، كما يذكر فردريك جوتلوب فريجه، (١٨٤٨-١٩٢٥) Friedrich Ludwig Gottlob Frege وعلى هذا فإن كثيراً من الكلمات التي تؤدى وظائف جوهرية لا غنى عنها Indispensable functions في العبارات، إلا أنه ليس لها مدلول خارجي، من هنا وضع مبدأ التحقيق Verifiability criterion الشهير الذي جعل شرط تحقيق العبارة أن تكون متفقة مع معناها. إلا أن مبدأ التحقيق نفسه مبدأ غير محقق، كما يرى همبل Hempel، فكيف نطبق مبدأ ليس محققاً لتحقيق عبارات ما وإثبات صحتها ومدى تطابق كلماتها مع مدلولاتها. من هنا جاء كارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤) Karl Popper بمبدئه الشهير (مبدأ التكذيب) Falesifiability Criterion بدلاً من مبدأ التحقيق، وذهب هانز ريشنباخ (١٨٩٢-١٩٥٣) Hans Reichenbach إلى أن بعض العبارات والقضايا Propositions لها معان متعددة Surplus meaning فكيف يمكننا التحقق منها؟

وهناك شكل آخر من أشكال نظرية المدلول Reference theory تذهب إلى أن الإنسان يحصل على معنى الكلمة أو الفكرة عن طريق إيجاد المعطيات الحسية التي تعطى في الفكرة، وقد ذهب إلى مثل هذا الرأى كل من جون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) وجورج بركلى George Berkeley، (١٦٨٥-١٧٥٣) وديفيد هيوم David Hume (١٧١١-١٧٧٦).

بينما ذهب فريق ثالث إلى أننا نحصل على المعنى لكلمة أو فكرة من خلال نتائجها النظرية والعملية سواء لهذه الكلمة او تلك الفكرة ومن أصحاب هذا الاتجاه تشارلز ساندرز بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) Charles Sanders Peirce وجون ديوى (١٨٥٩-١٩٥٢) John Dewey . فقد قدّم بيرس تصوراً للمعنى غير الطبيعي non-natural meaning الذي يعني به أن المتكلم قد يعني شيئاً ما عن طريق النطق utterance ويريد من نطقه أن يعبر عن نتيجة ما أو يترك أثراً معيناً لدى السامع وهذا ما يعنيه بيرس بالتصور غير الطبيعي.

ونظر فريق رابع إلى فلسفة المعنى باعتبارها فلسفة واقعية على نحو ما، أو

هي تطوير لمفهوم الفلسفة الواقعية التي تعتقد فيما له وجود واقعي، ولا ترى للألفاظ معنى إلا إذا كان لها مدلولات خارجية (خارج الذهن أو العقل الإنسانى) بمعنى أن ينطبق ما في الذهن من ألفاظ على ما في الأعيان من وقائع ملموسة ومحسوسة. فإذا كان للفظ أو للعبارة مدلول فعليّ واقعي خارجي كان لها معنى وذات قيمة، وإلا فقدت قيمتها وأصبحت ألفاظاً لها جرس جميل ولا مدلول لها.

لقد اعتقد الواقعيون أنه لا يوجد شيء في الذهن ما لم يكن له مقابل في الخارج، وتطور المذهب فحاول أصحابه التوفيق بين أفكار المثاليين الفطرية وبين المذهب الحسيّ. واتفقت جميع المذاهب المعاصرة من مادية جدلية، وبرجماتية، وتحليلية، وظاهرية، ووجودية على هذا الرأي وإن عالجه كل منهم بطريقته الخاصة. ثم تطورت النظرة إلى العالم من اعتباره مجرد «أشياء» ، و «كائنات» إلى النظر إليه باعتباره «علاقات» و «حوادث» events.

مما سبق يتبين أن علم الدلالة Semantics مصطلح يستخدم في الإشارة إلى دراسة المعنى Meaning، وعلى الرغم من ذلك فإن بالمر يرى أنه لا يوجد اتفاق عام على ماهية المعنى مما يصعب وصفه.

وقد ظهر هذا المصطلح «علم الدلالة» في اللغة الإنجليزية الحديثة منذ عام ١٩٤٨ تقريباً وقد فصّل لنا «ريد» Read هذا المصطلح في العام المذكور وذكر أن مصطلح Semantick ورد في كتابات القرن السابع عشر، في عبارة «فلسفة المعنى» Semantick Philosophy ، ولكنها كانت تعني «الكهانة»، ولم تظهر كلمة Seman-tics حتى وردت في وثيقة قرئت على الجمعية الأمريكية لعلماء فقه اللغة عام ١٨٩٤ تحت عنوان:

"Reflected meanings a Point in Semantics:"[1].

وكذلك أيضاً ظهر مرة أخرى عام ١٩٠٠ في كتاب م. بريل M. Bréal بعنوان «دراسات في علم المعنى» Studies in the science of meaning، واهتم فيه بتاريخ المصطلح فاطلق عليه «علم الدلالة التاريخي» Historical Semantics، واشتهر

(١) فرانك ر. بالمر، علم الدلالة، إطار جديد، ترجمة د. صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ١٠.

المصطلح وعلم الدلالة معاً بعد ظهور كتاب «أوجدن» C.K. Ogden و «ريتشاردز» I.A. Richards «معنى المعنى» The meaning of meaning عام ١٩٢٣، وقد افتتحا فصله الأول بكلمة مقتبسة من حكم الحكيم الصينى «لاوتسى» Law Tce يقول فيها: من يعلم لا يتكلم ومن تكلم لا يعلم.. وهي كلمة تدل على الحكمة، فمن يعلم حق العلم لا يلغو، ومن يلغو كثيراً يكشف عن جهل مطبق، كما أن لاوتسي يرى أن الكلام عبث ضائع إذا بلغ العلم غايته. ويجمع في سطر واحد كل ما تفرق من عيوب المعاني والكلمات عند السيميين أو فلاسفة علم الدلالة أو المعنى[1].

واستخدم المصطلح الأنثروبولوجى الشهير «برونيسلاف مالينوفسكى» B. Malinowski (١٨٨٤-١٩٤٢) في كتابه «مشكلة المعنى في اللغات البدائية»، واستخدمه الشاعر الإنجليزي «ويلز» H. G. Wells في كتابه «شكل الأشياء في المستقبل» The shape of things to come ليدل به على ما يراد التعبير عنه من أفكار فكأنه بمثابة علم للإشارات، وقد أدى الاختلاف في توظيف المصطلح إلى ظهور عدة مسميات لعلم الدلالة أو علم المعنى في اللغات الأجنبية مثل: Semiotics، Sem..mics، Semics، Semasiology و Semal-ogy كل بحسب اتجاهاته وميوله العلمية وكلها تعني علماً واحداً هو علم الدلالة أو المعنى Semantics وهو أكثر شهرة وانتشاراً واستخداماً[2].

ويشترك ثلاثة علوم حديثة نسبياً في الاهتمام بدراسة «الكلمة» ووصفها ووضع المقابل لها أو معناها، وهذه العلوم هي: علم القواميس أو المعاجم Lexi-cology، وعلم صناعة وتأليف المعاجم Lexicography، وعلم المعاني أو الدلالة Semantics، وجميعها يمثل فرعاً في الدراسات اللغوية أو اللسانية (اللغويات أو اللسانيات) a branch of linguistics.

وقد ربط ستيفن أولمان Stephen Ullmann أستاذ اللغويات في جامعة جلاسكو Glascow ومؤلف كتاب «الكلمات وما تستعمل له» بين علم القواميس أو

---

(١) عباس محمود العقاد، السيمية، في كتاب: بحوث في اللغة والأدب، ص ٣٤. (وسيأتي تفصيل المقال).

(٢) فرانك بالمر، علم الدلالة، ص ١١.

المعاجم وبين علم المعاني، بينما ربط «دوروسفسكي» Doroszewski بين علم المعاني وعلم صناعة وتأليف المعاجم، [1]، مما يدل دلالة لا تقبل الشك على الاهتمام الواسع بعلم المعاني أو الدلالة الذي انتشر في العالم كمجال بكر لم يسهم فيه الغربيون الأوائل بشيء كثير مثلما فعل اللغويون العرب الأوائل أمثال ابن جنّي وابن فارس والجُرجاني وغيرهم كثيرون.

اطلق - كما يقال - م. بريال M. Breal على الدراسات اللغوية التي تتناول اللغة من حيث دلالتها وباعتبارها أداة للتعبير اسم «السيمانتيك»، وخرجت علينا دراسات عديدة من اجتماع الدراسات اللغوية علم الأصوات (الفوناتيك) وعلم المعاني (السيمانتيك) عدة فروع علمية لغوية لعل من أهمها [2]:

أ - البحث في معاني الكلمات (Lexicology) أي العلم الذي يهتم بدراسة المفردات، ويهتم بمصادر المعاني واختلافها وبقائها أو اندثارها والقوانين التي تخضع لها في سيرها.

ب - البحث في بنية الكلمات واشتقاقها وتصاريفها Morphology وهي على ثلاثة أنواع:

١ - المورفولوجيا التعليمي (علم البنية التعليمي) ويدرس القواعد (النحو) وترتيبها وتعليمها وتعلمها (علم الصرف في اللغة العربية).

٢ - المورفولوجيا التاريخية (علم البنية التاريخي) يدرس القواعد في لغة ما دراسة تاريخية تحليلية.

٣ - المورفولوجيا المقارنة (علم البنية المقارن) يدرس القواعد السابقة لمقارنتها في فصيلة أخرى من اللغات الإنسانية أو في جميع اللغات.

جـ - البحث في أقسام الكلمات أي تقسيمها إلى اسم وفعل وحرف... الخ. وأنواع كل قسم ووظيفته في الدلالة أي في المعنى. وأجزاء الجملة وترتيبها وأثر كل جزء في الآخر مثل تذكير أو تأنيث كلمة، وتقسيم العبارة إلى جمل

(1) Jackson, Howard, Words and their meaning, p. 241.

(٢) د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ص ٦ - ٨.

وأيضا: (*) Baldinger, Kurt, Semantic Theory: Towards a Modern Semantics, Oxford, 1980.

وترتيب هذه الجمل وطريقة وصلها أو فصلها، ويسمى هذا المبحث «علم تنظيم النص» Syntext وينقسم بدوره إلى المورفولوجيا أو «علم البنية» (تعليمي وتاريخي ومقارن)، ولا يدخل في علم اللغة إلا «علم التنظيم التاريخي والمقارن» أما التعليمي فليس من علم اللغة، ومن علم التنظيم المورفولوجيا تتألف القواعد أو النحو Grammar، ومنه التعليمى والتاريخي والمقارن، ولا يدخل في علم اللغة إلا التاريخى والمقارن فقط.

هذا غير البحث في دراسة أساليب اللغة Stylistic وفنونها المختلفة من الشعر، والنثر، والخطابة، والمحادثة، والكتابة، والمسرح... إلخ.. والبحث في أصول الكلمات «الإيتيمولوجيا» Etymelogy، وأهم شعب هذا المبحث مبحث «الأونوماستيك» Onomastic وموضوعه البحث عن أصول الأعلام مثل الأشخاص والقبائل والعشائر والجبال والأنهار والبحار والأمصار، ومنه يتفرع علم التوبونوماستيك Toponomastic وموضوعه البحث عن أصول الأسماء والأماكن على اختلاف أنواعها [١].

وهناك بحوث أخرى أشرت اليها في آكثر من موضع خاصة الفصل الأول مثل علم الاجتماع اللغوى، وعلم النفس اللغوى وعلم فقه اللغة Philology وغيرها.

وامتدت هذه الاهتمامات بعلم المعاني أو الدلالة إلى مصر في وقت مبكر حيث قدم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد بحثاً إلى مجمع اللغة العربية عام ١٩٥٢ بعنوان «السيمية»[٢]، أشار فيه إلى أن الغربيين يشتغلون في ذلك الوقت بالبحث في المنطق واللغة وأساليب التعبير ويسمون مبحثهم بالسيمية من Semantic أو Sematic أو Soemasiolage وكلها كلمات مأخوذة من كلمة Sema اليونانية بمعنى علاقة أو رمز أو إيماء.

(١) نفس المرجع السابق، ص ١١.

(٢) ألقى الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - هذا البحث في مؤتمر المجمع في دورته الثامنة عشرة، وقرر مجلس المجمع في جلسة ١٩٥٢/٥/٢٦ استعمال كلمة «السيمية» في مقابل Semantics. انظر القرار في الجزء الثامن من مجلة المجمع، ص ٤٤٧.
وأعيد نشر البحث في كتاب الأستاذ العقاد «بحوث في اللغة والأدب» مكتبة غريب، القاهرة ١٩٧٠، ص ص ٣٠-٣٧.

ولقد لاحظ الأستاذ العقاد تقارب اللفظ والمعنى بين اليونانية والعربية؛ فالكلمة في اليونانية سيما Sema وفي العربية سمة ومتشعباتها الوسم والوشم والوصم وكلها تفيد العلامة والأثر والدلالة، ومما لاحظه أيضاً أن اللفظ شديد الصلة بالمبحث الجديد في علم اللغة أو قل في اللسانيات بوجه عام.

ثم ناقش الأستاذ العقاد في بحثه العلاقة بين حروف الكلمة بلفظها وبين معناها، ووجد أن الكُتاب الغربيين اختلفوا فيما بينهم إلا إنهم اتفقوا على أن الكلمات تنشأ من الحكاية الصوتية، وأنها لذلك تدل بلفظها على شيء من معناها، وأنها خليقة – كما يقول – أن تتشابه في جميع لغات العالم. ويعطي أمثلة من اللغة العربية اسم السيف واسم القلم، فقد يدل على السيف لفظ المهند والمشرفي، أو لفظ الحسام والجراز. فالمهند والمشرفي ملحوظ فيهما محل صنعهما، والحسام والجراز ملحوظ فيهما عمل السيف وهو القطع والسيف وهو أهم الأسماء ربما كان منقولاً من اللفظ اليوناني «سيفس». وكذلك يسمى القلم اليراع والمزبر ويسمى الريشة في الاصطلاح الحديث. فالقلم ملحوظ فيه التقليم، واليراع ملحوظ فيه أن الأقلام تتخذ من القصب، والمزبر من مادة الزبر بمعنى الكتابة أو الخط، والريشة تدل على القلم لأن أداة الكتابة عند الإفرنج كانت تتخذ من الريش. وقيل أيضاً إن القلم من «كلموس» اليونانية[1]. وقد ورد اسم القلم في القرآن الكريم «ن والقلم وما يسطرون»[2].

وفي نهاية البحث يشير الأستاذ العقاد إلى أن خصائص العقل البشرى ثابتة جوهرية، وأن باللغة عوارض كثيرة، فليس من المجدى إذاً أن نحاول تغيير الدماغ في تكوينه الثابت والجوهري لكي نصل من ذلك إلى تغيير اللغة، وإنما المستطاع أن نجعل اللغة موافقة لتكوين المعقول وما فطرت عليه من أساليبها في تحصيل المدركات.

وأيضاً أشار إشارات مهمة حيث ذكر أن اللغة لا يطلب منها أن تغني الإنسان عن التفكير أو أن تكون هي الفكر غنياً عن العلامات والرموز. وأن كل ما يطلب من اللغة أن تحسن الرمز وتساعد العقل على عمله، ومهما حاول

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣١.

(٢) سورة القلم، الآية ١.

فلاسفة علم المعانى فستظل اللغة رمزاًوسيظل الفكر متلقياً للرموز مجتهداً في تفسيرها، وستظل أفكار الناس متفاوتة في إدراك الرموز، كما تتفاوت العيون في إدراك المرئيات، وسوف يزداد علم المعانى أو الدلالة سهولة ويسرا كلما اتسع العلم بدراسة اللغات، ودراسة السلالات البشرية، ودراسة البنية الإنسانية، والنفس الإنسانية وعلاقة كل منهما بالصوت والكلمة[١]، ولن يغلق الباب مادام هناك من يحيا على الأرض يفكر ويدرس ويقارن، ثم يعود فيدرس ويفكر ويقارن حتى يرث الله-تعالى الأرض ومن عليها، هكذا شاءت عناية الله تعالى ومشيئته «وما تشاؤن إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين»[٢].

١- علم الدلالة والعلوم الأخرى

يُمكن أن نقول إن علم الدلالة أو المعاني هو جزء من علم اللغة، أو مستوى من مستوياته، كعلم الأصوات Phonetics وعلم النحو Grammar وغيرهما، ويقال إن علم الدلالة أو فلسفة المعني نشأ من جعبة علوم ثلاثة رئيسة هي: علم النفس والمنطق وعلم اللغة أو الألسنية، بالإضافة إلى علم الدلالة التاريخى Historical Semantics وغيرها. ولكننا سنركز على العلوم الثلاثة التي اهتم بها علم الدلالة أو المعنى.

أ- الدلالة وعلم النفس

لم يرحب علم النفس بانفصال علم الدلالة أو المعاني عنه في بادىء الأمر حتى أدرك علماء النفس سخف موقفهم فأطلقوا له العنان، والدلالة أقرب ما تكون إلى أنها مسألة نفسية، فالمعنى يحتفظ بقيمة سكونية Static أى يظل المعنى ثابتًا لأنه لا تغير باستمرار ما استطعنا أن نتفاهم ولتهاوت أنظمتنا الحضارية وثقافتنا، ولهدمت صوامع العلم والمعرفة، فالصورة الذهنية تنشأ عن النفس، وطالما أنها تنشأ عن علم النفس فيصبح الهدف الأساسى لعلم الدلالة أو المعنى دراسة معنى الكلمات ووظيفتها التي تكمن في نقل المعنى ومن هنا توطد معنى عبارة الدلالة أو المعنى في اللغة الأجنبية Signification حيث يدل ا للفظ في إشارته إلى المعنى أو الدال، فالعلاقة Sign إنما هي منبه، وقد دعاها علماء

---

(١) عباس محمود العقاد، السيمية، ص ٣٧.

(٢) سورة التكوير، الأية ٢٩.

النفس «بالمثير» Stimulation، يدفع بدوره الجسد إلى الإنفعال، مما يؤدي إلى بروز صورة في الذاكرة لمثير آخر، فالغمامة توحي بصورة المطر، والكلمة توحي بصورة الشيء ذاته»[1].

فإذا كانت العلامة «مثير» يُربط بمثير آخر يوحي بصورة ذهنية في نفس الإنسان، فالدلالة أو المعنى لذلك تعتبر قضية نفسية باعتبار أن كل شيء يحدث في النفس، وهي ما تعرف في علم النفس بنظرية الترابط أو تداعي المعاني Association، ومن هنا أصبحت نظرية الترابط أو التداعي قاسماً مشتركاً بين نظرية العلامات وعلم الدلالة وفلسفة المعنى وعلم النفس معاً، مما أدى إلى وجود ترابط بينها، كما أدت إلى اهتمام المدرسة السلوكية Behaviorism التي قال بها جون واطسون في الولايات المتحدة في النصف الأول من القرن العشرين إلى الاهتمام بها حيث تشكل محوراً مهماً من محاور علم النفس السلوكي التي نستطيع عن طريقها تفسير أنماط كثيرة من سلوكيات الإنسان على أساسها.

نظر علم النفس إلى العلامات باعتبار أنها مثيرات متداعية ترابطية، وإذا كان ذلك كذلك فإنه لدينا نوعان من العلامات: العلامات الطبيعية وهي التداعيات التي تربط بين ظاهرة طبيعية وأخرى مثل «الشمس والنهار»، «الغمامة والمطر» وغيرها، وهذا النوع من العلامات يشكّل جزءاً مهماً وقطاعاً عريضاً من معارفنا الإنسانية، بسبب ما تسببه من ترابط بين العلامات الطبيعية وبين أذهاننا فنظل لها ذاكرين، لذلك قلنا منذ البداية إنها علامة ترابطية فمجرد أن أرى الغمامة أتوقع المطر، وبمجرد أن أرى الشمس بازغة أعرف أن النهار موجود وغيرها كثير من الأمثلة.

أما النوع الثاني من العلامات فهي العلامات المصطنعة التي اصطنعها الإنسان أو الحيوان لنفسه كإشارة أو علامة تحدد معنى ما من المعاني، فهي علامات قادرة على تحقيق الاتصال دون كلام منطوق بل باستخدام الرموز والإشارات. وقد أشار «فردينان دوسوسور» إليهما في كتابه الذي اشتهر بين الفلاسفة وعلماء اللغة وأعني به «مبحث في اللغة العامة»، وجعل دوسوسور

---

(١) بيار جيرو، علم الدلالة، ص ١٥.

أطراف العلامات أو الدلالات والمعاني ثلاثة: متكلم، ومستمع، وشيء هو محور الحديث. أو قل مشير ومشار إليه، وموضوع هو محور الاتصال، أو كما يقول أوجدن وريتشاردز في كتابيهما «علم المعاني» Semantics لابد من توافر عناصر ثلاثة هي: مرجع أوشيء مسّمى وإرجاع أو مفهوم مدلول ورمز هو الشكل أو الإطار الذاتي وصورته السمعية والبصرية»[1].

٢- الدلالة والمنطق

ليس هناك من شك في صلة اللغة ككل بالمنطق، ثم نخص علم المعانى والدلالة بصلتهما بالمنطق، وقد حاول بعض الفلاسفة أمثال جوتفريد فيلهلم ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦) الفيلسوف الآلمانى القيام بهذا النوع من الدراسات، فيقول: «إن اللغات هي أصدق مرآة للعقل الإنسانى، وإن التحليل الدقيق لمعاني الكلمات يمكننا - خيراً من أي شيء آخر - من فهم عمليات العقل»[2].

وترك لنا ليبنتز بعد وفاته فصولاً متعددة يحلل فيها الأشكال اللغوية من الناحية المنطقية، نشر بعضها لوي كوتيرا[*] بعد وفاته. فقد لاحظ كوتيرا أن الفلاسفة لم يهتموا ببحث الصلة بين اللغة والفكر، كما أن اهتمامات علماء اللغات انصبت على الجانب المادي والفزيولوجي من اللغة، وهو علم الصوتيات -Phone tigue، الذي سأشير إليه هنا بعد قليل» - إن الكلمات علامات على أفكارنا - إنها علامات، شأنها شأن سائر العلامات، ولكنها أيسر مما سواها؛ لأنها تكتب ويتفوه بها، وتدرك بالسمع والنظر، ويتوافر فيها كل شروط العلامات: وأول هذا الشروط هو التطابق المتواطيء بين العلامة والإدراك المعلم. ولكل إدراك علامة واحدة، ولكل علامة إدراك واحد. فهذا هو مبدأ التواطيء، الذي بيّنه بوضوح كبير أوستفالد Ostwald"[3].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٧ مع إضافات وشروح.

(٢) د. عبد الرحمن بدوي، اللغة، في: ملحق موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، ص ٢٦٣.

عن : Leibniz, Nouveaux Essais III, VII,

(*) أو لويس/لوي كوتيرا (١٨٦٨-١٩١٤) Louis Couturat.

(٣) نفس المرجع السابق، نفس الموضع.

وإن كان كوتيرا يرى أن مبدأ التواطؤ الذي بيّنه أوستفالد يخالف مسألة الاشتقاق اللغوي، ودليله على ذلك السوابق Prefixes واللواحق Suffixes وهي سوابق ولواحق تعبّر عن علاقات محددة ثابتة لا تتغير، وهذا يدل على عدم وجود علاقة بين التواطؤ والاشتقاق اللغوي، ولكنه يعد هو المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه المبدأ، وهو مبدأ عدم التناقض Non - Contradiction Principle .

وعلى الرغم من ذلك فقد نشأ ما يسمى بالسيمانطيقا المنطقية (علم الدلالة أو المعاني المنطقي)، وهو مبحث يدور في العلاقة بين الدلالة أو المعنى وبين الدراسات التي تتناول ما بعد المنطق Meta-Logic، ويركز أصحاب هذا الاتجاه علي دراسة خواص وأساليب بناء نماذج للأنساق المنطقية الصورية Formal logical systems. فإذا كانت السيناطيقا المنطقية Syntax تعنى بدراسة قواعد بناء وتحويل الأنساق المنطقية بغض النظر عن مضمونها، فإن محور اهتمام السيمانطيقا المنطقية هو الوقوف على مدلولات عناصر تلك الأنساق.

وتتميز السيمانطيقا المنطقية عن السيمانطيقا اللغوية بأنها لا تشتغل بلغات طبيعية، وإنما بأنساق لغوية اصطناعية، رياضية، ومنطقية، ولغات صورية (شكلية) وغيرها. وقد بديء بوضع السيمانطيقا المنطقية في الثلاثينيات من القرن العشرين، وذلك بعدما تم البرهان على تعذر الاعتماد على السيناطيقا وحدها في إثبات العديد من الصفات المهمة للأنساق المنطقية الصورية. ومن ذلك فإنه يتعذر صياغة مفهوم اليقين بالنسبة للغة الصورية إذا ظللنا في إطار هذه اللغة، فلابد لذلك من لغة أخرى، أوسع، وأغنى. وللسيمانطيقا المنطقية أهمية تطبيقية كبيرة، وخاصة في فقه اللغة Philology ودراسة المعلومات وغيرها[1].

٣- علم الدلالة وعلم اللغة

علم اللغة هو الوجه الثاني للغة الإنسانية أما الوجه الأول فهو فلسفة اللغة وكلاهما وجهان لعملة واحدة النظر في أحد الوجوه يساعدنا في فهم الوجه الآخر وفي النهاية يساعدنا على فهم اللغة الإنسانية فهماً صحيحاً أو قريباً من الصحة.

---

(١) المعجم الفلسفي المختصر، مادة السيمانطيقا المنطقية، ص ٢٦٦.

وعلم الدلالة – علم المعاني أو فلسفة المعنى – جزء لا يتجزأ من اللغة وهو يدخل في إطار علم اللغة، أو قل مع بالمر إنه مستوى من مستوياته، كعلمَي الأصوات والنحو كما أنه يزعم أن علم اللغة هو دراسة «علمية» للغة، وهو يقصد بأن فلسفة اللغة طالما أنها نظرية فهي ليست علمية، وبالتالى يعتبر أن علم الدلالة «علمياً» بالتالى طالما أن الكل علميّ فالجزء يتبع الكل الذي هو جزء منه وليس من غيره (١).

وسوف نتجاوز هذه النقطة الخاصة بعلمية علم اللغة وعلمية علم الدلالة لننظر كيف أصبح علم الدلالة أو المعانى ذا صلة بعلم اللغة.

يخضع علم اللغة إلى القياس التجريبى Empirical measurement وذلك باستخدام الآلات العلمية والحاسب الآلى وبهذا فهو يختص بالقدرة Competence وبالأداء Performance ولا يختص بقوانين عامة تضبط نظام اللغة المستخدمة. بينما يهتم علم الدلالة أو المعنى بالمعنى، إذ أنه مجموعة من الإشارات اللغوية Linguistic Signs تعطي معنى محدداً لا يهتم بنظام الفرد فيه ولكنه يهتم بدراسة المعنى بإزاء العلامات التي تميزه، فضلاً عن ذلك يهتم بالعلاقات التي تنشأ بين العلامات؛ فبعض المعانى تتشابه وبعضها يختلف. ويهتم أيضاً بالأساليب التي نستخدمها عندما نستخدم بعض الكلمات يترابط بعضها مع البعض الآخر فينشأ ما نسميها بالتعبيرات اللغوية Linguistic expressions التي توضع في إطار العبارات Phrases والجمل Sentences.

ثم حاول بالمر أن يمايز بين «الكلام المنطوق» Utterances وبين «الجمل» Sentences، ووجد أن الكلام المنطوق «حدث في زمن»، إنه يصدر عن شخص بعينه، وفي زمن محدد وليس على الإطلاق، بينما الجمل كيان يجرى ليس له وجود في زمن. وإنما هو جزء من النظام اللغوي» وينتج عن هذا أن علماء الدلالة لن يكونوا (وبالفعل لن يستطيعوا أبداً أن يكونوا) معنيين بمعنى

---

(١) فرانك بالمر، علم الدلالة: إطار جديد، ص ١٦.

(*) وأيضاً: Jones, L. and Thurstone, L., The Psychophysics of Semantics: An Experimental Investigation, J. App. Psychol. vol. 39, 1955, pp. 31-36.

المنطوقات، أو إنما – فقط – بمعنى الجمل، وينتج عنه أيضاً أننا لا نستطيع أن ندرس علم الدلالة دون افتراض الكثير من علم النحو، ومن جوانب أخرى من بنية اللغة»[1].

ومن الموضوعات المهمة التي دارت حول علم الدلالة في القرن العشرين ما أطلق عليه اسم علم الدلالة «التفسيري» Interpretive و «التوليدى» Generative ويدخلان تحت عنوان واحد هو «علمّ الدلالة التوليدى Generative semantics»، وهو يتناول التراكيب العميقة التي تتولد عن «أساس» يتألف من مكونين: «المكوّن التصنيفي» Categorial و «المعجم»، ويرى بالمر أن المواد المعجمية لها اتجاهات سلوكية خاصة، لذلك فإنها تعالج في المعجم بصورة أفضل مما تعالج به في النحو؛ لأن المعجم هو بيان مفصّل بالمواد غير المرتبطة إلى حد ما[2].

٤- معني المعني

ظهر مصطلح المعنى كإشكالية فلسفية اعتباراً من عام ١٩٢٣ عندما نشر أوجدن وريتشاردز كتباهما «معنى المعنى» The meaning of meaning وذكرا فيه أن هناك حوالى ١٦ استعمالاً لكلمة «معنى» mean بمعنى ينوى intend أو يدل indicate أو ذو أهمية خاصة has important أو special import وغيرها ولكنهما رأيا أن أهم استخدام لهذه الكلمة هو ما نشير به إلى العالم refer to in the world . وأصبح هناك ثلاثة تصورات للمعنى.

أ – كلمات ←— أشياء (الكلمات التي تعبر عن الأشياء).

ب- كلمات ←— مفاهيم ←— أشياء (كلمات تعبر عن مفاهيم تعبر بدورها عن الأشياء).

جـ- مثير ←— كلمات ←— استجابة (يثر يترجم إلى كلمات تكون بدورها استجابة).

ويرى بلومفيلد أستاذ علم النفس السلوكى في كتابه «اللغة» (عام ١٩٣٣) أننا نستطيع أن نعرف معنى المثير واستجابته من خلال ملاحظة الأشياء الأشياء

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٣٤.

غير المرئية بالمعنى الفيزيائي أي تكون تصور أو تعبير عاطفي أو شعوري هنا يصعب وجود استجابة لمثير غير فيزيقي/مرئي، مما أدى إلى ظهور علم جديد للدلالة، توصل فيه اللسانيون (علماء اللغة وفلاسفتها) «إلى أن المعنى ليس عنصراً منفصلاً عن اللغة كبقية العناصر الأخرى، كالارتفاع أو الطول، التي لها نوع من الوجود المستقل. فإذا قلنا مثلاً بأن الأشياء لها ارتفاع دل ذلك على أن هناك العديد من الوحدات المرتفعة، فإن هذا لا يعنى بأن هناك خاصة مجردة للارتفاع موجودة على نحو مستقل عن الأشياء، وبالطريقة نفسها فإن قولنا: إن الكلمات التي لها معنى تعنى فقط أنها تستعمل بطريقة خاصة في الجملة»[1].

إن علم الدلالة لا يهتم بدراسة العالم الخارجى ولا بكيفية إدراكنا وفهمنا له، وإنما يختص بذلك الفيزيائيون والجغرافيون وغيرهم، ولكنه يهتم بدراسة الطريقة التي يمكن للجماعات البشرية (الإنسانية) أن تربط الكلمات بعضها إلى البعض الأخر من خلالها ضمن إطار اللغة التي يتكلمونها، فاللغة وعلم الدلالة إنما يرجعان إلى الذهن أو إلى الإحساس مما يعطينا إشارة إلى أن من منحنا هذا الإحساس باللغة هو الذي منحنا العقل أو الذهن وهو الذي منحنا اللغة ذاتها بل والوجود ذاته وهو الله تعالى.

لقد شملت الدراسات اللغوية مدارس كثيرة، وشغلت علماء وفلاسفة ومفكرين على اختلاف كثيرين، فدرس علماء النفس واللسانيون «الخواص الدلالية» للكلمات المفردة واهتموا بإيجاد المسافة النفسية بين الكلمات، واهتم البنيويون – كما سنرى فلى الفقرات الآتية – بمفهوم الوحدة الدلالية Lexeme التي توضع عادة كمفردات رئيسة في المعجم، ويأتى بعدها استعمال المفردات المتفرعة والمتنوعة وهناك المجالات الدلالية Semantic Fields، حيث تتحدد الوحدات الدلالية مع بعضها البعض وتتداخل في طرق دقيقة، وهناك معجم مهم وضعه الباحث المعجمي «بيتر مارك روجيت» (١٧٧٩-١٨٦٩) Peter Marc Roget في معجمه الدلالى Thesaurus ونشره عام ١٨٥٢ وقسّم فيه الوحدات اللغوية إلى ستة أقسام

---

(١) ديفيد كريستال، علم الدلالة، ص، ص. ٢٦١ – ٢٦٤.

(تجريدية – مساحات دلالية – شؤونية – فكرية – رغبوية (نسبة إلى الرغبة) – وعاطفيا / مؤثراتية)[١].

كما يضيف ديفيد كريستال إلى دراسته عن علم المعاني/الدلالة دراسات أخرى مثل العلاقات الحسية للمعنى «إن مثل هذا المفهوم المبني على الارتباط الحسي للبنية الدلالية سيعرفنا على أنواع عديدة من العلاقات الحسية بين الوحدات الدلالية منها ما سيدرك من خلال العلاقات التركيبية التلاؤمية Syn-tagmatic ومنها ما سيدرك من خلال العلاقات الاستبدالية Paradigmatic ... ومنها الترادف Synonymy والتجانس Hyponymy والتضاد Antonymy والتنافر Incompati bility ..»[٢].

٥- الألفاظ والمعاني

اللفظ والمعنى كلمتان مترادفتان، فلا يوجد لفظ لا يقابل معنى سواء أكان المعنى مادياً أو ذهنياً على عكس ما ترى الوضعية المنطقية أن اللفظ لابد وأن يقابله معنى حسياً مادياً ملموساً مشخصاً. وكما ارتبط اللفظ والمعنى معاً كوجهي العملة، كذلك ارتبط المعنى والمدلول وكلاهما متقاربان، فالمعنى والمدلول مفهومان مترادفان، يرمزان إلى جوهر (ماهية) الأشياء والظواهر والأحداث. وفي مجالات الفلسفة والمنطق وفقه اللغة فإنه يقصد بمعنى العبارة مدلولها الموضوعي المعبر عنه فيها، والتصور عن الموضوع، أي مجمل العمليات المطبقة على موضوع معين، وهكذا.

وتنظر المادية الديالكتيكية (الجدلية) إلى معنى (مدلول) عبارات اللغة في ضوء الارتباط الوثيق الذي يعكس الواقع الموضوعي في وعي الناس، وفرّقت السيمانطيقا المنطقية واللسانيات البنيوية – كما سنرى – بين مفهومي «المعنى» و «المدلول»، فيقصد بـ «المدلول» الموضوع أو مجموعة الموضوعات، الذي تشير إليه العبارة اللغوية المعنية، بينما يقصد بـ «المعنى» المضمون الذهني، الذي تنطوي عليه الإشارة أو العبارة المعنية، فعبارتا «عاصمة جمهورية مصر العربية»، و«أكبر مدينة في جمهورية مصر العربية» تدلان على موضوع واحد،

(١) نفس المرجع السابق، ص ص ٢٦٨ – ٢٧١.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ص ٢٧٢ – ٢٧٦.

أي لهما نفس «المدلول» وهو «القاهرة»، وكذلك يقال على معظم عواصم العالم، في حين يختلف معناهما أيْ مضمونهما الذهني. وقد درس هذه الموضوعات كثير من الفلاسفة أمثال جون ستيوارت مل، وجوتلوب فريجه، وتشارلز بيرس، وبرتراند رسل، ورودولف كارناب وغيرهم. وقد ساعدت الدراسات التي نشطت في النصف الثاني من القرن العشرين في مجال البرمجيات وما يتعلق بالحاسبات الآلية على تطور البحث في إشكالية المعنى والمضمون(١).

وقد ادّعى بعض الباحثين – خاصة في مجال الاستشراق ومن يسير في دربهم وينحو نحوهم – على العرب – زوراً وبهتاناً – عنايتهم بالألفاظ دون المعاني، ولكنها فرية كاذبة، فالعرب «كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها؛ بالشعر تارة، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدْراً في نفوسها»(٢).

ومن مظاهر عناية العرب بألفاظها عنايتها بعناوين مؤلفاتها، فأظهرت معانيها وأغراضها ومراميها، بل وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد(٣).

وانظر في قول العبد الأسود:

إن كنتُ عبداً فنفسي حُرَّةٌ كَرَماً ∴ أو أسود اللونِ إني أبيض الخُلُقِ

وقول نُصَيْب:

سودتُ فلم أملك سوادي وتحته ∴ قميصٌ من القوهيِّ بيضٌ بنائقُه(*)

ولا مكان لمن يّدعي على العرب عنايتهم بألفاظهم تنميقاً وزخرفة وديباجة، ولا يوجد تحته معنى شريفاً قيل: هذا الموضع قد سبق إلى التعلّق به

---

(١) المعجم الفلسفي المختصر، مادة المعنى والمدلول، ص ٤٦٧. (بتصرف).

(٢) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، الجزء الأول، ص ٢١٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ص ٢١٥ – ٢١٦.

(*) القوهي نوع من الثياب البيض ينتسب إلى قوهتان (فارس) والبنائق جمع بنيقة، وبنائق القميص هي العرا التي تدخل فيها الأزرار، ويريد بالقميص الذي تحت سواده قلبه وخُلقه. (نفس المصدر السابق، ص ٢١٦).

من لم ينّعم النظر فيه، ولا رأى ما أراه القومُ منه، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق»(1).

انظر معنى أخي القارئ إلى أسلوب اللغة العربية التي حاربها أهلها قبل أن يحاربها أعداؤها، هجرناها في برزتنا، ولم نعرها التفاتاً فعيرتنا، وتلك والله حرب على الإسلام وأهله دخلوا علينا من لغتنا الجميلة التي هي يسر لا عسر فيها ونحن نملكها، ولكننا أضعنا ما نملك فضعنا بين الأمم بألسنة ملتوية.

وقد جعل العرب تكرار الأفعال دليل على المعنى وقوة له، وفي ذلك يقول ابن جنّي: «فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها، وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به، وهو تكرير الفعل، كما جعلوا تقطيعه في نحو صرصر وحقحق دليلاً على تقطيعه. ولم يكونوا ليضعفوا الفاء ولا اللام لكراهية التضعيف في طرفي الكلمة، والإشفاق على الحرف المضعف أن يجيء في الطرف مكان الحذف وموضع الإعلال، وهم قد أرادوا تحصين الحرف الدال على قوة الفعل، فهذا أيضاً من مساوقة الصيغة للمعاني»(2).

وذكر ابن جنّي ثلاث مراتب في الدلالة وجعل أقواهن الدلالة اللفظية، ثم الدلالة الصناعية، وأخيراً الدلالة المعنوية – وذكر أنها موجودة في جميع الأفعال التي بها دلالة لفظية نابعة من مصدر الفعل، ودلالة بنائية تدل على زمن الفعل، ودلالة معنوية تدل على فاعله. وأقوى هذه الدلالات هي الدلالة الصناعية وهي صورة يحملها اللفظ، ويخرج عليها ويستقر على المثال المعتزم بها حتى وإن لم تكن لفظاً. والدلالة الصناعية تلحق بحكم الفعل الأصلي، وتجري مجرى اللفظ المنطوق به، وبهذا يدخلان معاً في باب المعلوم بالمشاهدة. أما المعنى فإنما دلالته لاحقة بعلوم الاستدلال، وليست في حيّز الضروريات، ألا تراك حين تسمع ضرب قد عرفت حدثه، بزمانه، ثم تنظر فيما بعد، فتقول: هذا فعل، ولابد له من فاعل، فليت شعري من هو؟ وما هو؟ فتبحث حينئذ إلى أن تعلم الفاعل من هو وما حاله، من موضع آخر لا من مسموع

(1) نفس المصدر السابق، ص ٢١٨.
(2) ابن جنّي، الخصائص، الجزء الثاني، ص ١٥٥.

ضرب؛ ألا ترى أنه يصلح أن يكون فاعله كل مذكّر يصح منه الفعل، مجملاً غير مفصّل[1].

مما سبق يتبين لنا أن الكلام ألفاظ، وكل لفظ مستقلّ بنفسه، مفيد لمعناه، وهو ما يسميه النحويون بالجمل، نحو زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك. وكل لفظ إما تام مفيد المعنى والمرام، وإما ناقص ما يحتاج إلى ما يليه لبيان معناه لأن اللغة تعبير عن مقاصد المتكلم، والألفاظ لابد أن ينتج عنها تأليف والتأليف يكشف عن غاية، من هنا عرفنا أن اللغة لابد وأن تدل على معنى «الدلالة إلى..».

ويحدد أرسطو اللغة بأنها «حسنٌ يحمل فيه دلالة إلي معنى» وعليه تُعالج اللغة باعتبارها «فعلاً لسانياً». أما الوجدان فهو «أيضاً دلالة إلى معنى.. بل هو معنى. والوجدان المقصود، ههنا، كل ما يعيه ا لإنسان من مشاهدات باطنية، كالفكر، والعقل، والإرادة، والشعور، والإحساس... إلخ. هو مجموع الإنسان الواعي. وكلمة وجدان مشتقة في العربية، من الجذر «وجد» الذي معناها علم؛ لأن الشيء الموجود هو شيء معلوم، نستطيع تحديد زمانه ومكانه... وهو ذات فاعلة وذات مفعولة. هو تداول بين ثنين، الوجدان يقتضي واجداً وموجوداً»[2].

بينما يذهب أبو حيان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» إلى أنه..:

«يظن البعض أن الألفاظ على تبّن المعاني، أي أنها قوالب تنسكب فيها المعاني. جليّ أن مثل هذا التحديد يعني أن الألفاظ من طينة تختلف عن طينة المعاني. وأن الكلمة موضوعة بإزاء الفكرة. ولقد قيل، نتيجة لهذا، بأن ترتيب المعاني في النفس يقتضي على حذوها ترتيب الألفاظ في النطق. وقيل أيضاً العاقل يكسو المعاني وشي الكلام[*]. ثم يبديها بألفاظ كواس[*] في أحسن زينة. هذا الفصل بين المبنى والمعنى، يرجع بالأساس إلى اعتقاد بثنائيتها، هذا غير ذاك. وهكذا يصبح المبنى ذا جوهر يختلف، طبيعةً، عن جوهر المعنى. المبنى

---

(١) نفس المصدر السابق، نفس الجزء (الثاني)، ص ص ٩٨ - ٩٩.

(٢) كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، ص ص ٦٧ - ٦٨.

(*) حلو الكلام.

(*) كاملة المعنى.

من الخارج، المعنى من الداخل. المبنى يضاف إلى المعنى إضافة بَرانية، ليحمل - كساعي البريد - غايات القائل إلى أذهان السامعين. المبنى واسطة لغاية هي المعنى، الذي يراد إبراقه... وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى، أن اللفظ طبيعى، والمعني عقلى. ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان؛ لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة، بأثر آخر من الطبيعة. ولهذا كان المعنى ثابتاً على مر الزمان؛ لأن مستعمل المعنى عقل، والعقل إلهي. ومادة اللفظ طينية، وكل طينى متهافت»[1].

هذا نص أبو حيان التوحيدي في شأن اللفظ والمعنى، أو الألفاظ والمعاني، وهو نص ممتع حقاً جامعاً مانعاً، استطاع أن يعبّر فيه التوحيدي عن علاقة اللفظ بالمعنى تعبيراً دقيقاً يفوق تعبير أهل الغرب، فضلاً عن حسن الترتيب وجميل العبارة العربية الممتعة حقاً، ويظن البعض - خطأ - أن الألفاظ والمعانى مجرد قوالب من الحجر الأصم يوضع بعضها فوق بعض أو بجوار البعض الآخر فتؤلف معنى واضحاً جميلاً، وهي ليست كذلك؛ لأن اللفظ والمعاني متضايفان، إنهما كجسد الإنسان وروحه لا نستطيع الفصل بينهما، اللفظ كلمة طبيعية يعبر عن الأشياء الموجودة وجوداً واقعياً سواء داخل الإنسان كالعواطف والمشاعر والأحاسيس أو خارج الإنسان من عناصر طبيعية، بينما المعنى اصطناعى اصطنعه العقل وألَّفه لكى يعبر به عما يراد، اللفظ ثابت لا يتغير بثبات الزمان وثبات الطبيعة، والمعنى متغير بذاته، يثبت على الزمان إذا ما كساه اللفظ وخلع عليه أبهي حلة وأجمل زينة.

وهذا ما ذهب إليه العلامة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته، فيقول مؤكداً قول التوحيدي «ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه ويراد لازمه إن كان مفرداً كما تقول «زيد أسد». فلا تريد حقيقة الأسد لمنطوقه وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد، وتسمى هذه استعارة. وقد تكون باللفظ المركب الدلالة على ملزومه، كما تقول «زيد كثير الرماد» وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقِري الضيف، لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما، فهي دالة عليهما»[2].

---

(١) أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٣، ص ١١٥.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٢٠.

ويضع ابن خلدون ثلاثة أصناف (أنواع) بشأن دلالة الألفاظ وهي:

أ - البحث في الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة.

ب- البحث عن اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية، وتسمى علم البيان.

جـ- البحث في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، بالسجع أو الجناس، أو الأوزان، أو التورية ويسمى علم البديع.

والمعاني لا تبينها الكلمات، ولكن المعاني تتبين كلاماً، أي تبدو مع الكلمات؛ لأن الكلام الصحيح هو إفادة المعنى، والألفاظ فرز طبيعي للحالات النفسية، مما يجعل المبنى والمعنى جوهر واحد، المبنى هو المعنى ذاته، هو المعنى في شكله المحسوس مما يجعلنا أقرب إلى حقيقة الواقع، عندما نجعل للألفاظ كياناً معنوياً تحكيه وجدانياتنا حكاية صادقة[1].

ويقول عليّ بن أبى طالب - رضىّ الله عنه - في تحفته «نهج البلاغة»: «إلا أن اللسان بضعة من الإنسان، فلا يسعده القول إذا امتنع، ولا يمهله النطق إذا اتسع وإنّا لأمراء الكلام، وفينا تنشبت عروقه، وعلينا تهدّلت غصونه». وقد فسّر هذا الكلام الشيخ محمد عبده، فقال: أى إن اللسان آلة تحركها سلطة النفس، فلا يسعد بالنطق ناطق امتنع عليه ذهنه من المعاني، فلم يستحضرها. ولا يمهله النطق إذا هو اتسع في فكره، بل تنحدر المعاني إلى الألفاظ جارية على اللسان قهراً عنه. فسعة الكلام تابعة لسعة العلم[2].

٦- علاقة الترادف باللفظ والمعنى

«الردف ما تبع الشيء وكل شيء تبع شيئاً فهو ردفه، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف»[3]، ويقول الله تعالى في كتابه العزيز «قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون»[4]، أي عسى أن يأتيكم بعض الذي

---

(١) كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، ص ٧٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٧٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، الجزء ١١، ص ١٣.

(٤) سورة النحل، الآية ٧٢.

استعجلتموه، فالاستعجال أولاً ثم تبعه (ردف) إجابة الله تعالى لما استعجلوه.
وقال أيضاً عز من قال «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين»[1]، فالامداد جاء (ردف) تبع الاستغاثة.. وقال أيضاً «يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة»، قلوب يومئذٍ واجفة»[2] والمعنى واضح، فالراجفة أتت أولاً فإذا جاءت الراجفة (الموت) وجفت وخافت وارتعدت القلوب من الخوف جاء الموت. وقد أيد حديث الرسول (ﷺ) هذا المعنى بقوله (وما ينطق عن الهوى) : «يا أيها الناس.. اذكروا الله، يا أيها الناس.. اذكروا الله، يا أيها الناس.. اذكرو الله. جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»[3].

ويقول الشاعر العربي أمروء القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ∴ عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه ∴ وأردف إعجازً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح ∴ وما الأصباح منك بأمثل

وقد ذهب الشيخ الطاهر بن عاشور إلى أن الصيغ المختلفة الدالة على معنى واحد من قبيل المترادف. كما تدل صيغ جمع السلامة وجمع التكسير على مطلق الجمع. فالسيف والحسام مترادفان لدلالة كل منهما على شيء واحد. سواء أكان الحسام في القديم يدل على وصف في السيف أم لا؛ ذلك لأن لفظ الحسام قد أصبح الآن مساوياً في الدلالة للفظ السيف.

وقد اختار الشيخ ابن عاشور (صاحب تفسير التحرير والتنوير) هذا التعريف للترادف «إنه لفظ مفرد دال بالوضع على معنى قد دلّ عليه بالوضع لفظ آخر مفرد يخالفه في بعض حروفه الموضوع عليها بحيث تنطق به قبائل العرب كلها

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٩.

(٢) سورة النازعات، الآية ٧.

(٣) حديث حسن. أخرجه أحمد (٥/١٣٦)، والترمذي (٢٥٧٤)، والحاكم (٢/٤٢١-٥١٣) وغيرهم.

إذا شاعت. أو الفاظ مفردة كذلك بشرط استقلال تلك المفردات في الاستعمال وفي الدلالة»[1].

ويقول ابن جنيّ في «الخصائص» أن الترادف «هو توالي الألفاظ المختلفة على معنى واحد. دون أن يكون هناك شروط أخرى، إضافة إلى أن تلك العبارات تدل وتؤكد على أن استعمال لفظ «الترادف» بهذا المعنى كان متأخراً، وأنه مولد، ولم يكن متداولاً بين علماء اللغة المتقدمين وهذا يفسر لنا عدم وجود تعريف دقيق واضح للترادف عندهم، وذلك رغم أهمية التعريف في فهم القضية المطروحة، وتحديد المواقف تجاهها وهذا يعتبر من أهم أسباب الاختلاف والاضطراب في هذه القضية، كما يفسر لنا أيضاً سبب تناقل متأخري اللغويين تعريف الترادف عند الأصوليين. حيث نرى العالم اللغوي محمد بن مرتضى الزبيدي صاحب كتاب «تاج العروس من جواهر القاموس» حينما تحدث عن تعريف الترادف في مقدمة كتابه هذا والتي اشتملت على عشرة مقاصد نجده يعرفه بتعريف فخر الرازي له»[2].

كما يذكر ابن جنّى في الجزء الثاني من «الخصائص» تحت عنوان «باب في إيراد المعنى المراد بغير اللفظ المعتاد» أن المعنى إنما يختص بلفظ خاص به، معتاد له، وأن تأدية هذا المعنى بلفظ أخر يحدث من باب المسامحة، وهذا ما ساعد على نقل أشعار العرب وحكاياتهم إلينا بألفاظ مختلفة على معانٍ متفقة وأن أصول اللغة العربية اختلاف اللفظين والمعنى واحد كقولنا سيف وعضب، أو سيف ومهند، وليث وأسد، وغيرها[3].

---

(١) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (شيخ المذهب المالكي بتونس، وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة)، مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية، جزء (٤)، القاهرة، ١٣٥٦ هـ، ص ٢٢٢.

(٢) د. محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم التفسير (القرآن وعلومه)، إشراف الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، الرياض ١٣٩٩هـ، ص ص ١٩-٢٠.

عن: ابن جنّي، الخصائص، الجزء الأول، ص ٣٧٠ وما بعدها، وأيضاً محمد بن مرتضى الزبيدي، «تاج العروس»، الجزء الأول، ص ٩.

(٣) نفس المراجع والمصادر السابقة، نفس المواضع.

وقد اختار كمال بشر نفس تعريف ستيفن أولمان في كتابه «دور الكلمة في اللغة» الذي قام بترجمته، فيقول عن الترداف:

«ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينها في أي سياق»(١).

«واشتراط قابلية التبادل بين الألفاظ في كل سياق، يؤدى في نهاية المطاف، إلى عدم إمكان التبادل بين الألفاظ إلا في الحدود الضيقة جداً. مما يجعل المترادفات في حقيقتها ليست أكثر من أنصاف أو أشباه مترادفات لأن الألفاظ غالباً لا تستعمل في السياق الواحد، أو الأسلوب الواحد من غير تمييز دائماً(٢).

بينما ذهب «على الجارم» إلى أن المعنى الدقيق للترادف يقتضى أن تدل الكلمات المترادفة على معنى واحد على التحديد، لا على التقريب، وأن يكون تشابه المعنى فيها كاملاً، وأنها إن صح التشبيه دوائر متحدة في المركز والمحيط(٣).

ويسوقنا الاختلاف والخوف من استعمال ترادف قد ينأى عن المعنى المراد استخدامه فيه إلى إنكار وجود المترادفات لمعنى واحد، حيث أن المترادفات تدل على معان مختلفة في المسمى الواحد، فهي تستعمل كأنها لمعنى واحد، ولكنها في الحقيقة نعوت (صفات) متباينة، والنعوت معان. إلا أن الإنسان لاينتبه كثيراً إلى الفروق الدقيقة لأنه يعنى بالمعنى العريض. بينما يذهب البعض إلى أن كثرة المترادفات دليل ميوعة وسبب في التشويش، وعلى عدم دقة التفكير وتحديده، وكان الفيلسوف الفرنسي الحسى كونديلك Condillac يتباهي بأن لغة قومه الفرنسيين هي اللغة الوحيدة التى لا تعرف المترادفات اطلاقاً(٤).

ومن المتشيعين العرب للترادف اللغوى الفيروز ابادى صاحب «المثلث المختلف المعنى» وله كتابان في هذا الموضوع هما: «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف» و «ترقيق الأسل لتصفيق العسل» أورد في الثانى منهما نحو

(١) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة د. كمال بشر، ص ٩٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٩٨.

(٣) انظر: مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، الجزء الأول، ص ٣٠٨ (صدر عام ١٣٥٣هـ).

(٤) كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، ص ص ٨٢ - ٨٣.

ثمانين اسما للعسل، وعلى الرغم من ذلك فإن السيوطي يرى في «المزهر» أن الفيروز ابادى فاته بعض الألفاظ مثل الصرخدى والسعابيب وهي من اسماء العسل[1].

وبسبب هذه الاختلافات رأي الأصوليون من العلماء وأن علماء اللغة المتقدمين قد وقفوا عند مجرد تعريف الترادف وقالوا أنه توارد الألفاظ المتعددة على المعنى الواحد، وأن ذلك من خصائص كلام العرب، لذلك وضع الأصوليون من العلماء شروطاً عامة للترادف وهذه الشروط هي[2]:

أ – الاتحاد التام في المفهوم.

ب– الاتحاد في البيئة اللغوية.

جـ– اتحاد العصر.

د – ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي للفظ أخر.

٧- اللغة والفكر

لم تلق دراسة اللغة وعلاقتها بالفكر، والفكر وعلاقته باللغة، وعلاقة كل منهما بالآخر اهتماماً كافياً من جانب الدارسين في البدايات الأولى للدراسات اللغوية التى نشأت في القرون السابقة. خاصة وأن كل علم انغلق على ذاته ولم يكن يعتقد الدارسون في ذلك إمكانية أن تكون هناك علاقات من أي نوع بينهما.

وكان الدارسون في ذلك الوقت ينقسمون قسمين قسم يختص بالعلوم البيولوجية وفي مقدمتها علم تشريح الدماغ وفزيولوجية المخ، وقسم يختص بالعلوم الاجتماعية وفي مقدمتها الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلى وجه الخصوص علم النفس الاجتماعي، فقد اعتقد المفكرون في ذلك استحالة قيام علاقة من أي نوع بين العلوم البيولوجية والفزيولوجية والتشريح وغيرها وبين علوم إنسانية بحتة. فإذا امتد الأمر إلى اللغة كان الأمر أكثر صعوبة واستحالة

---

(١) السيوطي، المزهر، الجزء الأول، ص ص ٤٠٧ – ٤٠٩.

(٢) د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، الفروق اللغوية...، ص ٢١.

وأيضاً: د. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص ص ١٧٨ – ١٧٩.

فاللغة ليست مادية، وقد ثبت بشكل لا يقبل الشك أو الجدل أنه من غير الممكن أن يكشف الباحث عن جوهر اللغة والفكر دون أن يستوعب الصلة العضوية بينهما والأثر المتبادل الذي يتركه كل منهما في صاحبه من الناحية التطورية في النوع الإنساني بأسره وفي مجرى حياة الفرد. مع العلم بأن دراسة العلاقة بين اللغة والفكر من حيث نشوء كل منهما وتطوره عبر الأجيال المتعاقبة وفي مجرى حياة الفرد تدل على انتفاء وجود اعتماد متقابل بين الجذور النشوئية للفكر واللغة»[1].

وبعيداً عن المصطلحات التطورية التي حاول المؤلف اقحامها في ثنايا كلامه والتي يبدو أنه متأثراً بنظرية دارون الفاشلة إلى أبعد الحدود والمرفوضة شكلاً وموضوعاً - شرقاً وغرباً، نجد أمامنا ثلاثة اتجاهات أو نظريات حاولت تفسير علاقة اللغة بالفكر نعرضها بحسب تسلسلها التاريخي كالآتي:

أ - نظرية العزل المطلق بين اللغة والفكر وإنكار وجود أي أثر لأحدهما على الآخر. قال بها هنري برجسون (١٨٥٩-١٩٤١) الذي نفي وجود أية رابطة أو علاقة نسب أو صلة بين اللغة والفكر وذلك لاختلاف كل منهما عن الآخر سواء من ناحية الطبيعة أو من ناحية الوظيفة، وبهذا فاللغة لا تؤثر في الفكر ولا تتأثر به، ولكن أيهما يمثل الوعاء أو الإناء هل اللغة هي الوعاء الذي يستوعب الفكر أم أن الفكر هو الوعاء الفارغ والذي ينتظر من اللغة أن تملئه؟

إن نظرية العزل التي قال بها برجسون تعمل على تحليل أو تقطيع جسم اللغة المتماسك - إن كان لها جسماً - إلى عنصرين منعزلين هما أصوات الكلمات عند نطقها ورموزها أو إشاراتها المكتوبة من ناحية ومعناها أو الفكر الذي تحمله أو تحتويه من ناحية أخرى، مثلما نحلل الماء إلى عنصرين أوكسجين وهيدروجين ثم نكتشف أن خواص كل منهما يختلف عن الآخر، فالماء سائل وهما غازان، إنها القدرة الإلهية. واللغة كذلك تختلف اختلافاً جذرياً عن الأصوات المنطوق بها وعن الإشارات أو الرموز المكتوبة، وعلى الرغم من ذلك فهي (أي اللغة) لا تعمل إلا بهما، وبهما نتبين المعاني والدلالات ونكوّن الفكر.

---

(١) د. نوري جعفر، الفكر: طبيعته وتطوره، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، بنغازي، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، ص ٢٤٩.

وخلاصة القول لقد حصرت نظرية عزل اللغة عن الفكر، اللغة داخل إطار الأصوات والرموز المكتوبة واعتبرت أنهما جانبان منفصلان لا يلتقيان.. جانب صوتي وآخر «معنى»، وبهذا فقدت اللغة معناها الإنساني الاجتماعي الذي يهتم بتلاحم الأصوات والمعاني في بوتقة واحدة[1].

ب- نظرية انصهار أو ذوبان الفكر باللغة التي صاغها جون واطسون (١٩٧٨-١٩٥٨) عالم النفس الأمريكي وملخصها: انتفاء وجود فكر مستقل قائم في حد ذاته بمعزل عن اللغة. أي أن الفكر لغة صامتة يتحدث بها المرء مع نفسه أو لغة خفية خالية من الصوت. والإنسان لا يرث شيئاً عند ولادته غير إمكانيات لغوية فزيولوجية - مجرد استعدادات - تتعلق بجهاز الصوت تعينه على التحدث باللغة مع الآخرين بصوت جهوري مسموع، أو عن طريق الهمس بالإضافة إلى قدرة على التحدث مع نفسه بلغة خفية، وهذا ما نسميه بالفكر، وهذه هي المراحل الثلاث التي مر بها الطفل في مجرى نموه اللغوي.. الكلام الجهوري إلى الآخرين، الهمس للتعبير عن نفسه، وهو الوجه الآخر من وجهي الكلام الموجّه إلى الآخرين، وكلام خفي هو بداية تكوّن الفكر[2].

ولانكاد نتبين علاقة الفكر باللغة حتى بعد أن حوّل واطسون الفكر إلى لغة صامتة، ولا نستبين العلاقة بينهما كيف تتم بعد أن جعلها أصحاب نظرية العزل علاقة آلية ميكانيكية على غرار علاقة الإناء بالسائل الذي يملأه.

جـ- نظرية استقلال الفكر عن اللغة استقلالاً نسبياً مع تلاحمه العضوي بها والأثر المتبادل بينهما ويمثلها فايكوتيزكي L.S Vygotsky (١٨٩٦-١٩٣٤) عالم النفس السوفيتي وجون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢) الفيلسوف الأمريكي. وقد انضم إليهم عالم النفس السويسري جان بياجيه وعلماء لغة آخرين. وتذهب هذه النظرية إلى أن اللغة وإن كانت غير الفكر من حيث طبيعتها ووظيفتها، ومن حيث نشأتها التاريخية وبعدها الاجتماعي إلا إنها مع ذلك ملتحمة به التحاماً عضوياً غير قابل للعزل في مجرى تطور النوع الإنساني

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

وضمن حدود تقدم الفرد من المهد إلى اللحد. ولكن هذا الالتحام ليست له جذور فزيولوجية فطرية في الأصل، ولكن له جذور ضاربة في أعماق التاريخ البشرى «فاللغة والفكر جانبان مشتركان ملتحمان ومتكاملان وإن كانا متمايزان في عملية واحدة أو كيان متماسك واحد»[1].

هذه هي النظريات الثلاث التى تناولت جوانب علاقة اللغة بالفكر، وأرى أن الاثنين مجردان وليسا ماديان سواء اللغة بكل ما يتصل بها من كلمات ومعانٍ وفكر وأبعاد تاريخية واجتماعية ونفسية وحضارية وغيرها، والفكر لا يمكن التعبير عنه إلا باستخدام كلمات اللغة وإلا ظل حبيساً لا يطلع عليه أحد، إنهما كوجه الإنسان وظهره، وظاهره وباطنه، والعلاقة بينهما علاقة حميمية ديناميكية مستمرة لا تتوقف إلا بتوقف الحياة ذاتها.

ثانياً: نظرية العلامات (السيميولوجيا)

تختلف الكلمات في معانيها واستخداماتها من ثقافة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر، ولكنها تظل راسخة في مدلولاتها الأولى، فالكلمات إشارات وتنبيهات وعلامات يهتدى بها الإنسان إلى ما يريد أن يعبّر عنه، وإلا أصبح كل منا جزيرة منعزلة عن من جاورها وما كانت الحياة لتستمر وتستقيم لو حدث هذا، وكيف سيتعارف الإنسان والشعوب بدون العلامة الدالة على الكلمة حتى ذهبت فريال جبورى غزول في كلمتها الاستهلالية عن علم العلامات إلى القول بأن «في البدء كانت العلامة» بوصفها مصطلحاً أوسع وأشمل من الكلمة ذاتها، لأنها – كما تقول – تحتويها وتتجاوزها، فالصوت يكتسب قيمته من دلالته المرتبطة به.

أ - الاصطلاح والمجالات

يأتي مصطلح العلامات/الإشارات من اللفظ اليوناني القديم Semeiotikos فإن Semeion تعيى العلامة Mark أو الإشارة Sign ومن هنا أتت إلينا نظرية الإشارات Theory of signs أوعلم العلامات Semiotic أو Semiology.

(*) انظر كتابه: Vygotsky, L.S., Thought and Language, M.I.T., 1962

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٦.

وقد استخدم المصطلح بين اليونانيين بطرق متعددة، فقد كان يعني بين الموسيقيين Musicians النغمات الموسيقية Musical notations، وبين الأطباء يشار به إلى علامات المرض Signs of disease أو Symptoms، بينما استخدمه فيلوديموس Philodemus الذي ينتسب إلى جارادا Garada باعتباره يشير إلى استدلال إشارة أو علامة ما Inference of a sign.

ثم استخدم في العصور الوسطى باعتباره علم المقال أو التعبير The scientia sermocinalis (Science of discourse)، بينما اختص المنطق بدراسة الموجودات (الكيانات) اللغوية Linguistic entities[١].

وجاء في المعجم الفلسفي المختصر معرباً غير مترجم «السيميوطيقا» وأشار فيه مؤلفوه إلى أن السيميوطيقا أو علم العلامات أو علم الإشارات (وكلها ترجمات متعددة للمصطلح واحد) هي مجال في المعرفة، يدرس الإشكاليات العامة للعلامات/الإشارات، والمنظومات الإشارية/العلاماتية. ولم يبرز هذا المجال المعرفي كعلم مستقل إلا منذ أواخر القرن التاسع عشر، وذلك بعد اكتشاف السمات العامة المميزة لمختلف ضروب المنظومات الإشارية، ومن ثم شهد نمواً سريعاً منذ النصف الثاني من القرن العشرين.

وتدرس السيميوطيقا مختلف أنواع الإشارات/العلامات من زاوية الدور الذي تقوم به في مختلف مجالات النشاط الإنساني، حيث تقوم هذه العلامات مقام الموضوعات وتنوب عنها وتشير إليها (الكلمات، والمصطلحات العلمية ...) والعلامات نماذج شتى منها ألوان اللوحات والرسوم البيانية، ومنها ما يستخدم كرموز تعمل على تنظيم سلوك قطيع الحيوانات وانتهاءً بإشارات المرور.

إنه مجال يركز في دراساته على تركيب العلامات/الإشارات، ويضع قواعد تنظيمها، وهو يختلف عن مبحث السيناطيقا أو السينتاكس - على الرغم من أن مؤلفي المعجم الفلسفي المختصر قد خلطوا بينه وبين مبحث السيناطيقا Syntax

---

(1) Reese, William L., Dictionary of philosophy and Religion.., p. 521.

وأيضاً:

(*) Morris, Charles, signification and significance: A study of the Relations of signs and Values, Cambridge MIT Press, 1964.

الذي يختص بقواعد تركيب الجمل وبناءاتها النحوية دون الاهتمام بمحتواها المادى لذلك فهي قريبة الشبه بالمنطق الصوري.

فالسيميوطيقا تهتم بخصوصيات المنظومات الإشارية الملموسة مثل اللغة الطبيعية ومختلف اللغات الاصطناعية (وسوف نشير إلى هذه اللغات في الفقرة القادمة) وشتى المنظومات الصوتية والبيانية وغيرها، إنها إذاً تهتم بقواعد استخدام الإشارات، وترصد العلاقات القائمة بينها وبين الإنسان، والعلاقات القائمة بينها وبين مدلولاتها (ما ترمز إليه). وهو يختلف كذلك عدم مبحث السيمانطيقا Se-mantics وإن كان قريباً منه – وقد خلط مؤلفو المعجم الفلسفي المختصر بينه وبين السيميوطيقا أيضاً – ولكن هناك علاقة تكاد تكون مطابقة لمصطلح العلامة أو الإشارة Sign الذي يأتي في معاجم وقواميس الفلسفة[1].

وترى الباحثة أن العلامة أعم وأفسح من الكلمة التى تعتبر جزءاً من كل.. الكلمة واللغة، فالعلامة تتعدى حدود الكلمة بمراحل فهي تشمل الألوان والملابس والعطور والأشكال والتكوينات، كما أن هناك علامات ترتبط بالطبيعة وبالغريزة وتستقل استقلالاً تاماً عن الثقافة مما يجعلنا نقول «إن دلالة هذه العلامات لا ترتبط بالثقافة ولكنها ترتبط بفصيلة حيوانية معينة ومؤهلة لتقبلها والاستجابة لها»[2].

بل إن الأحلام لتعتبر علامات تشكل «كلاماً» لها معجمها ونحوها الخاص وبواسطتها يمكن تأويلها وشرحها كما فعل ابن سيرين وسيجموند فرويد «ولكن الأحلام لا تشكل كلاماً بالمعنى المفهوم للكلمة لأن الأحلام لا تتشكل من كلمات منطوقة أو مكتوبة بل من علامات وصور، ويمكننا أن نقول إن هذه العلامات تنتمى إلى لغة ولكنها ليست لغة شفهية ولا لغة تحريرية وإنما لغة علامات أو لغة سيميوطيقية»[3].

---

(١) المعجم الفلسفي المختصر، مادة السيميوطيقا، ص ٢٦٧، ومادة الإشارة، ص ٣٤.
وأيضاً: د. محمود السعران، علم اللغة. مقدمة للقارىء العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، رجب ١٤١٢هـ – يناير ١٩٩٢م، ص ص ٥٩–٨٢ وغيرها.

(٢) فريال جبوري غزول، علم العلامات (السيميوطيقا) مدخل استهلالي، في كتاب: مدخل إلى السيميوطيقا: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، إشراف: سيزا قاسم و د. نصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة، د.ت، ص ١٠.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١١.

والإنسان لا يستطيع أن يغير جزء من شبكة العلامات دون أن يغير أجزاء أخرى وجوانب لها أهميتها؛ لأنها تمثل شبكة من العلاقات الإنسانية مبنية على أنظمة مكونة من علامات أي أنها أنظمة سيميوطيقية، والنظام السيميوطيقى هو مجموعة من العلامات الدالة والعلامات النسقية. ويقوم تصنيف هذه «العلامات النسقية على نوعية أو جنس العلامة وكل الدراسات التى تتعمق في تحليل وتصنيف الرمز أو المجاز وأنواعهما فهي تدخل ضمنياً في بحث السيميوطيقا»، فالسيميوطيقا محاولة جادة لربط المعرفة الإنسانية بعد أن أدّى الإفراط في التخصص إلى عزل مجالاتها الواحد عن الآخر[١].

وكما ذكرت فإن المجالات التى تطبق فيها السيميوطيقا كثيرة يصعب حصرها جميعاً، وإن كنا نشير إن بعضها هنا مثل عالم الألوان لدى الرسامين ومهندسى الديكور والعاملين في المجالات الفنية المختلفة، وكذلك في عالم الملابس سواء الفني أو الشعبى مثل ارتداء الملابس السوداء فى الحداد، أو البيضاء في الحج والعمرة لدى بعض الشعوب والجنسيات، وفي مجال عالم البحار والسفن، كما أنها تستخدم في مجالات معرفية أخرى مثل اللاهوت في أوروبا، وفي مجالات الاقتصاد والشعر والأدب بصفة عامة، بل إن لها استخدامات أخرى في مجال الخرافة والأساطير وقد يكون استخدامها في مجال الخرافة معوقاً، بينما هي على الجانب الآخر في مجال العلم نظام قابل للنمو، ومن هنا جاء اعتقاد السيميوطيقيون بأن علم العلامات قام بإلغاء الانشطار المعرفي أي ألغى الازدواجية المعرفية ولم يلغ الفروق المعرفية[٢].

وتختلف السيميوطيقا عن الفلسفة في أنها لا تبدأ بمفاهيم معينة كالصدق أو الرغبة أو العمل لتفسره وتشرحه وتحلله، بل إنها تبدأ بالعلامة التى تعتبر في حد ذاتها شيء ما معبّر عن شيء آخر مما يجعل البعض ينعتها بالطبيعة الازدواجية، وليس في هذا عيباً لأن طبيعتها الثنائية مهمة بل أصيلة، فالعلامة شئنا أم أبينا ركن ركين من أركان التواصل بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والطبيعة وحتى بين الإنسان وخالقه[٣].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢. (بتصرف).

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٣.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١٤.

ثالثاً: ممهدو الطريق إلي السيميوطيقا

احترت في اختيار عنوان هذه الفقرة. هل أسميها مؤسسو الطريق إلى علم العلامات أو السيميوطيقا، ولكن هؤلاء لم يكونوا مؤسسين بمعنى الكلمة، فهم لم يقصدوا إلى ذلك سبيلاً ولكنهم تكلموا عن اللغة وعلاماتها إطار تناولهم للدراسات الفلسفية خاصة الأوائل منهم ولا أقصد المتأخرين أمثال بيرس وتشومسكى وتشارلز موريس لأن هؤلاء المتأخرون قصدوا تقديم دراسات في علم العلامات عندما تقدمت بهم العلوم والفهوم والدراسات اللغوية أما الأوائل أمثال ديكارت ولول ولوك وغيرهم فإنهم لم يقصدوا أن تكون دراساتهم تأسيساً لعلم جديد أو حتى محاولة تأسيسية بل كانت دراسات لغوية في إطار الفلسفة ذاتها أو علم المناهج أو غيرها.

وقد حاول بعض فلاسفة الوجودية أو المؤرخين لها أن يجعلوا لها تاريخاً وعمقاً فرجعوا بها إلى سقراط وإلى أوغسطين وإلى بسكال ولكنها نظرة تعسفية فالوجودية كاتجاه فلسفي لم تظهر إلا على يد سورين كيركجارد المفكر والفيلسوف الدانماركى، فليس من المعقول أن كل من يتحدث عن الإنسان قبله أو يشير إلى تجربة ذاتية عانى فيها الطريق إلى الله تعالى يصبح وجودياًوإلا فكلنا وجوديون وهذا ليس صحيحاً. ومن هنا كان عنوان هذه الفقرة «ممهدو الطريق إلى السيميوطيقا» أشير فيه إلى من أشاروا إليها حتى نصل إلى المؤسسين الذين أسسوا هذا العلم في القرن العشرين لنجعلهم من بين من مهدوا السبيل إلى هذا العلم حتى الآن تقدم فيه الدراسات ومحاولات تعميق البحث فيه.

١- الشكاك

الشكاك أو المدرسة الشكية من اللفظ اليونانى Skeptikos بمعنى البحث، وقد ظهرت هذه المدرسة في اليونان القديمة لكى تشكك في إمكانية بلوغ الحقيقة، ويمثلها بيرون وأنسيديموس وسكتوس إمبريقوس وقد قامت بدور مهم في تاريخ الفكر الفلسفي إبّان عصر الفلسفة اليونانية وضد الفلسفة المدرسية في القرون الوسطى ثم في مجال نظرية المعرفة لدى النزعات الدوجماطيقية والبرجماتية والوضعية الجديدة.

وقد قام أنسيديموس Aenesidemus (القرن الأول قبل الميلاد) بتنظيم وضم

كل المباديء البحثية في عشر صيغ مستقاه من تحليل العلامات المستترة، ثم قام الفيلسوف الطبيب سكستوس امبريقوس Sextus Empiricus (القرن الثانى قبل الميلاد) بتصنيف هذه العلامات المستترة، ثم أدلى فيها الطبيب جالينوس Galen (في نفس القرن) بالتمايز بين العلامات العامة التى تدل على أكثر من شيء والعلامات الخاصة التى تدل عل شيء محدد، وقد أورده أيضا الناقد البلاغى شيشرون Cicero (القرن الأول قبل الميلاد) . وساهم الرواقيون في القرن الثالث قبل الميلاد بتقسيم العلامة إلى دال Signano ومدلول Signatum والتى أخذها عنهم دو سوسور وقسّم العلامة إلى دال Signifiant (F.) ومدلول Signifie . واستخدمها أوغسطين ضمن أبحاثه في التأويل.

٢- اعتقد رامون لول الأسباني Ramon Llull (١٢٣٥-١٣١٥) بتمايز العلوم ولكنه رأي أن لكل علم قواعد ومفاهيم محددة يمكن التعبير عنها أبجدياً، ومن ثم يمكن تركيبها كاللغة المتشكلة من الحروف الأبجدية.

٣- بينما دعا روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٤-١٢٩٢ أو ١٢٩٤) إلى علم تجريبى بتأثير العلماء والمفكرين المسلمين مثل جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وغيرهم ممن أخذ عنهم، ورأي أن النزعة التجريبية تختص بكل من الطبيعة أو العالم الخارجي وبعالم الإنسان الداخلي، فالإشراق نوع من التجربة المعاشة أو المعرفة التجريبية.

٤- واهتم رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠) بالمنهج الكلى والرياضيات التى تعتمد على العلاقات المنطقية والهندسية فضلاً عن الرموز والعلامات، ومن هنا جاءت دعوته إلى ربط جميع العلوم عبر قواعد هندسية.

٥- بينما قام جوتفريد ليبنتز الألماني Gottfried Leibniz (١٦٤٦-١٧١٦) بتطوير فكر رامون لول ونادى بلغة جديدة سماها اللغة المثالية التى تقوم على مفردات الرياضيات التى تتسم بالدقة والتسلسل المنطقي الصحيح.

٦- وتحمس الفيلسوف الفرنسي إيتيان دي كوندياك Etienne de Condillac (١٧١٥-١٧٨٠) لمنهج موحد ومن هنا جاءت نظرته إلى الجبر ولغته الرمزية بوصفهما الأنموذج الأعظم الذي يجب أن يحتذى، واعتقد أن لكل

علم لغته الخاصة وإن كان لجميعها منهج واحد في التحليل عكس ما اعتقد ليبنتز من أن العلوم تخضع للغة واحدة هي اللغة الرياضية المثالية والتى انضم إلى هذه الفكرة الفيلسوف الفرنسي مركيز دى كوندورسيه Marquis de Condorcet (١٧٤٣-١٧٩٤)

٧- استخدم الفيلسوف الإنجليزي جون لوك المصطلح اليوناني Semeiotike لكي يشير به إلى علم العلامات أو الإشارات Science of Signs أو الدالات والمدلولات Signs and significations وجعل المنطق هو الموضوع الأساسي لها.

٨- بينما استخدمت السيدة ولبى Lady Welby المصطلح Signifies بمعنى يشير إلى أو يعني، أو نظرية في المعانى أو الإشارات أو المدلولات Theory of significations، وقامت من خلالها بدراسة العناصر المختلفة التى لها علاقة بمعنى الكلمة.

٩- أما تشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce (١٨٣٩-١٩١٤) فهو عالم وفيلسوف أمريكي، شكّل التصورات الأولى الأساسية للبرجماتية، وقد عاصر بيرس الصراع الذي نشب بين المفكرين الأوروبيين والأمريكيين بسبب المواجهة التى وقعت بين العلم والمعرفة التقليدية التى سادت لعدة قرون منذ أن نهضت الفلسفة الأوروبية الحديثة على يد رينيه ديكارت الذي اقام ركائز فلسفته على التراث الفكرى الإسلامي خاصة عند أبو حامد الغزالي. وكان بيرس من بين العلماء الذين تلقوا تدريبات عقلية علمية ورياضية ذات الصلة العميقة بالنسق الفلسفي Systematic Philosophy، مما مكّنه من الاسهام في مجالات المنطق، وفلسفة العلم، والرياضيات، والكيمياء، فضلاً عن اشتغاله بأعمال تتعلق بالفلك والجغرافيا مثل مسح سواحل الولايات المتحدة.

وأصدر بيرس عدة مقالات في الفترة من (١٨٧٧-١٨٧٨) تناول فيها إشكاليات منطقية، وقدّم خلالها نظرية في المعنى The theory of meaning أصبحت أساساً جوهرياً للبرجماتية الأمريكية، فقد رأي بيرس أن الوظيفة الوحيدة للفكر هي تأسيس «الاعتقاد» To produce belief؛ لأن هناك اعتقادات

كثيرة منها ما يقوم على العادات المختلفة ولا يقوم على الفكر. واعتقد بيرس أن أي معنى للتصور المجرد يمكننا أن نجده في النتائج العملية لهذا التصور، إذاً فلابد لديه من تطابق أفكارنا مع الواقع، أو أن يكون لأفكارنا المجردة مردود عملي نلمسه في الواقع، فأفكارنا عن شيء ما، هي أفكارنا عن آثاره الحسية Sensible effects، لقد استخدم بيرس المنهج العلمي للملاحظة والتجريب من أجل تثبيت دعائم الاعتقادات على أسس علمية تمتد بجذورها في أرض الواقع، فالصدق والواقع يعتمدان في وجودهما على «تفسير الاتصال» A community of interpretation. والصدق ذاته هو الرأي الذي يأخذ به جميع المشتغلين بالبحث[1].

وعندما أراد بيرس تعريف العلامة، قام بتوسيع معناها فقال عنها: «إن العلامة أو التصور Representamen هي شيء ينوب لشخص ما عن شيء ما بصفة ما، أي أنها توجد في عقل ذلك الشخص علامة معادلة أو ربما علامة متطورة، وهذه العلامة التي توجدها أسميها مفسرة Interpretant للعلامة الأولى، إن العلامة تنوب عن شيء ما وهذا الشيء هو موضوعها Object، وهي لا تنوب عن هذا الموضوع من كل الوجهات بل بالرجوع إلى نوع من الفكرة سميتها سابقاً ركيزة (أساس) Ground المصورة»[2].

ويقصد بيرس بـ «**المصورة**» الحامل المادي للعلامة وتقابل «**الدال**» عند سوسور و «**الرمز**» عند أوجدين وريتشاردز.

أما «**المفسرة**» فهي تقابل «**المدلول**» عند سوسور و «**الفكرة**» عند أوجدين وريتشاردز. وإذا كان بيرس يعني بها علامة جديدة تنجم عن الأثر الذي يتركه موضوع العلامة في ذهن المفسر Interpreter أو متلقي العلامة بينما يعتبرها

---

(1) Gerald J. Goodwin, Peirce, in: The MacGraw - Hill Encyclopedia of world Biography, vol. 8, MacGraw-Hill Inc., U.S.A., 1973, p. 347.

(2) Peirce, Charles Sanders, The Collected Papers of Ch. S. Peirce, 8 vols., ed. by C. Hartshorne, Paul Weiss and A. Beaks, Canbridge, Harvard University Press, 1931-35, 1958, Par. 2-228.

عن: سيزا قاسم، حول بعض المفاهيم والأبعاد، في كتاب، مدخل إلى السيميوطيقا، ص ٢٦.

سوسور تصوراً ذهنياً أو مفهوماً، فهي علامة متشعبة ومتعددة وبالتالى فهي ليست بسيطة، ومن هنا اعتبر بيرس أن المفسرة هي الركن الركين وحجر الزاوية في تعريف العلامة لأنها مكمن المعنى ومكان تولده «فالمعنى هو نتاج ترجمة علامة إلى علامة أخرى قد تكون من نفس النوع وقد تكون من نوع مختلف. وهذه العلامة الثانية هي مفسرة العلامة الأولى»[1]. وهكذا في نظام علاماني أو سمطقة لا متناهية Unlimited semiosis.

وتتخذ المفسرة عدة أشكال مهمة منها على سبيل المثال:

- قد تكون مصورة فلا تنتمي إلى العلامة الأصلية.
- قد تكون تعريفاً علمياً يصاغ في نفس النظام السيميوطيقي اللغوي مثل ترجمة الملح إلى كلورايد الصوديوم.
- وقد تكون معنى من المعاني الإيحائية المصاحبة للعلامة التى تحمل بعض الدلالات العاطفية اللصيقة بها، مثل ترجمة العلامة «كلب» إلى «وفاء».
- وقد تكون المفسرة مجرد ترجمة من لغة طبيعية إلى لغة طبيعية أخرى، مثل ترجمة «كلب» إلى Chien الفرنسية أو Dog الإنجليزية.
- وقد تكون سلوكاً مثل سماع صفارة الحكم أو الإنذار في الحروب فإنها تدفع إلى سلوك ما سواء في الملعب أو في الاختباء أو الاستعداد وغيرها[2].

وقد وجّه إميل بنفنست نقده إلى بيرس خاصة التعريف الذي قدمه للعلامة لأنه حوّل كل شيء إلى علامة حتى أصبحت أساساً للعالم بأسره. ويقول بنفنست في مقاله «سيميولوجيا اللغة»، «إن بيرس ينطلق من مفهوم العلامة لتعريف جميع عناصر العالم سواء كانت هذه العناصر عناصر حسيّة ملموسة أو عناصر مجردة، وسواء كانت عناصر مفردة أو عناصر متشابكة، حتى الإنسان – في نظر بيرس – علامة وكذلك مشاعره وأفكاره، ومن الملفت للنظر أن كل هذه العلامات، في نهاية الأمر، لا تميل إلى شيء سوى علامات أخرى، فكيف يمكن أن نخرج عن نطاق عالم العلامات المغلق على نفسه؟ هل نستطيع –

---

(١) سيزا قاسم، حول بعض المفاهيم والأبعاد، ص ٢٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٧.

في نظام بيرس - أن نجد نقطة خارج هذا السياج نرسى فيها علاقة تربط بين العلامة وشيء أخر غير نفسها؟»[١].

ثم يأتى الموضوع ولا يوجد مقابل له في تعريف سوسور للعلامة، ولكنه يقابل «المشار إليه» في تعريف أوجدن وريتشاردز، والموضوع في نظام بيرس هو جزء من العلامة وليس سيئاً من أشياء عالم الموجودات. ويفرّق بيرس بين نوعين من الموضوعات، الأول هو الموضوع الديناميكى Dynamic object وهو الشيء في عالم الموجودات الذي نحيل إليه العلامة وتحاول أن تمثله. الثانى هو الموضوع المباشر Immediate object وهذا النوع هو جزء من أجزاء العلامة، وعنصر من عناصرها المكونة لها.

أما ما يسمى بالعلامة الاعتباطية أو التعسفية arbitraire du signe (arbitrary sign) ، فهي العلامة التى تنعم فيها العلاقات بين الدال والمدلول، بين الإشارة وما تشير إليه، واللغة ذات النظام المتكون من رموز اعتباطية وغير المعلّلة تعتبر من مسلمات فلسفة اللغة الحديثة، حيث تفترض هذه المسلّمة انعدام العلاقة الطبيعية بين الاسم والشيء المسمى، ويعود الفضل في المعرفة في هذا المجال بالذات إلى وجود علاقة اصطلاحية قائمة وموجودة بالفعل بين الأسماء المعروفة لدينا وبين ما تشير إليه من مسميات، فاسم «الكتاب» أو «كتاب» له علاقة محددة بمعناه، فيصل إلى السامع المعنى المراد[٢].

وقد أشار فردينان دي سوسور إلى العلاقة الاعتباطية (التعسفية) بين الدال والمدلول إلى نفس المعنى الذي أشار إليه أخرون بعده حيث أعتقد دى سوسور بأن «الدال» لا ينطوي - في صميم خصائصه الصوتية - على أية إشارة أو إحالة إلى قيمة «المدلول» أو مضمونه. ووصف دي سوسور من يعتقد من الناس بوجود علاقة بين الألفاظ والأشياء بالسذاجة لأنها في رأية مجرد صلة اعتباطية[٣]، وقد رفضت الوضعية المنطقية ما ذهب إليه دى سوسور ووصفت

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٨.

عن: Benveniste, Émile, Sémiologie de la langue, Problémes de linginstique générale, Paris, Gallimard, 1965, p. 44.

(٢) بيار جيرو، علم الدلالة، ص ٣١.

(٣) د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص ٥٠.

اللفظ أو الدال الذي لا يشير إلى مدلول محدد في الواقع الخارجي المعاش بأنه مجرد لغو، ومن هنا جاء اتهامهم بالالحاد لأن هناك غيبيات ليس لها مدلول مادي مشخص وهي موجودة مثل الذات الإلهية.. لفظ الجلالة «الله» تعالى، والنفس الإنسانية، والروح، والحرية، والإرادة وغيرها من الألفاظ الميتافيزيقية.

إن جوهر العلاقة في اللغة هو الاصطلاح أي التوفيق لا الاعتباطية أو الاعتباطي، فالاصطلاح في اللغة يقوم بعملية تجريد العلامة من التعليل فتصبح العلامة عندئذ إلى الاعتباطي أقرب [illegible] التعليل، فالتعليل صفة ثانوية غالباً ما تمحى بمرور الوقت.

ثم قام بيرس بتقسيم العلامات تقسيماً ثلاثياً فقسمها إلى:

- الصورة أو الأيقونة Icon وهي علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل صفات تمتلكها خاصة بها وحدها[1]. وهي تضم الصور الفوتوغرافية والصور التمثيلية الشخصية وتحل محل الشيء المشار إليه. ويميز بيرس بين ثلاثة أنواع من الأيقونات: الصورة والرسم البياني والاستعارة.
- المؤشر Index وهي علامة تربط العلامات [illegible] وموضوعها ارتباطاً سببياً، وغالباً ما يكون هذا الارتباط ارتباطاً مادياً ومحسوساً، فالمؤشر علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل وقوع هذا الشيء عليها في الواقع[2]. [illegible] العلامات اللغوية مثل أسماء الإشارة والظروف والضمائر وهي مؤشرات فرعية Subindexes[3].
- الرمز Symbol وفيه تكون العلاقة بين الدال والمدلول علاقة عرفية وغير معللة بسبب عدم وجود تشابه أو صلة فيزيقية أو تجاوز، وفيه يقول بيرس «الرمز هو علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل قانون غالباً ما يعتمد على التداعي بين أفكار عامة»[4]. والرمز هو أكثر العلامات تجريداً

---

(1) Peirce, op. cit, par. 2 - 247.

(2) Ibid, par. 2. 248.

(٣) سيزا قاسم، حول بعض المفاهيم والأبعاد، ص ص ٣٣ - ٣٤.

(4) Peirce, op. cit., par. 2. 249.

لذلك اعتبره بيرس مشيراً إلى العلامات الحقة، كما يسميها «العادات» أو «القوانين» وهي أقرب إلى الكليات منها إلى الحقائق المتحققة في الواقع بالفعل.

وقد تقدمت الدراسات في مجال علم العلامات وأصبحت هناك أنظمة سيميوطيقية تنظم العلاقات بين الأنظمة ووضع لها إميل بنفنست خصائص تميز أي نظام سيميوطيقى، وهذه الخصائص هي:

- كيفية تأدية الوظيفة السيميوطيقية.
- مجال صلاحية النظام.
- طبيعة علامات النظام وعددها.
- نوعية توظيف النظام.

كما ظهرت نوعية جديدة من الدراسات السيميوطيقية تسمى «سيميوطيقا الحيوان» Zoosemiotics تدرس أنظمة الاتصال الحيوانى. كما أسهم بعض العلماء السوفييت في هذه الدراسات وقدموا لنا دراسات لها قيمتها في مجال سيميوطيقا الثقافة، حتى أنهم أرسوا دعائم هذه النظرية وأصبحت كتاباتهم مرجعاً أساسياً في دراسة سيميوطيقا الثقافة وذلك منذ عام ١٩٦٢. وظهرت جماعة موسكو - تارتو لكى تعتنى بالثقافة عناية خاصة باعتبارها الوعاء الشامل الذي تدخل فيه جميع نواحي السلوك البشرى الفردى منه والجماعى، كما يروا أن العلامة لا تكتسب دلالتها إلا من خلال وضعها في إطار الثقافة باعتبارها نظاماً ديناميكياً ينمو ويتطور[١].

١٠- بينما ركز تشارلز موريس Charles Morris، على أهمية السيميوطيقا وقسم النظام السيميوطيقى إلى السينتاكس Syntactics علم بناء الجملة، والسيمانتكس Semantics علم المعانى أو الدلالة، والبرجماتيات Pragmatics وهو علم دراسة الكلمة الموجودة في داخل السياق اللغوى، وتنقسم النصوص أو السياقات إلى أنواع منها: الفيزيقى ومنها المعرفي ومنها اللغوى ومنها الاجتماعى.

---

(١) سيزا قاسم، حول بعض المفاهيم والأبعاد، ص ص ٣٩ - ٤١.
وأيضاً:

(*) E. T. Hall, The silent language, Doubleday, New York, 1959.

(*) E. T. Hall, The Hidden dimension, Doubleday, New York, 1966.

وقد وضع موريس هذا التقسيم موافقاً لوجهة نظر بيرس مما جعله يلقي قبولاً على نطاق واسع. كما فرّق موريس أيضاً بين السيميوطيقا الخالصة أو المجردة Pure Semiotic، والسيميوطيقا الوصفية Descriptive semiotics، تتعلق الأولى بتحليل العلامات، بينما تختص الثانية بدراسة العلامات الموجودة بالفعل[1].

١١- بينما ذهب مين دى بيران Maine De Biran (١٧٦٦-١٨٢٤) إلى أن الذاكرة الحقيقية هي الذاكرة التمثيلية او التصورية Mémoire représentative حيث يكون التوازن بين «استدعاء الإشارة أو العلامة» وبين «ظهور المعنى الواضح المحدد». فهذه الذاكرة تعني أننا نتذكر المعاني عن طريق الإشارات أو العلامات التي ارتبطت بها وتستمد منها دلالاتها. إن المعاني هي صور ذهنية أو نسخ من الإدراكات الحسيّة. وهذه تنصب على موضوع محسوس Concrete object؛ فعندما ترتبط العلامة المنطوقة مع الموضوع المدرك حسياً يمكن للقوة المحركة التي تنشيء العلامة أن تشملها في فعل واحد، بحيث يقوم بينهما ارتباط تام فيؤدي الموضوع إلى استدعاء العلامة وتقوم العلامة باستدعاء صورة الموضوع. وهكذا تمضي الذاكرة بغير انقطاع من العلامة إلى المعنى، ومن الموضوع إلى العلامة. ومع الاستخدام الدائم لعلامات اللغة وما يترتب عليه من نشاط الذهن، وكذلك مع الحاجات الاجتماعية يستطيع الإنسان أن يتجاوز الدائرة الضيقة للإدراكات وللعلامات المرتبطة بموضوعها على نحو مباشر، فيعيد ترتيب الألفاظ بفصلها وتجمعها على إنحاء لا متناهية، فيكوّن عالماً جديداً من المعاني يتواصل مع العالم الحقيقي بموجب الذاكرة التمثيلية[2].

---

(1) Reese, William L., Dictionary of philosophy., p. 521.

(٢) د. حبيب الشاروني، فلسفة مين دى بيران، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٢، ص ص ٦٠ - ٦١.

- Maine De Biran, Influence de l'habitude sur la faculté de pensée, Paris, 1799. :عن

رابعاً: اللغة الطبيعية واللغة المثالية

اهتم الفلاسفة منذ البدايات الأولى للتفلسف في الفكر الشرقى القديم وفي عصر الفلسفة اليونانية وما بعدها باللغة على اعتبار أنها وسيلة التفاهم والتعبير والاتصال، وهي الوجه الآخر للحياة فلا حياة بدون لغة ولا توجد لغه بغير حياة فهما وجهان لوجود واحد هو وجود الإنسان على الأرض، إذ أن وجوده واستمراره على وجه الأرض لم يكن ليستمر لو لم توجد اللغة صنو الحياة.

وقد رأينا كيف تلاعب السوفسطائيون باللغة وكيف انبرى لهم سقراط يدافع عنها وينادى بتحديد المعاني ليسهل التفاهم والاتصال بين البشر.. وفي العصور الحديثة اهتم ليبنتز باللغة وعندما وجد أن هناك اختلافات ظاهرة وحادة بين الناس أراد أن يصطنع لغة تختلف عن اللغة المستخدمة واعتقد فيها أنها لغة مثالية يضعها عن طريق مفردات المنطق التى لا تخطيء ولا يمكن التلاعب بها، وبهذا تتحرر اللغة عن اللبس والغموض وبالتالى تتحرر من كثير من الإشكاليات التى ثارت وتثار بسبب هذا اللبس وذاك الغموض، وأعتقد أنه باستطاعتنا أن نرد جميع الأفكار الإنسانية إلى مجموعة بسيطة وقليلة من الأفكار ونتخذ منها أوليات تمكنن من استحداث رموز أخرى للدلالة على الأفكار المشتقة(١).

وكما ذكرت الآن أراد ليبنتز أن يستحدث لغة جديدة مدخلها المنطق خاصة من خلال اهتمامه بالقضية التحليلية. فقد كان ليبنتز يرى - كما رأي أرسطو وديكارت من قبل - أنه باستطاعتنا أن نعبّر بوضوح كامل عن كل أفكارنا بالرموز كتلك التى تستخدم في الرياضيات، مما يجعلنا نسير بخطى لا تخطيء في سائر العلوم بنفس أسلوب يقين الرياضيات وهدفهم الأساسى هو الدقة والوضوح والصدق، أحلام الفلاسفة التى لا تدرك أبداً، ولن تدرك عن طريق الدراسات الفلسفية، بل يمكن إدراكها فقط عن طريق الإيمان بالله

---

(١) انظر للمؤلف، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص ٢٣٩.
وأيضاً: ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة، د. أحمد حمدى محمود، الألف كتاب الثانى، ١٣٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥٥.

تعالى والثقه في دينه الحنيف «الإسلام» الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1].

وكذلك اهتم باللغة الفيلسوف الإنجليزي الأيرلندي حيث رأي أن الأفكار مصدرها الوحيد هو اللغة وألفاظ اللغة، وأن التجريد الذي يقوم به الفلاسفة للغة هو بسبب اللبس والغموض وكم الإشكاليات التي نعاني منها على مر العصور، فإفراط الفلاسفة في التجريد وكثرة الألفاظ الجوفاء التي يطلقونها أدت بهم إلى أغلاق طريق الحق، وطمس الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان الغربي، وعندما سدت جميع المنافذ أمام الفلاسفة رفعوا عقيرتهم بالشكوى من عدم الوضوح وغياب الرؤية واختفاء الحقيقة إن لم يكن طمسها.

فقد اعتقد الفلاسفة أن العقل قادر على التجريد، فقاموا بتجريد بعض الأفكار في مجال الميتافيزيقا والمنطق ثم اكتشفوا أنهم يعيشون الوهم ويقتاتون بالخيال ويحيطون أنفسهم بالظلام، فلا نور ولا حقيقة. وفي نفس الوقت يقبل بركلي ويسلم بقدرة الذهن أو العقل الإنساني على تكوين رموز لغوية، وأن بالعقل قدرة تحمل أفكار كلية معينة تشير إلى أفكار جزئية تندرج تحتها، إذاً فعلينا أن نأخذ باللغة السائدة.. اللغة الطبيعية ونضيع منها معرفة بشرية صحيحة[2].

ومن هذا المنطلق أصبح هناك اتجاهان فلسفيان بشأن معالجة اللغة منهم من قال باللغة العادية Ordinary language، أو اللغة الطبيعية.. Natural، ومنهم من قال باللغة المثالية أو الصناعية/ الاصطناعية أو اللغة الكاملة منطقياً Ideal, artificial, logically perfect language.. وسوف نلقي الضوء عليهما معاً باختصار.

---

(1) انظر للمؤلف، نفس المرجع السابق، ص ٢٣٨.
وأيضاً: د. محمود فهمي زيدان، المنطق الرمزي: نشأته وتطوره، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ص ٥٦، ٥٩.

(2) انظر للمؤلف، نفس المرجع السابق ص ص ٣٠٤ – ٣٠٧.
وأيضاً: د. يحيى هويدى، بركلي، نوابغ الفكر الغربى العدد ١٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، ص ص ٢٣ – ٢٦.
وأيضاً: د. كريم متى، الفلسفة الحديثة، عرض نقدي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثانية ١٩٨٨م، ص ص ١٩٣ – ١٩٦.

-/-

١- اللغة العادية أو الطبيعية

«إن اللغة العادية هي اللغة الجارية التى يتكلمها الرجل العادى أو رجل الشارع في حياته اليومية كما يتكلمها الفلاسفة والعلماء في غير أوقات بحثهم»[١].

واتخذ موقف اللغة العادية أو الطبيعية كل من جورج إدوارد مور George Edward Moore (١٨٧٣-١٩٥٨)، لودفيج فتجنشتين Ludwig wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١)، ولا يعنى اتفاقهما على الأخذ بهذا الاتجاه أن يكونا شريكان في اتجاه واحد، بل إنهما يؤلفان اتجاهان مختلفان، اتخذ مور طريق فلسفة التحليل كمنهج وهو منهج يفترض وجود موقفين فلسفيين هما الواقعية Realism والتعددية Pluralism، الأول يقابله المذهب المثالي والثاني تقابله الواحدية Mon-ism.

وفي فلسفة مور وعلاقتها باللغة العادية ثلاثة اتجاهات: الأول دفاعه عن المعتقدات الراسخة للإنسانية أو ما نسميه بالإدراك العام أو الحس المشترك Com-mon Sense، والثاني هو اعتقاده بأن الفلسفة وإشكالياتها تنشأ في صميمها من تساؤلات الرجل العادي، والاتجاه الثالث هو تمايزه بين صدق القضايا التي تعبر عن معتقداتنا الراسخة من جهة، والتحليل الصحيح لمعناها من جهة أخرى.

ويرى مور أن اللغة العادية ملائمة للعمل الفلسفي، ولكن هذه اللغة تحتاج منا - خاصة الفلاسفة - إلى تهذيب وتوضيح، وليس التحليل الفلسفي لألفاظ اللغة هدفاً في ذاته وإنما وسيلة لتوضيح تصوراتنا وقضايانا، وأن النظرية الفلسفية تقاس قيمتها إذا اتسقت مع معتقدات الرجل العادى، فإذا تنافرت النظرية مع هذه المعتقدات حكمنا على النظرية بالإفلاس[٢].

-- وأيضاً: - Berkeley, George, A Treatise Concerning the Principles of Human know ledge, The open Court series, Oxford 1710, pp. 1,4 - 20.

(١) د. محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، ص ٤٤.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ص ٥٠ - ٥١.

عن: - Moore, A Defence of Common sense, in: Contemporary British philosoply, vol. II, Unwin, London, 1925, p. 93.

- White, G. E. Moore, A Critical exposition, Blackwell, Oxford, 1958.

أما بالنسبة لفتجنشتين فقد رفض المعرفة الاستبطانية واعتبرها وهم، كما رفض في بداية عمله الفلسفي أن يكون عمل الفيلسوف هو بناء النظريات وإقامة الأنساق الفلسفية. وحصر مهمته في توضيح الأفكار بطريقة منطقية، وحدد هذه الأفكار في قضايا الحياة اليومية وقضايا العلوم الطبيعية التى لابد أن يتقدم الفلاسفة لحل إشكالياتها وعلاج العقول مما يعتريها من الشك مثل الشك في وجود العالم، وسبيل الفيلسوف إلى ذلك هو اللغة العادية /الطبيعية والاستخدام المألوف للكلمات. أما استخدام اللغة الخاصة Private language أو اللغة المثالية أو الصناعية أو الاصطناعية وكلها مصطلحات لمعنى واحد فيراه ڤتجنشتين مستحيلاً[١].

ويذهب ڤتجنشتين في دراساته اللغوية إلى القول بأن اللغة مجرد «لعبة» Game كسائر أنواع اللعب التى يلعبها الناس في أوقات فراغهم، فهي تتشابه من حيث الصفات والسمات الأسرية مع مختلف أنواع اللعب ككرة القدم والشطرنج وغيرها، كما يتشابه أعضاء الأسرة الواحدة Family resemblances في بعض الصفات والسمات، فضلاً عن بعض التشابه في العديد من الوظائف التى يؤديها كل فرد في الأسرة؛ لأن اللغة ليس لها وظيفة واحدة محددة مثل تقرير الواقع، ولكنها بالإضافة إلى وظيفة تقرير الواقع فإنها تنطوى على صورة حياة أو شكل من أشكال الحياة ..Form of life، وأخيراً فإن الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخدامنا لها في الحياة اليومية، وتتعدد معانى الجملة الواحدة حسب السياق الذي نذكره فيه (وهو ما يسميها فلاسفة اللغة والمتخصصون بالبرجمانيات) وإن كان بين تعدد الاستخدامات للكلمة أو الجملة الواحدة تشابهاً أسرياً، وأن الكلمة مطاطة تتسع استخداماتها أو تضيق حسب الظروف والحاجات» وأن اللغة ليست كرجل صارم يعرف دائماً ماذا يريد ويفعل دائماً طبقاً لقاعدة محددة، وإنما هي كرجل فضفاض متفائل، له مناشط متعددة يتلاعب بما لديه من دون صرامة أو خطة محكمة»[٢].

ولقد اهتم المشتغلون في مجال اللغة بالعلاقة بين اللغة الطبيعية والأنظمة السيميوطيقية (العلاماتية)، فأعلى رولان بارت Rolan Barthes من شأن اللغة

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ص ٥٢ – ٥٣.

عن : Wittgenstein, philosophical Investigations, pt. I Secs. 133, 255.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٥٧.

ووضعها على قمة هرم الأنظمة السيميوطيقية، فقد رأي أن السيميولوجيا أعَم من علم اللغة وتحتويه، بينما ذهب إميل بنفنست إلى الاعتقاد بأن اللغة هي النظام السيميوطيقى المفسر لجميع الأنظمة الأخرى أي أننا لا نستطيع أن نتحدث عن أي نظام إلا من خلال اللغة الطبيعية وأن دلالة أي نظام تأتي من ترجمة علاماته إلى علامات اللغة الطبيعية(١).

هذا بالإضافة إلى أن اللغة الطبيعية تحتل مكانة مهمة في بنية الثقافة، واعتبر المشتغلون بها والمهتمون بها أن بنيتها هرمية وليست مسطحة «وتعتبر جماعة موسكو – تارتو أن اللغة الطبيعية هي النظام الأوليّ في الثقافة البشرية، ويكون نسق اللغة الطبيعية هو النسق الذي يكمن وراء الأنظمة الثانوية، غير أن علماء السيميوطيقا السوفييت يضعون بعض التحفظات حول تطابق نسق اللغة الطبيعية وأنساق الأنظمة الأخرى، فيرون أن الأنظمة الثانوية تتبع نسق اللغة الطبيعية إلى حد بعيد وهذا لأنهم يعيرون أهمية كبيرة لأنظمة ذات طبيعة مختلفة عن طبيعة اللغة الطبيعية مثل الصورة أي الأنظمة الأيقونية»(٢).

ومما سبق يتبين لنا مدى اهتمام فلاسفة اللغة وعلماؤها باللغة الطبيعية ونظروا إليها باعتبار أنها تمثل أنموذج الثقافة الإنسانية ومعبرة عنها، ولم يلتفتوا إلى اللغة المثالية أو حتى يشيروا إليها لأنها لا تخدم القطاع العريض في أي مجتمع وبالتالي لا تخدم قطاعاً بشرياً عريضاً بل تحصر ذلك في اقلية بسيطة اصطنعت لنفسها لغة خاصة يتفاهمون بها ويخرج من دائرتها كل من لا يعرف معناها ومغزاها. وعلى الرغم من ذلك فإن علماء اللغة السوفييت لا يحصرون الثقافة الإنسانية داخل إطار اللغة الطبيعية، ولكنهم ينظرون إلي اللغة باعتبارها رسالة تحمل معنى متكاملاً Integral meaning، ومن هنا فالرسالة قد تكون لغوية أو رسماً أو موسيقى أو بناية أو إشارة جسمية وغيرها

٢- اللغة المثالية أو الاصطناعية

اللغة المثالية هي لغة يحاول أن يصطنعها البعض فيما يختص بهم من علوم فيتفقون على أسماء ومسميات خاصة بهم، أو على رموز وقواعد ومعادلات

---

(١) ليزا قاسم، حول بعض المفاهيم والأبعاد، ص ٣٦.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ص ٤١ - ٤٢.

وقوانين ونظريات لا يفهمها غيرهم، وقد حاول أصحاب هذا الاتجاه تعميمه بحيث يشمل اللغة الإنسانية كلها، ولكن باءت كل هذه المحاولات بالفشل، ولم تسد غير اللغة العادية أو الطبيعية التي يتفاهم بها العالم والفيلسوف والأديب وكل صاحب فكر، كما يتفاهم بها معهم أيضاً أناس عاديون نقابلهم في الطريق العام وفي الأسواق وفي المواصلات هنا وهناك وفي كل مكان.

من هنا أصبح لدينا محاولات لعدة لغات مثالية وليس لغة مثالية واحدة، وأصبح لكل علم متطور لغة خاصة به تتمثل في مصطلحاته الفنية ومفاهيمه ورموزه وغيرها، كما حاول المناطقة إيجاد لغات مثالية تعتمد على قوانين المنطق ومبادئه ونظرياته ورموزه بسبب ما لمسوه من غموض وقصور في اللغة العادية إذاً فاللغة المثالية أو الصناعية أو الاصطناعية هي «لغة رمزية تتجنب كل عيوب اللغة» العادية بحيث يكون كل اسم دالاً على مسمى معين أو يكون لكل كلمة معنى ومدلول، ونعني في هذه اللغة أيضاً بدراسة التركيب الصحيح لمفردات اللغة في جمل سليمة البناء ووضع قواعد هذا التركيب، كما نهتم بدراسة قواعد الاستدلال... وتسمى أيضاً بلغة الحساب المنطقي Calculus أي أن اللغة يجب أن تصبح حساباً لها رموزها ومعادلاتها ودقتها... ومن الداعين إليها ليبنتز.. وفريجه ورسل وفتجنشتين وكارناب. (١).

وقد حاول كل من رسل وفتجنشتين في سنواتهم المبكرة للتفلسف أن يقيما نظرية جديدة يطبقا فيها ما ذهب إليه وأطلقوا عليها اسم «نظرية الذرية المنطقية» Logical Atomism theory «ترد كل ما ندركه في العالم من أشياء أو وقائع مركبة إلى أبسط أجزائها، وتسمى بالنظرية الذرية المنطقية لأن الذرات التي نود الوصول إليها ذرات منطقية لا فيزيائية، ولذلك تستعين النظرية بالمنطق في صياغتها»(٢).

وهي نظرية ميتافيزيقية تجريبية على ما بينهما من تناقض، وتبدأ بمصادرتين هما:

---

(١) د. محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، ص ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٣١.

- Russell, Bertrand, Logical Atomism, in: Contemporary British : عن philosophy, ed. Muirhead, London 1952.

• مصادرة التعددية Pluralism وهي الاعتقاد بأن العالم مؤلف من عدد كبير جداً من الكائنات المستقل بعضها عن بعض، لكنها تترابط بعلاقات خارجية سواء كانت هذه الكائنات أشياء مادية جزئية أم وقائع.

• ثاني المصادرات هو استخدام منهج التحليل في تحليل الكائنات المركبة إلى كائنات أكثر بساطة يمكننا إدراكها بطريق تجريبي مباشر.

وحين نصل إلى العناصر البسيطة الأولى بإدراك مباشر Knowledge by acquaintance – كما يرى رسل – والمقصود بالإدراك المباشر أن أي قضية يمكننا فهمها يجب أن تتألف من عناصر بسيطة نألفها مباشرة، أو تكون على وعي مباشر بها، إذاً لابد من البدء بشيء محدد وفق طريقة تسهل التدرج والاستدلال والاستنباط فالفلاسفة المثاليون – على سبيل المثال – يبدأون من واقعة تجريبية واحدة موجودة، حتى لو كانت نفسية مثلما قال ديكارت بالفكر ثم تدرج للبرهنة على قضايا أخرى، ويبدأ التجريبيون من أفكار تجريبية ملموسة ومحسوسة، ونفس الشيء يفعله أصحاب الذرية المنطقية يبدأون بالمعطى Datum[1]. وظلت هذه النظرية سائدة ردحاً من الزمن حتى تبين لأصحابها استحالة تطبيقها في الواقع العملي، ثم ماتت النزعة الذرية وحلت محلها النظرية البنائية.

ويلاحظ أن النظرية الذرية المنطقية تقوم على مراعاة قواعد المنطق [illegible] أن تعتمد على اسم العلم المنطقي كحد للتحليل وهو حد لا يمكن تحليله منطقياً لأبعد من هذا، وأن هناك خلاف على مشكلة القضية العامة أو الكلية مازال لم يحسم، وأن هناك مطابقة تامة بين تركيب القضية التجريبية وتركيب الواقعة التي

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٢.

وأيضاً:
- Jones, W. T., A History of Western philosophy, the twentieth century to Wittgenstein and Sartre, 2nd. vol. v, Hartcourt Brace Jovanovich, Inc. N.Y. 1975.
- Urmson, J. O., Philosophical Analysis: Its Development Between the Two World Wars, Oxford University Press, London, 1956.

تدل عليها. وبعد محاولات مضنية من جانب رسل وفتجنشتين واتفاقات واختلافات اتضح لهما صعوبة تنفيذ هذا المشروع ولم يبق لديهما غير شرف المحاولة فتراجع كل منهما لأسباب مختلفة، وكان من بين هذه الأسباب ما يأتي[1]:

- يستحيل رد الوقائع المركبة إلى وقائع باللغة البساطة بالطريقة التى صاغتها النظرية وذلك بسبب عددها الهائل.
- تراجع رسل عن تصوره لاسم العلم المنطقى تحت ضغط زملائه النقاد حين رأوا أن «هذا» ليست اسم علم منطقي.
- لم يستطع أصحاب هذه النظرية تقديم تفسير واضح للقضايا العامة فهي مجرد تصور غامض ليس له ما يطابقه في الواقع.
- أدرك ڤتجنشتين خطأ النظرية التصورية للغة واكتشف تعارض بين الصورة المنطقية للقضية وبين ما يقابلها من واقعة ما، ونحن نعلم أن تعارض واحد، أو حالة تكذيب واحدة لأي تصور أو قانون أو نظرية إما أن تعدل وإما أن تلغى.
- لم يقبل رسل النظرية التصورية للغة وتردد في قبولها.
- اكتشف ڤتجنشتين وجود عدد ضخم من الوظائف للغة فلا يمكن حصرها في تقرير الوقائع فقط فهناك أشياء غير ملموسة وهي من صميم وظائف اللغة مثل إعطاء أوامر أو التعبير عن رغبة أو تمثيل دور في عمل فني، أو قص حكاية أو أداء تحية أو شكر أو حزن وغيرها كثير مما لا يقع تحت الحصر.

مما سبق يتضح أنه من الصعوبة بمكان تحقيق حلم الفلاسفة والمناطقة في إقامة دقة ووضوح وصدق مطلق للغة مصطنعة أو طبيعية. وكذلك استطاع

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ص ٣٩ - ٤٠.

- Russell, B., My Philosophical Development, Allen and : وأيضاً Unwing, London, 1959.
- wittgenstein, L., Philosophical Investigations, pt. 1 s 46 - 8.
- Encyclopedia of Philosophy, vol. 7, pp. 242 - 3.

رسل اكتشاف تطابق كامل بين تركيب اللغة وتركيب الواقع ولكنه لم يدرك أن هذا التطابق هو من فعل الله سبحانه وتعالى وليس من فعل الإنسان حتي تستقيم حياة الإنسان على الأرض ويحقق التواصل المطلوب كما يستطيع تحقيق الغاية التى أوجده الله فيها على الأرض وخلقه من أجلها. بينما تأكد لفتجنشتين فشل محاولة إقامة لغة مثالية من صنع الإنسان لأنها لن تحقق الغاية منها إلا في نطاق ضيق جداً ولن تحقق التواصل بين البشر بل العكس هو الصحيح. وأخيراً اكتشف كل من رسل وفتجنشتين استحالة إنكار وجود قضايا عامة مثل «كل حيوان كائن حي» أو «كل مجتهد مستحق التقدير» وغيرها كثير.

خامساً: اللغة والنزعة البنيوية

يعتبر فرديناند دى سوسور Ferdinand de Saussure (١٨٥٧-١٩١٣) الأب الحقيقي للحركة البنيوية، أستاذ اللغويات بجامعة جنيف، وصاحب كتاب «دروس في علم اللغة العام» الذي نشر عام ١٩١٦ وأعيد تحقيقه ونشره عام ١٩٧٨[1]. وقد مهّد دى سوسور لظهور النزعة البنيوية اللغوية على الرغم من أنه لم يستخدم كلمة «بنية» صراحة، وأرسى دعائمها ثلاثة علماء روس هم: رومَان، چاكوبسون Roman Jackobson، وكارشفسكى Karcevsky، وترويتسكوى Trou-betzkoy فظهرت إلى الوجود عام ١٩٢٨، في المؤتمر الدولي لعلوم اللسان الذي انعقد بلاهاى بهولندا. ثم في المؤتمر الأول للغويين السلاف الذي انعقد في براج عام ١٩٢٩ حيث استخدموا فيه كلمة «بنية» بالمعنى المستعمل به اليوم، واعتبروا أن «المنهج البنيوي» منهجاً علمياً صالحاً لاكتشاف قوانين بنية النظم اللغوية وتطورها.

وعلى الرغم من أن البنيويين قد رفعوا شعار «البنيوية» إلا أنه لا يوجد تحت هذا الشعار مدرسة واحدة تجمعهم في بوتقة واحدة، بل هناك مدارس بنيوية مختلفة فهناك المدرسة السويسرية التى تزعمها دى سوسور - كما سنرى الآن -

(1) Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique génerale, édition critique préparée par Tullio de Mauro, Paris, Payot, 1975.

وأيضاً: د. عبد الوهاب جعفر، البنيوية في الأنثروبولوجيا وموقف سارتر منها، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٨٠، ص ص ٢٩-٣٤.

وهناك المدرسة البنيوية الأمريكية التي تزعمها بلومفيلد (واتجاهه النفسي)، وهناك مدرسة «براج» أو كما يسميها أنصارها «حلقة براج» تأسياً بحلقة فيينا، وهناك المدرسة الدانماركية (حلقة كوبنهاجن) ويتزعمها هلمسليف، ثم ظهرت حركة شقت عصا البنيوية الأمريكية وتزعمها كلا من هاريس وتلميذه تشومسكي الذي نسبت إليه دعوة «النحو التوليدي» بينما نسبت إلى أستاذه دعوة «علم اللغة التوزيعي».

مما سبق يتبين لنا أن فلاسفة الدراسات اللغوية البنيوية قد أخذوا يتجهون نحو تفتيت «البنيوية» وتمزيقها إرباً إرباً، فتكوننت مدارس مختلفة، واتجاهات متباينة، كما يقول – أندريه مارتينيه عالم اللغويات الفرنسي المعاصر – ثم ذهب هلمسليف يحاول رأب الصدع في الفكر البنيوي بقوله: «إن المقصود باللغويات البنيوية هو مجموع الأبحاث التي تستند إلى فرض واحد مؤداه أنه من المشروع علمياً وصف اللغة باعتبارها أولاً وبالذات كياناً مستقلاً من العلاقات الباطنية التي يتوقف بعضها على البعض الآخر، أعني – بكلمة واحدة – «بنية»[1].

إذاً فقد تحولت البنيوية إلى مجموعة من العلاقات يسند بعضها بعضاً، باعتبار أن اللغة تمثل – في نظر أصحابها البنيويين – «نسقاً مغلقاً» تحكمه مجموعة من القواعد التي تقبل التنويع عند تطبيقها في الواقع العملي.

فى اسهامات دي سوسور الرائد الأول للبنيوية اللغوية فى علم اللغة:

استطاع دى سوسور أن يلقى الضوء على نسيج النشاط اللغوى لدى البشر والذي تتشابك فيه عوامل متباينة وعناصر شتى منها البيولوجية، والفيزيقية، والسيكلوجية، والاجتماعية، والتاريخية، والجمالية، والعلمية (أو البرجماتية)، وعقد دى سوسور عدة تمايزات أولية بين «اللغة» و «الكلام» وبين اللغويات الداخلية واللغويات الخارجية وبين اللغة التزامنية أو التواقتية وبين اللغة المتطورة أو التعاقبية.

(١) د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص ص ٦٨ – ٦٩.

يرى دى سوسور أن «اللغة» نظام اجتماعي مستقل عن الفرد، بينما «الكلام» هو منها بمثابة التحقيق العيني الفردي. أي أن «اللغة» اصطلاح اجتماعي، أو مجموعة من القواعد (الأكواد) Codes، بينما «الكلام» فعل فردي إرادي، والصلة بينهما كالصلة بين الأوليّ والثانويّ، أو بين «الجوهر» و «العرض». ومن هذا التعريف توصل دى سوسور إلى أن اللغة هي «نسق عضوى منظم من العلامات Signs»(١).

وإذا تأملنا هذه الأقوال نجد أنها لم تبتعد كثيراً عما قاله ابن جنّي في «الخصائص» حيث يقول:

«أما الكلام فكل لفظ مستقلّ بنفسه، مفيد لمعناه. وهو الذي يسميه النحويون الجُمل، نحو زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومهٍ، ورويد، وجاء وعاء في ا لأصوات، وحسيٍّ، ولبٍّ، وأفٍّ، وأوّه. فكل لفظ استقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام. وأما القول بأصله أنه لفظ مدل به اللسان، تاماً كان أو ناقصاً. التام هو المفيد، أعنى الجملة وما كان في معناها، من نحو صهٍ، وإيهٍ. والناقص ما كان بضّد ذلك، نحو زيد، ومحمد، وإن، وكان أخوك، إذا كانت الزمانية (الناقصة) لا الحديثة (التامة). فكل كلام قول، وليس كل قول كلاماً».

والعلامة عند دى سوسور علامة ذات وجهين لأنها عبارة عن اتحاد «الصورة الصوتية، وهي «الدال» Le signifiant بـ تمثل ذهني» أو «تصور» Concept ألا وهو «المدلول» Signifié.. أي أنه لفظ ومعنى، أو هو لفظ دال ومعنوى مدلول به على اللفظ، وهذا ما قاله ابن جني: «فالمعنى إذا أشيع وأسير حكماً من اللفظ؛ لأنك في اللفظىّ متصوّر لحال المعنويّ، الست في المعنويّ بمحتاج إلى تصوّر حكم اللفظيّ»(١).

(١) د. زكريا ابراهيم، مشكلة البنية، ص ٤٤.
(٢) ابن جنى، الخصائص، الجزء الأول، ص ١٧.
(٣) المصدر السابق، ص ١١١.

ولم يقتصر دى سوسور على التفرقة بين «اللغة» و «الكلام»، أو بين «الدال» و «المدلول» بل قد أقام تفرقة أخرى بين «اللغويات الداخلية» Internal/inner (interne)، و «اللغويات الخارجية» (externe/extern)، الأولى دراسة محايثة وصفية وقتية immanente للغة، في حين أن الثانية عبارة عن دراسة للعلاقات القائمة بين اللغة من جهة، وبين الدوائر المؤثرة عليها، كالحضارة، والتاريخ السياسى، وعلم النفس، والمنطق، والأنثروبولوجيا وغيرها من جهة أخرى، فاللغة محصورة داخل «النظام» أو «النسق»، وهي لا تعرف سوى هذا النظام الخاص أو النسق المحدد؛ لأن هذا النظام أو النسق مترابط فيما بينه، يعمل ككل متماسك. ويفضل دى سوسور التنظيم الباطني أو القواعد الداخلية أو اللغويات الداخلية على الخارجية، أي يفضل القواعد الداخلية على مظاهر اللغة الخارجية التي تطورت عبر الزمان[1].

ولأن دى سوسور فرّق بين مظهرين من مظاهر اللغة، الكلام وهو عنده نشاط واقعي يقوم به الفرد ويتمثل في نطق بعبارة ما. وهذا النشاط الواقعي يتغير دائماً. فأنا حين أنطق بعبارة ما أختلف في أدائها عن الآخر الذي ينطق بنفس العبارة، فإذا غيرّت من تركيب العبارة أو غيرت صوت من أصواتها أو نغمة من نغماتها فإن هذه التغيرات تعتبر أمور عرضية.

والأمر الثاني الذي يسميه دى سوسور لغة، فهو الصور الذهنية المختزنة في ذهن الجماعة اللغوية لكل لفظ وكل تركيب أو صوت من ألفاظ اللغة وتراكيبها وأصواتها. أو بعبارة أخرى هي محموعة الرموز التي تحتويها لغة ما من اللغات. ومن الناحية الخارجية يمكن أن نجمع هذه الرموز في كتب نسميها «القواميس» أو «كتب النحو». والتغيير في اللغة بطيء لا يحدث إلا عن طريق الكلام، إذ لابد أن يتغير كلام شخص ما ثم يقلده آخر فآخر حتى يشيع التغير لدى الجماعة اللغوية فتتغير الصور اللغوية الذهنية لديهم فيتم التغير في اللغة، وهذا هو الأهم تغير الصور اللغوية الذهنية.

---

(١) د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص ص ٤٦ – ٤٧.

ولأن دى سوسور فرّق بين هذين المظهرين للغة فقد رفض تعريف اللغة الذي يقول: «إن اللغة نشاط مكتسب يتم بواسطته تبادل العواطف والأفكار بين أفراد جماعة إنسانية معينة. وهذا النشاط عبارة عن مجموعة من الأصوات تستعمل وفق نظم معينة». وكان سبب رفض دى سوسور له أنه تعريف وظيفي Functi onal يعنى بالوظيفة التي تؤديها اللغة في المجتمع[١].

ومما سبق وجد دى سوسور نفسه أمام تفرقة أخرى مهمة وهي التفرقة بين «التزامن» أو «التواقت» .. السينكروني Synchronic، وبين «التطور التاريخي» أو «التعاقب التاريخي» المسمى الدياكروني Diachronic، تمثل الأولى المحور الأفقي في حين تعتبر الثانية المحور الرأسي، الأولى تمثل وجهة النظر الوصفية، بينما الثانية تمثل وجهة النظر التاريخية، أخذ دى سوسور بالأولى ورفض الثانية وهو عمل معظم القائمين علي االدراسات اللغوية إبّان القرن التاسع عشر؛ لأن تاريخ الكلمة قلما يفيدنا في فهم المعنى الحالي لها «ومادامت اللغة – في حد ذاتها – هي مجرد «نسق» أو «نظام»، بل ومادامت تعمل، أو تؤدي وظيفتها باعتبارها «بنية» ذات «طبيعة رمزية»، فلابد من التسليم بأنها لا تنطوى – في ذاتها – على أي «بعد تاريخى»[٢].

إذاً اللغة عند دي سوسور نظام أو نسق System يخدم بعضه بعضاً ويقوم بعضه ببعض، ويرفض ارتباط صوت معين بتصور معين؛ لأن مثل هذا القول من شأنه أن يعزل اللفظ عن النظام الذي وجد فيه ومن أجله، ويرى الدارسون أن لفظ أو مصطلح «نظام» يعني عند دي سوسور «بنية» مما جعل مييه Meillet يقول: «بأن كل لغة لها نظام متسق تمام الاتساق، محكم التأليف»[٣].

---

(١) د. عبد الرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، ص ٢٤.

(٢) د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص ٤٨.

(3) Meillet, A., Linguistique historique et linguistique générale, h. 158. Paris, 1936.

عن : د. عبد الرحمن بدوى، اللغة في: ملحق موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، ص ٢٥٩.

إن البنية معناها الترابط المحكم القائم بين أجزاء اللغة الواحدة بحيث ينتظم كل أشكال هذه اللغة وصورها، سواء في تركيب الأصوات، أو تركيب الجمل.

وقد وجه الدكتور عبد الرحمن أيوب نقده لدى سوسور على النحو الآتي:

١- ليس هناك ذهن أو عقل جمعي، بل هو عقل الفرد الذي يختزن الصور اللغوية.

٢- لم يفرق دى سوسور بين نطق الفرد بعبارة واحدة، وبين الكلام الذي هو مجموع ما ينطق به أفراد الجماعة اللغوية الواحدة في كل الأوقات.

٣- لغة الجماعة أمر اعتباري، وهي المقدار المشترك بين لغات أفراد جماعة لغوية واحدة[1].

كما تهتم البنائية أو الاتجاه البنيوى باللغة اهتماماً خاصاً بسبب اعتماد الجماعات الإنسانية على اللغة بصفتها حقيقة واقعية أساسية لا يتم اتصال Com-munication أو تبادل exchange إلا بها، فهي أكثر الإشارات عمومية واستخداماً حتى علاقات التبادل الأخرى مثل تبادل السلع وتبادل المتاع والنساء لا يتم إلا بها، لذلك وضع نيقولا تروبسكوى Nicolastroubeskoy (١٨٩٠-١٩٣٨) أسس مهمة وأساسية لابد أن يقوم عليها منهج علم اللغة نوجزها فيما يأتي[2]:

١- ينحصر موضوع علم اللغة في الانتقال من دراسة الظواهر اللغوية الشعورية إلى بنائها التحتي اللاشعوري، فلا بد من وجود علاقة بين المدلول والدال والمدلول هنا هو اللغة التي تعتمد على التصور.

٢- يرفض منهج علم اللغة وخصوصاً علم الأصوات اعتبار الألفاظ أو الحدود Terms وحدات مستقلة أو منفصلة، والتحليل اللغوي هنا لابد من اقتصاره على دراسة العلاقات القائمة بين هذه الألفاظ أو الحدود أي علاقة الألفاظ بألفاظ أخرى من نفس اللغة وليس بنسبتها إلى مدلول.

---

(١) د. عبد الرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، ص ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) د. عبد الوهاب جعفر، البنيوية في الأنثروبولوجيا وموقف سارترمنها، ص ص ٣٠-٣٣. أيضاً: د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص ١٠.

٣- لابد أن تمر جميع الرسائل من خلال اللغة باعتبارها نسق له قوانينه المتعارف عليها، أي أن الفونولوجيا تركز على «العلاقات الضرورية» التي تؤلف «نسقاً» محكماً صلباً.

٤- إن هدف علم اللغة هو البحث عن هذه القوانين العامة المشار إليها في النقطة السابقة وتعريفها حتى نصل إلى الخصائص العامة للغة بطريقة استنباطية منطقية، لا بطريقة تجريبية تعتمد على الملاحظة.

وكان هذا الموقف لتروبسكوي متفقاً مع موقف كلود ليفي ستروس البنيوى الانثروبولوجي(*) وكانت دراستهما واقعة تحت تأثير دى سوسور وكتابه «علم اللغة العام» الصادر عام ١٩١٦.

وتهتم اللغة في ضوء مفهوم البنائية بدراسة اللغة باعتبارها الانتقال من دراسة الظواهر اللغوية الشعورية إلى «بنائها التحتي» اللاشعوري، فالإشارة اللغوية ليست وسيطاً محايداً بيز الشيء والتعبير عنه، بل إن هناك علاقة، نسق، نظام، روح منبثة، رسالة موجهة، إنها «نسق الرموز» System of signs الذي ينشأ عن حتمية الاتصال بين فئتى الدال والمدلول على اعتبار أن الأولى صوّتية Soneɾe/Sound أما الثانية فهي تصورية Conceptual»(١).

وربما دارت كل هذه التعريفات والأحوال حول القررات التي صدرت عن حلقة اللسانيات التي عقدت في مدينة براج عام ١٩٣٩، والتي كان من أهمها(٢):

(*) كتب مقالاً بعنوان «التحليل البنيوي في علم اللغة والأنثروبولوجيا» عام ١٩٤٥ في مجلة «العالم» ثم نشره في كتاب «الانثروبولوجيا البنيوية» تحت عنوان «اللغة والقرابة» (نفس المرجع، ص ٣١).

(١) د. عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ٤.

وأيضاً: بالمر، علم الدلالة: إطار جديد، ص ص ٢٣٠ - ٢٣٥.

وأيضاً: Lacroix, Jean, Panorama de la philosophie Française contemporaire, (P.U.F. 1966), p. 216.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ص ٦ - ٧.

أ - إن الأبحاث الفونولوجية (الصوتية) قد أفسحت الطريق أمام البحث عن فكر لا شعوري وراء الأنساق الصوتية، فالصورة (التقابل) تستند إلى مضمون.

ب- تؤكد الأنماط الصوتية types of sound على فكرة الغائية اللاشعورية التي لا تتوقف عند حدود الفرد بل تتعداه، وذلك لأنها تمده بوسيلة للتفاهم.

جـ- اللغة تعبير عن واقع روحي يشمل جميع الأفراد فضلاً عن جوانبها التي تضم القيم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية؛ مما يكشف عن ميتافيزيقا للتفاهم البشري وهي سند قوي لعلوم الأخلاق.

د - إن بنية النسق الفونولوجي ليس ثمرة لتفكير فرد كما إنه ليس نتاجاً فكرياً.

وقبل أن أختتم هذه الفقرة أود أن أشير إلى أهمية الطابع البنيوي في الدراسات اللغوية حتى تحولت «البنيوية - شاءت أم أبت - إلى «لغة شارحة لحضارتنا» أو لأقل «ميتا - لغة» Metalanguage (méta - langage) للثقافة المعاصرة، أكثر منها «لغة موضوعات». إن اللغة يمكنها أن تطرح «الطابع اللغوي للعلم» - كما يقول رولان بارت - وإن كنا نخشى أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه «التحليل البنيوي» نفسه مجرد «لغة» من «لغات الموضوعات»، تفتقر بدورها إلى «لغة شارحة» جديدة، أو إلى نسق أعلى منها بتكفل بتفسيرها وشرحها للآخرين[1].

سادساً: اللغة والبنيوية التحويلية

يعتبر أفرام نوام تشومسكي Avram Noam Chomsky (١٩٢٨-) أحد اللغويين المعاصرين، فهو فيلسوف علم اللغويات، وفيلسوف فلسفة العقل Philosopher of Mind في الولايات المتحدة حيث شغل المنكرين على اختلاف أنواعهم واتجاهاتهم سواء داخل الولايات المتحدة أم خارجها بسبب دراساته في علم اللغة وكذلك بسبب مواقفه السياسية المتشددة نحو السياسة الخارجية الأمريكية طوال القرن العشرين وما بعده بسبب ضيق أفق ساستها على جميع الأصعدة فقد كان تشومسكي اشتراكياً ليبرالياً a libertarian socialist[2].

(١) د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص ١١.

(2) Mills, Stephen, Chomsky, in: One Hundred Twentieth-Century philosophers, edited by: Stuart Brown, Diané collinson, Robert Wilkinson, Routledge, London and New york, 1998, p. 35.

«يعرّف تشومسكى اللغة بأنها «العلم الذي يدرس اللغة دراسة علمية» وهو يعتقد بأن استخدام لفظ «علم» Science هنا يعد استخداماً له دلالاته الحاسمة Cucial في قطع الطريق على المعارضين له أو المناقشين لعمله. وقد اعتبر إميل بنفنست تشومسكى معادياً للبنيوية، إلا أن جان بياجيه أعاده إليها عندما أد''ق على نظريته في «النحو التحويلي» اسم «البنيوية التحويلية» transformation structuralism، وسواء أطلقنا على نظرية تشومسكي اسم «النزعة التحويلية»، أم اعتبرناها مجرد صورة تطورية أو متطورة جديدة من صور «البنيوية»، أم قلنا عنها أنها عبارة عن «نحو توليدي» Generative grammar، أم أنكرنا عليها كل طابع بنيوى، فإن الذي لا شك فيه أن نظرية هذا العالم اللغوى الأمريكى في اللغة، لا يمكن أن تفهم إلا على ضوء موقف تشومسكي من «البنيوية اللغوية» في أشكالها السابقة عموماً، وفي أمريكا بصفة خاصة»[1]، خاصة «أنه أكثر من اتجاه في الدراسات اللغوية في أمريكا بتأثير من المدارس الفلسفية المختلفة، فضلاً عن تأثير الاتجاهات الفكرية التي بدأت تهب رياح التغيير عليها منذ منتصف القرن العشرين» وازدياد المحاولات لـ[illegible]ـم طبيعة العقل البشري.

لقد قرّ في يقين تشومسكي أن الإنسان وهب عدة ملكات أطلقنا عليها اسم «العقل» الذي يقوم بدور حاسم في اكتسابنا للمعرفة، بالإضافة إلى أنه يمكننا من القيام بدور مستقل عن أي عامل خارجي في البيئة المحيطة بنا، أي أن العقل قادر على العمل دون أن يتأثر بمـ[illegible]ـرات البنية، وهذا الاعتقاد جعل تشومسكي يركز في كتاباته الفلسفية على مثل هذه الموضوعات التي ضمتها كتبه الثلاثة:

أ – علم اللغة الديكارتي. Cartesian linguistics

ب– اللغة والعقل. Language and mind

جـ– مشكلات المعرفة والحرية. Problems of knowledge and Freedom

وعلى الرغم من اهتمام تشومسكي بمفهومي «العقل» و «اللغة» واهتمامه بديكارت إلا أنه لم يتبع ديكارت قدماً بقدم، وخطوة بخطوة، بل إنه وقف ضد

---

(١) د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنيـة، ص ٦٣.

المذهب الآلي Mechanism الذي اعتقد فيه ديكارت، كما إنه لا يفصل فصلاً تاماً بين الجسم والعقل كما فعل ديكارت وأتباعه من العقلانيين، فهو يقول: «إن التساؤل عن الأسس الطبيعية (الفيزيقية) physical basis لتركيب العقل قضية فارغة؛ لأن تطور العلم الحديث قد أثبت أن فكرة الأسس الطبيعية قد أمتدت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تشتمل كل شيء نستطيع فهمه وكذلك عندما نبدأ من دراسة خصائص العقل البشري فسنجد أننا – ببساطة – قد توسعنا بفكرة الطبيعة بحيث أصبحت تحتوي في داخلها على كل هذه الخصائص أيضاً»[1].

إذاً الإنسان لديه القدرة على معرفة الظاهرة العقلية phenamend mento على ضوء إدراكه للعمليات النفسية والطبيعية فجمع بين موقف العقليين أفلاطون وديكارت وموقف الطبيعيين كذلك من أصحاب النظرية التجريبية فيما يختص بالعقل.

ويعتقد تشومسكى أن الهدف الأساسي لعلم اللغة هو بناء نظرية استدلالية/استنباطية Deductive theory خاصة تلك الخاصة بتركيب اللغة الإنسانية، يمكن استدلالية أو استنباطة Deductive theory خاصة بتركيب اللغة الإنسانية، يمكن تطبيقها على جميع اللغات وليس على اللغات التى نعرفها فقط بل وعلى جميع اللغات التي يمكن أو يحتمل معرفتها في المستقبل، وبحيث تكون هذه النظرية عامة وشاملة مثل اللغة التي ينبغى أن تكون عامة وشاملة ومحددة للخصائص الأساسية للغة الإنسانية[2].

وذكر جون ليونز في كتابه «نظرية تشومسكى اللغوية» أن هناك تشابهاً بين موقف كل من تشومسكي ورومان جاكوبسون في اعتقادهما بوجود وحدات فونولوجية ونحوية ودلالية كلية وشاملة قد تشترك فيها اللغات جميعاً، ولكنها ليست متحققة بالضرورة في جميع اللغات»، ومن الخصائص المهمة التي أشار إليها تشومسكى فكرة الكلية الصورية Formal universal، وهي عبارة عن

---

(١) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة وتعليق د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ص ٢٣٥، ٢٥١.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٣٦.

مبادىء عامة تحدد صورة القواعد وشكلها وطريقة عملها من خلال النظم النحوية لعدة لغات معينة، فهو يرى مثلاً أن النحو التحريلي وقواعده التي تصل ما بين الجمل المختلفة كما تشترك في بنائها أيضاً لها ما يسمى بالتركيب التابع dependent structure «هذه التراكيب التابعة لها أشكال وأنماط مختلفة، بمعنى أنها تطبق عن طريق تنظيم سلسلة من الكلمات في جمل»[1].

من هنا جاء فرض تشومسكي بأن العنصر الأساسي للكلام هو الجملة البسيطة الإيجابية، وأن هذه الجملة الأساسية تتخذ أشكالاً عديدة وفقاً لقواعد النحو والإعراب.

وعلى سبيل المثال: «قرأ محمد» تعتبر جملة أساسية بسيطة، يمكن تعبيرها فنقول: «محمد قرأ» و «محمد لم يقرأ» و «محمد قرأ كثيراً» و «ما قرأ محمد» وهكذا. ومما لا شك فيه أن القواعد الأساسية تختلف من لغة إلى أخرى، ويقول تشومسكي: «إن مهمة النحوى هي تحديد القواعد اللغوية وتنظيمها وتوضيح الشروط اللازمة لتطبيقها، بالإضافة إلى أن النظرية اللغوية تهتم بدمج النحو في نظم المعرفة المختلفة»[2].

كما يرى تشومسكى أن اللغة ليست مبنية على ترابطات تعلمناها سابقاً بين الكلمات، كما هو في نظريات التعلم، وإنما ما يتعلم بالفعل هو قواعد تحويلية تمكن المتحدث من توليد أنواع لا حصر لها من الجمل الجديدة ذات الطابع النحوي، ولكن بشرط وجود بعض المبادىء المتضمنة في الذات، وأن هذه المبادىء تقدم بناءات غير متغيرة توجد في الإدراك والتفكير والتعلم، وأن اللغة تشتمل على هذه العمليات الثلاث لأنها تهدف في النهاية إلى تحديد القواعد اللغوية وتنظيمها، وتوضيح الشروط اللازمة لتطبيقها. وهذا ما يسمى بعلم بناء الجملة Syntax (سينتاكس) أنموذج لغوي محدد قدمه تشومسكى في كتابه «البنيات التركيبية» Structural syntaxes ثم اضطر إلى تعديله كلما تقدم في البحث وتقدمت معه الدراسات اللغوية في العالم.

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٢) د. نوال محمد عطية «علم النفس اللغوي»: ص ص ٢٨ - ٢٩.

وهناك معايير مهمة يراها تشومسكي – ومن نحا نحوه – ضرورية لتقويم «النحو التحويلي» وهذه المعايير هي[1]:

١- **معيار الكفاية:** أن تكون سليمة وليس بها خلل.

٢- **معيار المنهجية:** تتبع نظرية لغوية ثابتة خالية من التناقض.

٣- **معيار الوضوح:** الوضوح من أهم صفات العلم، وقد جعله ديكارت من أهم صفات المنهج.

٤- **معيار العالمية:** يمكن تطبيقه في أي مكان، وأي زمان، وعلى أية لغة.

٥- **معيار عدد العناصر:** يفضل التقليل من عدد العناصر اللغوية مثل الفعل والفاعل.

٦- **معيار عدد القوانين:** يفضل أن تكون القوانين الأساسية والتحويلية والموزفيمية الصوتية محدودة العدد للمحافظة على تبسيط النحو.

٧- **معيار قوة القوانين:** أن تكون القوانين على أقصى درجة من الشمول، وذلك بربطها بالقوانين الأخرى، وادماجها مع غيرها كلما أمكن ذلك.

«ووفقاً للنظرية التحويلية، هناك أربعة مستويات للقوانين، المستوى الأول يتعلق بالتراكيب الأساسية للغة وهي التراكيب التي تقرر المعنى الأساسي للجمل، والقوانين التي تحدد التراكيب الأساسية في هذا المستوى تسمى (قوانين أساسية). والمستوى الثانى يتعلق بالمفردات اللغوية التي يمكنها أن تحل محل عناصر التركيب الأساسية، وفي هذا المستوى يتم تحليل المفردات ووصفها وإعطاؤها خصائصها المهمة كالتذكير والتأنيث وسواهما، والقوانين المستعملة في هذا المستوى تسمى (قوانين مفرداتية). والمستوى الثالث يتعلق بطرق تحويل التراكيب الأساسية أو الباطنية إلى تراكيب ظاهرية، والقوانين التي تنظم طرق التحويل تسمى (قوانين تحويلية). المستوى الرابع يتعلق بإعطاء التراكيب الظاهرية شكلها النهائي الصوتي أو الكتابي عن طريق قوانين تسمى (قوانين مورفيمية صوتية).

---

(١) د. محمد علي الخولي، دراسات لغوية، ص ص ٦٨ – ٦٩.

والنحو هو الذي يعطى الجملة - أيا كانت - صحتها اللغوية، والنحو هو التركيب الباطنى للجملة وهو الذي يقف وراء نظرية تشومسكي التحويلية. فكل جملة لها تركيب باطنى Deep structure ويقصد به ذلك التركيب الذي اشتقت منه الجملة أساساً. أما التركيب الظاهرى Surface structure فيقصد به ذلك التركيب الذي تبدو فيه الجملة بصورتها الحالية، والعلاقة بينهما هو ما يسميه تشومسكى التحويل Transformation لأنها تحول التركيب الباطنى بجملة ما إلى تركيب ظاهرى جديد. وينظم هذه العلاقة ما يعرف بقانون التحويل(١).

ويشبه التركيب الباطني في الجملة والتركيب الظاهري العلاقة بين مدخول التفاعل الكيماوي ومنتوجه، فالمدخول قد يكون أيدروجين وأكسجين بنسبة ٢:١ والمنتوج ماء.

وقد لاقت نظرية تشومسكى قبولاً لدى اللغويين على الرغم من النقد الذي وجه إليها وقد طبقها بعض منهم أمثال «إيمون باخ» Emmon Bach، وهـ. أ. جليسون H. A. Gleason، و ر. أ. جاكوب (يعقوب) R. A. Jacobs وغيرهم، وهم قد اتفقوا مع الأخذ بهذه النظرية، ولكنهم اختلفوا في كيفية تطبيقها، وفي اختلافهم رحمة.

ويضع تشومسكي قانون التحويل على النحو الآتى(٢):

١- **القوانين الأساسية Base rules**: وهي القوانين التجريدية ذات صبغة شمولية أو كلية.

٢- **القوانين المفرداتية Lexical Rules**، وهي القوانين التي تصف مفردات اللغة من حيث معناها وخصائصها النحوية التي تؤثر في تطبيق القوانين الأساسية وغيرها.

٣- **القوانين التحويلية Transformational Rules**، وهي القوانين التي يتم بها تحويل التراكيب الباطنية إلى تراكيب ظاهرية.

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ص ٥٣ - ٥٥.

٤- القوانين المورفيمية Morphophomemic rules: وهي القوانين التي تضع الكلمات الواردة في التراكيب الظاهرية في صيغتها النهائية صوتية كانت أو كتابية.

وتأتي القوانين السابقة متتابعة أي أن القانون الثاني يتبع الأول، والثالث يتبع الأول ثم الثاني، الرابع يتبع الأول ثم الثانى ثم الثالث. فالقانون الأساسي يختار جملة ما مكونة من فعل وفاعل وأداة مثل: قرأت+ إيمان + الدرس وبتطبيق القوانين السابقة نقول: إيمان + قرأت + الدرس، ثم يأتى دور القانون الرابع المورفيمى فيقسمها كما يقسم أو تقطع أبيات الشعر ساكن ٥ محرك، (ساكن لحرك ٥/) ومحرك ساكن /٥ بالكلام دون الإشارات السابقة، وقد برع تشارلز فيلمور Charles J. Fillmore أكثر من غيره في تطبيقها في مجال اللغة الإنجليزية(*).

وقد أخذ تشومسكى علمه في «اللغة» من أستاذه زليج سابيتاي هاريس Zellig Sabbetai Harris (١٩٠٩-١٩١٣) المولود في روسيا الحاصل على الجنسية الأمريكية عام ١٩٢١، نشر الكثير من الكتب والمقالات، ومن أشهر كتبه «مناهج في التراكيب اللغوية» Methods in structural linguistics شرح فيه نظريته عن «علم اللغة التوزيعي» ويقصد بالتوزيعية distributional «أن الجمل أو السياقات اللغوية يتواجد فيها أحد العناصر اللغوية، وتؤدي تلك الجمل أوالسياقات إلى التأثير فيه، ومن أمثلة ذلك العنصر up في الجمل الثلاث الآتية:

- John rang up his mother.
- John stoop up his date.
- John looked up her phone number.

(*) مثال توضيحي للقوانين المورفيمية الصوتية.
الْ التعريف + ق - ← الْ + ق - .
هنا تشير (ق -) إلى وجود كلمة تبدأ بحرف القاف مثل.
الـ + قمر ← ال + قمر. وهنا لم يحدث تغيير صوتي.

- John rang up his mother.

- John stoop up his date.

- John looked up her phone number.

إن العنصر up تكرر في الجمل الثلاث السابقة، وقد شكل مع الفعل الواقع بعده ثلاثة تراكيب فعلية[1].

كما تتصل النظرية التوزيعية بالحوار الذي يختصر فيه المتحدثون إجاباتهم، وعدم إعادة جزء من السؤال المطروح. وهذه النظرية تمتلىء بها كتب النحو العربية وعلى ضوئها تتحدد وظيفة كل كلمة.

كما نشر هاريس مقالة عام ١٩٥٤ بعنوان «النحو التوليدى أو التحويلى» Transformer Grammar، تقع في إحدى عشرة صفحة وحدد فيها المفاهيم والقواعد والإرشادات الضرورية لتحويل جمل لغة ما انطلاقاً من جمل لغة أخرى، كما حدد الفكرة المحورية لتحويل الجمل إلى رموز على شكل أصناف كلمات، وهو المقصود من التحويل، أي تحويل البنى اللغوية إلى رموز، ونشر في هذا المجال عدة مقالات أخرى منها على سبيل المثال لا الحصر[2]:

- الحدوث المتزامن والتحويل في التركيب اللغوى.

Co- occurence and transformation in linguistic structure.

- الأنموذج التحويلي للتركيب اللغوي.

The transformational model of the language structure.

وهو ما أثر في تلميذه تشومسكي (وهما يهوديان كبعضهما البعض) فكان أول كتب تشومسكي عام ١٩٥٧ هو «البناءات التركيبية» أو «البنيات التركيبية»

---

(١) د. محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص ١٣٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٣٩.

Syntatic structures الذي افتتح به عمله في مجال النحو التحويلى كما ذكرت في أول الفقرة.

كذلك تأثر تشومسكي بدى سوسور فأخذ عنه التفرقة بين «اللغة» و «الكلام» فقام بالتفرقة بين الكفاية (القدرة اللغوية) Competence، وبين الأداء (الإنجاز اللغوي) Performance، يشير المصطلح الأول إلى الوسائل المتوفرة من أجل أن نعبر الذات عن نفسها، بينما يشير المصطلح الثانى إلى المتحقق العيني المشخص لهذه المقدرة، وهذا يؤكد على ما في اللغة من سعة يمكنها أن تحقق بعدد متناه من الوسائل عدد لا متناه من الاستعمالات، كما يذكر همبولت. ومن هنا أيضاً جاء رفض تشومسكي للتصور التجريبي الذي يذهب إلى أن الطفل يتعلم لغته «الأم» عن طريق التمثيل، والتعميم من خلال تطبيق بعض المبادىء الاستقرائية، وبدلاً منها افترض تشومسكي وجود قدرات نظرية يمتلكها الطفل عند ولادته تمكنه من استيعاب اللغة ثم التحكم في قدر المعلومات التي تأتيه منها[1].

«وإذاً فإن المهمة التي يريد «النحو التوليدي» الاضطلاع بها، إنما هي إنشاء «أنموذج» للمقدر ة اللغوية، يكون بمثابة ضرب من «الآلية» (أو الميكانيزم)، ومن ثم وضع نظام (أو الجمل الممكنة في اللغة). ولابد لمثل هذا النظام - أو النسق» من أن يجيء مشتملاً على ثلاثة عناصر أو مقومات ألا وهى: العنصر «النظمي» - أو التركيبي - Syntax /sytaxique، وهو العنصر التوليدي الوحيد، نظراً لزنه يولد (أو يستحدث) البنيات المجردة التى تمثل الجمل النحوية لأية لغة، منظوراً إليها من وجهة نظر شكلية محضة، أعنى بمعزل عن كل من «الصوت» ، و «المعني»؛ ثم العنصر «الصوتي» - أو الفونيطيقي Phonetic/phonologique وهو العنصر النظمي - أو التركيبي - وبالتالي فإنه

(١) د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص ص ٦٦ - ٦٨.

العنصر الذي يسمح لنا بأن ننطق الجملة. وأخيراً العنصر «الدلالي» أو السيمانطيقي Semantic/sémantique ، وهو العنصر الذي يحدد (أو يعين) معنى الجملة وطريقة تفسيرها، نظراً لأنه هو الذي ينسب «المعاني» إلى تلك الموضوعات الشكلية التي ولّدها «العنصر النظمي».

وإذا نظرنا للنص السابق سنجد أن تشومسكي لم يأت بجديد ولكنه أعاد صياغة ما كان معروفاً ومعمولاً به، فضلاً عن أنه وفق بين الآراء المختلفة، والنظريات المتباينة، وأضاف إليها فكرة «الأنموذج» وهي فكرة علمية جاءت على لسان «توماس كون» في كتابه «بنية الثورات العلمية» وجعل فكرة «الأنموذج» هي التي يجب أن يدور من حولها نسق المعرفة العلمية. بينما كان هدف تشومسكي هو «الوصول إلى نحو كلي شامل يكون من شأنه الاضطلاع بدراسة الشروط الواجب توافرها في سائر اللغات الطبيعية[1].

سابعاً: اللغة والسيبرنطيقا

السيبرنطيقا أو السيبرنتيكا Cybernetics / Cybernétique من اللفظ اليوناني Kybêrnetike أو Xv bepnvrins التي كانت تعني رجل الدفة الذي يوجه السفينة بفضل تحكمه فيها، ثم أصبحت تعني علم التحكم الآلي، وأخيراً تعني فن التحكم وانتقال المعلومات، وهي تستخدم في العلوم الرياضية والطبيعية بالمعنى الأول (علم التحكم الآلى) وفي مجال العلوم الإنسانية اللغة والأدب والفلسفة وعلم النفس بفن إدارة وانتقال المعلومات حيث تستعين هذه العلوم الإنسانية بأدوات ما على نحو ما تفعل النزعة الوظيفية Functionalism سواء في العلوم الطبيعية أم الإنسانية على السواء.

ويقول نوربرت ڤينر: «لقد قررنا أن نسمى مجموع مجال نظرية التحكم والتوصيل سواء في الآلة أو الحيوان باسم سيبرنتيكا الذي نحتناه من الكلمة الإغريقية Xv bepnvrins والتي تعنى رجل الدفة ونحن نردد ونختار هذا الاسم نود أن نعترف بأن أول بحث ذي مغزى حول آليات الاجترار كان مقالة حول

(١) نفس المرجع السابق، ص ٦٧.

الضوابط نشره كلارك ماكسويل عام ١٨٦٨ وأن كلمة ضابط مشتقة من الترجمه اللاتينية المحرفة لكلمة «سيبرتوس»[١].

وقد ظهر المصطلح في صيف عام ١٩٤٧ على يد العالم الرياضى الأمريكى (الألمانى الأصل) نوربرت ڤينر Norbert Wiener عندما نشر كتابه «السيبرنطيقا أو وسائل الاتصال والتحكم عند الحيوان والآلة» وأصبحت نظرية المعلومات هي حجر الزاوية للسيبرنطيقا ذلك لأن السيبرنطيقا تعنى بدراسة كل أنواع النظم والأجهزة القادرة على استقبال المعلومات واختزانها والاستفادة منها في أغراض التحكم والتوجية[٢].

وكانت هناك مقدمات لهذا المصطلح بعد نشره في أبحاث علماء مثل بجلو وروز بلوث وڤينر عام ١٩٤٢ في نيويورك نظراً لما بين مثل هذه الدراسات ودراسة تنظيم لحاء المخ من علاقة وثيقة، كما أن هناك اتصال بيّن بين حجم المعلومات ومخ الإنسان الذي يستقبلها ويعالجها، فالحد الأقصى لقدرة مخ الإنسان على الإدراك يعادل خمسين وحدة في الثانية أو خمسين وحدة ثنائية من المعلومات[٣].

فضلاً عن وجود علاقة خاصة بين المنطق الرياضى وبين السيبرنتيكا، لذلك رأي ڤينر أن علم السيبرنتيكا يمتد ليصل إلى الفيلسوف الألمانى ليبنتز لأن «فلسفة ليبنتز تتمركز حول تصورين وثيقى الصلة، تصور الرمزية العامة وتصور حساب الاستدلال ومنها تنبع التسمية الرياضية والمنطق الرمزي ليومنا الراهن»[٤].

إذاً فهناك علاقة واضحة بين المنطق الرمزي والبرهان الرياضي وبين علم

---

(١) نوربرت ڤينر، السيبرنتيكا، ترجمة د. رمسيس شحاتة، ود. إسحق إبراهيم حنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٢.

(٢) كندراتوف، أ. ، الأصوات والإشارات، ترجمة د. شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٥٢. (A. Kondratov, Sounds and signs).

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٥٣.

(٤) نوربرت ڤينر، السيبرنتيكا، ص ٣٣.

التحكم في المعلومة (السيبرنتيكا) وبين مخ الإنسان حيث يرتبطون جميعاً بفكرة اللانهائية، وأن إقامة نظرية رياضية منطقية يخضع لنفس المبدأ التي تحدد إنجاز آلة حاسبة، ولذلك أشار ڤينر إلى تأثير برتراند رسل عليه بسبب العلاقة التي تربط بين مجالى المنطق الرياضي الذي ساهم فيه رسل وجورج بول وكانتور بغيرهم بنصيب وافر، وكذلك بعد نشر رسل وهوايتهد لكتابهما البرنكيبيا أو «مبادىء الرياضيات» بدءاً من عام ١٩١٠، وبين السيبرنتيكا.

أما الخلاف - إن كان هناك خلافاً - بين اللغة والشفرات الفنية Codes فهي أن الشفرة تحمل في نظرية المعلومات معنى أوسع تماماً مثل كلمة «اللغة» في علم السيميوطيقا، والشفرة هي وسيلة من وسائل تسجيل الاتصال المتبادل أو هي نسق رمزي يصطلح الراسل والمستقبل على استخدامه في نقل المعلومات المطلوبة، ولا نعتقد أن اللغة تختلف كثيراً عن هذا المعنى.

ذكرت أن مصطلح السيبرنطيقا(*) ظهر كمجال علم مستقل بفضل أعمال العالم الرياضي نوربرت ڤينر، ولولا أعمال الخوارزمي السابقة عليه ما استطاع أحد الوصول إلى هذا العلم ولا الوصول إلى اختراع الآلة الحاسبة، ولا اختراع أجهزة الحاسوب (الكومبيوتر) أو كان من الممكن الوصول إليها جميعاً إلا بعد عدة قرون من اكتشافها - إن أراد الله تعالى الظهور - وقد ذكرت أن السيبرنطيقا تهتم بوظائف الإدارة سواء في الآلة أو الجسم الحيّ - سواء إن كان يخص إنساناً أو حيواناً - وهو علم يقترب من علم الهندسة لاشتراكهما في خاصة التجريد، وتتصل السيبرنطيقا بانتقال المعلومات التي تستخدم بدورها قدراً من الرموز اللغوية سواء العادية أو الرمزية أو الحركية؛ لأن حركات الجسم هي نوع من اللغة المرموزة.

وربما ترجع أول حركات الجسم كـ «إشارة» إلى بدء الخليقة، أي منذ أن بدأ الإنسان يمارس حياته ووجوده ونشاطه على الأرض بعد هبوطه من جنة الخلد، ويمكنك مشاهدة حركات شخص يتحدث في التليفون، فكل حركة من يديه وقدميه وساقيه ووجهه هي لغة تعبر عن انفصال معين وموقف مختلف يتراوح بين الضحك والارتياح، وأحياناً بين البكاء والقلق، أو بين الدهشة والتسليم

(*) تكتب السيبرنطيقا أو السيبرنتيكا كلاهما معرب وليس مترجماً.

وغيرها، ويمكن تقسيم الإشارات أو الحركات الجسمية (علم الكينات أو علم لغة الجسم Kinesics) . إلى إشارات لها علاقة وثيقة بعلم الاتصالات Communica-tions وذات دلالات معينة إذا كان المتحدثين يواجه كل منهما الآخر. وقد تكون إشارات لا تدل إلا على متنفس للانفعالات التي تجيش بها نفس المتحدث. وأحياناً ما تكون هذه الحركات - كما يعزوها بعض العلماء في الدراسات اللغوية - إلى قلة الإلمام بالمفردات أو نضوب الثروة اللغوية، كما تختلف الحركات الجسمية لكل شعب، مثلما تختلف اللغات، بل وحتى لدى الطبقات الاجتماعية المختلفة وهكذا[1]:

ويذكر فرانسيس سي. هيز تعريفاً يجمع فيه خواص علم الحركات فيقول:

«إن الإشارة هي أية حركة جسمية، باستثناء الكلام، تحدث شعورياً أو لا شعورياً بغية الاتصال مع الذات أو الاتصال بالغير».

ثم أضاف إلى تعريفه الحدث السيمانطيقي (أي الحدث ذات الصلة بالمعنى) مثل إلقاء القفاز تعبيراً عن التحدى، أو «التلويح بالعلم في حماسة ووطنية، حيث لابد من اشتراك شيء خارج الجسم لكي يتم حدوث الحركة الجسمية، وتسمى الحركتان المتجانستان هنا «هوموكينات» ومن شروطها أن تحدث في نفس الوقت ويبدو هذا العلم في رسومات الكاريكاتور وحوار الصم والبكم[2]:

إن ما يشكل لب عمليات الإدارة Management هو عمليات نقل المعلومات Data، التي تكشف عن وحدة العالم المادية، كما تسهم بقدر وافر في مودلة Modelization وظائف الفكر أو وضع الفكر داخل نماذج لغوية صحيحة وفقاً لمعايير «النمذجة» أي وضع الفكر داخل إطارات نموذجية معدة وفقاً لعلم المودلة Typology، لذلك حرص صانعو الأجهزة السيبرنطيقية على قيامها بعدد من وظائف الفكر، من أجل إثبات صفة مهمة، هذه الصفة هي التفكير، فمن

---

(١) د. فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة، ص ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ص ١٧٠، ١٧٥.

عن: Hayes, Francis C., Gestures: A Working Bibliography, Southern Folklore Quarterly, xx1 (Dec. 1957, p. 220).

أغراضها أن تجعل التفكير صفة أو خاصة مهمة من خواص وصفات المادة إذا ما انتظمت هذه المادة وفق قواعد خاصة معينة[1].

إن هذا المسعى يدل دلالة واضحة على إنحراف تفكير العلماء في هذا الشأن فقد تعمدوا تجاهل حقائق لا سبيل إلى تجاهلها، وهي أن من أهم صفات الإنسان «الفكر» وهو وحده الذي اختصه الله تعالى بهذه الصفة لما لها من علاقات لا سبيل إلى إنكارها بالدين والإيمان بالله تعالى ذاته، فضلاً عن علاقتها الوثيقة بالعقل، وهذا الجهد الذي بذله ويبذله العلماء مجهود ضائع، فالآلة - إن كانت تفكره - فإنها تفكر بعقل الإنسان لا بذاتها مثل الإنسان، وياليت العلماء يوجهون مجهوداتهم لما ينفع الناس، وليس معنى هذا أن الآلات لاتساعد الإنسان في قضاء أعماله، من هذا المنطلق يجب أن يكون عمل العلماء مساعدة الإنسان في قضاء أعماله توفيراً لوقته وجهده كما حدث عند اختراع الآلات الرافعة، والعجلات وأجهزة التحكم المختلفة وأجهزة الحاسبات الآلية والكومبيوتر وغيرها، فلا بديل للإنسان على الأرض بكل ما فيه من حسنات وسيئات فهو وحده الذي جعله الله تعالى مستعمراً لها ليرى كيف يعمل الناس فيحاسبون بقدر أعمالهم وما اكتسبوه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إلا من رحم ربيّ.

لقد ظهرت وسائل الاتصال غير اللغوية قبل ظهور اللغة بوقت طويل، فاستطاع الناس أن يتفاهموا بالحركات الجسمية، ووسائل الاتصال الأخرى حتى استقرت اللغة.

ويذكر كندراتوف في كتابه «الأصوات والإشارات» ما يأتي:

«ليست اللغة مجرد نسق إشاري من نوع خاص، أو شفرة ندرسها على ضوء نظرية المعلومات والاحصاء الرياضي، وليست مجرد أداة استقصاء وانعكاس للعالم المحيط بنا، بل هي أيضاً ساعة نقيس بها معدل تغير الكلمات على مدى الزمان»[2].

---

(1) المعجم الفلسفي المختصر، مادة السيبرنطيقا، ص ص ٢٦٠ - ٢٦٣ (بتصرف كبير).

(2) كندراتوف، الأصوات والإشارات، ص ٩٩.

إن التغير في اللغة يحدث بمعدل بطيء للغاية، وقد اتخذ العلماء من تغير اللغة على مدى الزمان أساساً للقياس الزمني أي اتخذوا منها «ساعة لغوية» وتسمى هذه الطريقة باسم التأريخ عن طريق اللغة. وتختلف الساعة اللغوية كأداة قياس زمني عن الساعة المشعة Clock Radioactive من حيث الدقة والشمول؛ لأن اللغة نتاج مجتمع وليست نتاج الطبيعة، فضلاً عن تغيرها البطيء[1].

ثامناً: اللغة بين السيبرنطيقا والهرمونطيقا

رأينا في الفقرة السابقة جهود العلماء في مجال السيبرنطيقا ومحاولتهم المقابلة بين مخ الإنسان وقدرة الآلات على التفكير. وقد حاول أحد الفلاسفة وعلماء الاجتماع معاً يورجين هابرماس(*) Jürgen Habermas (١٩٢٩-) أن يساهم في مجال اللغة والتواصل ولكنه ابتعد عن الآلات وجعل التواصل الذي حاول أن يكون بين النظر والعمل، أو بين النظرية والتطبيق، أي بين اللغة كنظرية وبين الحياة الاجتماعية كتطبيق ويتم التواصل بينهما على أساس فكرة المصالح Interests. والاهتمام بهذا المجال يجعل هابرماس على علاقة وثيقة بالهرمونطيقا وفلسفة اللغة، فقد كان يعتقد بوجود عمليات اجتماعية غير لغوية في طبيعتها وتعتمد على عمليات اجتماعية تسعى نحو إعادة بناء الشروط العامة لفهم ممكن «إنه يهدف إلى تعيين وتحديد الفروض العامة للتواصل وبتعبير آخر إنه يهدف إلى البحث عن الفروض العامة لفعل تواصلي، ويرى أن هذا الهدف

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٠٣.

(*) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني ولد في دوسلدورف Dusseldorf يوم ١٨ يونيو ١٩٢٩، ويصنف بأنه منظر نقدي لما بعد الماركسية، له اهتمامات بالفلسفة الاجتماعية، والهرمونطيقا، والحداثة، والاتصالات (أفعال الكلام)، ونقد النظرية الاجتماعية السياسية Socio-political criticism، حصل على درجة الدكتوراه الأولى من جامعة بون عام ١٩٥٤، والثانية من جامعة مينز Mainzعام ١٩٦١، تأثر بفلسفات هيجل وكنط والماركسية وشيلنج وفيشته ودلتاي وڤيبر وأدورنو وهوركهايمر Horkheimer ولوكاس Lukacs وسيلر Sealer وعلم اللغة الأنجلو-أمريكي. ويعمل منذ عام ١٩٨٤ أستاذاً لتاريخ الفلسفة بجامعة فرانكفورت. وله عدة مؤلفات مهمة منها النظرية التحليلية للعلم والديالكتيك (١٩٧٧) و «نظرية الفعل الاتصالي وعقلنة العلوم» (١٩٨٤) فلسفة الخطاب الحداثي (١٩٨٧) وغيرها مما كتب باللغة الألمانية أو اللغة الإنجليزية.

يتحقق عن طريق بحث القدرات العامة المطلوبة لأداء ناجح لأفعال الكلام Speech acts[1].

وتختلف السيبرنطيقا عن الهرمونطيقا (من اللفظ اليوناني Hermênetikos واللفظ Hermeneutics / Hermeneia) وتعني المفسِّر أو المؤول، كما تعني أيضاً:

أ - جملة مبنية على قواعد تساعد على الفهم والتأويل، وترجمة تفسيرية لها مغزى ومضمون، وتركزت على أعمال الثقافة والفن (ولاسيما النصوص القديمة).

ب- اتجاه في الفلسفة الغربية المعاصرة، بدأ بمعالجة نصوص اللاهوت في أوروبا حيث كانت تعني مبحث التأويل والترجمة الصحيحين لنصوص التوراة والإنجيل(*)، وفي أوائل القرن التاسع عشر قام شليرماخير Schleier-macher (١٧٦٨-١٨٣٤) بمحاولة لوضع الهرمونطيقا كمنهج يعتمد عليه في تأويل الثقافة تأويلاً تاريخياً كفن ترجمة النصوص الفلسفية (خاصة

---

(١) د. محمود سيد أحمد، البرجماطيقا عند هابرماس، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، طنطا ٢٠٠٠، ص ص ٢٦ - ٢٧.

عن: د. عبد الغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثالثة عشر، ١٩٩٢، ص ٦٣.

أيضاً: Habermas, J., Knowledge and Human Interests, An English trans., by Jeremy, J. Shapiro, Beacon Press, Boston, 1971, pp. 281 - 282.

(*) إن الهرمونطيقا محاولة لتحليل لغة الخطاب الديني ظهر في مجال اللاهوت النصراني في أوروبا، وقد وظفت بعض أجهزة المخابرات الغربية التي تعمل ضد العرب والمسلمين بالذات بعض المفكرين وأساتذة الجامعات سواء في المغرب العربي أو في مصر أو في الشام والعراق لكي ينادوا بأهمية تحليل الخطاب «الديني»، وتحول تأويل مفهوم الخطاب أي خطاب في اللغة إلى نصوص الكتابات الإسلامية وخاصة «القرآن الكريم» من أجل العبث فيه وتأويله وفق أهواء أهل الغرب الحاقدين على الإسلام والمسلمين حتى يقتنع به أنصاف المتعلمين والمتعالمين من أهل الديار الإسلامية، فهؤلاء المحسوبون علينا يرون أن الخطاب الديني ويقصدون به القرآن الكريم هو الذي يتغير باستمرار، بينما كلام الفلاسفة أمثال سقراط وأفلاطون فلا يعتريه التأويل ولا التغيير، ألستم معي أن الإسلام منكوب من أهله قبل أن ينكب من أعدائه؟

كتابات أفلاطون لقربها من المفاهيم الدينية)(*) وكان شليرماخير يفرّق بين الهرمونطيقا سواء عن الديالكتيك الذي يكشف عن مضمون الأعمال أو عن علم النحو، الذي يعنى بتحليل لغتها، ليرى فيها فن استجلاء الأسلوب الشخصى لصاحب العمل المعنّى، وبالتالى فهم أو الكشف عن عالمه الروحى[1].

وقد فهم خطأ من قبل بعض الفلاسفة ومؤرخى الثقافة أن الهرمونطيقا منهج في تحليل المصادر التاريخية، يختلف عن منهج التحقق من صحتها التاريخية. ومن الذين اهتموا بها ديلتاى Wilhelm Dilthey (١٨٣٣-١٩١١) الذي اعتبرها منهجاً لعلوم الثقافة يعارض به كل من مناهج العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية على السواء، فاعتبرها منهجاً للوقوف به على أصالة وتكامل حياة الفنان أو الفيلسوف الإبداعية التي تنعكس في أعماله، وهي تختلف كذلك عن التفسير العلمي الطبيعي باعتبارها لا تتطلع إلى الشمولية واليقين؛ لأن نتائجها لا تخضع لمبدأ التحقيق Verification. فهي تقوم على حدس الباحث، مما جعل دلتاي يصبغها باللاعقلانية Irrational شأن الوجودية والفينومينولوجيا. وقد استخدمت كذلك على نطاق واسع في مجال التحليل النفسى Psychoanalysis حيث اعتبرها فرويد وأتباعه مجالاً خصباً لتأويل الشعور واللاشعور ونشر ما بريدان تحت مظلة العام ومن داخل محرابه المقدس[2]. فقد استخدمها سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦-١٩٣٩) على نطاق واسع خاصة عندما شرع في شرح المشاعر الجنسية خاصة ما عرف

(*) تقترب كتابات أفلاطون من المفاهيم الدينية المعروفة لأن أفلاطون نقل هذه الأفكار عن الشرق عندما قام بزيارته مراراً وتكراراً حيث كانت تأتيهم رسل الله تعالى برسالاته وبكلامه فأخذها أفلاطون وضمها لأعماله باعتبارها من بنات أفكاره، وما هي من بنات أفكاره، ومن هنا جاءت الدعاوى التي تصف أفلاطون بأفلاطون الإلهي، وأفلاطون صاحب المفاهيم الدينية، ويبدو أن داء السرقة يجري في دم أهل الغرب منذ أيام اليونان القديمة ومازال هذا الداء يستشرى في عروقهم فهم لا يكفون عن الافتراء علينا بغرض السرقة وإن اختلفت في محتواها.

(١) المعجم الفلسفي المختصر مادة هرمونطيقا، ص ٥١٩. (بتصرف).

(١) نفس المرجع السابق، ص ٥٢٠. (بتصرف كبير).

عنده بعقدة Oedipus complex، ولكن بعض الفلاسفة وقفوا موقفاً عدائياً من تحليلات فرويد، ومنهم الوضعيون المناطقة وعلى رأسهم كارل بوبر الذي اعتبر أن التحليل النفسي يدخل في نطاق العلم الزائف Psuede - Science، وكذلك جادامر Gadamer الذي قال إن فرويد تعلم الفلسفة لكي يذهب فيما وراء الموضوعية. أي موضوعية الفعل المعنّى. بينما اعتبر كل من هابرماس وري... أن فرويد يعتبر مفتاح التجديد في تطور الفلسفة خاصة في مجال الهرمونطيقا. بينما هاجمه ماركيوز Marcuse من منطلق موقفه الاشتراكي المعادي للرأسمالية، ومن هنا نجد أن الفلاسفة الغربيين أنفسهم قد اختلفوا حول التفسيرات التي جاء بها فرويد بين مؤيد ومعارض[1].

ثم قام كل من جادامر Hans-Georg Gadamer (١٩٠٠-) وبول ريكور Paul ricoeur (١٩١٣- ٢٠٠٥) بتطوير اتجاه الهرمونطيقا في إطار الاتجاه الفينومينولوجي Phenomenology حتى يغطي كل ما يعني الوجود الإنساني من قريب أو من بعيد[2].

تاسعاً: هيدجر و فلسفة اللغة

ولد مارتن هيدجر Martin Heidegger (١٨٨٩-١٩٧٦) في المانيا ويصنف باعتباره فيلسوفاً فينومينولوجياً (ظاهرياً) Plenomenologist وأونطولوجياً (وجودياً) Ontologist، درس اللاهوت والفلسفة في جامعة فرايبرج، وتأثر خلال دراسته وحياته بعدد كبير من الفلاسفة واللاهوتيين المختلفين في مشاربهم واتجاهاتهم الفلسفية والفكرية بصفة عامة، فقد تأثر هيدجر بكل من فلاسفة ما قبل سقراط The Pre-Socratics وأفلاطون وأرسطو، وبولس St. Paul (كما يُسمى) وأوغسطين، وتوما الأكويني، ودانس سكوتس أو جون سكوتس أريجينا Duns Scotus (حوالي ٨١٠- حوالي ٨٧٧)، ومايستر Meister ويوهان إيكهارت أو إيكارت (١٢٦٠-١٣٢٧ تقريباً)، وانجيلوس

(1) Rée, Jonathan, Psychoanalysis, in: The Concise Encyclopedia of Western philosophy and Philosophers, pp. 267-268.

(2) Rée, Jonathan, Hermeneutics, in: The Concise Encyclopedia of Western Philosophy and philosophers, p. 13 (بتصرف)

سيليسيوس Angelus silesius، ومارتن لوثر وليبنتز، وكنط وهيجل، وهلدرين Holderlin وشيلنج وكيركجارد ونيتشه، وبرنتانو وكارل بريج Carl Braig، ودلتاي وهوسرل وماكس شيلر. وعلى الرغم من تأثره بكل هؤلاء، ومنهم اللاهوتيون، وفلاسفة التاريخ، وفلاسفة مثاليين وفلاسفة واقعيين، إلا إنه يصنف أيضاً كأحد الفلاسفة الوجوديين أصحاب الاتجاه الملحد فيكون موقعه في نفس معسكر جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار ونيتشه.

عمل هيدجر مساعداً لهوسرل في جامعة فرايبورج من عام ١٩٢٣ وحتى عام ١٩٢٨، ثم أستاذاً بجامعة ماربورج Marbourg من عام ١٩٢٨ وحتى ١٩٥١، ثم منع من التدريس من عام ١٩٥٢ وحتى سنة وفاته عام ١٩٧٦ بسبب اتجاهاته الملحدة، وله حوالي سبعة عشرة عملاً من بينها «الوجود والزمان» (١٩٢٧) و «كنط وإشكالية الميتافيزيق (١٩٢٩) و «ما الميتافيزيقا؟» (١٩٢٩) و «ماهية العقول» (١٩٢٩) Essence of Reasons و «رسالة في النزعة الإنسانية» (١٩٤٠) و «مبدأ العقل» (١٩٥٧) و «في سبيل اللغة» (١٩٥٩) و «الإشكاليات الأساسية للفينومينولوجيا (١٩٧٥) كما نشرت له بعض الأعمال بعد وفاته[1].

لم يكن لدى هيدجر غير تساؤل واحد يتردد في عقله وفي كتاباته يدور حول إشكالية الوجود The question of Being (*)، فقد قرأ في صباه كتاب برنتانو «معنى الوجود» Manifold Meaning of Being وفقاً لآراء أرسطو. ثم قرأ في مجال اللاهوت كتاب كارل بريج في الوجود: مختصر مبحث الوجود» On Being: An Outline of Ontology. وقرأ هوسرل «مذهب الظواهر» Phenomenology، وهكذا شكلت هذه القراءات عقله وفكره واصطبغت بها كتاباته وما ورد بها من إشكاليات.

وقد اشترك هيدجر في الحزب النازي The Nazi Party في أبريل عام ١٩٣٣، ولكنه انسحب منه في فبراير عام ١٩٣٤ عندما أدرك عدم قدرته على

---

(1) Gorner, Paul, Heidegger, Martin, in: One Hundred Twentieth - Century Philosophers, pp. 83-87.

وأيضاً: للمؤلف، نقد المذاهب المعاصرة، الجزء الأول، الفصل السابع.

(*) die seins frage.

اتيانه بعض الأفعال المشينة في أيام التحاقه الأولى بالحزب، إلا إنه أصبح من أكبر ناقديه خاصة الفلسفة التي يقوم عليها الحزب والتي اعتمدت على تفوق النزعة العنصرية Racism الألمانية، وتفوق النزعة البيولوجية Biologism للجنس الآري كما ينادي أودولف هتلر ديكتاتور ألمانيا إبّان الحرب العالمية الأولى حتى أسقطته مشيئة الله تعالى إلى غير رجعة غير مؤسوف عليه، وهذا رأي الشعوب في كل ديكتاتور يحكمها.

واتهم هيدجر عام ١٩٤٢ بأنه معادٍ للحزب النازي بسبب اشتراكه في إصدار أعمال نيتشه بعد أن غضب الحزب على نيتشه، فكأن هيدجر يتحدى اتجاهات الحزب فاعتبر عدواً، وكان الحزب قد أصدر بياناً ضد نيتشه اتهموه فيه بأنه «معاد للسامية» Antisemitism، ودفع عدم طاعته لأوامر الحزب النازى بأن منع من التدريس، والذي كتب التقرير ضد هيدجر صديقه القديم كارل ياسبرز الذي كان متحمساً لكتابات هيدجر، إلا أن المصالح السياسية والوصولية جعلته ينجرف وراء رغبات المغرضين فيكتب ضد صديقه تقريراً يساعد على إدانته عملاً بشعار مكيافيللي «الغاية تبرر الوسيلة» والساسة والحرب لا يمانعان من ارتكاب أقذر الأعمال وصولاً للأهداف المرجوة.

ويعتبر كتاب «الوجود والزمان» Being and Time من أكبر مؤلفات هيدجر ضم أكثر أفكاره أهمية والذي يشبه كتاب «سارتر» «الوجود والعدم»، وأقام هيدجر فلسفته في هذا الكتاب على أساس نزعتيه الوجودية والفينومينولوجية[1].

ويلخص لنا الفيلسوف الراحل عبد الرحمن بدوي مفهوم اللغة كفلسفة لدى هيدجر من خلال عرض كتابه «الوجود والزمان» بقوله[2]:

فإذا ما تركنا النزعة البنياوية جانباً الآن، والتفتنا إلى الوجودية لوجدنا هيدجر يعنى باللغة وصلتها بفهم العالم عناية شديدة. ذلك أنه رأي في اللغة افصاحاً عن فهم العالم.

---

(1) Ibid.

(٢) د. عبد الرحمن بدوي، اللغة، ص ص ٢٦٠ - ٢٦٣.

إن الإنسان يسمع ويصغي ويسكت، وهذا يؤلف تركيباً أساسياً في وجوده. والإنسان لا يسمع لأن له أذنين، بل إن له أذنين لأنه من حيث وجوده هو يسمع. فهو سامع بوجوده. والسماع والاصغاء والسكوت كلها إمكانيات وجودية تنتسب إلى الإنسان بوصفه متكلماً ولو لم يكن متكلماً لما كان ساكتاً، فالحجر مثلاً لا يتكلم، ولهذا فهو لا يسكت، والإنسان بحكم وجوده، يفصح عن نفسه، وهذا الإفصاح عن النفس هو اللغة.

واللغة سبيل الاتصال بين الذوات الوجودية. والعلاقة بين المتحدثين هي علاقة انكشاف من الواحد للآخر، لكن هذا الانكشاف ما يلبث أن يتحول من كشف للأشياء إلى كشف للتعبير عن الأشياء، أي إلى كشف لغة الحديث. فالمتحدث والسامع كلاهما يركز اهتمامه على فهم اللغة أكثر من اهتمامه بالكشف عن الأشياء المعبر عنها باللغة. ومن هنا تنتهي اللغة إلى أن تكون هي موضوع اللغة بدلاً من أن تكون وسيلة للكشف عن الموجود. فتنشأ الظاهرة التي يسميها هيدجر باسم Gerede أي الثرثرة، والكلام الأجوف، والإشاعة، والكلام الضحل الذي لا ينفذ إلى حقائق الأشياء. فتستحيل اللغة حينئذ من وسيلة إلى غاية. ويناظر الثرثرة الكلامية الثرثرة الكتابية Geschriebe التي تحول الكتابة من رموز للإيضاح إلى لعب بالرموز نفسها.

وكلا النوعين من الثرثرة يؤدي إلى وهم إدراك كل شيء دون النفوذ إلى شيء. وهذا يقف عائقاً دون إدراك الأشياء نفسها. ومن هنا قال الشاعر العظيم هيلدرلن: «إن اللغة أخطر النعم».

والوحد منا ينشأ في بيئة عمادها الثرثرة، وينمو ويخضع على الثرثرة بنوعيها، وهذا من الأسباب الرئيسة في سقوط الوجود الإنساني Verfallen فمن منا لا يخضع لتأثير هذه الثرثرة؟ إنها هي رائدنا في تفكيرنا وأحكامنا.

إن الوجود – في – العالم بين الناس يحيل الانفتاح على العالم إلى انقطاع عن العلاقات الأولية مع الذات، ومع الموجودات، ومع العالم.

لقد قصد باللغة أو القول في البداية أن تكون أداة فهم، وإذا بها قد صارت أداة سوء فهم.

كان التبليغ في الأصل أساساً للفهم، وإذا به لا يكون ممكناً إلا مع وجود سوء فهم متأصل.

لقد كانت اللغة من فعل الإنسان، وبها يتميز من الحيوان. وإذا بها تحدث أثرها في الإنسان، بحيث صار الإنسان يوجد بقدر ما يتكلم. فثم ارتباط وثيق أذاً بين القول والوجود لدى الإنسان. وبين حدوث الوجود وبين اللغة ثم نوع من الدور. لقد صارت اللغة هي التي تعطي الوجود للأشياء. والإنسان لا يوجد – في – العالم إلا بقدر ما يملك لغة. الإنسان مشروع ذاته. ولكن هذا المشروع يخطط بالقدر الذي به اللغة ليست من خلق الإنسان الذي يتكلمها، بل هي أمر يتقبله. فاللغة تجعل الأشياء الغائبة حاضرة، وغير الموجودة موجودة، والبعيدة قريبة.

وفي الفصل ٣٤ من كتابه «الوجود والزمان» بعنوان: «الآنية والقول، اللغة» يبين هيدجر بعمق بالغ العلاقة بين الوجود وبين اللغة، على أساس أن وجود الآنية هو في المقام الأول فهم للموقف الذي يوجد منه الإنسان. وهذا الفهم قد اتخذ اللغة أداة له.

«فالقول هو الإفصاح عما هو ممكن الفهم. ولهذا فإنه يقوم في أساس الإيضاح والإفصاح. والمعنى هو ما يفصح عنه في الإيضاح، وهذا المعنى يفصح على نحو أكثر أصالة في القول. وما هو مركب بواسطة إفصاح القول، نحن نسميه مجموع المعنى، الذي يمكن أن يصاغ في كثرة من المعاني... والوجود – في – العالم، بوصفه مفهوماً على نحو الشعور بالموقف، يعبر عن نفسه بالقول. ومجموع المعاني لما هو مفهوم يفضي إلى القول. فالمعاني تتحول إلى كلمات[1].

وانفتاح الآنية (= الوجود الإنساني) Dasein يتم بصفته بالقول، ولهذا فإن القول من مقومات وجود الآنية. والسمع والسكوت هما من ممكنات القول. وهذه الظواهر تمكن وحدها من توفير إيضاح كامل للدور الوظيفي الذي يقوم به القول من أجل وجودية الوجود.

والقول ايضاح ذو معنى للتركيب القابل للفهم، الخاص بالوجود – في –

(١) هيدجر: «الوجود والزمان» الفصل ٣٤، ص ١٦١ Heideger. Sein und Zeit.

العالم، هذا الوجود - في - العالم الذي لا ينفصل عنه الوجود - مع - الغير، وهو يتحقق عينياً دائماً في الوجود - مع الاهتمام المشترك. وهذا الوجود - مع هو قول، من حيث أنه يوافق، أو يرفض، أو يدعو، أو ينبه، أو يناقش، أو يتدخل، ومن حيث أنه يشهد.

والتبليغ Communication يجب أن يفهم بمعنى واسع أونطولوجي، فالتبليغ الإداري مثلاً ما هو إلا حالة جزئية من التبليغ بالمعنى العام المستخدم في معناه الوجودي العام. وبهذا المعنى فإن التبليغ مهمته أن يؤلف الافصاح الخاص بالوجود - مع من حيث أنه فهم. وهو يتم المشاركة في الشعور المشترك بالموقف، والمشاركة في فهم الوجود - مع - الغير. «والتبليغ ليست مهمته أن ينقل انطباعات، أو آراء، أو أماني من باطن شخص إلى باطن شخص آخر. بل الوجود معاً هو في جوهره ومنذ البداية دائماً ظاهر ومتجل في الشعور المشترك للموقف وفي الفهم المشترك. والوجود - مع - الغير مشارك فيه - في القول - بصراحة، لكنه ثم، بينما هو لم يدرك، ولم يرفع إلى الاقتناء؛ لأنه لم يقدم بعد إلى المشاركة»[1].

إن الآنية تعبر عن نفسها بالقول، وما تعبر عنه هو وجودها خارج نفسها أو بالأحرى حالة عينية لشعورها بالموقف. «في: اللغة: الآنية والشعور بالموقف يفصحان عن ذاتهما بواسطة لهجة القول، وتنغيمه، ونظمه، وبواسطة طريقة الكلام. وتبليغ الإمكانيات الموجودية للشعور بالموقف، أعني انكشاف الوجود يمكن أن يكون الغاية الخاصة بالقول الشعري»[2].

واللحظات المؤلفة له هي: ما يتكلم عنه القول، والمقول من حيث هو مقول، والتبليغ والتجلي. وهذه اللحظات ليست مجرد خصائص يكشف عنها تجريبياً في اللغة، بل هي خصائص وجودية مغروسة في التركيب الأونطولوجي للآنية. وابتداءً منها وحدها تصبح اللغة ممكنة من حيث الأونطولوجيا.

---

(١) الكتاب نفسه، ص ١٦٢.

(٢) الموضع نفسه.

والمحاولات التي بذلت من أجل إدراك «حقيقية اللغة» اتجهت إلى هذه اللحظة أو تلك من هذه اللحظات. وهكذا فهمت اللغة على ضوء فكرة: «التعبير»، أو «الشكل الرمزي»، أو «التبليغ المفصح»، أو «تجلي الحياة التي عيشت»، أو «بنية الحياة».

ويتضح دور الكلام في الفهم الوجودي للعالم إذا ما حللنا ظاهرة: السمع، فليس من قبيل الصدفة أن نقول إننا «لم نفهم»، حينما «لم نسمع» جيداً. فالسمع جزء مقوم للكلام. وكما أن الانبعاث اللغوي للأصوات يتأسس في الكلام، كذلك الإدراك السمعي يتأسس في السمع. إن السمع هو الانفتاح الوجودي للآنية في مواجهة الغير، من حيث أن الآنية هي وجود - مع - الغير. بل إن السمع ليكوّن الانفتاح الأوليّ الصادق للآنية في مواجهة شعورها بالوجود المملوك لها: إن هذا هو سمع الصوت الحبيب الذي تحمله كل آنية في داخلها. إن الآنية تسمع لأنها تفهم. والآنية - بوصفها وجوداً - في - العالم - مع الغير - يفهم، هي تتنبه لكل ما بوجود معها ولنفسها. والذين يوجدون معاً هم خاضعون جميعاً لقانون هذا الانتباه. وهذا السمع الانتباهي المتبادل، الذي يؤسس الوجود - مع - الغير، يتبدى على وفق الأحوال الممكنة لطاعة «للسمع»، للموافقة، أو على وفق الأحوال المعدولة لرفض الاستماع، المعارضة، للتحدي، والنفور»[1].

ومن يفهم هو وحده الذي يستطيع أن يصغي. ومن يصمت يسهم في الفهم، فهو يسهم في مزيد من الفهم أكثر من ذلك الذي لا يعوزه الكلمات. وفيض الكلمات بمناسبة وغير مناسبة لا يضمن أبداً تقدم الفهم. بل على العكس الثرثرة المستمرة تستر ما يعتقد أنه فهم، وتفضي إلى وضوح خدّاع، أعني إلى إتفاه ما لم يفهم. «والسكوت لا يعني الخرس. بل بالعكس: فإن الأخرس يميل دائماً إلى أن يتكلم. وأن يكّون الإنسان أخرس لا يكفي لإثبات أنه يستطيع أن يسكت، بل بالعكس، الخرس يمنع من إثبات ذلك. أما الصموت بطبعه، فإنه لا يبين أنه يسكت أو يمكن أن يسكت؛ ومن لا يقول شيئاً أبداً ليس أيضاً قادراً على السكوت حين ينبغي السكوت. وإنما القول الحق هو الذي يمكّن من الصمت الحق.

(١) هيدجر: «الوجود والزمان»، ص ١٦٣.

والآنية، لكي تستطيع أن تصمت، لابد أن يكون لديها شيء لتقوله، وهذا يعني أنه يجد، عليها أن يكون تحت تصرفها كشف حق وممتد بذاته. وفي هذه اللحظة يأخذ الصمت معناه، ويحطم الثرثرة. فالصمت – بوصفه حال القول – يفصح عن الفهم للآنية بطريقة أصيلة بحيث يؤسس القدرة الحقة على السمع والوجود – مع الناصح»[1].

ولم يكن صدفة أن عرّف اليونانيون الإنسان بأنه (حيوان ذو نطق)، إذ لإنسان يتجلى بوصفه الموجود الذي يتكلم.

وعلم المعاني Semantique بوصفه نظرية في المعنى، يتأسس في أونطولوجيا الآنية.

ويتساءل هيدجر ما هي حال الوجود التي ينبغي نسبتها إلى اللغة: هل اللغة أداة ميسرة في داخل العالم، أو تشارك في حال وجود الآنية، أو ليست هذا ولا ذاك؟ وما هو المعنى اولأنطولوجي لنمو لغة ما وانحلالها؟ «إن علم اللسان -Lin guistique موجود، لكن وجود الموجود – الذي يتخذه علم اللسان موضوعاً له – يظل غامضاً، والأفق الذي فيه يمكن أن يوضع السؤال يظل متلفعاً بالضباب. وهل من قبيل الصدفة أن كل المعاني تنتسب غالباً إلى العالم ويفرضها قابلية العالم لإعطاء معنى، وذات تمكن؟ أو على العكس، نحن هنا بإزاء واقعة ضرورية من الناحية الوجودية والأونطولوجية ولماذا؟ إن التأمل الفلسفي ينبغي عليه أن يتخلى عن «فلسفة اللغة، ابتغاء أن يرجع إلى «الأشياء نفسها، ليسألها ويتهيأ له أن ينمي جملة مسائل وتصورات واضحة»[2].

ومن أبرز الملامح في كتابات هيدجر اهتمامه الهائل باشتقاق الكلمات، والتعمق المفرط في ذلك إلى حد قد يخيل إلى الإنسان معه أنه إنما يريد أن يستخلص الفكرة من الاشتقاق.

ذلك أن اللجوء إلى الاشتقاق يعني في العادة معرفة مختلف المعاني التي مرت بها الكلمة على توالي الأزمنة، وعلى تفاوت السياقات التي استعملت فيها.

---

(١) الكتاب نفسه، ص ١٦٥.

(٢) هيدجر: «الوجود والزمان»، ص ١٦٦.

لكن هيدجر لا يقصد أبداً إلى هذا، حين يحتفل للاشتقاق كل هذا الاحتفال. إنما هو يصدر في هذا عن حقيقة آمن بها، ألا وهي أن تاريخ معاني كلمة ما هو تاريخ الوجود. ذلك أن كل تحليل للاشتقاق يؤدي بنا إلى المثول في حضرة الموجود. إذ الكلمة تكشف -من خلال هذا التاريخ الاشتقاقي- عن سلسلة من التحولات، ليست بالضرورة إفقاراً لها: «إن في تاريخ كل كلمة يتكشف تاريخ الوجود، لأن تاريخ الكلمات هو نفسه تاريخ الوجود. ومن وجهة النظر هذه، فإن الاشتقاق هو الطريق الوحيد للأونطولوجيا بوصفها إعادة بناء لتاريخ الوجود. ومع ذلك فإن كل تفكير يسعى لشمول تاريخ الوجود لا يضم في النهاية غير تاريخ الموجود في كليته وشموله، أعني تاريخ انفتاحات الوجود وتاريخ الحقيقة»[1]. وتعدد المعاني وما بينها من روابط، في مجموع إشتقاقاتها، وسيلة للوصول إلى تاريخ الوجود.

إن الاشتقاق يعني الكلمة بمعانٍ عديدة ما كنا لنلتفت إليها لو أننا اقتصرنا على المعاني المحددة للكلمات. وثراؤها هذا نابع من كشفها للوجود وإيضاحها لمعانيه.

ويولي هيدجر الرابطة في القضية (وهي فعل الكينونة Sein, to be, être إلخ) عناية خاصة؛ لأن الرابطة ليست فقط تؤسس العلاقة بين الموضوع والمحمول، بل وأيضاً تصنع الرابطة بين تركيب القضية وتركيب الحقيقة الواقعية. وحتى في القضايا التي تبدو فيها الرابطة لا تؤدي وظيفة إثبات الوجود (مثل: العنقاء «يكون هو» طائر خالد) - فإنها تحيلنا إلى عالم يفترض فيه أن للموضوع موجوداً.

واللغة في أصلها ليست علامات، بل إشارات Zeigen أي أنها تشير، بأن تكشف عن شيء مستور. ولهذا فإن اللغة في أساسها شعر بالمعنى الاشتقاقي للمقابل اليوناني لكلمة شعر (= خلق، فعل، إنتاج). وماهية اللغة تقوم في الوحدة بين التفكير والشعر. و «فقط حيث توجد اللغة يوجد عالم»[2]. ولما كان التاريخ لا

---

(1) Gianni Vattimo: Essere, Storia e Linguaggio in Heidegger, Torino, 1963, p. 158 .

(2) Heidegger: Eriäuterungen zu Hölderlins diehtung, 2, Aufl., p. 35. frankfort-am-Rhein, 1951.

يصير ممكناً إلا في عالم فيه [illegible] توجد اللغة بوجه الذي [illegible] تحت التصرف، بل هي الحادث الذي يتصرف في الإمكان الأعلى لوجود الإنسان»[1].

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع «اللغة» فلسفة وعلماً، وبعد بيان تاريخها ومناهجها ونظرياتها وأهم الموضوعات التي دارت من حولها أبحاث الباحثين، وأفكار المفكرين. يطيب لي استعراض فلسفة اللغة عند اثنين من أكبر الباحثين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وهما إرنست كاسيرر، ورودولف كارناب وهما موضوعا الفصلين الرابع والخامس، وسوف أبدأ بكاسيرر باعتبار مولده، فقد كان أسبق من صاحبه بعدة سنوات. وسنرى كيف عالج كل منهما موضوع اللغة وفي أي إطار وضعها والمؤثرات التي تأثر بها، والتأثيرات التي تركها، ولذلك فقد يجد القارىء بعض التكرار اللازم لوضع الفيلسوف وأفكاره في إطارها الذي وضعها فيه هو، وذلك قبل أن نستكمل مسيرتنا سوياً نحو خواتيم الكتاب.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥.

الفصل الرابع

فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر



الفصل الرابع
فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر

مقدمة

ظهرت في ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر عدة اتجاهات فلسفية كان لها عظيم الأثر علي فكر وحياة ليس فقط المفكرين الألمان ولكنها ألقت بإشعاعاتها علي القارة الأوروبية، ومن ثم العالم بأسره خاصة العالم الجديد في القارة الأمريكية.

أولاً: كنط والكنطية الجديدة

١- فلسفة كنط

سميت فلسفة الفيلسوف الألماني إيمانويل كنط Immanuel Kant (١٧٢٤-١٨٠٤) بالفلسفة المتعالية Transcendental أو النقدية Criticism لأنها فلسفة مثالية نقدية ترى أن العالم الخارجي يتمثل في مجموعة من الظواهر التي تحدد بناءها قوانين عقلنا وهي الصور أو التصورات القبلية للإدراكات الحسية المتمثلة في صورتي المكان Space والزمان Time ومفاهيم العقل أو المقولات Categories (١).

وقد جعل كنط «النقد» سمة بارزة أو روح جلية لاختبار قيمة العقل ذاته، من حيث الاستعمال النظري الذي يتوخى الحقيقة غاية له، فضلاً عن نقد العقل العملي الذي هو اختبار لقيمة العقل من حيث أنه مدبر للعمل في مجالي الأخلاق والدين (٢). كما تتمثل روح الفلسفة الكنطية في التوفيق بين تيارين سادا القارة الأوروبية لعدة قرون هي التيار العقلي Rationalism ويمثله ديكارت وليبنتز وولف، وهو التيار الذي ذهب أنصاره إلى أن الحقائق الطبيعية والميتافيزيقية إنما تدرك بواسطة العقل وحده مستقلاً عن التجربة الحسية، والثاني التيار التجريبي Empiricism ويمثله جون لوك وديفيد هيوم ويرى روّاده

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق، تمهيد للفلسفة، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٩٤، ص ص ١٤٤-١٤٥.

(٢) د. عثمان أمين، روّاد المثالية في الفلسفة الغربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥، ص ٦٠.

أن التجربة الحسيّة هي ينبوع الحقائق والتصورات، وقد حاول كنط بيان قصور كل منهما؛ لأن التيار الأول تجاوز حدود العقل وطاقاته حين إدعى أنصاره إمكان الوصول إلى كيانات لا يمكن أن تكون موضوعات للإدراك الحسي مثل الله تعالى، والحرية الإنسانية، وخلود النفس، بينما قصر التيار الثاني إمكان المعرفة علي التجربة الحسيّة ولم يضع في اعتباره التصورات والمعاني العقلية التي هي إطارات فكرية لمعطيات الحس[1].

ويقول كنط فى افتتاحية «المدخل» إلي «نقد العقل الخالص»

«تبدأ كل معرفتنا بلا شك من الخبرة؛ لأنه كيف يجب أن تستيقظ ملكة معرفتنا وتؤدي عملها ما لم تؤثر الأشياء على حواسنا فتحدث فينا تماثلات أو تصورات representations ومن ثم تدفع عقلنا الفعّال understanding إلى المقارنة بين هذه التماثلات، ومن جمع هذه التماثلات بعضها إلى بعض أو فصل بعضها عن بعض يؤلف (العقل الفعّال) من المادة الخام لتلك الإنطباعات الحسيّة sensible impressions معرفة بالأشياء، ما نسميها خبرة؟ ليس لدينا إذاً معرفة سابقة سبقاً زمنياً على الخبرة، ومن الخبرة تبدأ كل معرفتنا»[2].

وحدد كنط للعقل النظري وظائف ثلاث: هي القدرة الحسيّة والتي بفضلها نستقبل انطباعاتنا الحسيّة ويسميها كنط بالحدوس الحسيّة. والفهم وهو ما تنشأ عنه أفكار قبلية غير تجريبية من تلقائية العقل وإبداعه وتسمى هذه الأفكار القبلية «مقولات عقلية» مثل الوحدة، والكثرة، والإثبات والنفي، والجوهر والعرض، والعلة والمعلول وغيرها، وهي أفكار مستقلة في مصدرها عن التجربة الحسيّة وإن كانت التجربة لا تنكرها. وأخيراً، الفكر الخالص Reason ووظيفته الفكر فيما وراء عالم الحس، وعن طريقه يمكن الوصول إلى المطلق.

وكان سؤال كنط الملّح هو كيف نفهم أحكام المعرفة اليقينية (العلم) بحيث يتوافر فيها التركيب من جهة مما يشهد به تقدم العلوم، ثم الكلية Universality

---

(١) د. علي عبد المعطي محمد، تيارات فلسفية حديثة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ٣٧٥.

(2) Kant, critique of pure reason, trans. by Norman kemp Smith, Macmillan Press Ltd, London, 1976, Introd., B. 1-2.

والضرورة Necessity من جهة أخرى اللتان تشهد بهما قوانين العلم الثابتة؟ وهل يمكن أن تأتلف ميزتا الحكمين السابقين معاً؟ المعرفة العلمية في حاجة إلى اجتماعهما في نوع ثالث، وحيث أن الكلية والضرورة ليستا من خصائص التجارب المحدودة وإنما من خصائص الفكر السابقة على التجربة فيمكن الاستعاضة عنهما بلفظ قبلي A Priori أي ما لا يتوقف على التجربة أو سابقاً عليها وليس بعدياً A Posteriori أو يأتي بعدها، فيكون النوع الثالث من الأحكام هو «الأحكام التركيبية القبلية» Synthetic a prior judgment[1].

ولقد حصر كنط بنافذ بصيرته إشكالية المعرفة برمتها في الأحكام التركيبية القبلية، بل وكل فلسفته النقدية في كتابه الضخم «نقد العقل الخالص» Critique of pure reason وإن كان بعض نقاد كنط يرون أنه أراد بهذا العمل الضخم أن يبرهن على عجز العقل أمام معرفة موضوعات الميتافيزيقا وكيفية قيامها كعلم[2].

ولقد أحدث كنط ثورة أشبه بالثورة التي أحدثها كوبرنيقوس في علم الفلك - من حيث القوة والآثار - بسبب النتائج التي توصل إليها وهي[3]:

أ - أن الاختلاف بين الإدراك الحسي والإدراك القبلي ليس - كما ظن ليبنتز - اختلافاً في درجة الوضوح وإنما الاختلاف في طبيعة كل منهما، يعتمد أحدهما على قدرتنا الحسية على استقبال الحدوس الحسية، ويعتمد الآخر على قدرتنا العقلية التلقائية على إصدار تصورات قبلية.

ب- لا يحتاج إدراكنا الحسي للأشياء فقط إلى حدوس وخيال - كما ظن ليبنتز - وإنما يحتاج أيضاً إلى التصورات القبلية.

جـ- إدراكنا الحسي للأشياء على هذا النحو إدراك واضح متميز.

---

(١) د. محمد ثابت الفندي، مع الفيلسوف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ١٦٩.

(٢) انظر: د. علي عبد المعطي محمد، تيارات فلسفية حديثة، ص ص ٤٠٥، ٤٠٦.
د. محمد ثابت الفندي، مع الفيلسوف، ص ص ١٧٠ - ١٧١.

(٣) د. محمود فهمي زيدان، كنط وفلسفته النظرية، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٨، ص ص ٥٩-٦٠.
وأيضاً: Ewing, A.C., A Short commentary on Kant's Critique of pure Reason, the university of Chicago Press, chicago, 1950.

د – ليس لدينا معرفة بالجانب المعقول من الأشياء بفضل التصورات القبلية وإنما نستطيع بفضلها معرفة الجانب المحسوس منها فقط. فالميتافيزيقا تهدف إلى كسب معرفة قبلية بالأشياء، وهذا حق. ولكن أخفقت المحاولات السابقة حين أدعت أننا قادرون بقدرتنا القبلية على معرفة موجودات أو معان مجردة كل أدعت أننا قادرون [illegible] القبلية على معرفة موجودات أو معان مجردة كل التجريد عن الحس أو عن الحدوس الحسيّة، ذلك لأن قدرتنا القبلية قادرة فقط على معرفة الأشياء إذا أضيفت إليها حدوس حسية. ومادامت قدرتنا القبلية محدودة فليس لنا أن نعرف كل شيء وإنما فقط ما يتفق ويتطابق مع تصوراتها.

إذاً، فنحن لدينا القدرة على معرفة ما يجري في عالم الظواهر . عالم الأشياء المادية الملموسة، ولكننا لا نعلم شيئاً عما يجري في عالم الأشياء بذاتها Things in themselves أو عالم النومينا Noumena وذلك بسبب عجز العقل عن تقديم معرفة مستقلة عن التجربة، وإن كان العقل بطبيعته ينزع تجاوز معطيات التجربة إلى الأشياء بالذات فيرتكب وهماً ترانسندنتالياً، ينشأ عنه أفكار زائفة – في نظر كنط – مثلاً فكرة الكائن الضروري وفكرة اللامتناهي الكامل وفكرة الروح، مما يدل على استحالة أن تكون الميتافيزيقا علماً، مما جعل كنط يلجأ إلى تقديم «نقد العقل العملي»[1] والدين في حدود العقل وحده»[2].

٢- الكنطية الجديدة

كان من الطبيعي أن يترك كنط تأثيراً واضحاً وخطيراً على الفكر الإنساني بعد رحيله نظراً لأهمية الأفكار التي قدمها.. عارضاً ومناقشاً وناقداً وموفقاً أو ملفقاً، ومن بينها تأثيره في مجال الرياضات والقضايا التحليلية والتركيبية

(١) انظر في ذلك: إيمانويل كنط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ترجمة د. عبد الغفار مكاوي.

* د. ذكريا إبراهيم، كنط والفلسفة النقدية.

* د. علي عبد المعطي محمد، تيارات فلسفية حديثة، ص ٤٠٧ وما بعدها.

(٢) انظر: د. حسن حنفي حسنين، الدين في حدود العقل وحده، في تراث الإنسانية، المجلد السابع، العدد ٣، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

ومقولتي الزمان والمكان فقد تبناها بعض المفكرين ومن بينهم هلبرت Hilbert والمدرسة التصورية من ناحية وبروور Brouwer والحدسيون Intuitionists من جانب آخر. أما في مجال العلم فقد ظلت أفكاره حيّة وقد تبناها أعداء المذهب الظاهري Antiphenomenalists ثم ألبرت أينشتين Einstein وامتد تأثير كنط إلى تشارلز ساندرس بيرس وبرجماتيين آخرين أمثال هانز فاينهجنر Hans Vai-hinger وكانت أفكاره هي المصدر الأساسي لنظرية هيجل عن الواقع Reality والتناقض الذاتي Self - Contradictory والتناقضات Contradictions(١).

كما ظهر عدد من المفكرين الذين تأثروا بكنط في ألمانيا ذاتها أطلق على حركتهم اسم الكنطية الجديدة Neo - Kantism أو المذهب النقدي الجديد Neo Criticism – وهو اتجاه في الفلسفة المثالية ظهر في ألمانيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الفترة من ١٨٧٠ حتى ١٩٢٠ تحت شعار العودة إلى كنط Back to Kant اتحد تحت لوائها فلاسفة وعلماء نفس وعلماء أجتماع واقتصاديون وعلماء طبيعة، كما جعل الكنطية الجديدة ينطوي تحت لوائها عدة تيارات متباينة ومدارس مختلفة(٢)، وصل عددها إلى سبع مدارس كبرى هي(٣):

* المدرسة الفيزيولوجية ويمثلها هرمان هلمهلتز وفردريك ألبرت لانجه فسرت الصور القبلية عند كنط باعتبارها اتجاهات فيزيولوجية.
* المدرسة الميتافيزيقية ويمثلها أوتوليبمان ويوهانز فولكلت قالت بإمكان قيام ميتافيزيقا نقدية.
* المدرسة الواقعية ويمثلها ألويس ريل وريتشارد هونجز فالد، قالت بوجود الموجود في ذاته.

---

(1) Korner, Stephen, Kant, in: The Concise Encyclopedia of Western philosophy and philosophers, ed., J.O. Urmson and Janathan rée, Routledge. London / New York. 1966, p. 163.

(٢) المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦، ص ٣٨٥.

(٣) إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوربا، ترجمة د. عزت قرني، عالم المعرفة العدد ١٦٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ربيع أول ١٤١٣هـ/ سبتمبر ١٩٩٢، ص ص ١٥٣ - ١٥٤.

* المدرسة النسبية ويمثلها جورج سيمل الذي قال بأن العنصر القبلي عند كنط ذو طبيعة نفسية وذاتي نسبي.
* المدرسة النفسية ويمثلها هانز كرنيليوس تقاربت بآرائها مع آراء المدرسة الوضعية.
* المدرسة المنطقية في ماربورج وسيأتي الحديث عنها تفصيلاً.

وقد رفع فلاسفة آخرون الشعار خارج ألمانيا أمثال شارل رينوفييه وهاملان في فرنسا وفيدنسكي وشلياتيف في روسيا.

وتعني العودة إلى كنط إعادة النظر في فلسفته من زاوية مثالية مما يعني معه استبعاد العناصر المادية فيها «الشيء في ذاته» وتعزيز نزعتها اللاأدرية وقد ألقى الكنطيون الجدد الضوء على تركيز كنط على التصورات أو المبادىء القبلية بمعنى السابق على التجربة ولا ترتبط بها في موضوع المعرفة[1].

كما أمدت هذه الاتجاهات الفكرية التي خرجت من عباءة فلسفة كنط بأنه يمكن للفلسفة أن تكتسب صفات العلم إن هي سايرت منهج كنط النقدي[2].

فقد نظروا إلى العلم بوصفه نسقاً من التصورات أو المفاهيم التي يضعها العقل وفقاً لقواعد عامة، لكي يستبدلوا العالم الواقعي بأنساق منطقية، ويذشروا قولهم بأن قوانين الطبيعة هي نتاج للفهم الإنساني وفي ذات الوقت يدحضوا الفهم المادي للتاريخ، مما جعل ريكرت وفندلباند يعارضان علوم الطبيعة بعلوم الحضارة، في محاولة منهم لإثبات تعذر الوقوف على قوانين التطور الاجتماعي. ففي الطبيعة ثمة تكرار للظواهر، وبالتالي يمكن رصد القوانين فيها، أما في المجتمع فليس لدينا، على حد قولهما، إلا الظواهر الفردية التي لا تتكرر، وليس فيه، إذاً، قوانين منظمة، مما يجعل مهمة المؤرخ تقتصر على جمع الوقائع والتنسيق بينها[3].

والآن فلننظر في أهم مدرستين من مدارس الكنطية الجديدة:

---

(١) المعجم الفلسفي المختصر، ص ٣٨٥.

(٢) د. عبد الوهاب جعفر، مقالات في الفكر الفلسفي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ٢٨٩.

(٣) المعجم الفلسفي المختصر، ص ٣٨٥.

أ - مدرسة ماربورج Marbourg

وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة ماربورج وأهم روّادها هرمان كوهين (١٨٤٢ - ١٩١٨) وبول ناتورب (١٨٥٤ - ١٩٢٤) وإرنست كاسيرر (١٨٧٤ - ١٩٤٥) وقد ولدت بعد مناظرة حامية الوطيس بين تريندلبنرج وكونوسان فيشر بخصوص موضوع «الزمان والمكان القبليين» كتب كوهين على إثرها كتاب «نظرية كنط في تكوين الخبرة» أكد فيه على الصلة الوثيقة بين العلوم والفلسفة الترنسندنتالية، كما أكد على ضرورة الاهتمام بمنهج العلم لا بمضمونها جرياً وراء كنط الذي قدم بحق نظرية متكاملة في المنهج»[1].

كما تصدى كوهين لمناقشة بعض الموضوعات المهمة في فلسفة كنط منها رد التصورات القبلية إلى مصادر سيكولوجية، ورد قول البعض الآخر بأن فلسفة كنط تنصب على «الذات» فقط. وأخذ أيضاً على سابقيه تفسيرهم نصوص كنط وأهملوا الانتقال من القبليّ الميتافيزيقي إلى القبلي الترنسندنتالي مما ترتب عليه اعتبار القبليّ الميتافيزيقي مجموع العناصر المكونة للوعي وكان كاسيرر من تلاميذ كوهين.

بينما اهتم بول ناتورب بأحدث ما ظهر من اكتشافات في العلوم وخاصة نظرية النسبية في كتابة «الأسس المنطقية للعلوم المضبوطة» وقد تعمق الكتاب في المسائل المنهجية بأكثر مما رأيناه عند كوهين واهتم ناتورب كذلك بملىء الفراغ بين العلم كواقعة معرفية قائمة وبين الوعي الفردي الذي كوّن هذه المعرفة مما جعله يقحم مناهج علم النفس في تفسيره لظهور هذه المعرفة[2].

أما الحديث عن المؤسس الثالث وهو كاسيرر فسوف أرجئ الحديث عنه للفقرة القادمة (ثانياً).

ب- مدرسة هايدلبرج أو بادن Baden

وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة وجامعة هايدليرج في جنوب غرب ألمانيا ومن أهم روّادها وليم أوفلهلم فندلباند، تحمس لفلسفة كنط وتملكته الرغبة

---

(١) د. عبد الوهاب جعفر، مقالات في الفكر الفلسفي المعاصر، ص ٣٠٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٣١١.

في إحداث تقدم في الفلسفة مماثل لتقدم العلوم، وهو صاحب التساؤل الشهير: كيف يتسنى لنا أن يكون فهمنا لكنط دقيقاً بحيث نجرؤ على تجاوزه؟

واهتم فندلباند بتحليل مفهوم «الحكم»: «كل معرفة تكتمل بصياغتها الأحكام، وكل حكم يتضمن نفياً أو إثباتاً وهذا يعني أن كل معرفة تشتمل على «فعل للصياغة» هو الذي يحدد الإثبات أو النفي غير أن الإثبات والنفي لا يفصحان عن مراقف معينة تجاه الواقع الموضوعي، بل هما يتضمنان فقط إشارة إلى «تقويم» هذا الواقع، والتقويم هو «التزام» من قبل الفكر أو العالم حيال العالم الموضوعي»(١).

وقد اكتشف فندلباند قانون أو معيار للمعرفة مؤداه: «الحكم يكون صادقاً لا بمضاهاته بشيء في ذاته، بل لأن هناك التزاماً تحدده التجربة العملية هو الذي يرجح تصديق الحكم على تكذيبه»(٢).

وذكر في مقال له بعنوان «التاريخ وعلوم الطبيعة» أن اهتمام العلوم التجريبية بالعلم الذي يظهر في صورة قانون طبيعي، فالصورة العامة للواقع تتصف بالثبات، كما تهتم بالمضمون، هذا المضمون يتحدد في وعي كل فرد من أفراد المجتمع.

ويعتبر هينريك أو هينريخ ريكرت (١٨٦٣ - ١٩٣٦) الرائد الثاني من روّاد مدرسة هايدلبرج وخليفة فندلباند الذي كتب مقالاً شهيراً بعنوان: «حدود التكوين الطبيعي العلمي للأفكار» حبذ فيه مشروعية استقلال علوم الروح التي ازدهرت في القرن التاسع عشر وقدّم أساساً لتصور فلسفة التاريخ، وفي نفس الوقت كشف عن المبدأ المكون لبنية المعرفة التاريخية وهو يفيد في التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم التاريخية مع بيان الأساس الذي يقوم عليه تصور فلسفة التاريخ. كما أشار أيضاً إلى معيار الحقيقة في العملية المعرفية». فضلاً عن اهتمامه بموضوعات الثقافة والأخلاق والفن(٣).

---

(١) نفس المرجع، ص ٣١٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٣١٩، عن:

Lewis, Beck, New Kantianism, p. 472.

(٣) نفس المرجع، ص ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

وبعد أن ازدهرت الكنطية الجديدة في ألمانيا - أولاً باعتبارها مهدها الخصب ووصلت إلى ذروتها حتى وقت الحرب العالمية الثانية، حيث اعتلى السلطة ديكتاتور النازية هتلر - بدأت تنحسر أمام المد الجديد لاتجاهات الفينومينولوجية والوجودية والميتافيزيقية والحدسية والبرجماتية وغيرها.

ثانياً: إرنست كاسيرر (الرجل وآثاره)

ولد الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر Ernst Cassirer في مدينة برسلاو في الثامن والعشرين من شهر يوليو عام ألف وثمانمائة وأربع وسبعين وهي من أعمال مدينة سيليسيا Silesia لأسرة يشتغل عائلها بالتجارة. درس بجامعة برلين وهو في الثامنة عشرة من عمره، إذ اختار في بادئ الأمر دراسة القانون إرضاء لرغبة أبيه التاجر، ولكن أبت نفسه إلا أن يدرس الفلسفة والأدب والفن، ولكن بمرور الوقت لم يجد في أساتذة برلين العمق الذي يبتغيه، فانتقل إلى جامعة ليبزج ومنها إلى هايدلبرج ثم إلى برلين مرة أخرى حتى سمع عبارة سقطت سهواً من شفتي المحاضر حيث قال: «إن أحسن المؤلفات عن فلسفة كنط هي بغير شك كتب هرمان كوهين (في جامعة ماربورج)، لكنني لابد أن أعترف بأنني لا أفهمها». فأسرع كاسيرر فاشترى كتب كوهين وسرعان ما غادر برلين إلى ماربورج ليحضر هذا المؤلف، وعندما برز كاسيرر بين زملائه قال عنه كوهين في مذكراته «إنني أحسست من فوري أنني بإزاء طالب أعلم من أن يتعلم عني شيئاً»[1].

اهتم كاسيرر كذلك بدراسة فقه القانون والفيلولوجيا الألمانية والرياضيات وحصل على شهادة الدكتوراه سنة ١٨٩٩ أمام كل من: هرمان كوهين وبول ناتورب برسالة حول «النقد الديكارتي للمواضعة في العلوم الرياضية والطبيعية»، مما أتاح له الفرصة لأن يكون أستاذاً في جامعة برلين ١٩٠٦ - ١٩١٩، ثم جامعة هامبورج ١٩١٩ - ١٩٣٣ حتى أعتلى هتلر السلطة فسافر إلى إنجلترا وحاضر في السويد ثم هاجر إلى الولايات المتحدة في مايو ١٩٤١ ليكون أستاذاً

---

(١) د. زكي نجيب محمود، نافذة على فلسفة العصر، كتاب العربي، الكتاب السابع والعشرون، الكويت، ١٥ إبريل ١٩٩٠، ص ص ١٠٦ - ١٠٧.

بجامعات كولومبيا Columbia وييل Yale[1] وكانت وفاته في الثالث عشر من إبريل عام ألف وتسعمائة وخمس وأربعين أثناء قيامه بالتدريس بنيويورك كأستاذ زائر.

ومن بين ما هتم به كاسيرر الفلسفة التقليدية، وفلسفة العلوم، وتاريخ الفلسفة، والمناهج العلمية والكيميائية في دراسة الأساطير، وأيضاً الشعر والفنون بصفة عامة ونظرية أينشتين «النسبية»، وقد نتج عن هذه الاهتمامات العديد من المؤلفات الكبرى وضعته في مصاف الفلاسفة الموسوعيين الكبار أمثال برجسون، وكروتشه، وديوي، وسنتيانا، وهوايتهد، وهيدجر، وغيرهم من أقطاب الفلسفة في القرن العشرين. ومن أهم هذه المؤلفات:

١- إشكالية المعرفة في الفلسفة وعلوم العصر الحديث

The Problem of Knowledge in the philosophy and science of Modern times.

صدر تباعاً في أربعة مجلدات ١٩٠٦ - ١٩٢٠ نشره أولاً بالألمانية ثم ترجم إلى الإنجليزية، تابع فيه مجهودات كنط بأن حاول تطبيق مبادئه على المعرفة العلمية.

٢- الجوهر والوظيفة Substance and Function

صدر عام ١٩١٠ بالألمانية ثم ترجم إلى الإنجليزية، وكان الكتاب بمثابة إرهاص بمذهب كاسيرر الفلسفي العام - فرّق فيه بين أنواع المدركات العقلية في شتى فروع العلم مما يغير البنية المنطقية في هذه المدركات من علم لآخر.

٣- فلسفة الأشكال الرمزية Philosophy of symbolic Forms

صدر الكتاب تباعاً في ثلاثة أجزاء ١٩٢٣ - ١٩٢٩، وقد ترجم إلى الإنجليزية في السنوات ١٩٥٣ - ١٩٥٥ - ١٩٥٧ علي التعاقب وهو الكتاب الذي سوف ألقى عليه الضوء بعد قليل.

---

(١) جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٦٧.

٤- الفرد والكون في فلسفة عصر النهضة

The Individual and the cosmos in Renaissance philosophy.

صدر الكتاب عام ١٩٢٧ بالألمانية .

٥- عصر النهضة الأفلاطوني في إنجلترا

The Platonic Renaissance in England

صدر الكتاب عام ١٩٣٢ بالألمانية.

٦- فلسفة عصر التنوير The Philosophy of the Enlightenment

صدر الكتاب أيضاً عام ١٩٣٢ بالألمانية.

٧- الحتمية واللاحتمية في علم الفيزياء الحديث

Determinism and Indeterminism in Modern Physics

الكتاب من ثمار محاضرات كاسيرر بالسويد، صدر عام ١٩٣٦ بالألمانية.

٨- مقال عن الإنسان An Essay on Man

صدر الكتاب في الولايات المتحدة بالإنجليزية.

٩- أسطورة الدولة The Myth of the state

صدر أيضاً في الولايات المتحدة بالإنجليزية[1].

ثالثاً: فلسفة الأشكال الرمزية

يقول كاسيرر في مقدمة كتابه «فلسفة الأشكال الرمزية» الذي يقع في ثلاثة أجزاء «لقد عرضت مشروع هذا العمل الذي أقدم هنا الجزء الأول منه في نفس الوقت الذي كّونت ولخصت موضوعه في كتابي «الجوهر والوظيفة» Substanz-begriff und funktionsbegriff (برلين - ١٩١٠) فقد تناولت في هذه الأبحاث

---

(1) Reese, William L., Dictionary of philosophy and Religion Eastern and Western thought, New Jersey, Humanities Press, Sussex, Harvester Press, 1980.

وانظر أيضاً : د. زكريا إبراهيم، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٣٣.

بصفة أساسية البناء الرياضي والعلمي للفكر وذلك عندما حاولت أن أطبق النتائج التي توصلت إليها على مشكلات العلوم الثقافية عندئذ اتضحت - أكثر - بالتدريج أن نظرية المعرفة التقليدية بصيغها وحدودها التقليدية لم تعد تمدنا بالأساس المنهجي للعلوم الثقافية»[1].

ويتضح لنا من هذه العبارة الافتتاحية أن كاسيرر يرفض نظريات المعرفة السائدة في عصره بما فيها نظرية المعرفة لدى كنط - وإن لم يعلن عن ذلك - وأنه أراد أن يقدم نظرية معرفية أكثر شمولية وأكثر اتساعاً تضم بين جنباتها العلوم الثقافية والتصورات الإنسانية.

إذاً، تقوم فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر على أساس أن الفلسفة النقدية الكنطية قامت بصفة أساسية على مبدأ أسبقية الصورة على الشيء المادي باعتبار أن الصور تمارس وظيفتها على أنها صوراً مركبة لكل تجاربنا عن العالم، والتجربة لدى كنط هي أول نتاج لكي نفهم وندرك عالم الظواهر، وطالما أن هذا المبدأ أساس الفلسفة الكنطية فلماذا لا يكون هو أيضاً أساس فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر بل فلنقل أساس فلسفة حضارية تحتوي في ذاتها على الحضارة الإنسانية ككل وتحتضنها باعتبار أنها نتاج العقل الإنساني وتاريخه الحضاري الطويل؟ وهذا ما دعى كاسيرر إلى القول:

«إن المبدأ الرئيس للفكر النقدى - مبدأ أسبقية الوظيفة Function على الشيء - إنما يفترض في كل مجال صورة جديدة ويتطلب شرحاً وتفسيراً جديداً ومستقلاً. إذ أنه بالإضافة إلى الوظيفة الخالصة للمعرفة العلمية فإنه ينبغي لنا أن نبحث عن فهم وظيفة التفكير اللغوي ووظيفة الفكر الأسطوري والديني ووظيفة الإدراك الفني»[2].

ولقد استخدم كاسيرر مصطلح الشكل الرمزي بمعان ثلاثة على الأقل غير أنها مترابطة فيما بينها:

---

(1) Cassirer, Ernst, The philosophy of symbolic Forms, vol. I, language, trans. by Ralph Manheim, New Haven, Yale university Press, 1961, p. 69.

(2) Ibid., p. 79.

١- الشكل الرمزي من حيث هو الرمز، أي العلاقة الرمزية والوظيفة الرمزية.

٢- يشير الشكل الرمزي إلى تنوع الأشكال الحضارية كاللغة (في الجزء الأول) والأسطورة (الجزء الثاني) والعلم (الجزء الثالث) فضلاً عن الفن والدين، وهي تمثل مجالات تطبيق مفهوم الرمز.

٣- طبّق كاسيرر الشكل الرمزي على المكان والزمان والعدد والعلة وغيرها من العلاقات الرمزية وهي تعد أكثر العلاقات شمولاً ونفاذاً في بنية المعرفة والحضارة من المقولات الكنطية.

واستطاع كاسيرر أن يقدم تعريفاً للشكل الرمزي من حيث هو مفهوم الرمز «والرمز علامة يتفق عليها للدلالة على شيء أو فكرة ما، ومنه الرموز العددية والرموز الجبرية ويقابل الحقيقة الواقعية.. أو هو نسق يدل على معانٍ خاصة أو التعبير عن حقائق ومعتقدات»[1].

واستطاع بهذا التعريف أن يشتمل على «جملة كل الظاهرات التي تكشف عن معنى في المحسوس ويكون الشيء المحسوس تجسيداً جزئياً لمعنى» مما يترتب معه وجود ثلاثة أشكال متمايزة للمعنى غير المحسوس هي:

١- إذا كان المحسوس يشير إلى النسق العاطفي فإنه يجسد معنى تعبيرياً.

٢- إذا كان المحسوس يشير إلى النسق الإرادي فإنه يجسد معنى إدراكياً مشتركاً.

٣- إذا كان المحسوس يشير إلى النسق الرمزي فإنه يجسد معنى تصورياً وعلمياً.

ومن ثم يعد التعبير والحدس والفهم وجهات العلاقة الرمزية ومستويات النشاط الرمزي للشعور يقابل كل واحدة منها وسائط رمزية متنوعة: فنجد وجهة التعبير في مجالات الأسطورة والفن واللغة والدين والتاريخ وغيرها، وتوجد وجهة الحدس التجريبي في النظرة الطبيعية إلى العالم، وتتحقق الجهة التصورية عن طريق اتساق الترتيب كالتي نجدها في مجال العلم.

إذاً، فلكل صورة أو شكل حضاري مثل أشكال اللغة والفن والأسطورة والعلم دور مهم في فهم وتفسير التجربة الإنسانية المعاشة وتقديم صورة جديدة من

---

(١) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، البندان ٤٩٧ - ٤٩٨.

صور المعرفة البشرية التي تسعى إليها، حتى أصبحت اللغة – على سبيل المثال – في فكر كاسيرر ليست مجرد محاكاة لمضامين الواقع والعلاقات التي تكشف عنها الانطباعات الحسية الواردة إليها عن طريق حدوسها الحدسية ولكن تصبح بمثابة اتجاه أساسي ومحدد لفاعلية العقل البشري وآلياته ومجموعة من العمليات العقلية والفزيولوجية التي يتكشف لنا على ضوئها شكل جديد للواقع كما يرى كاسيرر[1].

وتمتد صور وأشكال المعرفة الإنسانية إلى المعرفة التاريخية، فقد كان للخطورة المهمة التي اتخذها كاسيرر في الانتقال من نقد العقل الخالص إلى نقد الحضارة الفضل في الاهتمام بالمعرفة التاريخية عند فندلباند وريكارت وهما اللذان جعلا من المعرفة التاريخية مجرد علم بالفردي فأصبحت لدى كاسيرر العلم الكلي أو العلم بالكلي، ثم تفرعت عن نقد الحضارة المعرفة التاريخية والأسطورية واللغوية والجمالية والدينية، فقد تحول كاسيرر من نقد العقل في أي صورة من صوره إلى نقد الحضارة التي اهتم في ضوئها بالأشكال الرمزية المذكورة كما قلت من تاريخية ولغوية وأسطورية وغيرها.

ولقد رفض كاسيرر أن يكون التاريخ مجرد سرد خارجي لحشد من الأحداث المتجزئة تترى في الزمان والمكان ويتغير عليها الرجال، بل كان أكثر عمقاً عندما رأي في دراسته وسيلة إلى استشفاف روحه واستنباط قوانينه فهذه النظرة وحدها تكفي لاكتشاف الروح الكامنة وراء ستائر تلك الأحداث لذلك قام كاسيرر باستعراض المعرفة التاريخية – كما عودنا – بالنظر إلى القضايا الرومانتيكية عند هردر وكيف أنها كانت بداية لظهور علم نقدي للتاريخ فضلاً عن النزعة الوضعية والنظرية السياسية والدستورية باعتبارها الأساس المتين للكتابة التاريخية وبيان التأثير المتبادل بين تاريخ الدين والمعرفة التاريخية[2].

---

(1) Cassirer, Ernst, The logic of the humanities, trans. by Howe, C.S., New Haven, Yale University, 1961, p. 59.

(٢) إرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، مراجعة علي أدهم، الألف كتاب الثاني ٢٦٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص٦٤.

وانتقل كاسيرر من هردر باعتباره بداية بزوغ النزعة والمعرفة التاريخية، لكي يعرج إلى عرض نظرية الأفكار التاريخية عند نيبور ورانكه وهمبولت، وعرض للنزعة الوضعية عند هيبوليت تين وصلتها بالمعرفة التاريخية، وخصص فصلاً في كتابه «في المعرفة التاريخية» لعرض النظرية السياسية والدستورية كأساس للكتابة التاريخية متخذاً تيودور مومسن مثالاً لعرضه هذا، وقد استطاع مومسن أن يهذب العاطفة السياسية ولا ينميها[١].

كما عرض كاسيرر التاريخ السياسي وتاريخ الحضارة في فكر ياكوب أو يعقوب بوركار الذي أبدى تشاؤماً من نجاح توافق ما هو عقلي مع ما هو واقعي في كتابه «تأملات في تاريخ العالم»[٢] ولم ينس أيضاً الإشارة إلى النماذج السيكولوجية في التاريخ خاصة عند لامبرخت وكتابيه «المعرفة التاريخية الحديثة» و «الحياة الاقتصادية في ألمانيا في العصرين القديم والأوسط». وامتد تأثير المعرفة التاريخية إلى تاريخ الدين عند شتراوس ورينان وفستل دي كولانج.

وقد تبدو عملية الاستنباط التي يقوم بها المؤرخ في بعض الأحيان متناقضة، ولكي يدلل كاسيرر على رأيه هذا ساق إلينا عدداً من الأمثلة لعل أبرزها شخصية سقراط التي قدمها المؤرخون في صور كثيرة متناقضة فقد أعطانا اكسانوفان Xenophone صورة دونية لسقراط وسخر منه خاصة في مسرحية السحب The Clouds، بينما ذكر أخرون أن أفلاطون سما به ورفعه مكاناً علياً تاريخياً وفكرياً وخلقياً، فقد رأه أفلاطون ديالكتيكياً عظيماً ومعلماً أخلاقياً من الطراز الأول، بينما قال عنه الفيلسوف الفرنسي مونتاني أنه كان فيلسوفاً متسامحاً اعترف بأن كل ما يعرفه أنه لا يعرف شيئاً فهو ليس أكثر من جاهل متواضع ومتسامح، ثم اتخذ أفلاطون نفسه صوراً متعددة فكان متصوفاً لدى الأفلاطونية المحدثة، وكان نصرانياً في تصور القديس أوغسطين ومارسيلي فيتشينو Marsile Ficino، وكان كنطياً، فأعطى كل من نفسه وذاته صوراً لهذا وذاك من عندياته[٣].

---

(١) نفس المصدر، ص ٤٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٦٢.

(3) Cassirer, Ernst, An Essay On Man, A Bantam Book, New York, 20th Printing, 1970, p. 199.

ويقال إن كاسيرر قد إستوحى فكرة كتابه «فلسفة الأشكال الرمزية» من الفن والعلم معاً بسبب ما وجد فيها من أفكار جوهرية تكشفت لكل من قرأه في واحدة من محاولاته الأكثر أصالة من أجل أن يفسر لنا كيف أن الشكل الرمزي يتأسس على نحو مباشر من عمل الشعور ذاته وما ينطوي عليه من حمل رمزي هو مصدر الإبداع عند الإنسان في كل زمان ومكان.

وبذلك تتضح أصالة فلسفة الأشكال الرمزية في كونها فلسفة إبداع؛ لأن الشكل الرمزي نفسه يمثل علة الإبداع ذاتها، بل إنه يمثل اتحاد عناصر غير قابلة للانفصال، فليس الشكل عند كاسيرر شيئاً ثابتاً مثل مقولات كنط الثابتة الاستاتيكية، ولكنه مبدأ أو شكل أو مقولة متحركة ديناميكية تختلف باختلاف جملة الصفات التي تحوّل الانطباعات الحسية إلى تعبيرات روحية وذهنية وتتكشف كذلك أصالة فلسفة الشكل الرمزي عند كاسيرر عندما نرى أن المفاهيم والمسائل أو الموضوعات الرمزية في المثالية الفلسفية قد اتخذت شكلاً جديداً مختلفاً فلا يمكن لنا أن نعرف الموضوعية والحقيقة داخل مجالات اللغة والأسطورة والعلم والتاريخ والفن والدين بنفس المعنى الذي يكون لها إذا تناولنا الواقع كموضوع ميتافيزيقي فنحن في فلسفة الأشكال الرمزية في أمان؛ لأنها تهتم بعالم الحضارة، ذلك العالم المشترك الذي يضم بين جنبيه الفكر والعاطفة ويسعى إلى الحرية واستقلال العقل مؤكداً على البعد الأخلاقي في المجتمع الإنساني الموسوم بالحضاري ومن هنا جاء تبرير كاسيرر للدلالة الشاملة للشكل الرمزي والاستعمال الكلي له في مجالات النشاط الحضاري ليس فقط عن طريق تحليل الاستخدام الفعلي له في كافة الأنظمة الحضارية المتنوعة بل عن طريق تحليل البنية الحقيقية لتلك الأنظمة. من هنا تتضح أصالة فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر بما هي فلسفة إبداع وحرية إلى أبعد الحدود.

ولا غرو إذاً من أن يكون كتاب «فلسفة الأشكال الرمزية» من بين الأسباب المهمة والجوهرية التي دعت جامعة ييل إلى دعوة إرنست كاسيرر – مؤلفه – أستاذاً زائراً بها خاصة وأن البروفسور ويلبور أوربان Wilbur M. Urban كان على وشك التقاعد وهو أستاذ في مجال فلسفة اللغة ونظرية القيمة يبحث فيهما ويدرسهما لطلابه، فأرادت جامعة ييل تعويض خسارتها فيه فدعت كاسيرر

صاحب هذا المؤلف المهم. وعند وصوله إلى ييل قام بعقد ثلاث ندوات شاركه فيها أساتذة آخرون دارت جميعاً حول فلسفة التاريخ وفلسفة العلم ونظرية المعرفة[1].

رابعاً: فلسفة الأشكال الرمزية (اللغة)

بدأ التصور الفلسفي من تصور الوجود، ويبدو هذا التصور عندما يستيقظ وعي الإنسان بوجود الوحدة في مقابل الكثرة والتنوع البادي في وجود الأشياء عندئذ فقط يعلن للعالم عن مولد نظرية فلسفية جديدة وعلى الرغم من ذلك فقد ظل فكر الإنسان سجيناً لوقت طويل في إطار وجود الأشياء الخارجية في الواقع الخارجي وهي الأشياء التى تتعرض للفناء والطمس، وهي التي سّماها البعض بالجوهر المادي أو المادة الأولى Prima materia وعندما فسرت بطريقة مثالية أو من وجهة نظر مثالية حل «المبدأ» Principle العقلي الخالص محل الجوهر المادي، وأصبح هذا المبدأ يتأرجح بين ما هو مادي Physical وبين ما هو عقلي أو روحي Spiritual، وكانت تمثله فكرة العدد عن الفيثاغوريين Pythagoreans، والذرة عند ديموقريطس Democritus والجوهر الأساس عند الأيونيين Ioniáns والمثل أو الفكرة عند أفلاطون[2].

من هنا ظهرت أهمية وجود منهج علمي محدد يعمل على ترسيخ المبادىء سواء في مجال العلوم الطبيعية أو مجال العلوم الإنسانية، وإن كانت نظرية العلامات The Theory of signs التي شرحها هرتز Hertz في كتابه «مبادىء الميكانيكا» Die Prinzipien der Mechanik والتي قام هلمهولتز Helmholtz بتطويرها بعد ذلك وصياغتها فاللغة Iauguage هي صورة من صور نظريات المعرفة وقد عنيت صورة هنا أن هناك تغيراً طرأ في داخل النظرية، وهذا ما حل محل السعي الغامض والمطالبة بأن يكون هناك تشابهاً في المحتوى بين الشيء وصورته، ولكننا الآن وبعد أن حققت العقول الإنسانية تقدماً ملحوظاً نجد أنها عملية معقدة بسبب ما بها من علامات منطقية غاية في التعقيد[3].

---

(1) Hendel, Charles W., Preface of the philosophy of symbolic forms, p.xiii.

(2) Cassirer, the philosophy of symbolic forms, p. 73.

(3) Ibid., p. 75.

وبهذا ظهرت هناك عدة تصورات على ساحة الفكر الفلسفي حاولت تفسير نظرية المعرفة منها ما يدور في إطار العلوم الموضوعية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، وهي التي حاولت أن تتخذ نقطة بداية واضحة متمثلة في المنهج العلمي لتفسير الظواهر في مجالها، ومنها ما يحلق في عالم المثل ويختلف في مسعاه المنهجي «فكل معرفة -- مهما كانت - تختلف في منهجها وتوجهها وأهدافها فيما تتناوله من موضوعات تتمثل في كم هائل من الظواهر ولكنها تهدف إلى تحقيق الوحدة.. وحدة القضية الأساسية» A fundamental proposition[1]، مما يجعلنا ندرك أهمية الثورة التي أحدثها كنط في مجال المنهج The revolution in Method والتي كان يهدف منها إلى تحقيق الحكم اليقيني[2]، وهذا ما استطاع العلم تحقيقه في ضوء مبدأ أو منهج أو قانون أو فكرة يمكن أن نطلق عليها اسم اللوجوسLogos.

وهكذا ظهرت أهمية وظائف اللغة والأسطورة والدين والفن وغيرها «وأصبح نقد اللغة ونقد شكل التفكير اللغوي جزءاً لا يتجزأ بل ومكمل للفكر العلمي المتقدم والفكر الفلسفي»[3].

وقد اعوز بدايات الفلسفة الحديثة هذا النسق فحاول ديكارت في «مقال عن المنهج» Discours de la Méthode و «قواعد لهداية العقل» Regúlae ad directionem ingenii أن يرفض المحاولات الميتافيزيقية السابقة، وأن يركز في ذات الوقت على كشف أسرار الطبيعة وفك رموزها، وأن يتعامل مع الكون والنفس الإنسانية بطريقة تتناسب والمناهج الجديدة[4].

أما مشكلة الرمز Symbol فتعود - كما يرى كاسيرر - إلى هنريش هرتز Heinrich Hertz الذي ذكر في مؤلفاته أن الرمز يعود إلى الطبيعيين الأوائل الذي بحثوا في العلم الطبيعي Natural Science مستخدمين تصورات أو رموز بذاتها مثل المكان والزمان والكتلة والقوة والطاقة المادية للذرة والأثير فكانت -

---

(1) Ibid., p. 77.
(2) Ibid., p. 78.
(3) Ibid., p. 82.
(4) Ibid., p. 83.

كما يقول كاسيرر – خيالات طليقة Free Fiction أو كما نقول نحن في لغتنا الجميلة أطلقوا العنان لخيالاتهم من أجل التوصل إلى معرفة عالم الخبرة الحسي والسيطرة عليه.

وقد عبّر كل تصور عن خيال محدد وعلامة محددة ذات معنى محدد وطبقاً لقواعد محددة ووجدنا ذلك عند جاليليو Galileo عندما استخدم كلمات مجازية عن كتاب الطبيعة The book of nature المكتوب بلغة الرياضيات ولا يمكن قراءته إلا من خلال الشفرة الرياضية. أي أنه مكتوب باستخدام نسق أو نظام من العلامات System of signs هي التي تشكل الوظيفة الكلية للعلامة مما يمكن معه إيجاد حل لإشكالية المعنى The Problem of Meaning[1]، أي أن الفكر الدقيق هو الذي يستخدم الرموز Symbols التي صب عليها كاسيرر كل عمله في الكتاب الذي بين أيدينا.

١- إشكالية اللغة فى تاريخ الفلسفة

كل الدراسات السابقة التي تناولت تاريخ الفكر الفلسفي لم تتناول تاريخ فلسفة اللغة كما يجب أن يكون ومن هذا المنطلق كانت أهمية هذا الفصل التاريخي الذي تناول مشكلة اللغة في تاريخ الفلسفة المثالية وأمكن لكاسيرر أن يلقي عليها الضوء من خلال أمثلة بارزة تمثل أساطين الفكر الفلسفي المثالي وهم: أفلاطون، وديكارت، وليبنتز.

وما يعيب هذا التناول الذي حاول كاسيرر أن يجعله بداية دراسته أنه بدأ بالخطاب الفلسفي عند اليونان القديمة وكأن شمس الدنيا لم تشرق إلا من تلك البقعة وعليها فقط، ناسياً أو متناسياً ككثيرين غيره فضل أهل الشرق في مصر القديمة والهند والصين وبلاد الشام وما بين النهرين وغيرها من مناطق العالم القديم التي شهدت شروق شمس الحياة قبل الحضارة على الأرض، ومن ثم شهدت شروق فجر الحضارات العظيمة التي لولاها ما كانت لحضارة اليونان أن تزدهر، ولا سائر الحضارات بعدها.. وما وجد كاسيرر ولا غيره جذوراً يضربون بأقلامهم إليها.. فلولا فضل الأب ما كان الابن.. ولولا فضل الكبير ما نما الصغير ولا ازدهر.

---

(1) Ibid., p. 85.

ويبدأ كاسيرر عرض مشكلة اللغة في الفلسفة بالحديث عن اللوجوس باعتباره تصوراً يونانياً خالصاً وله علاقة وثيقة بالنظرية الأسطورية وكلية القدرة للكلمة، ولأول مرة نجد النظرة الأسطورية للعملية الكونية تتقابل مع النظرة الفلسفية المحددة التي ترى أن الكون كله خاضع لقانون واحد غير مرئي، ولم يعد العالم لعبة في أيدي قوى شيطانية أو جنيات Furies تحكمه في ضوء أهوائها ونزواتها، بل أصبح خاضعاً لقانون واحد كلي يسري في كل الأشياء ويربط كل حادثة أو واقعة جزئية بغيرها ويقدم مقياساً ثابتاً لكل شيء فالشمس لن تتجاوز حدودها، ولو أنها فعلت ذلك لعزلتها الجنيات خادمات العدالة Justice[1].

ولقد رأي هرقليطس Heraclitus أن الكون يخضع لقانون ثابت لا يقبل التبدل أو التغير، يتجسد في عالم الطبيعة مثلما يتجسد في عالم اللغة؛ لأن الحكمة واحدة، وهي أن العقل الذي به تتحرك كل الأشياء خلال كل الأشياء، وهكذا تحول الميدان السحري الأسطوري للقوى المختلفة إلى سياق من المعنى ندركه عندما ندرس الوجود ونتفهمه ككائن حيّ. «والحق أن اللغة عند هرقليطس كما لاحظ كاسيرر تربط كلا الرأيين معاً، فهي تقدم لنا نظرة خاصة جزئية وعرضية الواقع، ولكنها تقدم أيضاً نظرة كلية وتأملية خالصة وإذا أخذنا في اعتبارنا منطق اللغة الذي يتبدي في الصورة التي يتبلور فيها من خلال كلمة محددة، لوجدنا أن كل كلمة تحدد الموضوع الذي تشير إليه، وبواسطة هذا التحديد نفسه تزلنا تزيفه، إذ أنه من خلال تحديد الكلمة لمحتوى الشيء فإن مثل هذا المحتوى سرعان ما يتخلى عن تيار الصيرورة المستمر وبالتالي يتثبت ويتجمد عن طريق الكلمة عينها، وبذلك لا ندركه في ضوء طبيعته الكلية، وإنما ندركه في ضوء بعد جديد واحد فقط من أبعاده»[2].

ولم يتخذ كاسيرر كل من السوفسطائيين وسقراط ودورهم في [illegible]
لقد استطاع السوفسطائيون صياغة إشكالية اللغة للمرة الأولى على [illegible]
واضح ولكنهم في نفس الوقت تخلوا عن التصور الأساسي [illegible]

(1) Ibid., p. 119.
(2) Ibid., pp. 120 - 121.

نسبية المعرفة بسبب شعارهم المعروف: الإنسان مقياس الأشياء جميعاً». مما جعل سقراط Socrates يتصدى لهذا التيار المسرف في نسبيته ويؤكد على عامل الوضوح والتحديد الكامن في اللغة لأن الكلمة وهي نقطة البدء في المعرفة لها دلالة محددة في الخارج(١).

ثم حاول أفلاطون Plato أن يحدد لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني والخطاب الفلسفي القيمة المعرفية للغة بصورة منهجية خالصة، فاللغة تستمد قيمتها من كونها البداية الأولى للمعرفة، لكنها ليست سوى بداية؛ لأن مضمون المعرفة عرضة للزوال والتغير على نحو يفوق إدراكاتنا الحسية، والصورة الصوتية للكلمة أو الجملة شأنها في ذلك شأن الأنموذج أو الصورة لا يمكنها أن تحتوي المضمون الحقيقي للفكرة، وعلى الرغم من ذلك فإن ثمة علاقة خاصة بين الكلمة والفكرة تظل ماثلة أمام أذهاننا»(٢).

فإذا انتقلنا إلى عصر النهضة Renaissance نجد أن مفكريه قد عادوا إلى المصادر الكلاسيكية (التقليدية) الفعلية. وحلت النظرية المدرسية في الجدل محل التصور الأفلاطوني الأصلي، حيث طالب مفكرو عصر النهضة بالعودة إلى الأشياء ونبذ الكلمات حيث عايشوا حقائق العلوم وطبقوا الرياضيات على دراسة الطبيعة، بل نادى الفلاسفة الحقيقيون بالعودة إلى قواعد اللغة، مما جعل ديكارت Descartes يرى نظرية اللغة في ضوء جديد، وعلى الرغم من أنه لم يقدم دراسة مستقلة عن اللغة، إلا إنه في رسالته إلى صديقه الأب مرسن في ٢٠ نوفمبر ١٦٢٩ أبان عن بعض ملامح موقفه تجاه اللغة، فإذا كان أنموذج المعرفة الإنسانية عند ديكارت يظل واحداً ومتماثلاً، بصرف النظر عن الموضوعات المتعددة التي يتضمنها، أمكن بالتالي امتداده إلى مجال اللغة ثم إلى الرياضيات التي أحبها بل قد عشقها بسبب خضوعها لنسق واحد ونتائجها يقينية لأنها تعتمد على عدد قليل من الرموز العددية، مما يجعلنا نقتدي بها في مجال اللغة بالاتجاه إلى بناء مجموع كل المضامين العقلية عن طريق عدد محدود من الرموز اللغوية تخضع لقواعد كلية محددة(٣).

(1) Ibid., p. 123.

(2) Ibid., p. 124.

(3) Ibid., pp. 127 - 128.

وقام ليبنتز Leibniz بعد ديكارت بإعادة عرض مشكلة اللغة في نسيجها المنطقي الكلي Universal logic الذي وضعه كشرط أساسي لكل فلسفة وكل معرفة نظرية على وجه العموم. ورأى اللغة رؤية جديدة، لقد كان ليبنتز على وعي كامل بالصعوبة التي واجهت ديكارت وأشار إليها ولكنه اعتقد أن التقدم الذي أحرزته المعرفة الفلسفية والعلمية أمدته بوسائل جديدة للسيطرة عليها وحل معضلاتها(1).

لقد رفض ليبنتز استخدام اللغة الطبيعية أو العادية في الفلسفة وفضل عليها اللغة المثالية، وذلك بسبب اللبس الذي نكبت به اللغة العادية مما كان له عظيم الأثر على فكر الفلاسفة المعاصرين أمثال برتراند رسل ولودفيج فتجنشتين في [illegible]. ويعد استخدام اللغة المثالية في النصف الأول من القرن العشرين عند أصحاب «المذهب الذري المنطقي» Logical Atomism بسبب هذا التأثير [illegible]، وقال ليبنتز: إنه «بالاستطاعة رد جميع [illegible] إلى قلة من الأفكار كأوليات Primatives وإذا أمكن تخصيص رموز [illegible] سيكون بالمقدور استحداث رموز أخرى للدلالة على الأفكار [illegible] الاهتداء إلى تعاريف وقيم صحيحة، ومن ثم سيكون من [illegible] الاهتداء إلى الحاسبات التي يمكن البرهنة على أنها متضمنة [illegible] أو مترتبة عليها»(2).

واللغة الدقيقة في نظر ليبنتز هي اللغة الرياضية «فالتحليل الجبري يعلمنا أن كل عدد ينشأ عن عناصر أساسية محددة، ويمكن تحليلها إلى «عوامل أولية» يمثل الناتج منها وهي ما يمكن تطبيقه على أي محتوى معرفي آخر»(3).

---

(1) Ibid., p. 129.

(2) ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ص [illegible].
وانظر أيضاً: د. علي عبد المعطي محمد، [illegible] - وكذلك الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(3) Ibid., pp. 129 - 130.

٢- مكانة إشكالية اللغة في الأنساق التجريبية

يمثل تيار الأنساق التجريبية كل من فرنسيس بيكون، وتوماس هوبز، وجون لوك، وجورج بركلي وديفيد هيوم، ويبدو أن الفلسفة التجريبية فتحت الطريق نحو نظرية جديدة في اللغة؛ لأنها وبسبب اتجاهاتها التجريبية لم تربط بين الحقيقة أو الواقعة في اللغة وبين المثالي المنطقي A logical ideal، ولكنها حاولت فهمها في ضوء حقيقتها المجردة وعلى الأساس والهدف التجريبيين، وبدلاً من ضياع اللغة في عالم يوتوبي مثالي ميتافيزيقي أو منطقي، فإنها تبحث عنها في عالمها السيكولوجي الواقعي وفي ضوء وظيفتها(١).

فإذا عدنا – كما يذكر كاسيرر – إلى كتاب جون لوك الأساسي «مقال في الفهم الإنساني» نجده يحلل هذا الفهم الإنساني ولا ينقد اللغة لأن أصل التصورات ومعناها لا يمكن أن ينفصل عن التساؤل حول أصل الأسماء، لكنه بمجرد أن أدرك هذه العلاقة بدت لديه اللغة واحدة من أهم الشواهد على صدق موقفه التجريبي الأساسي، كما أنه اعتبر اللغة دليلاً على صحة نظرته العامة للواقع الروحي ولم يكن تحليل لوك للغة هدفاً في حد ذاته بل كان مجرد تمهيد لمشروعه الأساسي وهو تحليل الأفكار في إطار نظرية معرفية تجريبية(٢).

أما الفضل في توجيه لوك إلى أن اللغة لا تعبّر عن الأشياء ذاتها وبصورة مباشرة بل تشير إلى أفكار الروح أو إدراكات الحس إلى توماس هوبز الذي أشار إلى ضرورة صياغة مبدأ كلي للغة بعيداً عن الصياغات الميتافيزيقية لأن «الكلمة لا تعبر عن طبيعة الأشياء وإنما تعبر عن العملية الذاتية التي بواسطتها تتقدم الروح الإنسانية لجمع أفكارها الحسيّة البسيطة في تصور واحد»(٣).

وقد أفاد لوك، من تحليل [illegible]تز لأوليات الفكر الكلية، وتبني النزعة الاسمية Nominalism التي أكدت على [illegible]د الفردي الجزئي لعالم الأشياء والأفكار والكلمات؛ لأن الكلى يفتقد كل [illegible] عالم الأفكار مثلما يفتقدها في عالم الأشياء، فلا يوجد أنموذج أو كيان في [illegible] الفيزيائي أو النفسي في عالم

---

(1) Ibid., p. 133.

(2) Ibid.,.

(3) Ibid., p. 134.

الأشياء أو الأفكار يقابل الكلي، فإذا كان الواقع ككل، في ضوء بعده النفسي أو بعده الميتافيزيقي هو واقع فردي وجزئي. كان علينا أن نحرر أنفسنا من وهم الكلية[1].

ولكن جورج بركلي جعل بداية كل اصلاح فلسفي إنما يعود في الأساس الأول إلى نقد اللغة A critique of language ولكن يبدو أنه يستند في نقده للغة إلى نزعة كلية أيضاً، سبق أن رفضها أقرانه التجريبيون، فضلاً عن استناده إلى منهج عقلي كان مازال يكتسب صفة المنهج الذي لا يخطيء أبداً، وقد لاحظ كاسيرر أن بركلي تحول في فلسفته من نظرة حسية إلى العالم إلى نظرة رمزية خالصة، وبفضل هذه النظرة الرمزية الجديدة الجديدة إلى العالم أكد قيام علاقة التواصل بين الروح اللامتناهية وروحنا المتناهية[2].

٣- فلسفة اللغة في عصر التنوير الفرنسي

ظل نسق بركلي الفلسفي التجريبي منعزلاً بعد أن تراجع المنهج النفسي التجريبي الذي اهتم برد العمليات العقلية الروحية إلى عوامل حسية ومادية مما أدى إلى عودة الدراسات المادية للغة بدلاً من تناول طبيعة اللغة ككل، وعندئذ بدأ المفكرون يهتمون اهتماماً متزايداً بالنزعة الفردية Individuality وتزايدت الاهتمامات بدراسة اللغات الخاصة[3].

وبدأ ديدرو Diderot هذا النوع من الدراسات، واقتنع أن الشاعر الحقيقي يظل دون ترجمة لأن ترجمة الشعر تفسده لاختلاف لغة التعبير وروح الشاعر وغيرها من العوامل الذاتية، مما جعل دراسة اللغة تتجه مباشرة إلى قلب المشكلة التي سيطرت على العلوم الثقافية خلال القرنين السابع والثامن عشر مما يعني سيطرة الروح الذاتية على دراسة اللغة ويقول ديدرو في «رسالة في الأصوات المنخفضة والتالية» Léttre sur les sourds et muets ركز فيها على أن العبقرية هي التي تشكل المبدأ الحيوي لكل مناقشة نظرية تتعرض لدراسة اللغة والفن معاً [4].

---

(1) Ibid., p. 136.

(2) Ibid., pp. 136, 138, 139.

(1) Ibid., p. 139.

(4) Ibid., p. 142.

وقام هاريس Harris بدراسة التصور الميتافيزيقي الجمالي في مجال اللغة وذلك في مؤلفة الأساسيّ «هرمس أو بحث فلسفي عن النحو الكلي» Hermes or a philosophical inquiry concerning universal grammar (١٧٥١) انعكست فيه تعاليم النزعة الأفلاطونية المحدثة الإنجليزية، كما تبدت بطريقة واضحة تقاليد المدرسة العقلية في مجال اللغة التي عادت إلى سيطرتها الأولى بعد انحسار التيار التجريبي وهو بهذا يقترب أكثر من محاولة فلاسفة بور رويال في دراسة اللغة وهي بعنوان «النحو العام والبرهنة العقلية» Grammaire générale et raisonnée[1].

٤- اللغة كتعبير عن العاطفة

على الرغم من الفروق الأساسية بين الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي، فقد كان للنظريات السيكولوجية والمنطقية والتي تناولت اللغات نفس الأساس الواحد، فقد اعتبرت أن اللغة محتوى نظرى في علاقتها بالمعرفة ككل ولها اسهامات في مجال تطور المعرفة، سواء فسرّت كعمل مباشر وأساس للعقل، أو مجرد ستار يخفي وراءه المحتويات الأساسية للمعرفة وهي الإدراكات الصادقة للروح والتي تتميز بالأصالة إما في مجال اللغة التي تتمتع بالقيمة الإيجابية أو السلبية التي تبدو في المعرفة النظرية وتعبيرها[2].

تعتبر الكلمات علامات علي الأفكار وهي إما ذات محتويات موضوعية وضرورية أو ذات تماثلات وتصورات ذاتية وقد أشار القدماء إلى ذلك، ففي رأي أبيقور Epicurus ترد الكلمات إلى مصدرها الأول وهو مصدر عام ترد إلى الإنسان الأول والحيوان معاً فهي لغة طبيعة وذات أساس طبيعي وهو ما يجب أن نرجع إليه إذا أردنا فهم كيفية نشأة اللغه كما يعود لوكريتوس Lucretius إلى تتبع مصدر نشأة اللغة فيعود إلى قوانين الطبيعية الإنسانية[3].

ولقد وضع جيامباتيستا فيكو Giambatista Vico إشكالية اللغة داخل الإطار العام لميتافيزيقا الروح، بادئاً من الشعر الميتافيزيقى Poetic metaphysic الذي

---

(1) Ibid., p. 143.
(2) Ibid., pp. 147 - 148.
(3) Ibid., p, 148.

ينزع نحو ربط أصل الشعر والتفكير الأسطوري معاً ماراً بمرحلة الشعر المنطقي Poetic logic الذي مال فيه نحو تفسير عبقرية الكنايات والاستعارات الشعرية بالتساؤل عن أصل اللغة والذي يعني بالنسبة إليه مترادفات Synonymous ترد في الأدب literature والعلوم بصفة عامة. كما رفض أيضاً النظرية التي ترى أن الكلمات الأصلية في اللغة تأتي بالتقليد أو التبعية فقط، ثم أصر في نهاية الأمر على العلاقة «الطبيعية» بين الكلمات ومعانيها. وقد وجد فيكو ما يدعم نظريته في اللغة الألمانية التي لم تتعرض لغزو خارجي مما أدى إلى احتفاظها باللغة الوطنية نقية من التفاعل مع غيرها[1].

هذا غير الدراسات التي قام بها هرمان وهردر والتي بدا فيها تأثر هردر بهرمان وتأثر هرمان بكنط وخاصة ما يتعلق بنظرية المعرفة التركيبية عند كنط Synthesis of recognition ثم ألقى كاسيرر الضوء على فلسفة اللغة عند هامبولت باعتباره فيلسوف لغة أكثر منه شيء آخر، وهو يستمد عناصر فلسفته من الفلاسفة السابقين عليه ومن بينهم كنط وهردر وليبنتز وكشف اهتمامه بهذا النوع من الدراسات عندما صرح لفولف عام ١٨٠٥ بأن كل ما قام به من عمل يتعلق بدراسة اللغة وحدها، حيث اكتشف قيمة استعمال اللغة كوسيلة يمكن عن طريقها أن نقتحم الواقع المعاش. وظهر هذا الاهتمام في مقالات أخرى صاغها يراعه عن اللغة وتاريخها كما نرى ذلك في مقدمة كتابه عن اللغة الكافية Kavi language ولكن كتابته عنها تتصف بالصعوبة فضلاً عن تناثرها هنا وهناك[2].

وما يتبقى من هذا الفصل يخرج عن نطاق دراستنا لأنه يتعلق بإشكالية قوانين الصوتيات The problem of phonetic laws وهي من المعالجات الفنية.

٥- اللغة كأداة تعبير حسّي

اللغة باعتبارها شكل من أشكال الأفعال النفسية لها صفة خاصة مميزة لها يمكن أن نقاس بما لها من مستويات، أما المعيار الذي نحكم به عليها فيجب ألا يأتينا من الخارج ولكنه يؤخذ من مبدأ تكوينها الأساسي واللغة هي التي تمنحنا المقدرة على تقسيم العالم إلى مجالين متمايزين هما: الخارجي والداخلي.

---

(1) Ibid., pp. 149 - 150.

(2) Ibid., pp. 155 - 167.

أما الخارجى فهو الأصوات التي نقلد فيها حركات الأصوات الطبيعية التي تأتينا من خارجنا، وكذلك الإشارات وهي إحدى اللغات غير المكتوبة، أمّا ما هو داخلى فهو كل ما يمتُ بصلة إلى ما يحدث في النفس[1].

لقد أصبح الجهاز الفيزيقي الحسيّ مترجماً لكل ما يمكن أن نعبّر عنه حسياً، ومن بينها لغة الإشارات Language of guesture التي تعتمد على التقليد Imitation والتقليد هو ما يقابل النشاط النفسي أو الروحي، وفي عملية التقليد تظل الأنا سجينة التعبير الخارجي، كما تفقد الأنا كل تلقائية من داخلها. وعلى الرغم من بدائية هذه اللغة إلا أنه مازالت لها مكانتها باعتبارها لغة ذات إيحاءات رمزية Symbolic gestures[2].

ومن الأمور الصادقة والصحيحة أن نظرية اللغة قامت بتحرير نفسها من مقدرات التقليد والنسخ كما فعلت من قبل نظرية المعرفة ونظرية الفن، ومن هنا ثار سؤال مهم حول ما إذا كانت اللغة موضوعية أم ذاتية، فأكد السوفسطائيون على نسبيتها وذاتيتها وأنكروا أن يكون للغة أي اتجاه موضوعي، بينما أكد الرواقيون Stoics على موضوعية اللغة، مما جعلهم يتجنبون النتائج التي توصل إليها السوفسطائيون ويؤكدون على الرابطة الطبيعية الحميمة بين الوجود والمعرفة، وبين الكلمة ومعناها ومن خلال هذه الدراسات المتعددة رأي كاسيرر أن اللغة مرت في تطورها بثلاث مراحل حتى وصلت إلى شكلها الحالي المحدد وهي مرحلة التقليد والمحاكاه Mimetic ومرحلة التمثيل والقياس The analogical stage ثم المرحلة الرمزية Symbolical stage [3]، وهي المرحلة التي اتخذت فيها اللغة شكلها الحضاري المعاصر حيث أصبح لها وظيفة كلية تدور حول الدلالة التي تدل عليها، مما يمكن اللغة من التخلص من الإطار الحسيّ الذي تبدو به، وتمهد المحاكاة أو التقليد أو القياس والتمثيل الطريق للتغيير الرمزي الذي يصبح بدوره الجسم الذي يحتوى اللغة الروحي أو النفسي[4].

---

(1) Ibid., pp. 177 - 179.

(2) Ibid., pp. 180 - 180.

(3) Ibid., pp. 186 - 190.

(4) Ibid., p. 197.

٦- اللغة والتعبير الحدسي

في مجال اللغويات كما في مجال نظرية المعرفة يصعب تقسيم اللغة إلى حسية وذهنية لكل نوع ذاتيته الخاصة به أو واقعه الخاص وقد بيّن نقد المعرفة أن الإحساس المجرد لا يمثل حقيقة الخبرة المباشرة ولكن النقد ينتج عن التجريد؛ لأن موضوع الإحساس لا يعطي لنا خالصاً في ذاته، وقبل أي تكوين، حيث أن الإدراك الأول لابد أن يشير إلى صورة في المكان والزمان، وعليه فإننا نتوقع من اللغة كانعكاس للنفس ستعكس أيضاً هذه العملية الأساسية بشكل ما[١].

وإذا بدت اللغة في ضوء نظرتنا إليها في إطار التعامل اليومي بيننا مجرد أداة، فإنها تبدو أيضاً بالنسبة لفروع المعرفة العلمية والفلسفية أداة جوهرية لا سبيل إلى تجاهلها، فهي أداة الفلسفة في التعبير عن قضاياها وإشكالياتها لكن اللغة وإن كانت مجرد وسيلة فهي تحمل قيمتها المعرفية، وتختلف تصورات اللغة الفلسفية عن لغة العلم كما يبدو في العرض الآتي:

أ - لغة الفلسفة

عرض كاسيرر فلسفات اللغة عبر التاريخ الإنساني من خلال قراءة تاريخ الفكر الفلسفي. فإذا أردنا عرض استخدام اللغة في مجال الفلسفة نكون قد بدأنا عرض اشكالية الفلسفة ذاتها كما ظهرت عند فلاسفة التحليل والوضعية المنطقية Logical positivism فقد حاولت الوضعية المنطقية أن تصطنع لغة جديدة قريبة من العلم، لكي تواكب التقدم العلمي ذاته فأراد لها كاسيرر أن تتخذ رؤية فلسفية لا تقتصر على العلم وحده، بل تتضمنه في مضامينها من خلال فلسفته التي أراد لها كفلسفة عرفت باسم فلسفة الأشكال الرمزية، لأن اللغة منذ نعومة أظفارها تحيط بنا وتفرض ذاتها علينا، وبالتالى فنحن لا نستطيع أن نتنفس خارج دائرتها فهي أشبه بالمناخ الروحي الذي يتخلل أفكارنا ومشاعرنا وإدراكاتنا وتصوراتنا[٢].

وتكتسب اللغة في حالة اقترانها بالفعاليات الإنسانية خصائص وسمات هذه الفعاليات، وهو ما يعني رفض النظر إلى اللغة من خلال مستوى واحـد فقط وهو المستوى العلمي، وبالتالي إمكانية تنوع متطلباتنا منها في الفعاليات المقترنة أو

(1) Ibid., p. 198.

(2) Ibid.

المصاحبة لها. ومن هنا فإن فلسفة الأشكال الرمزية في عدم اقتصارها على العلم وحده لابد وأن تفسح المجال لوجود لغة للفلسفة لا تتوحد مع لغة العلم أو تتطابق معه كلية؛ لأنها تشكل بعداً واحداً من أبعادها، لهذا فلم يفرق كاسيرر بين المقال الفلسفي والمقال العلمي وغيرهما[١].

فإذا كان كاسيرر لم يفرد دراسة مستقلة لمناقشة هذه الأشكالية المتعلقة بطبيعة اللغة المصاحبة للفلسفة والميتافيزيقا، فإننا مع هذا نجده يتناوله في مجال المعرفة الحدسية والرمزية المرتبطة بالميتافيزيقا الحديثة يوجه نقده إلى موقف برجسون من الميتافيزيقا فأشار كاسيرر إلى التقابل الحاد بين طرق الحدس الميتافيزيقي وطريق العلم والمعرفة يكشف لنا انتماء برجسون إلى المرحلة الطبيعية باعتباره نتاجاً طبيعياً لها، وهنا يرد كل نشاط العقل إلى المجال البيولوجي أو الحيوي الخالص، كما أكد كاسيرر استحالة وجود ميتافيزيقا حدسيّة ليست بحاجة إلى عناصر معرفة رمزية[٢].

وإذا اعتبرنا كنط برفضه للميتافيزيقا التقليدية، قد قدم لنا ميتافيزيقا جديدة بديلة ربما أطلق عليها البعض ميتافيزيقا الذات أو المعرفة الذاتية في مقابل المعرفة الموضوعية، فإنه يمكننا أيضاً أن نرى كاسيرر يقدم لنا ميتافيزيقا معرفة الواقع المعاش، وهي في نفس الوقت ميتافيزيقا الحضارة لأنها تتضمن أشكال الحياة المختلفة من أسطورة وفن وتاريخ وعلم ولغة وغيرها.

ب- لغة العلم

لم يكن اهتمام كاسيرر بالعمل اهتماماً عفوياً، فالعلم كان سائداً في عصره بمناهجه واكتشافاته ورجاله لذلك جعله كاسيرر الركيزة الثالثة التي ارتكز عليها كتابه «فلسفة الأشكال الرمزية».

---

(1) Ibid., p. 199.

(2) Ibid., p. 201.

وانظر أيضاً: هنري برجسون، المدخل إلى الميتافيزيقا، ترجمة د. محمد علي أبو ريان دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٦.

وإذا أردنا أن نبحث في علاقة اللغة بالعلم عند كاسيرر تتكشف لنا الأمور إذا وجدنا أن كاسيرر في نظرته للعمل باعتباره نظرة شاملة عن العالم بدلاً من أن يكون مجرد محاولة لوصف حقائقه المتفرقة والمنعزلة، ثم يعقب مرحلة وضع المصطلحات العلمية مرحلة البحث عن أوجه التشابه السطحية. فوضع المصطلحات يتبع مبدأ محدداً من التصنيف، مما يجعل هناك تداخلاً وتفاعلاً بين اللغة والعلم، فقد تعتبر الأسماء اللغوية والعلمية الأولى نتيجة لغريزة تصنيفية واحدة، فإذا كان ذلك يتم في اللغة لا شعورياً، فإنه يتم في العلم عن وعي ومنهج وبحث مقصود ومحدد[1].

إن اللغة العلمية عند كاسيرر لا تقع على نفس مستوى اللغة المعتادة المألوفة بيننا، نجد أن رموزها من نوع مختلف وحتى تكوينها يتم بطريقة مغايرة، فنحن هنا نجد كل لفظ يتحدد بطريقة واضحة بعيدة عن الغموض وبواسطته يمكننا وصف العلاقات الموضوعية للأفكار وتسلسل الأشياء، وبذلك نتقدم من الرموز اللفظية المستعملة في الكلام العادي إلى رموز الحساب والهندسة والجبر، ومن ثم فإن تقدم العلم عند كاسيرر رهن بوجود مثل هذه اللغة التي لا تتوحد مع اللغة الطبيعية وإن كانت لا تستطيع التحرر منها تمام[2].

جـ- تصورات اللغة

هناك علاقة وثيقة بين المنطق وفلسفة اللغة وهي علاقة تبادلية لذلك حاول كاسيرر أن يناقش مشكلة التصورات الخاصة بعالم اللغة ومقارنتها بالمفاهيم والتصورات العقلية الكلية، فالتحليل المنطقي للتصورات يبدو وكأنه يحيلنا بطريقة ضمنية إلى دراسة الكلمات والأسماء، والنزعة الاسمية تتناول البعدين وكأنهما يشكلان بعداً واحداً. إننا نتوقع من اللغة أن تقدم لنا الحقيقة المطلقة، بمعنى أن تقدم التفسير الوحيد لصياغة التصور، ومن ناحية أخرى تبدو اللغة وكأنها تتطلب تدعيماً لها للقيام بهذه الوظيفة في كل مرحلة من مراحل تطورها[3].

---

(1) Ibid., p. pp. 205 - 207.

(2) Ibid., p. 212.

(3) Ibid., pp. 218 - 220.

د - التطور اللغوى لتصور العدد

لقد اطلق على الرياضيات اسم «لغة العلوم الدقيقة» وكغيرها من اللغات كان يجري باستمرار اختبارها بالتجربة وتغييرها لجعلها بسيطة ودقيقة قدر المستطاع. فكل كلمة عددية تدل، مثل ألفاظ اللغة العادية، على شيء واحد أو على زمرة من الأشياء، وتستبعد الأشياء الأخرى جميعاً.. أي أن هناك ضرورة لإيجاد رموز مكتوبة لكل عدد وللعمليات التي نجريها على الأعداد(١)، إن الرياضيات – كلغة منظمة ومرتبة – تأخذ بالإنسان نحو حل المشكلات التي يراها مستعصية أمامه حتى قال فرنسيس بيكون في إحدي مقالاته عام ١٦٢٥ «إذا كان عقل الإنسان في حالة تيه، فليدرس علم الرياضيات» وقال أفلاطون من قبل عبارته الشهيرة التي كتبها على باب أكاديميته «لا يدخل هنا إلا من كان رياضياً».

وقد ارتبطت الحضارات بالعدد أو بالرياضيات على مر العصور لما لها من فعاليات لا تقل أهمية عن الفعاليات الإنسانية مما جعل إرنست كاسيرر يهتم بوضعها في منظومته الفلسفية وأفرد لها بعض صحف كتابه «فلسفة الأشكال الرمزية» لأن تقدم الأفكار التي تدور حول المكان والزمان تتطور إلى أفكار عن العدد فنحن نتعامل مع العالم بالحدس ثم نحاول بعد ذلك تجاوزه؛ لأن العالم يسير وفق مبادىء عقلية Intellectual principles وأشار كاسيرر إلى مجهودات فيثاغورس Pythagoras ساقطاً من حساباته أهمية الرياضيات في الحضارات السابقة على اليونان، مما يدل على قصور في فكره، وعلى نظرة تعصبية شغلت معظم المفكرين في الغرب.

كذلك تطورات الرياضيات في أوروبا بعد المرحلة اليونانية على يد ديكارت وليبنتز اللذان أسسا علم الرياضيات الحديث، ومن أجل تطوير علم الهندسة لم يجد الرياضيون في الغرب إلا العودة إلى الرياضيات القديمة واعتبروا أن فكرة أو تصور العدد فكرة محورية صادقة، وأستطاع ويديكايند Dedekind

---

(١) جون ماكليش، العدد من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر، ترجمة د. خضر الأحمد ود. موفق دعبول، مراجعة د. عطية عاشور، عالم المعرفة، العدد ٢٥١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، رجب ١٤٢٠هـ/ نوفمبر ١٩٩٩، ص ١٠.

ورسل Russell وفريجه Frege وهلبرت Hilbert مواصلة جهود السابقين وإرساء دعائم المنطق الرمزي أو الرياضي عن طريق وضع ثوابت منطقية Logical constants خالصة[1].

واعتبر فريجه العدد مجرد فكرة منبثقة عن قوانين الفكر الخالص وبواسطته نقدم التصورات الدقيقة عن المكان والزمان ومن ثم لم يعد تصور العدد يدور في فلك عالم الأشياء والموضوعات بل أصبح يتحرك وينبثق في إطار القوانين الخالصة للفكر وحده، فالعدد لا يستخلص من الأشياء على حد تعبير «ناتورب» بل إن تصورات الأشياء يدخل فيها العدد باعتباره من أبرز مكوناتها[2].

ونجد كاسيرر في معرض تحليله للعلاقة المتبادلة بين اللغة والفكر يؤكد لنا تكشف هذه العلاقة في مجال التطور اللغوي والمنطقي للتصورات العددية فإذا أردنا إدراك الطبيعة التصورية التي للعدد فعلينا أن نقوم بصياغة العدد كرمز لفظي فاللغة - ولا شك - تمهد الطريق للرموز الرياضية لكي تتقدم، إلا أنها لا تستطيع أن تتعقب هذا الطريق حتى نهايته؛ لأنها ترتبط بالأشياء والموضوعات المادية المشخصة وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تنفك تماماً منها حتى وهي متجهة نحو التعبير عن العلاقات الخالصة[3].

٧- اللغة تعبير عن المفهوم التصوري للفكر

إن أقرب نقطة بين المنطق وفلسفة اللغة هي إشكالية بناء التصور Concept formation وإذا نظرنا للتحليل المنطقي للتصورات وجدنا أنها تؤدي بنا إلى دراسة الكلمات والأسماء وهي النتيجة التي توصلت إليها النزعة الاسمية وركزت عليها وحصرتها في نقطة واحدة وهي اندماج محتوى التصور مع محتوى الكلمة ومطابقتها حتى أصبح الصدق Truth ذاته صدقاً لغوياً أكثر منه صدقاً منطقياً.

فإذا تعمقنا البحث أكثر وجدنا أن الحل الاسمي لهذه المشكلة قد أصبح حلاً زائفاً Pseudo solution طالما أنه يشكل دائرة فاسدة، وذلك لأن تفسير بناء التصور يجب أن يدعم وظيفته التي من أجلها قمنا بتكوينه حيث أخبرنا المنطق

(1) Ibid., pp. 226 - 227.

(2) Ibid., p. 227.

(3) Ibid., p. 228.

التقليدي بأن «التصور» ينشأ عن «التجريد» Abstraction عن طريق مقارنته بالأشياء المشابهة أو الإدراكات التي تقوم بتجريدها من صفاتها العامة Com-mon characteristics لأن ما ينتج عن محتوى المقارنة هو صفات محددة لها خواص كيفية بسبب تقسيمها إلى فئات Classes وأجناس Genera وأنواع Species وغير ذلك[١].

ويعتبر التجريد مرحلة أولية في طريق بناء التصور وتكوينه وفي هذه المرحلة يؤثر في اللغة ولكنه يقدم لنا أساس كل الأفكار المنطقية المركبة والمعقدة فكان لابد للغة من أن تهرب من نهر هراقليطس المتغير بصفة دائمة لأن من شروط اللغة الثبات النسبي لفترات طويلة وإلا ما استطعنا أن نكوّن العلوم وأن نطوّر المعارف، من هنا تجيء أهمية التعريف الذي يعتمد على التصنيفات اللغوية وحتى يصل إلى الكلية Universality[٢].

وأشار كاسيرر إلى نظرية هرمان لوطزة Hermann Lotze في بناء الصور ورأى أنه لم يستطع أن يحرر نفسه تماماً من ربقة المنطق التقليدي، وأن نظريته تبدأ من رفضه للفكرة القائلة بأن كل عمليات الفكر لابد وأن تبدأ من اتحاد تصورين معاً لأن التصور أو التماثل لكي يتكون لابد له من المرور بعملية بناء يدخل فيها عناصر منطقية عديدة، فعاد مرة أخرى إلى أهمية وجود الكلمات في تكوين التصور وطالما أن الكلمات تدخل في فكر الإنسان فقد أصبحت العملية موضوعية، وبهذا ينكر لوطزة إمكان أن تكون اللغة خاضعة لقاعدة كلية[٣].

مما سبق يتبين لنا أن بناء التصور في فلسفة اللغة يعتمد على عناصر منطقية وعلى مجال هذه الفلسفة والوسائل المنهجية المستخدمة فيها فضلاً عن ضرورة الأخذ في الاعتبار العوامل والبناء الداخلي للتصور والذي يعتمد على عناصر نفسية، وعلى عوامل خارجية متمثلة في الكلمات والعبارات التي اتفق عليها المجتمع، فضلاً عن عوامل التجريد والكلية، وإن كان هذا المفهوم أو التصور يختلف من مجتمع لآخر ومن لغة لأخرى ففي اللغات الملايزية والأمريكية الهندية يميل إلى استخدام سوابق Prefixes كثيرة للتعبير عن

---

(1) Ibid., pp. 278 - 279.

(2) Ibid., p. 280.

(3) Ibid., pp. 281 - 283.

الموضوعات الطويلة، كما يختلف التعبير اللغوي المستخدم عندهم بحسب طبيعة الموضوع ذاته إذا كان موضوعاً ذهنياً أو موضوعاً مادياً ملموساً[١].

بينما وجد كل من هامبولت ويعقوب جريم Jacop Grimm أن مصدر التصنيفات اللغوية يكمن في وظيفة أساسية هي «ملكة التخيل» Imaginative faculty وقد اعتمدا في ذلك على ملاحظة اللغات الأمريكية الهندية وخاصة ما لاحظاه من الهنود الأمريكان الذين لا يفرقون في لغتهم بين الموضوعات الحية والموضوعات غير الحيّة، وهذا ما يحكم بناءهم اللغوي ككل: التباين والاختلاف Contrast[٢].

٨- اللغة وأشكال العلاقة الخالصة

هناك طريق ممهد في البحث الابستمولوجي ينتقل بنا من مرحلة الإحساس Sensation إلى مرحلة الحدس Intuition، ومن مرحلة الحدس إلى الفكر التصوري Conceptual thought ومن ثم إلى المرحلة النهائية وهي مرحلة الحكم المنطقي Logical judgment، ولكن اتباع هذا الطريق يجعلنا نعتقد بالفروق الحادة بين أنواع الفكر المختلفة وهذا من أخطاء البحث الابستمولوجي لأنه من الصعوبة بمكان بل بالأحرى من المستحيل أن نعى هذه المعطيات Data متسقلة بعضها عن البعض الآخر لأن كل عنصر معقد يتضمن عناصر بسيطة فاللاحق يحتوي على بذور السابق، ومن هذه العناصر جميعاً يتكون لينا تصور أو مفهوم المعرفة[٣].

وقد توصل همبولت إلى نتيجة مهمة تشمل ما أشرت إليه في الفقرة السابقة فالتصور مركب من عناصر تجريبية وسيكولوجية، من المعارف السابقة والمعارف الحالية، ونفس النتيجة يذكرها لنا تاريخ اللغة وهي عند كل نقطة نتعلمها نجد أن كلمات بعينها تنفصل عن جملتها وتقوم بتحديد أجزاء الكلام ثم تتكامل تدريجياً وينقصها على وجه العموم بعض ألفاظ اللغات البدائية، كما

---

(1) Ibid., pp. 295 - 296.

(2) Ibid!, p. 299.

(3) Ibid., p. 303.

يقـول سـايس Sayce في كتابه «مقدمـة في علم اللغة» Introduction to the science of language [١].

وتعتبر اللغة الصينية Chinese من اللغات المنعزلة Isolating languages التى تضع الكلمات المنفصلة بعضها إلى جوار بعض لكي تؤدي إلى عبارة لها دلالة ومـعنى، مما نرى مـعـه أن نفس الكلمـة يمكن أن تؤدي مـعنى الاسم، والصفة، والحال، والفعل دون حدوث أي تغير يشير إلى محتواها النحوي، وقد ظل فلاسفة اللغة يعتقدون لوقت طويل أن هذه الخاصية التي للغة الصينية هي نفسها خاصية سائر اللغات، إلا أنه ثبت خطأ اعتقادهم بظهور اللغات الحديثة[٢].

ويعرض كاسيرر لتفصيلات كثيرة لإثبات صحة نظريته فينتقل من الظواهر اللغوية في القارة الأمريكية لدى الهنود والمجتمعات الإندو - جرمانية Indo-Germanic languages - وقارن بين اللغة اليونانية Greek وبين اللغة السنسكريتية Sanskrit، وفي نهاية المطاف يعود من حيث بدأ من فلسفة كنط فيشير إلى العلاقة بين اللغة ووظيفتها من خلال تحليل الوظيفة الخالصة للحكم التي أشار إليها كنط في كتابه «نقد العقل الخالص» حيث يعني الحكم بالنسبة لكنط «وحدة الفعل» Unity of action التي يشير إليها المحمول والموضوع في القضية بين العلاقة الموضوعية الناشئة بينهما[٣].

خامساً: فلسفة الأشكال الرمزية (الأسطورة)

تأتي كلمة «الأسطورة» Myth من اللفظ اليوناني Mythos بمعنى الأسطورة Legend، ومن هنا جاء لفظ الرواية، ولكنها لم تكن صادقة، وقد تضمنت هذه القصص الدراسية قوى تفوق قوى الإنسان يحاول الإنسان عن طريقها أن يفسر نشأة الكون وأصبح للأسطورة علاقة بالاستعارة أو المجاز Metaphor حتى أصبحنا نعامل الأسطورة باعتبارها مجازاً، ثم أصبح للأسطورة علاقة بتاريخ الفلسفة[٤].

---

(1) Ibid., p. 304.

(2) Ibid., p. 305.

(3) Ibid., pp. 312 - 313.

(4) Reese, William L., Dictionary of philosophy and Religion, p. 375.

ونظراً لاهتمام الفلاسفة بالأسطورة باعتبارها مرحلة سابقة على ظهور اللغة، فقد قامت عدة محاولات مشجعة تستهدف معالجة الأساطير باعتبارها حاوية على حقائق ميتافيزيقية لا تستطيع اللغة العادية أن تعبر عنها، لذلك كان ولا يزال مداد أقلام الباحثين والمفكرين يسيل حول موضوع «تفسير الأسطورة» منها على سبيل المثال لا الحصر[1].

١- نظر أفلاطون إلى الأسطورة باعتبارها علماً بدائياً Primitive science يهتم بدراسة الأصول السببية للحادثات الطبيعية أو للتنظيمات الإنسانية. بينما نظرت إليها النظريات المعاصرة للمفكرين المعاصرين باعتبارها حقائق سلوكية رمزية تدور حول حياة وأفكار الإنسان، ولفتت الدراسات السيكولوجية الانتباه نحو التشابه بين الأساطير وبين الأحلام، فضلاً عن عمليات الإسقاط التي تكشف عن الرغبات الداخلية للإنسانية.

٢- وجد اليهود في العصر الهلينسني أن الأسطورة تساعدهم أو يمكن أن تقدم لهم يد المساعدة في تفسير العهد القديم Old Testament باعتباره أسطورة An allegory تخفي في طياتها أفكاراً فلسفية انحدرت إليهم من اليونانيين القدماء وقدم لنا فيلون Philo أفكاراً تدور في نفس هذه الإطار.

٣- كما وجدها المفكرون النصارى منذ بداية ظهورها في قرونها الأولى وحتى خلال العصور الوسطى، وجدوها كطوق النجاة يستطيعون أن يفسروا نصوص الدين في ضوء ما تمنحه لهم الأسطورة كأداة تحليل أساسية[2].

٤- وجد الوجوديون في الأساطير التجمع الأوليّ للإنسان نحو الذاتية، حتى أن قصة البدايات الإنسانية الأولى في فجر التاريخ كانت تعني أنك تعترف بالفهم الذاتي. فالأسطورة ظاهرة مركبة «ولما كانت تنتمي إلى حقبة سحيقة من الثقافة الإنسانية التي ندرت فيها الأشكال والتركيبات اللغوية أو انمحت تماماً، فإن كل أسطورة منها تحتمل ما لا حصر له من التفسيرات»[3].

---

(١) د. علي عبد المعطي محمد، في الفكر الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص ٦١.

(2) Op. Cit., p. 376.

(٣) د. علي عبد المعطي محمد، في الفكر الحديث والمعاصر، ص ٦٢.

٥- من بين الذين اهتموا بالأساطير في الفكر المعاصر ليفي ستروس Lévi-străss الذي اعتبر الأناجيل Gospels كأسطورة تمثل مرحلة اللاوعي في الإنسان واستطاع تحليلها على ضوء المفاهيم والمصطلحات الهيجلية وكذلك فعل كل من ماكس موللر وفرويد وكارل يونج وشيلنج وكاسيرر.

١-الأسطورة عند كاسيرر

أحيا كاسيرر نظرية شلينج وعلاقة الأسطورة باللغة حيث اعتبر شيلنج أن الكلمة (اللغة) في مرحلة التفكير الأسطوري لغة واقعية محددة، لذلك فالقصص التي تروى عن قوى طبيعية تفوق القوى الإنسانية هي قصص واقعية حقيقة «إن معنى الأسطورة يكمن فيما وراء أي شيء مادي، كما أن لها وظيفة محددة، فهي طريقة الإنسان في التعرف (أو معرفة) العالم، مما يجعلها مخلوق حقيقى ذا قوة بنائية خاصة في تطور فلسفة أفلاطون»[١].

ومن الأمور المسلم بها في الفلسفة النقدية أن الأشياء لا تعطى لنا في حالة مكتملة واضحة وصريحة؛ لأن الأشياء لا توجد سابقة علينا وخارج الوحدة التركيبية للوجود. وقد قامت فلسفة الأشكال الرمزية على هذه الفكرة النقدية المتمثلة فيما قيل عن كنط من أنه استطاع تحقيق ثورة كوبرنيقية في الفكر الإنساني وقد حاولت فلسفة الأشكال الرمزية توسيع نطاق هذا المفهوم مما حدا بها أن تبحث عن «مقولات» الوعي بالأشياء في قالبها النظري أي في المجال العقلي، وبدأت من الفرض القائل بأن مثل هذه «المقولات» يجب أن يكون لها دور فعّال في الكون، أي وجهة نظر محددة وأنموذجية تجاه الكون تحدد وتشكل هذه الانطباعات التي لا تأتي فقط فرادى بل تأتي إلى الوعي وهي في حالة فوضى وتشتيت The chaos of impressions ويمكننا أن نضعها أمامنا هدفاً لتحقيق هذه الغاية[٢].

ونستطيع أن نرى أن دراسة كاسيرر للأسطورة في ضوء فلسفة الأشكال الرمزية لم تأت جزافاً بل جاءت ليست فقط تحت تأثير فلسفة كنط النظرية ولكنها أتت أيضاً بتأثير شيلنج والمدرسة الفرنسية في عصر التنوير خاصة

(1) Cassirer, Ernst, the philosophy of symbolic forms, vol. 2, p. 3.

(2) Ibid., p. 29.

دراسات أوجست كونت فيما عرف بقانون الحالات الثلاث في كتابه «دروس في الفلسفة الوضعية» حيث اتفق معه كاسيرر فنجده يقول «لقد عاش الإنسان في عالم الأشياء الموضوعي ردحاً طويلاً من الزمن قبل أن ينتقل ليعيش في عالم يسوده العلم وقبل أن يجد طريقه إلى العلم لم تكن تجربته إلا كتلة أو عماء لا شكل محدد له من الانطباعات الحسية.

كذلك دراسات لوسيان ليفي بريل في مجال اللغة البدائية وأجروميتها وكيفية تحققه من طبيعة التصورات لدى البدائيين. وقد استخلص ليفي بريل من دراسته لعدد كبير من لغات هنود شمال أمريكا أن «اللغة البدائية» تتضمن في ذاتها الكثير من التفصيلت الجزئية المشخصة، تلك التي لا تلتفت إليها لغاتنا المتحضرة، إذ أنها لغة «التجريد» والمعاني المجردة؛ لأنها غالباً ما تتجرد عن شتى التفصيلات الجزئية، تلك التي تحتويها ضمناً لا صراحة، فاللغة البدائية لغة مشخصة Concrete وذلك لشدة ارتباطها بعالم «المشخصات» بتفصيلاته، ابتعادها عن عالم المجردات[1].

[illegible] في ذلك عالم الاجتماع الأمريكي «فرانز بواس» Franz Boas أحد أصحاب الاتجاه الأنثروبولوجي الثقافي في علم الاجتماع المعاصر حيث درس اللغات البدائية الهندية وقارن بينها وبين اللغات الأوربية الحديثة، باستخدامه المنهج المقارن[2]. بينما قام إرنست كاسيرر بتوسيع نطاق المفهوم فضرب بقلمه في مجال التاريخ وتتبع الأسطورة ككل ليجعل منها ومن سائر الأشكال الرمزية مقولات معرفية جديدة تحل محل المقولات الكنطية الجامدة.

٢ - اللغة والأسطورة

طوّف بنا كاسيرر كثيراً في قلب الحضارات الإنسانية لكي يثبت أن اللغة

---

(1) Lévy - Brul, Lucien, Les functions Mentales dans les sociétés Inférieures, neuviéme Edition, Paris, 1928, pp. 152 - 153.

في كتاب: د. قباري محمد إسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، الجزء الأول: المنطق، الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٦، ص ص ٨١ - ٨٢.

(٢) انظر: د. حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، العدد ٩٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جمادي الأولى ١٤٠٦هـ، فبراير ١٩٨٦م.

والأسطورة قد سبقا العلم في الظهور. وهما يقومان بنفس وظيفته في توحيد وتنظيم تجربتنا الإنسانية، وإن قاما بها بشكل مختلف فالتجربة الاجتماعية الأولية البسيطة ينقلها الرجل البدائي برمتها إلى الطبيعة. فالطبيعة ذاتها ليست إلا مجتمعاً عظيماً هو «مجتمع الحياة» وعندئذ تبدأ الأسطورة في الوضوح كما تتضح أهمية الكلمة السحرية The magic word ووظيفتها فالاعتقاد بالسحر قائم على أساس متين وإيمان عميق بوحدة الحياة، والقوة الاجتماعية بعد ممارستها تصبح قوة فوق قوة الطبيعة Supernatural، ويجد الإنسان نفسه محاطاً بكل أنواع الأخطار المرئية وغير المرئية، فالعالم من حوله عالم يسمع ويفهم، فلا شيء يقاوم الكلمة السحرية[1].

وطالما أن هناك لغة سحرية تربط بين الإنسان من جهة والطبيعة (الكون) من جهة أخرى تصبح اللغة والأسطورة عند كاسيرر توءمان لا يفصل أحدهما عن الآخر، بل إن ثمة علاقة متبادلة بينهما وكلاهما شرط للآخر، فالكلمة والطبيعة السحرية للاسم يمثلان جزءاً مكملاً للرؤية السحرية للعالم. إن الكلمة والاسم في المجتمعات البدائية لم يكونا مجرد أداتين للوصف أو التصوير بقدر ما كانا متضمنين للموضوع كما هما متضمنان لقواه الحقيقية؛ فالكلمة والاسم لم يستخدما لمجرد الإشارة إلى الشيء أو تحديده، ذلك أن كلاً منهما كان يمتلك وجوداً حقيقياً وقدرة على الفعل، ففي المظهر الحسي للغة وفي الصوت الصادر عن الموجود البشري كانت تكمن تلك القوة الحقيقية المؤثرة في الأشياء، فمن كان يعرف الاسم الحقيقي للإله أو للشيطان كان يمتلك قوة غير محدودة على حامل هذا الاسم[2].

وقد عرض كاسيرر لنظرية ماكس موللر Max Muller في كتابه «مقال عن الإنسان» الذي يعتبره الكثيرون أنه موجز لكتابه الضخم: فلسفة الأشكال الرمزية - فقال إن لمكس موللر نظرية غريبة جعل فيها الأسطورة نتاجاً عرضياً للغة، واعتبر الأسطورة نوعاً من المرض الكامن في العقل الإنساني، تطلب علله في

---

(1) Cassirer, An Essay on Man, pp. 121 - 123.

وفي الترجمة العربية، ص ٢٠٠.

(2) Cassirer, the philosophy of symbolic forms, vol. 2, p. 40.

القدرة على الكلام، ذلك أن اللغة بطبيعتها وجوهرها لغة مجازية، وحين تعجز عن أن تصف الأشياء بطريق مباشرة تجنح إلى وسائل من الوصف غير المباشر، أي نحو مصطلحات غامضة ومزدوجة المعنى. فالأسطورة – في نظر موللر – تستند في أصلها إلى هذا الغموض الكامن في اللغة دائماً ما تجد غذاءها في العقل الإنساني[1].

ويقول موللر

«إن مسألة الميثولوجيا (الأسطورة) قد أصبحت في الحقيقة مسألة سيكولوجية كما أصبحت أيضاً مسألة تابعة لعلم اللغة لأن النفس الإنسانية تصبح موضوعية من خلال اللغة على الأكثر.

وهذا يفسر لم سميت الأسطورة مرض لغة بدلاً من أن أسميها مرض فكر، ذلك لأن اللغة والفكر لا يمكن فصلهما.. فمرض اللغة هو إذاً مرض فكر، ونحن حين ننسب إلى الإله العليّ كل نوع من أنواع الاثم فنصوره مخدوعاً يخلبه الناس، أو غاضباً على زوجه وأولاده، فذلك برهان على مرض، على حال فكرية غير عادية، أو بعبارة أوضح على جنون حقيقي.. تلك حالة مرضية ميثولوجية.

واللغة القديمة يعسر استعمالها وبخاصة في الأغراض الدينية ومن المستحيل أن نعبر في اللغة الإنسانية عن الأفكار المجردة إلا مجازاً وليس من المغالاة أن نقول إن معجم الأديان القديمة كله يتألف من مجازات.. وها هنا يصدر عنه ضروب من سوء الفهم أبداً، وكثير من صور سوء الفهم هذا بقيت تحتفظ بأمكنتها في دين العالم القديم وأساطيره»[2].

ويرد كاسيرر على موللر كما – أرى أنا نفسي ذلك – إن فعالية الإنسان لا يمكن أن ترد إلى أفعال شاذة، وأمراض عقلية، فنحن لسنا في حاجة إلى مثل

---

(١) إرنست كاسيرر، مقال عن الإنسان، ترجمة د. احسان عباس، مراجعة د. محمد يوسف، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦١، ص ص ١٩٨ – ١٩٩.

(٢) ماكس موللر، اسهامات في علم الميثولوجيا، لونجمانز، جرين وشركاؤهما، لندن، ١٨٩٧، الجزء الأول، ص ٦٨ وما بعدها، وأيضاً «محاضرات في علم الدين، أبناء تشارلز سكريبنر، نيويورك، ١٨٩٣، ص ١١٨ وما بعدها، في كتاب كاسيرر، مقال عن الإنسان، ص ١٩٩.

هـذه النظريات الغريبة لكيْ نرى أن اللغة والأسطورة توءمان لدى العقل البدائي، كما ذكرت قبل قليل، وإن كانت الفلسفة القديمة لم تستطع أن تحل مشكلة «المعنى» فقال بارمنيدس Parmenides: إننا لا نستطيع أن نفصل بين الوجود والفكر لأنهما شيء واحد، وذهبت النظرية السوفسطانية مبلغاً غريباً حتى قال عنها أفلاطون: «إن النظرية السوفسطائية في المعرفة لا تدعى أي نسبة إلى الأصالة».

وهكذا ظهرت نظريات كثيرة تحاول تفسير اللغة فقال ديموقريطس أن أصل اللغة نداءات وصيحات. وربط فيكو و روسو بين الإنسان والحيوان بسبب الغريزة الأساسية التي غرستها الطبيعة في كل المخلوقات الحية، وعجزت النظريات البيولوجية في تفسير أصل اللغة على أساس بيولوجي، فلم تظهر لدينا شواهد أو أدلة تبين لنا أن حيواناً ما استطاع أن يتخطى الحدّ الفاصل بين اللغة الموضوعية واللغة العاطفية. أما ما يسمى عادةً «باللغة الحيوانية» فإنه ذاتي دائماً يعبر عن مختلف أحوال المشاعر ولكنه لا يعين الأشياء ولا يصفها[1].

وحتى كاسيرر نفسه لم يستطع أن يوضح لنا أصل اللغة وكيفية نشأتها بل أخذ ينتقل بنا من الحضارة المصرية القديمة وأسطورة إيزيس وأوزوريس، إلى أساطير اليونان، فضلاً عن أساطير الآلمان والمجتمعات البدائية مثل الأندمان والمانا والطواطم وأساطير الروح أما تفسير كاسيرر فقد كان مرجعه إلى تأثره بعلماء النفس التطوريين في القرن التاسع عشر ممن أقاموا نوعاً من التوازي بين تجارب الطفل من جهة والتطور العقلي للجنس البشري من جهة أخرى، ولكن سرعان ما انهار هذا الرأي على يد علماء النفس والإثنولوجيا المحدثين فعلم النفس الحديث لم يقدم لنا أي دليل واضح على أن الطفل يلحق بالكلمة قوة أسطورية أو سحرية.

إننا نلجأ إلى الأسطورة متى عجزت اللغة عن توضيح أفكارنا أو تفسير ما يحدث من حولنا أو حدث من قبلنا، عندئذ يصبح للأسطورة دورها المحدد والمستقل في حياتنا لكنه يأتينا في شكل رمزي، وذلك كما أن للفن دوره المحدد، وللدين دوره المحدد، وللعلم دوره المحدد وغير ذلك من العلوم وأدوارها في حياتنا الحضارية.

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٠ وما بعدها.

سادساً: فلسفة الأشكال الرمزية (العلم)

أخذ كاسيرر على عاتقه بناء فلسفة خاصة في مجال «علم ظواهر المعرفة» Phenomenology of knowledge في شكل علمي، وبالعودة إلى آخر عبارات كتابه «الحتمية واللاحتمية في الفيزياء الحديثة» Determinism and indeterminism in Modern physics كتب هذه العبارة «إن التصور الكامل للواقع، والذي يتطلب تضافر جميع وظائف الروح (النفس) والذي يمكن تحقيقه فقط من خلالها جميعاً» (ص ٢١٣)[١].

وقد انتقل كاسيرر من كتاب لآخر، ومن موضوع لآخر من أجل اكتشاف عمليات الروح (النفس) التي تساعد على تحقيق التصور الكامل للواقع. وكان كتابه في «منطق الثقافة» عام ١٩٤٢، وكتاب «أسطورة الدولة» موضوعات تدور في إطار «الفكر الأسطوري» Mythical thought الذي دار في فلكه كاسيرر حتى ظهور كتاب «مقال عن الإنسان: مقدمة لفلسفة الثقافة الإنسانية» The Essay on Man: an Introduction to a philosophy of Human culture (١٩٤٤م) أسس به كاسيرر نظرية «تتضافر فيها وظائف الروح (النفس) وبيان أشكال الثقافة في الأسطورة، والدين، واللغة، والفن، والتاريخ، والعلم. وجاء الفصل الأخير في كتاب «مقال عن الإنسان» في العلم Science ملخصاً لوجهة نظره وفلسفته في الأشكال الرمزية، وملخصاً وافياً أيضاً للجزء الثالث منها عن العلم، وذلك من أجل تأسيس علم ظواهر المعرفة، وقال كاسيرر في الفصل الأخير من كتاب «مقال عن الإنسان» وهو عن العلم عبارته: «لا يستطيع الإنسان في مجالات اللغة؛ والدين، والفن، والعلم، أن يفعل أكثر مما فعل لبناء عالمه الخاص، عالمه الرمزي A symbolic universe وذلك من أجل فهمه وتفسيره، وإيضاح وتنظيم خبرته الإنسانية التركيبية الكلية»[٢].

---

(1) The full concept of reality, which requires the cooperation of all functions of the spirit and can only be reached through all of them together.

(2) Hendel, Charles. W., Introductory Note, in: Cassirer, Ernst, the philosophy of symbolic forms, Yale University Press, Inc., 1957, pp.ix-x.

ولا يعني هذا أن كتاب كاسيرر في فلسفة الأشكال الرمزية كان مجرد دراسة في مراحل تطور الإنسانية كل مرحلة تلغي المرحلة التي سبقتها كما فعل أوجست كونت عندما انتقلت الإنسانية – في نظره – من المرحلة اللاهوتية، إلى المرحلة الميتافيزيقية، إلى المرحلة الواقعية أو العلمية.. وهي تمثل مراحل أو حالات تتعاقب في كل إنسان، ففي الحداثة يقتنع الإنسان بالتفسيرات اللاهوتية، وفي الشباب يتطلب أمره عللاً ذاتية، وفي سن النضج يعول أكثر على الوقائع والحقائق العلمية[1].

أقول إن كاسيرر لا يفعل مثلما فعل كونت ويجعل المرحلة اللاحقة تلغى المرحلة السابقة بحيث تفقد الأسطورة شرعيتها ولا يتبقى منها غير قيمتها التاريخية فحسب، ولو كان الأمر كذلك لأصبح العلم هو وحده الجدير بالدراسة باعتباره نهاية المطاف وقمة التقدم والتطور الإنساني، ولأصبحت فلسفة العلم كما يدعي المناطقة الوضعيون هي وحدها سيدة العلوم، جديرة وحدها بالدراسة والاهتمام، وأنزوت أمامها سائر العلوم والدراسات والأفكار الإنسانية، لقد استطاعت فلسفة الأشكال الرمزية أن تتجاوز هذا المفهوم الضيق وتتعداه إلى أبعد من ذلك، فعالم الأسطورة عالم عاطفي، عالم أعمال وقدرات وقوى متصارعة، مما يجعل الأسطورة تشهد هذا الصراع والصدام بين تلك القوى في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة.

وعلى الرغم من كل ما تقدم فإن كاسيرر يصرح في كتابه «مقال عن الإنسان» بأن العلم يعد آخر خطوة في التطور العقلي الإنساني باعتباره أعلى وأهم ما حصله في الحضارة الإنسانية، وقد يتنازع الناس حول نتائج العلم أو حتى حول مبادئه الأولى، لكنهم لا يتنازعون في وظيفته العامة التي تبدو يقينية فالعلم يؤكد عالماً ثابتاً، وقد ينطبق عليه قول أرشميدس: «أعطني مكاناً أقف عليه وأنا قمين بتحريك العالم». «فالفكر العلمي في العالم المتغير يعين نقطة الثبات أو الأقطاب التي لا تتغير بل إن كلمة Episteme (معرفة) في اللغة

---

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٧٩م، ص ٣١٩.

اليونانية مشتقة من أصل يعني الثبات والصمود. فالعملية العلمية تؤدي إلى اتزان ثابت، إلى تمكين عالم المدركات الحسيّة والأفكار وتركيزه»[١].

والحضارة الإنسانية بحاجة إلى العلم - بوصفه علماً وحسب - لأنها معقدة بسبب تشابك حالات العقل الإنساني وتطور العلوم المختلفة وإن كان كاسيرر يرى أن أعلى هذه العلوم هي الرياضيات بسبب دقتها وصوريتها وتجاوزها للوقائع المعطاة لنا في الواقع الخارجي[٢]، بينما كانت اللغة هي أول محاولة يقوم بها الإنسان لكي يعبر عن عالم مدركاته الحسية، وظن بعض علماء اللغة مثل أوتو يسبرسن أنه من الضروري بمكان أن نفترض في الإنسان غريزة تصنيف خاصة لكي نعلل بها معنى الكلام الإنساني ومقصده ومبناه[٣].

ولقد أشار كاسيرر إلى العلم اليوناني في مجالات الرياضيات على وجه الخصوص، وكذلك العلم البابلي وعلاقة الفلك بالرياضيات مع الإشارة إلى قيمة العدد بسبب وضوحه الناصع الكامل، ولم ينس كاسيرر أن يصرح بفشل ديكارت في إيجاد طبيعيات رياضية على الرغم من تأسيسه للهندسة التحليلية كما يقال.

كذلك أشار كاسيرر في معرض حديثه عن العلم إلى بعض موضوعات العلم الحديث مثل نظريات الذرة وكيف أن التحليل الطيفي أدى إلى حل مشكلة الذرة التي أصبح يعبر عنها بلغة رمزية عددية باعتبارها لغة مجردة، واضحة تنأى عن لغة التجربة الحسيّة العامة، وهي نظريات نبعت أساساً من نظرية الكم (الكوانتم) Quantum theory التي بسطها للعالم ماكس بلانك وكذلك أشار إلي الكيمياء والبيولوجيا وغيرها.

١- مكانة العلامة فى نظرية الرياضيات

إذا نظرنا في تاريخ العلم واطلعنا على المحاولات المختلفة التي قامت بها الرياضيات الحديثة لكي نصل إلى أساس العدد فإننا سنصل إلى الرياضيات الخالصة Pure mathematics، كما ستؤدي بنا المشكلة الرياضية إلى معنى

---

(١) كاسيرر، مقال عن الإنسان، ص ٣٤٩.

(2) Cassirer, Ernst, Substance and Function and Einstein's Theory of Relativity. Dover publications, Inc., New York, 1923, pp. 112-113.

(٣) كاسيرر، مقال عن الإنسان، ص ٣٥١.

مختلف لها وأصل مختلف كذلك، فهناك على سبيل المثال محاولة بول دي بوا ريموند Paul du Bois reymond في رسم الاستدلال المشكل Paradoxical inference فيما قاربه من أعمال شملت نظرية الوظائف الكلية The universal theory of functions، وتوصل إلى أن التناقض بين الفيلسوف المثالي وبين الفيلسوف التجريبي لا يمكن أن يتحدد وفقاً لمعيار موضوعي دقيق وبطريقة كلية، ولكن مجرد التوصل إلى هذه النتيجة يعني أن العقيدة الفلسفية الفردية قد أصبح لها حق التعبير عن نفسها بينما تعتبر نظرية بروور Brouwer نظرية رياضية تتصف بنزعتها المثالية، بينما تتصف نظريات فريجه ورسل بأنها واقعية مدرسية Scholastic realism(١).

لقد فقد العدد أسراره المتصلة بكينونته في نظريات الرياضيات الحديثة لدى فريجه ورسل وبيانو وديدكايند، وأصبحنا نرى فيه رمزية جديدة قوية تفوق رمزية الكلام تفوقاً لا حد له، ورفض هلبرت Hilbert القوة بوجود نزعة حدسية في الرياضيات الحديثة، كما رفض القول بوجود تصور واقعي لها، وقد اتفق في ذلك مع نظرية فريجه، وكذلك ما قام به ديدكايند الذي عبّد الطريق للعدد المحدود أوضح أن هناك مشكلة تختص بإشكاليات نظريات المجموعات The theory of sets (٢).

وتوصل كاسيرر من عرضه إلى أن أهم ما توصلت إليه النظريات الرياضية الحديثة والمعاصرة سواء عند هلبرت أو فريجه أو رسل أو بيانو هو اعتمادهم على فكرة العلامة Signs والتي يمكنها أن تصل بنا إلى نتائج يقينية واضحة، ويعود الفضل في ذلك إلى الدراسات السابقة في مجال الرياضيات عند ليبنتز وفي مجال العلامات عند تشارلز ساندرز بيرس وتشارلز موريس في أواخر القرن التاسع عشر والبدايات الأولى للقرن العشرين.

لقد أعطى كاسيرر للنظريات الرياضية وأعمال الرياضيين منذ أن ظهر الفيثاغوريون ومروراً بأفلاطون ودراسات فلاسفة عصر النهضة الكثير، مع

---

(1) Cassirer, The philosophy of symbolic forms, vol. 3, p. 378.
(2) Ibid., p. 379.

وأيضا: كاسيرر، مقال عن الإنسان، ص ٣٥٦.

شغل به معظم صحف كتاب «فلسفة الأشكال الرمزية» الكتاب الثالث منها، كما شغل الكتاب الأول نظريات واسهامات فلاسفة اللغة منذ اليونان وإلى عصورنا الحديثة، وشغل الكتاب الثاني نماذج من أساطير أهل الشرق والمجتمعات البدائية في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وغيرها.

٢- أسس المعرفة العلمية

إذا كنا في الرياضيات نعيش في عالم ذهني تماماً فإننا في مجال العلوم ننتقل إلى عالم المادة The realm of matter أي عالم الواقع Real الملموس، وبالتالى فسوف ننتقل من عالم الوحدة إلى عالم التعدد، ومن العالم اللامعطى إلى العالم المعطي لنا عن طريق حواسنا الظاهرة، إذاً فمجال العلوم هو «الطبيعة» Nature التي نسميها «الأشياء الموجودة» The existence of things التي تواجهنا في أول الأمر كإدراكات زاخرة بالعواطف، ثم نتمكن من سلسلة هذه الأشياء الموجودة أمامنا ووصفها طبقاً لتصاحبها في الوجود وتعاقبها أيضاً إلى الوصول لقوانين عامة تحددها(١).

ومن خلال اهتمام كاسيرر بمفهوم هذه العلاقة في مضمار العلم بسط اهتمامه بفلسفة العلم وقد ظهر هذا الاهتمام في مؤلفاته العديدة مثل الجوهر والأداء، والنسبية عند أينشتين، والحتمية واللاحتمية في الفيزياء الحديثة، ومقال عن الإنسان، فضلاً عن الكتاب الثالث من منظومة «فلسفة الأشكال الرمزية»، والتي طرح لنا فيها المنهج الذي يراه لتأسيس العلم مستخدماً الرؤية النقدية في فهم بنية العلم، وهي الرؤية التي تقرر أن الصورة النهائية الوحيدة التي يكون في مقدور العلم أن يكونها هي التي تتم عن طريق وساطة بنية منطقية تصورية تتطابق مع معاني متنوعة للعلاقات الموضوعية التي تعتمد على المنهج السائد في الرياضيات وهو المنهج الاستنباطي الذي أدى بالرياضيات وصولها إلى نتائج يقينية واضحة المعالم، تقاوم عوامل التناقض والدحض والاندثار.

ومن أجل تحقيق التطور والتقدم في مجال العلم استخدم العلماء المنهج التجريبى إلا إنه يتضمن في طياته تغيراً أساسياً في العلاقة بين ما هو فردي In-dividuality وما هو كلي Universality وقد بدا ذلك واضحاً في مجال تصور

(1) Ibid., p. 407.

العدد في الرياضيات فهو تصور فردي حيث يشير شيء واحد محدد له صفاته وخواصه إلى هذا العدد مثل قولنا برتقالة واحدة فالعدد واحد يشير إلى مفهوم مادي خارجي واحد للبرتقالة بكل صفاتها الداخلية والخارجية من طعم ولون ورائحة وشكل وغيرها.

أما في مجال العلم فإن تشكيل الإشكالية العلمية يجب أن يتضمن شرط واحد مهم هو «الإدراك والفهم الكامل للطبيعة» Comprehensibility of nature على حد تعبير هرمان فون هلمهولتز في المقال الذي نشره بعنوان «في حفظ الطاقة» On the conservation of Energy (١٨٤٧) وقد تحمس كاسيرر لرأيه الذي ذكره في رسالته وهي بعنوان «مقال في البصريات الفيزيولوجية»(*) نأخذ منها النص الذي استعان به كاسيرر وهو:

«على أية حال يجب أن نحاول فهمها (ظواهر الطبيعة)، إذ ليس هناك منهج آخر لوضعها تحت سيطرة الفكر. وببحثنا هذا لها يجب أن نمضي قدماً مفترضين أنها قابلة للفهم والإدراك. وعلى حسب ذلك فإن قانون العقل الكافي ليس في الحقيقة إلا «حثاً» لفكرنا لكي يضع كل مدركاتنا الحسية تحت سيطرته وليس هو قانون طبيعة. إن فكرنا هو القوة التي تكون الأفكار العامة ولا علاقة له بمدركاتنا الحسية وتجاربنا إلا أن استطاع أن يكوّن أفكاراً وقوانين عامة.. وإلى جانب فكرنا لا توجد قوة أخرى منظمة... لفهم العالم الخارجي فإذا كنا لا نستطيع أن نتصور شيئاً لم نستطع أن نتصوره موجودا لم نتصوره من قبل»[1].

مما سبق يتضح أن ا لعقل العلمي يقوم بدور مهم في جمع الحقائق العلمية لكنه لا يستطيع تفسير الطبيعة تفسيراً نهائياً إلا أنه – يستشعر في داخله بأن هذا العالم، الطبيعة، الكون «عدد ونغم وانسجام» كما تذهب العقيدة الفيثاغورية العامة، أما غير ذلك فالإنسان لا يستطيع إلا أن يقوم مثلما قام علماء الطبيعة الكبار مثل جاليليو ونيوتن وماكسويل وهلمهولتز وبلانك وأينشتين» بجمع الحقائق العلمية كما يجمع طفل يلهو على شاطئ محيط عظيم ويتسلى بجمع

(*) هلمهولتز: «مقال في الفيزيولوجية» ترجمة جيمس ب. سثول، الجمعية البصرية بأمريكا، شركة جورج بنتا للنشر، ١٩٢٥، حقوق الطبع لدى ج. أ. ستشرت، ٣/٣٣-٣٥.

(١) كاسيرر، مقال عن الإنسان، ص ٣٦٨.

الأحجار ذات الألوان والأشكال التي تجذب نظره، عندئذ يلجأ الإنسان إلى بناء عالمه الرمزي الذي يمكنه من فهم التجربة الإنسانية من خلال أشكالها المتباينة ا: اللغة، والدين، والأسطورة، والفن، والعلم وغيرها من الأشكال(١).

ولا تستطيع المعرفة العلمية في هذا الخضم من التساؤلات والإشكاليات إلا أن تقوم بترديد وتكرار ما يحدث حولها ولكن بأشكال وصور مختلفة وهنا تكمن أسس المعرفة العلمية، إنها لا تكمن في الاتجاه الدوجماطي العقلي أو الاتجاه الدوجماطي التجريبي، فهما لا يستطيعان القيام بدور المرشد للعقل الإنساني، لذلك يجب علينا الاهتمام بتشكيل المنهج العقلي والرمزي معاً وهو المنهج الذي يؤدي بنا إلي فهم الظواهر الطبيعية من حولنا وبناء الحضارة الإنسانية(٢).

سابعاً: فلسفة الأشكال الرمزية (الفن)

لا نستطيع أن نتحدث عن فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر دون الإشارة إلى مكانة الفن في هذه المنظومة الفلسفية حيث أن هناك دلالات فلسفية تدور حول الشكل الرمزي في مجال الإبداع الفني باعتبار أن الشكل الرمزي في الفن يعبر عن الروح ويجسدها في بناء حسيّ توضع لبنة في هيكل منظومة فلسفة الأشكال الرمزية لأنه ليس مجرد نسخ لحقيقة واقعية جاهزة، بل هو واحد من تلك السبل العديدة المؤدية إلى تكوين نظرة موضوعية إلى الأشياء وإلى الحياة وإلى الحضارة الإنسانية. فإذا كانت بقية الأشكال خاصة العلم واللغة اللذان يقومان بعملية واحدة هي عملية «التجريد» Abstraction فإن الفن في جوهره عملية «تجسيم» أو «تحقيق عيني» مستمر(٣).

وكما ذكرت في البند السابق يهدف العلم إلى التجريد؛ لأن التجريد يؤدي إلى الحد من ثراء الواقع، أو العمل على إجدابه فيسهل دراسته، مما يجعل أشكال الأشياء التي تأتينا من الواقع كما تصفها لنا المفاهيم العلمية تتحول ببطء إلى صيغ وأشكال بسيطة(٤). بينما يقوم الفن بعكس ما يقوم به العلم، فإنه يلجأ إلى التجسيد وإثراء الواقع لا إجدابه.

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٦٩.

(2) Op. Cit., pp. 413 - 417.

(٣) د. زكريا إبراهيم، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، ص ٢٣٧.

(٤) نفس المرجع، ص ٢٣٦ بتصرف.

وأشار كاسيرر في حديثه عن الفن إلى مجهودات الفلاسفة الذين تناولوا الدراسات الجمالية في أعمالهم ومنهم كولنجوود Collingwood والذي قال إن مهمة الفنان هي العمل على التعبير عن عاطفته لأن الفن كما يراه الكثير من الفلاسفة - منذ أيام أفلاطون حتى عهد تولستوى - يقوم على استثارة الإنفعالات، وتهييج العواطف، وإشاعة الفوضى في نظام حياتنا الأخلاقية(١).

إن الفن وليد المزاج الشخصي أو قل هو «معادلة شخصية» تقوم بعملية تعادلية بين العالمين: الذاتي والموضوعي، العالم الذاتي بكل ما يمثله من حالات نفسية ومزاجية وانفعالات وعواطف متباينة وتجارب ذاتية شخصية، وبين عالم موضوعي بكل ما يمثله من وقائع طبيعية تعطي لنا كما هي وتمثلها الفنون التمثيلية المختلفة بينما تعبر الفنون التعبيرية عن العالم الذاتي.

وتوقف كاسيرر ليستعرض النظريات التي تناولت الفن كشكل من أشكال التعبير عن مظاهر الحياة الإنسانية، وخاصة النظرية الرومانتيكية والنظريات النفسية وقد أفاض كاسيرر في الحديث عن صلة الشعر بالفلسفة، وعلاقة الخيال الشعري بالواقع، وارتباط الجمال باللامتناهي، مما مكّنه من سبر أغوار إمكانياته، وتحديد طابعه، ويعتبر كل من هيجل وشيلنج من مؤيدي هذا الاتجاه.. فهو «مطلق» هيجل و «اللامتناهى» عن شلنج الذي قال إن الميتافيزيقى «هو تلك العناصر البنائية الأساسية لتجربتنا الحسية نفسها، بما فيها من خطوط، ورسوم وأشكال هندسية، وصور موسيقية...إلخ»(٢).

كما أشار كاسيرر عند مناقشته للنظريات النفسية (السيكولوجية) في الفن إلى المذاهب التي توحد بين الفن واللذة، أو بين الفن واللعب أو بين الفن والتأمل، أو بين الفن والحلم. وليس هنا مجال مناقشة كل هذه النظريات التي تناولت الفن كظاهرة إبداعية ولكنني أود أن أشير إلى الفروق بين الفن والعلم التي ذكرها كاسيرر في فصل الفن من كتاب «مقال عن الإنسان».

هناك حقيقة مؤداها أننا كبشر نعيش بعمقين لا بعمق واحد، أحدهما فكري يستطيع العلم أن يبلغه، والآخر بصري خالص يستطيع الفن أن يبلغه، يختص

(١) نفس المرجع، ص ٢٤١.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٤٦.

العمق الأول بفهم علل الأشياء وتتبع الظواهر التي تبدو في عالم الانطباعات الحسية من أجل الوصول إلى عللها الأولى، بينما تختص الثانية برؤية صور الأشياء والانهماك في مظهرها القريب والاستمتاع به، ولكن يتفق العلم مع الفن في توخي الصدق والحقيقة لأن الصدق والحقيقة نظرتان متوازيتان غير متعارضتان(١).

وتتصف فلسفة كاسيرر في الفن بأنها استندت إلى مناقشة علمية دقيقة لشتى النظريات القديمة والحديثة في الفن، حتى استطاع أن يحدد طبيعة الظاهرة الجمالية من خلال معارضته لكثير من آراء الفلاسفة السابقين عليه فجاءت فلسفته الجمالية وليدة فهم حقيقي لطبيعة الفن بوصفه رافداً مهماً من روافد الحضارة البشرية، ومظهراً حيوياً من مظاهر الوعي الإنساني في سعيه نحو اجتلاء الحقيقة الخارجية»(٢).

تعقيب وتقويم

اشتهر عن أرسطو قوله «إن الإنسان حيوان ناطق» واشتهر عن الأديب الروسي فيودور دوستويفسكي قوله «إن الإنسان حيوان أو كائن يتعود»(٣)، وقيل أيضاً إن الإنسان كائن تاريخي أي ذو تاريخ فجاء إرنست كاسيرر الفيلسوف الألماني بقوله «الإنسان كائن رمزي» لا يستطيع أن يستغنى في عالمه عن الرمز بعد أن يخرج من عالمه المادي، وما اللغة والأسطورة والعلم والفن والدين إلا أجزاء من هذا العالم، هذه الخيوط المتنوعة، والعناصر المختلفة والعوالم المتباينة تحاك منها الشبكة الرمزية أي النسيج المعقد للتجارب الإنسانية الذي لم يعد الإنسان بقادر على أن يواجهه وجهاً لوجه فآثر الإنسان الإستعانة بالرمزية Symbolism يعرف عن طريقها كافة الأشكال الحياتية من لغة وصور فنية ورموز أسطورية وشعائر دينية وحقائق علمية، حتى اختلطت عليه الأمور وأصبح يعيش أوهاماً تشبه أوهام فرنسيس بيكون التي ذكرها في «الأورجانون الجديد» من قبل هذه الأوهام الجديدة هي الآراء التي اصطنعها الإنسان لنفسه

---

(١) كاسيرر، مقال في الإنسان، ص ص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٥.

(٣) ورد هذا القول في روايته «ذكريات من منزل الأموات».

عن الأشياء المادية من حوله، وصاغها في رموز مختلفة حتى أصبح كاسيرر ينادي بأن يعّرف الإنسان بأنه حيوان ذو رموز بدلاً من تعريفه بأنه حيوان ناطق أو عاقل أو يتعود أو إنسان ذو تاريخ»[١].

من هذا المنطلق نستطيع أن نقول إنني اختلفت مع المفكرين الذي قالوا إن كاسيرر إنما جاء ليتمم فلسفة كنط، ولكنني أري أن كاسيرر جاء ليتمم كنط وينقده ويصحح ما جاء في نسقه الفلسفي. فالإنسان ليس عقلاً صرفاً كما صوره كنط، وإنما الإنسان أكثر اتساعاً من ذلك إنه يمثل ثقافة تضرب بجذورها في قلب أعماق التاريخ لكي تشكل نسيجاً من أشياء كثيرة لا غنى له عن واحد منها، مهما كانت درجة تحضره وتقدمه، فهو بحاجة ماسة إلى الجانب العلمي العقلي الذي قام كنط بتحليله وتأكيده، وبحاجة أيضاً لا تقل في درجة أهميتها عن الجانب العلمي العقلي إلى الدين، وإلى اللغة، وإلى الأساطير، وإلى الفن، وإلى التاريخ وغيرها من جوانب الحياة المختلفة، إذاً استبدل كاسيرر بالمقولات الكنطية مقولات جديدة أكثر اتساعاً، وأبعد عمقاً؛ لأن المقولات الكنطية وإن كانت ضرورية لكل مشروع فلسفي، إلا أنها مجرد معطيات موضوعية، كما قال فلاسفة ماربورج المنطقية، فهي مقولات محدودة وضعت الإنسان داخل سياجها فإذا نظرنا إلى الإنسان.. إنسان الفطرة.. وجدناه أكثر اتساعاً من مجرد العقل الخالص، والفطرة مطلوبة لحياة الإنسان فهي ضرورة من ضرورات حضارته، وإذا كانت الفطرة ضرورة فأشكال كاسيرر الرمزية لا تتعارض مع الفطرة فهي بالتالي من ضرورات حضارته، وأنا لا أتفق مع الدكتور زكي نجيب محمود عندما يقول عن أشكال كاسيرر الرمزية إنها «قوالب» تصاغ فيها المواد التي تأتي إلى الإنسان من الخارج والخارج يعني الواقع الخارجي، بل هي أشكال وحسب يتخذ منها الإنسان رموزاً تهديه في ضروب حياته المتباينة، ومسالكها الكثيرة الوعرة[٢].

لقد أفاض كاسيرر كثيراً في تفصيلات الشواهد التي جمعها من التاريخ مما يدل على أنه واسع الاطلاع.. غزير العلم مما مكّنه من السياحات الطويلة في

---

(١) الإشارة هنا إلى رأي كاسيرر الوارد بكتابه مقال عن الإنسان، ص ص ٦٧ - ٦٩.

(٢) انظر: د. زكي نجيب محمود، نافذة علي فلسفة العصر، ص ص ١١٢ - ١١٣.

مختلف الحضارات والثقافات، فحاول أن يوحد بينها ويجد لكل خيط من خيوطها المختلف في لونه وشكله وطوله، يجد لها مكاناً في النسيج الذي قام بنسجه حتى يأتي وحدة متماسكة البناء عقلاً وروحاً وعاطفة وبدناً وصحواً وحلماً، وحاضراً وماضياً(١).

إذاً، فبالنظر في فلسفة كاسيرر للأشكال الرمزية نرى أنها لا تختص فقط بالمعرفة العلمية الدقيقة، ولكنها تتعلق أيضاً بكل الأشكال التي ندرك بها العالم المحيط بنا، لأنه إلى جانب الأشكال المنطقية Logical forms ا التي يطبقها التفكير العلمي التصوري المجرد على العالم، هناك أشكال أخرى تختلف عنها من حيث الخصائص والمعنى، ويضع كاسيرر أيدينا عليها من خلال تصورات اللغة والأسطورة والعلم والدين والفن وغيرها من الأشكال الرمزية.. مما يعني معه أن الإنسان تحول في فكر كاسيرر من إنسان له مواصفات خاصة به هي الحيوانية والنطق والاجتماع والتعود إلى إنسان يوجد لنفسه الرموز ويعايشها حتى أصبحت هي الصفة المميزة له كإنسان فإذا كانت الفلسفة النقدية الكنطية قد عنيت أساساً بنقد العقل وتصوراته وقدراته، مما ترتب عليه أن أصبح العامل الحاسم في تمييز الإنسان في ضوء هذه الفلسفة هو العقل النظري المنطقي. ولما كان الجانب العقلي عند كاسيرر لا يمثل كل فعاليات الإنسان وكل قدراته على الفعل، إذاً فلا يمكن أن نرد إليه كل صور الحياة الإنسانية، فتحول العقل النظري المنطقى إلى الرمز يعبر به عن صور حياته ومناحي حضارته(٢).

وإذا نظرنا في أشكال كاسيرر الرمزية نجده قد اهتم باللغة أول ما اهتم لأنها أهم ما يميز الإنسان، ويميز حضارة الإنسان كحضارة إنسانية، وإن كان قد اهتم في معالجتها بالمنهج التاريخى الذي جعله يبدأ من اليونان ولم يبدأ من الحضارات الشرقية في الصين والهند وفارس ومصر القديمة وقد أقاموا حضارات عظيمة اعتمدوا فيها على اللغة والفكر أيما اعتماد، فالإنسان لا يستطيع أن يقيم حضارة مادية عملية دون أن يستند فيها إلى الفكر وإلى خلفية لغوية، ثم جعل اللغة تدخل في صميم النسيج الفلسفي مما جعلها تتحرك في المجال

---

(١) نفس المرجع، ص ١١٣.

(٢) د. زكي نجيب محمود، فلسفة وفن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٤١.

الإبستمولوجي في المقام الأول وظل يؤكد على هذه الوظيفة المعرفية مستعيناً في ذلك بنماذج استمدها من تاريخ الفكر الفلسفي، غير أنه تجاهل الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية وإن كان هذا التجاهل يعد من عيوب كاسيرر المنهجية، هذا بالإضافة إلى إهماله للظروف الاجتماعية والتاريخية التى نشأت فيها اللغة.

وحاول كاسيرر في عرضه التاريخي للغة أن يفرق بين اللغة كأداة للمعرفة العلمية واللغة كأداة للمعرفة الفلسفية، وحاول أن يطبق المناهج العلمية عليها والتوصل إلى نتائج خاصة، ولكنني أرى أن اللغة ككائن حيّ وتعبر عن حضارة كائن حيّ مفكر لا يمكن تطبيق المناهج العلمية عليه كالتي تطبق في البيولوجيا والفزيولوجيا وغيرها، فاللغة فيها جانب إلهي - لا شك في ذلك - ساعد الإنسان على بناء صرح حضارته التي وإن كنا نفخر بها الآن إلا أننا نراها حضارة أساءت كثيراً للإنسان بوصفه إنساناً كرمه ربه فجعله على رأس مملكته الحيوانية.

ومن بين النقاط التي يمكن أن نوجهها لكاسيرر كنقد أنه جعل التصور اللغوي الفلسفي خطوة سابقة على التصور اللغوي العلمي، ناسياً أو متناسياً أن كلا التصورين يختلف عن الآخر في مبناه ومرماه أما في مجال اللغة فهيَ أداة تختلف باختلاف الموضوع الذي تعالجه، ولكن كاسيرر هو ابن عصره الذي سادت فيه فلسفة كنط ومؤثراتها وسادت فيه النظرة الوضعية التي بذرها أوجست كونت ومن بعده آراء تشارلز دارون في التطور والتي تركت تأثيراتها على جل إن لم يكن كل المفكرين في الغرب وبعض المفكرين في الشرق، وكان كاسيرر ابن عصره كذلك لأنه سادت في عصره الآراء العلمية والنظريات والأفكار والاختراعات مما دعا بالبعض إلى أن يقول إن الإنسانية قد خطت منذ عصر التنوير وحتى القرن العشرين خطوات تعتبر أعظم وأكبر وأكثر تقدماً من تلك الخطوات التي قطعتها الإنسانية في القرون السابقة.

وعلى الرغم من أن كاسيرر يعتبر ابن عصره إلا أنه حاول فك حصار العلم وتوسيع نظرته إلى العالم حتى أصبحت نظرته نظرة «بانورامية» - إن جاز ليّ استخدام هذا التعبير - كما كان جون ديوي فيلسوف البرجماتية المعاصر له يعتبر فيلسوفاً موسوعياً فحاول كاسيرر أن يأخذ من كل شيء بطرف.. اللغة والأسطورة والعلم.. الخ.. حتى يستوعب الحقيقة كلها، لذلك حاول الافلات من نظرية كنط

في المكان والزمان والإطار العلمي وكشف الستار عن نماذج مختلفة من أشكال الحياة الإنسانية، ولكنه لم يتخلص من نزعته النقدية التي نادى بها كنط فكانت مناقشة كاسيرر لكيفية قيام اللغة ببناء العالمين الذاتي والموضوعي والتواصل بينهما ثمرة من ثمار هذه الأداة النقدية العظيمة.

ولقد نظر كاسيرر إلى اللغة على أنها توءم الأسطورة يصعب الفصل بينهما بسبب ما يمتلكه كل منهما من وجود حقيقي وقدرة على الفعل، كما أننا نلجأ إلى الأسطورة حتى عجزت اللغة عن توضيح أفكارنا، مما جعل للأسطورة دوراً محدداً ومستقلاً في حياتنا.

ولست أدري لماذا يجمع كاسيرر بين الأسطورة والدين في عنوان واحد من عناوين كتابه التلخيصي «مقال عن الإنسان» مع أنهما جد مختلفين، فالأسطورة تقف أمام مقولاتنا الفكرية الأساسية موقف المتحدي لها؛ لأنها تفتقر إلي المنطق حتى وإن كانت تنطوي على معنى فلسفي، قد يكون ظاهراً أو مختبأ بين ثنايا الحكايات الأسطورية فإنها لا تخضع لما تخضع له مفاهيم الإنسان الأخرى من نقد أو علم لتفسير عقلي أو منطقي حتى كاسيرر نفسه ذهب يقول إن تطبيق مناهجنا العلمية الحديثة على الأسطورة ومحاولة تقديم تقويم عقلي للتفسيرات التمثيلية التي تتضمنها قد يؤدي بنا إلى إنكارها تماماً[1].

إذاً فالأسطورة متغيرة ولم تستطع جماعة واحدة من جماعات الفكر تفسيرها تفسيراً واحداً متفقاً عليه فقد اختلف حوله الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، وعلماء الأنثروبولوجيا، وعلماء الإثنولوجيا والميثولوجيون فجنحوا إلى تفسيرها في علاقتها بالدين تارة، وبالنظريات النفسية لدى فرويد وأتباعه تارة أخرى، وبالشعر الذي يتفق معها في عملية «الإيجاد الفني» تارة ثالثة وبالفن وأشكاله تارة رابعة، أما الدين فهو ثابت وإن تعددت شعائره وفي النهاية لا مجال للربط بين الدين والأسطورة في عنوان واحد مهما يقال عن وجود نقاط إتفاق مثل المشاعر العاطفية.

ويعاود كاسيرر المحاولة لكي يربط بين الفكر الديني والفكر الأسطوري عن

---

(١) كاشيرر، مقال عن الإنسان، ص ١٤٣.

طريق اللغة؛ لأن اللغة هي أشد القوى المحافظة الثابتة في الحضارة الإنسانية، ولولا تلك المحافظة لما استطاعت أن تحقق غايتها الأولى المتمثلة في التوصيل، والتوصيل سواء في مجال الفكر الديني أو الفكر الأسطوري عن طريق اللغة – يتطلب قواعد صارمة مما يتطلب معه أن تكون الرموز والأشكال اللغوية ذات ثبات واستمرار لكي تقاوم متغيرات الزمن، مما يؤكد على أهمية انتقال اللغة من جيل إلى جيل[1].

ومن الغريب حقاً أن يتجه فلاسفة الغرب الذين نعدهم من أكبر فلاسفة الغرب المعاصرين يتجهون اتجاهات تعصبية تخالف دعواتهم إلى الموضوعية ونبذ الأهواء والميل مع الهوى فنجد فيلسوفاً مثل ألفريد نورث هوايتهد يؤكد في كتابه «مغامرات الأفكار» Adventures of ideas (ص ص ٢٨١ – ٣٠٩) على أن الحضارات العظيمة التي قامت شاهدة على عظمة أصحابها في الصين والهند وفارس القديمة (وهنا اغفل الحضارة المصرية القديمة) لم تكن انجازاتها في مجال التقدم العلمي ذات أهمية تذكر حتى الإغريق والرومان لم يحرزا تقدماً علمياً ملموساً حتى سطعت شمس الغرب في القرن السابع عشر فشهد العالم التقدم العلمي الحقيقي.

ورداً على هوايتهد Whitehead وأمثاله نقول إن الحضارات التي قامت في الشرق لم تكن لتقوم اعتماداً على الخيال والقصص والحكايات والأساطير بل لابد لها من أن تقوم على نظريات علمية دقيقة فسور الصين العظيم والطريقة التي تم بها بناء القصور والمعابد في الهند وغيرها لم تكن لتقوم بلا نظريات علمية متقدمة جداً. وللنظر في حضارتنا المصرية القديمة وطريقة بناءها وبقاؤها واستمرار سقوط ضوء الشمس على وجه رمسيس الثاني في معبده بأسوان مرتين في العام مرة يوم مولده ومرة يوم وفاته في شهري فبراير وأكتوبر من كل عام لشاهد على دقة الحسابات الفلكية عند المصريين القدماء وليس هنا المجال لسرد فضل هذه الحضارات على العالم ولولاها ما ظهرت الحضارة الأوروبية في الغرب بدءً من القرن السابع عشر. كما يقول هوايتهد – لقد قامت هذه الحضارات السابقة على أسس دينية وأخلاقية بما فيها الحضارة العربية الإسلامية التي لولاها بالفعل لكان العالم مازال يحبو في مجاهل القرون السابقة.

---

(١) نفس المصدر، ص ص ٣٧٤ – ٣٧٥.

ومن هذا المنطلق كتب ألبرت شفيتسر Albert Schweitzer في كتابه «فلسفة الحضارة» يحذر من قيام الحضارة الغربية على ساق واحدة هي ساق التقدم المادي دون ساق التقدم الروحي، فيقول[1]:

«ولنبدأ فنقرر أن ثمة حقيقة أولية واضحة للعيان والخاصية المروعة في حضارتنا (يقصد الحضارة الغربية) هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحي لقد اختل توازنها. فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل، قد احدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض، وبين الجماعات وكذلك بين الدول. وأثرت معارفنا وازدادت قوتنا إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله. وبهذا أصبحت أحوال الناس المعيشية أفضل من عدة نواح، لكن حماسنا للتقدم في المعرفة وأسباب القوة التي بلغناها جعلنا نتصور الحضارة تصوراً ناقصاً معيباً. فإننا نغالي في تقدير انجازاتنا المادية، ولا نقدّر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره. ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلى التفكير. إنها تقول بلسان جاد إن الحضارة التي لا تنمو فيها إلا النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافيء في ميدان الروح هي أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها».

ولقد وقف كاسيرر موقفاً وسطاً بين الأقطاب المختلفة التي حاولت تفسير الظاهرة الفنية خاصة بين قطبي الذاتية والموضوعية، وهذا يذكرنا بموقف كنط التوفيقي بين الاتجاهات المختلفة وعلى وجه الخصوص بين أقطاب الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي، وهو موقف جوتفريد ليبنتز من قبل ونظراً لأن كاسيرر فيلسوف «بانورامي» لم يكن يرى مانعاً من استعراض بعض النظريات التقليدية في الفن، فناقش نظرية المحاكاة، ونظرية التعبير، ومذاهب الشكليين، وآراء القائلين بالتوحيد بين الفن واللعب، وتفسير أنصار التحليل النفسي للنشاط الفني فكان طوافه كثير وطويلاً وعميقاً.. ضم وجهة نظره في الفن وموقف العلم

(١) ألبرت شفيتسر، فلسفة الحضارة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣٦.

منه. فالفن ضرب من المعرفة ذات طابع خاص مما يؤكد دوران كاسيرر في فلك كنط ومجرة نظرية المعرفة[1].

مما سبق يتضح لنا جميعاً أن فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر قامت على أساس الفلسفة النقدية عند كنط، باعتبارها فلسفة تقوم على أسبقية الصورة على الشيء المادي حيث تمارس الصور أو الأشكال وظيفتها في تركيب معرفتنا عن العالم ثم قام كاسيرر بتوسيع نطاق فلسفة الأشكال الرمزية لتصبح فلسفة الحضارة الإنسانية ككل وتضمها كما تضم الأم وليدها فهو نتاجها الخاص والحضارة نتاج العقل الإنساني الخالص، وهذا ما دعا كاسيرر إلى القول:

«إن المبدأ الأساسي للفكر النقدي – مبدأ أسبقية الوظيفة Function على الشيء – إنما يفترض في كل صورة جديدة ويتطلب شرحاً جدياً ومستقلاً. إذ أنه بالإضافة إلى الوظيفة الخالصة للمعرفة العلمية فإنه ينبغي لنا أن نبحث عن فهم وظيفة التفكير اللغوي ووظيفة الفكر الأسطوري والديني ووظيفة الإدراك الفني»[2].

ومن هنا فإنه لكل صورة أو شكل حضاري مثل الأشكال الرمزية التي عرضها كاسيرر في مؤلفاته خاصة «فلسفة الأشكال الرمزية» و «مقال عن الإنسان» دور مهم في فهم وتفسير التجربة الإنسانية وتقديم صورة جديدة من صور المعرفة الإنسانية، حتى أصبحت اللغة في فكر كاسيرر ليست فقط مجرد محاكاة لمضامين الواقع والعلاقات التي تكشف عنها الانطباعات الحسية، ولكنها أيضاً أصبحت بمثابة اتجاهاً أساسياً ومحدداً لفاعلية العقل البشري وآلياته، ودلالة معرفية للغة قدمت بشكل تاريخي.

مما سبق يتضح لنا أن كاسيرر اعتبر اللغة والفن والدين والعلم مظاهر مختلفة في عملية تطور مستمر وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نتنبأ بها إلا أنها تبدو أمامنا في صورة وحدة عضوية واحدة ويعبر كل مظهر من هذه المظاهر عن الوظيفة الأساسية للتصور الرمزي في الوعي الإنساني، وهي تمنح الإنسان في نفس الوقت القوة لبناء عالمه الرمزي أو المثالي، وهذا العالم الرمزي

---

(١) د. زكريا إبراهيم، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، ص ٢٣٤، بتصرف.

(2) Cassirer, The philosophy of symbolic forms. vol, I, p. 79.

أو المثالي هو ما نسميه بالثقافة الإنسانية ولهذا السبب اعتمد كاسيرر على التحليلات المفصلة لقوى الإنسان وتصوراته، مما يجد الباحثون معه أنفسهم في موقف بالغ الصعوبة حين يريدون تقديم تصور آخر أو تحليل عن آخر، وحين يريدون تقديم مسح مختصر لما قدمه كاسيرر من تحليلات، أو نقد ما هو مهم أو غير مهم، وأي هذه التصورات الرمزية التي يحويها نسقه الفلسفي أحق بتقدمه على الآخر[1].

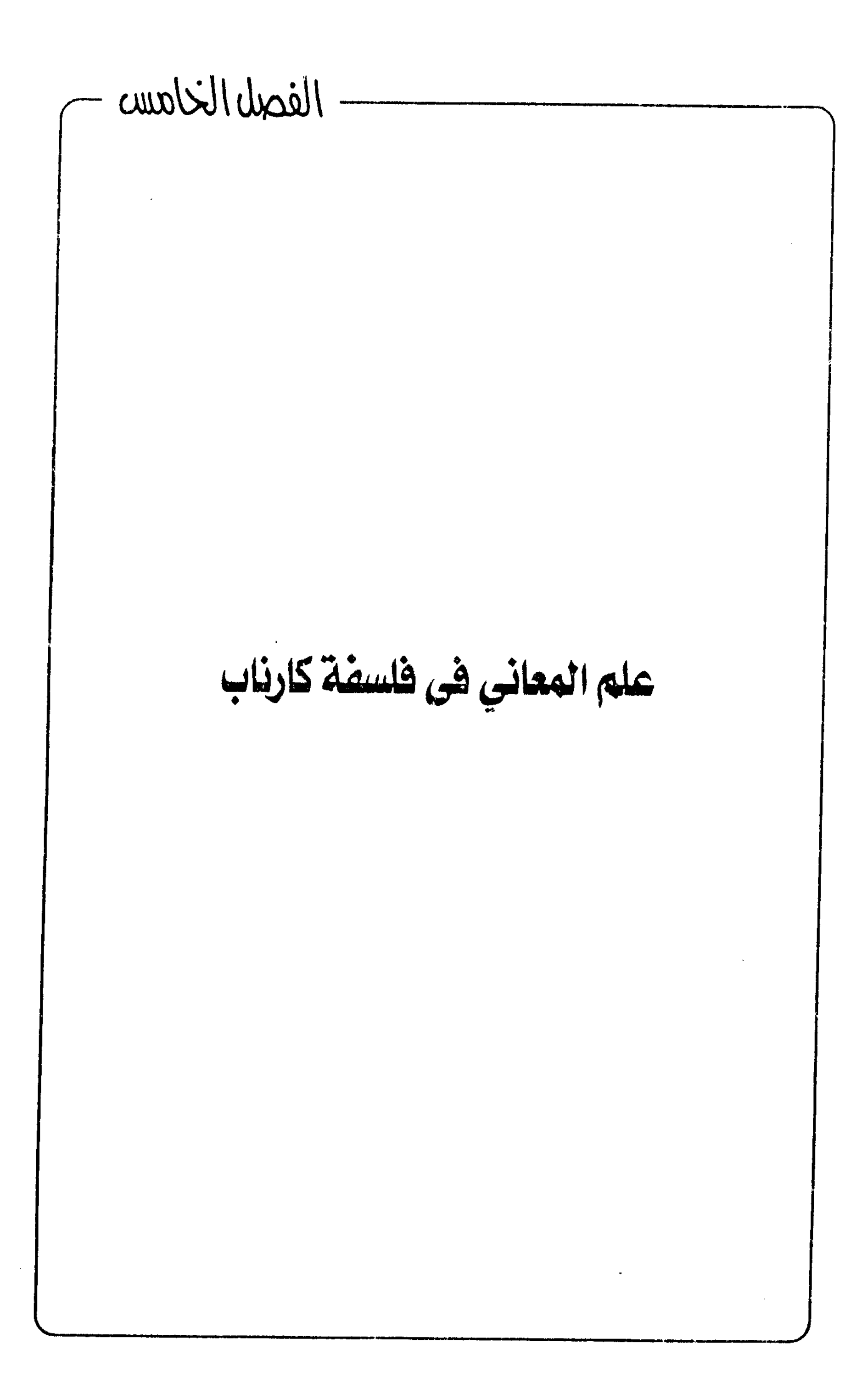
حقاً، إن الشكل الرمزى في هيكل الفلسفة والفكر عند كاسيرر يمثل مفهوماً محورياً وأساسياً وهو من الأهمية بمكان بحيث أن جملة فلسفته قد تم تأسيسها كنسق للأشكال الرمزية على هذا الأساس، باعتبار أن الإنسان كائناً صانعاً للرموز استطاع أن يجعل لها وظائف خطيرة في البناء الحضاري ككل. «فكل هذه الوظائف يكمل إحدها الآخر ويتممه، وكل واحد يفتح أفقاً جديداً ويرينا مظهراً جديداً من مظاهر الإنسانية فيكون المتنافر منسجماً مع نفسه وتتبادل الأضداد اعتمادها بعضها على بعض ولا تتبادل مناهضة إحداها للأخرى، ويكون الأمر كما قال هراقليطس «انسجام في تضاد كحال القوس والقيثارة»[2].

---

(١) انظر أيضاً:

Korner, S., Cassirer, in the Encyclopedia of philosophy, vol, 2, p. 46.

(٢) كاسيرر، مقال عن الإنسان، ص ٣٨٠.



علم المعاني فى فلسفة كارناب



الفصل الخامس
علم المعاني في فلسفة كارناب

مقدمة

بدأ الاهتمام بفلسفة اللغة منذ عرف الإنسان اللغة وأهميتها في تحقيق التواصل بين بني الإنسان . وتحقيق التقدم العلمي عبر العصور المختلفة . بل إن اهتمام الإنسان باللغة بدأ مع تصوره للوجود Being . فقد اتضح عندما استيقظ وعي الإنسان بما في الوجود من وحدة على الرغم من كثرة الأشياء وتعددها .

ويرجع النقاد اهتمام المفكرين باللغة وتصوراتها المختلفة إلى عصر ما قبل سقراط Presocratic era وخير من يمثل هذه الفترة هيراقليطس Heraclitus (٥٤٠ - ٤٨٠ ق.م تقريباً) الذى وجه اهتمامه نحو مشكلتيّ اللغة والعالم وقال : « إن الحكمة هي شيء واحد : أن تفهم الفكرة التي توجه كل الأشياء من خلال جميع الأشياء » [١] .

وكان هيراقليطس يخشى أن يساء فهم هذا الشيء مما قد يوقعنا في خطر داهم ، لذلك حاول أن يرسي دعائم هذا الشيء وسماه « اللوجوس » Logos حيث لا يمكن إدراك الحكمة بعيداً عنه [٢] .

وواجه سقراط Socratis (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م) الفوضى التي أثارها السوفسطائيون ودعا إلى تحديد معاني الألفاظ وتعريفها تعريفاً دقيقاً حتى تتحدد المعاني ويتجنب الناس سوء الفهم ويستقر العلم، وقد تكررت هذه العملية في مراحل مختلفة من تاريخ تطور الاتجاه المثالي ، فإذا كان الفيلسوف المادي قد جعل اهتمامه المعرفي موجهاً نحو أساس واحد للأشياء ، فقد جعلت المثالية هذا الاهتمام يدور حول الفكر، ونحن نرى هذه العملية ليس في تاريخ الفلسفة فحسب

---

(1) Wisdom is But one thing to : understand the thought which steers all things through all things .

(2) Borgmann, Albert, the philosophy of Language : Historical foundations and contemporary Issues, Martinus Nijhoff, the Hague, 1974, pp. 3 - 4 .

ولكن في العلوم المتخصصة أيضاً . فالطريق لم يكن ليؤدي إلى القوانين عبر المعطيات ، ومن القوانين إلى البدهيات والمبادىء ، بل إن البدهيات والمبادىء نفسها استطاعت عند مرحلة معينة من مراحل نظرية المعرفة أن تقدم الحل الكامل الذى أصبح إشكالية هو ذاته (١) .

ولم يقف الأمر عند حدود الفلسفة اليونانية والاتجاه المثالي في مرحلته المبكرة بل إنه استمر حتى تجلي في الفلسفة الحديثة علي أيدي فلاسفة ما بعد عصر النهضة وهم ديكارت الذي نادى بمنهج جديد يواجه به المناهج السابقة من أجل الوضوح والتمايز، فكان الهدف من « المقال عن المنهج » هو « بيان القواعد والإرشادات التي ينبغي أن نتبعها كي نستخدم ملكاتنا العقلية على الوجه الأكمل » (٢) ، وذلك لكي يصل إلى علم رابط موحد وهى الفكرة التي سبق بها كل من أوتو نيوراث ورودولف كارناب .

وإذا نظرنا في كتاب جورج بركلي الشهير « مبادى المعرفة الإنسانية » (١٧١٠) نجده يقول بعد مقدمته « إنني سأكرس كل جهدي لكي أعبر عن نفسي بكل وضوح وصراحة وبأكثر الوسائل المألوفة ، متجنباً كل صعوبة وكذا المصطلحات التي لم يألفها الناس وقد استخدمها غيري لكي يستروا المعنى المجرد والسامي » (٣) كما يرى بركلي إنه بسبب الأخطاء التي يقع فيها الفلاسفة والصعوبات المختلفة التي ترجع بصفة أساسية إلى الاعتقاد الشائع بأن للفرد قدرة على تكوين الأفكار أو التصورات المجردة ، التي هي موضوع المنطق والميتافيزيقا .

ويرجع الاعتقاد بالأفكار المجردة العامة abstract notions في رأي بركلي إلى استعمال الإنسان للغة، فيقول: «إن استعمال الكلام يتضمن الحصول على

---

(1) Cassirer, Ernst, The philosophy of symbolic forms, New Haven, Yale university press, 1961, p. 24 .

(١) برتراند رسل ، حكمة الغرب ، الجزء الثانى ، ترجمة : فؤاد زكريا ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٧٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت صفر ، ربيع أول ١٤٠٤هـ/ ديسمبر ١٩٨٣، ص٦٩ .

(3) Berkeley, George, Treatise concernig of principles of human Knowledge, court series, Int, 6 .

الأفكار المجردة، من هذا نستنتج أن الناس الذين يستخدمون اللغة قادرون على تجريد أفكارهم أو تعميمها ؛ فالناس تعتقد أن لكل كلمة مدلول ، مما يعني أن اللغة هي مصدر عدد كبير من المغالطات في الفلسفة وفي كل أقسام المعرفة على وجه التقريب ، ولذلك فتحليل اللغة تحليلاً سليماً يساعدنا على التغلب على هذه الصعوبات ومحو تلك المغالطات ، (١) .

وما هيراقليطس وسقراط وديكارت وبركلي غير أمثلة على سبيل المثال لا الحصر لكي نتبين مدى اهتمام خاصة المفكرين بموضوع فلسفة اللغة ، ومن بين من اهتموا بها خاصاً رودولف كارناب .

أولاً : من هو رودولف كارناب ؟

ولد رودولف كارناب Rudolf Carnap في ١٨ مايو سنة ١٨٩١ في رونزدورف Ronsdorf بالقرب من بارمين Bormen في ألمانيا ، وتوفي سنة ١٩٧٠ في كاليفورنيا بالولايات المتحدة .

وما بين تاريخ مولده وسنة وفاته وقعت له أحداثاً جساماً فقد تعلم في جامعتيّ فرايبورج Freiburg ويينا Jena من سنة ١٩١٠ حتى سنة ١٩١٤، حيث تخصص في الفيزياء والرياضيات والفلسفة، وكان من بين أساتذته في جامعة يينا الرياضي المنطقي جوتلوب فريجه Gottlob Frege (١٨٤٨ – ١٩٢٥) الذي ترك فيه تأثيره العميق ، وحصل على الدكتوراه سنة ١٩٢١ في الفلسفة من جامعة يينا برسالة جاءت بعنوان ، المكان : إسهام في نظرية العلم ، اهتم فيها ببيان الفروق بين تصورات الرياضيين للمكان وتصور الفيزيائيين والنفسانيين سبب اختلاف معنى لفظة المكان .

وفي سنة ١٩٢٦ دعاه مورتيس شيلك Moritz Schlik ليكون مدرساً مساعداً Privat dozent في جامعة فيينا بالنمسا ، فأجابه إلى دعوته واشترك في مناقشات جماعة فيينا كما سنرى بعد قليل .

---

(١) د. كريم متى ، الفلسفة الحديثة : عرض نقدي ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨، ص١٩٠ . وكذلك د. على عبد المعطي، أعلام الفلسفة الحديثة، الجزء الأول، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧، ص ص١٨٦ – ١٨٧ .

اشترك مع هانز ريشنباخ Hans Rei chenbach (١٨٩١ - ١٩٥٣) في إنشاء مجلة دولية بعنوان « المعرفة » ، استمرت عشر سنوات (١٩٣٠ - ١٩٤٠) .

عين كارناب أستاذاً لكرسي الفلسفة الطبيعية في قسم العلوم الطبيعية بجامعة براج الألمانية حتى هاجر إلى الولايات المتحدة، في ديسمبر ١٩٣٥ إلى الولايات المتحدة بسبب يهوديته وتعصب الغرب ضده . عين في جامعة شيكاغو أستاذاً للفلسفة حتى عام ١٩٥٤ ، وخلالها عمل أستاذاً زائراً في جامعتي هارفارد ، والينوي كما قام باصدار دائرة معارف دولية في العلم الموحد بالتعاون مع أوتو نيوراث وتشارلز موريس .

وخلال هذه السنوات الطويلة أصدر عدة كتب مهمة مازال أثرها واضحاً وقوياً في مجالات العلم والفلسفة حتى يومنا هذا ، وأهم الاصدارات والكتب ما يأتي :

١- التكوين المنطقي للعالم ١٩٢٨ ، The logical construction of the world .

٢- المشكلات الزائفة في الفلسفة ١٩٢٨ Preudo problems in philosophy .

٣- موجز المنطق الرمزي (اللوجستيك) Summary of logistic .

٤- وحدة العلم ١٩٣٢ The unity of science .

٥- التركيب المنطقي للغة ١٩٣٤ The logical syntax of language .

وقد أصدر هذه المؤلفات باللغة الألمانية ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة الإنجليزية .

أما المؤلفات الآتية فقد كتبها باللغة الإنجليزية مباشرة :

٦- الفلسفة والتركيب المنطقي ١٩٣٥ Philosophy and logical syntax .

٧- أسس المنطق والرياضيات ١٩٣٩ Foundations of logic and mathematics .

٨- مقدمة (المدخل) لعلم المعاني ١٩٤٢ Introduction to semantics .

٩- المعنى والضرورة ١٩٤٧ Meaning and Necessity .

١٠- الأسس المنطقية للاحتمال ١٩٥٠ Logical foundations of probability .

١١- النزعة التجريبية وعلم المعاني وعلم الوجود (١٩٥٠) Empiricism semantics and ontology .

١٢- تواصل مناهج الاستقراء (١٩٥٢) The continuum of Inductive Methods.

١٣- إلغاء الميتافيزيقا من خلال التحليل المنطقي للغة (١٩٥٩) The elimination of metaphysics through the Logical analysis of language.

(صدر ضمن كتاب « الوضعية المنطقية » logical positivism الذي أشرف على إصداره ألفريد جيلز إير عام ١٩٥٩) .

١٤- صدر له بعد ذلك بحث « في قضايا البروتوكول » On protocol sentences - Nous 21. [١]

ولقد اهتم كارناب - بتأثير كل من فريجه ورسل وفتجنشتين - بالتحليل اللغوى - المغاير للتحليل الذري المنطقي عند رسل - لقضايا الفلسفة ، وأيضاً التحليل المنطقي للغة العلم (اللغة الكمية) ولم تقف اهتمامات كارناب عند هذا الحد بل لقد عارض النظرية التكرارية للاحتمال في كتابة المهم « الأسس المنطقية للاحتمال » وفيه يعرض لآرائه في الاحتمال والاستقراء ويفرق فيه بين الاحتمال الإحصائي والاحتمال المنطقي ، وقد اتضح تماماً اتجاهه السريع نحو فلسفة السيمانطيقا (علم المعاني) خاصة بعد اتصاله بكل من تشارلز موريس وأوتو نيوراث عند هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي مجال الدراسات اللغوية أبرز كارناب العلاقات بين معاني الفرض والشواهد التي تؤيد هذا الفرض والتي تؤدي بالتالي إلى نتيجة احتمالية .

---

(1) Pollard, Denis, Carnap, in : One hundred Twentieth philosophers, edited by : Stuart Brown, Diane Collinsorn and Robert Wilhinson, Routledge, London and New York, 1998, p. 27.

وأيضاً : د. عبد الرحمن بدوى ، كارناب في « الموسوعة الفلسفية » المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ص٢٤٩ - ٢٥٠ .

وأيضاً : : Reese, William L., Dictionary of philosophy and Religion : Eastern and Western thought, humanities press, New Jersey, 1980, pp. 80 - 81 , 521 .

وإذا كان كارناب قد اهتم بالفلسفة التقليدية أو الكلاسيكية فإن اهتمامه جاء من رغبته الأكيدة في نقض قضاياها ومشكلاتها وأطلق على هذا النوع من القضايا والمشكلات عبارة « الجمل الموضوعية الزائفة » وأكد على أهمية وجود نحو منطقي لتفادي الأخطاء في الجمل التقليدية والنحو العادي أو نحو اللغات الطبيعية .

ولعل اهتمام كارناب بالتحليل المنطقي للغة العلم ، وأيضاً اهتمامه بالاحتمال والاستقراء واللغة الكمية راجعاً إلى اهتمامه بالعلم الذي ساد في عصره وتأثره بالمتغيرات العلمية المتلاحقة والانجازات العلمية والنجاحات التي لاقتها في عصره، وقد اتضح هذا الاهتمام عند نشر الموسوعة الدولية للعلم الموحد بالتعاون مع أوتو نيوراث وتشارلز موريس - كما ذكرت - وفي صحف كتابه « الأسس الفلسفية للفيزياء » وكان يهدف من كل ذلك إلى إيجاد فلسفة علمية دقيقة خالية من التعقيد واللبس والغموض الذي حاول تجسيده فلاسفة آخرون قبله مثل ديكارت وبركلي وغيرهما ؛ فضلاً عن تخليص الفلسفة من الإسراف في التعقيد والإغراق في قضايا ميتافيزيقيه رآها وفلاسفة العلم لغواً وخرافة وزيف [١] .

ثانياً : كارناب والوضعية المنطقية

إن لفظ الوضعية Positivism من اللفظ اللاتيني Positivus بمعنى وضعي أو إيجابي ، وقد ظهرت حركتان وضعيتان الأولى على يد أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) الفيلسوف الفرنسي المعروف بمناداته بوجوب إضفاء السمة العلمية على الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، وكذلك قام فيها بدور مهم كل من جون ستيوارت مل ، وهربرت سبنسر في إنجلترا، ثم قامت الحركة الوضعية المتوسطة والتي ارتبطت بأسمي ارنست ماخ وأفيناريوس أواخر القرن التاسع عشر والتي تعتبر إرهاصاً لظهور آخر مراحل الحركة الوضعية والتي سميت بالوضعية الجديدة Neo - positivism وقد شغلت العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين [٢] .

---

(١) انظر : فؤاد كامل وآخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مراجعة د. زكي نجيب محمود ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص٢٤٣، وما بعدها .

(٢) المعجم الفلسفي المختصر ، ترجمة توفيق سلوم، ص ص٥٤٠ - ٥٤١ .

وقد قامت الوضعية المنطقية الجديدة في فيينا – عاصمة النمسا – لأول مرة على إثر ظهور كتابات لودفيج فتجنشتين وجورج إدوارد مور، وقد أصدر كل من كارناب وهانز هان وريشنباخ ونيوراث وموريس شليك أعضاء هذه الجماعة أو الحلقة مجلة « المعرفة » لتكون أداة تعريف ونشر الحركة الوضعية بأكملها ولكن فاينبرج مؤلف كتاب « الوضعية المنطقية » أكد على جملة الفوارق الظاهرة بين مؤسسي هذه الحركة الأساسيين وبين أنصار حلقة فيينا المتمسكين بالمنطق التجريبي Experimental Logic (١) .

ويفرّق الوضعيون المناطقة بين نوعين من القضايا : قضايا تحليلية وقضايا تجريبية أو عبارات منطقية وعبارات واقعية ، مما يعني أن المعرفة البشرية نوعان : معرفة ترتبط بقواعد اللغة ومعرفة ترتبط بأمور الواقع، الأولى تبدو في القضايا المنطقية والرياضية ومسائل اللغة، وتتمثل الثانية في قضايا العالم الخارجي أو الواقع التجريبي ، وماعدا ذلك فلا يدخل تحت بند المعرفة. أما معيار صحة القضايا الخارجية فهو معيار التحقق verifiability ويضرب جيلز إير مثالاً صادقاً على الرغم من عدم قدرتنا على التحقق منه وهو « هناك جبل على الجانب الآخر من القمر » وبهذا يرفض إير والوضعيون المناطقة قضايا الميتافيزيقا التي تريد أن تصف لنا الحقيقة الكامنة فيما وراء التجربة والحس والواقع وطالما أننا لا نستطيع أن نتحقق من قضايا الميتافيزيقا لا اليوم ولا غداً فإنها تصبح قضايا خلو من المعنى أو زائفة (٢) .

إذاً يرى الوضعيون أن مهمة الفلسفة يجب أن تتركز في البحث في الظواهر التجريبية وتهدف إلى تحليل اللغة وإيضاح المعرفة التجريبية التي تتناول قضايا تنصب أساساً على المضامين الحسية Sense contents أما معيار صدقها فهو السلامة المنطقية في التركيب اللغوي فهو الضمان على الصدق الموضوعي .

---

(١) د. عبد الفتاح الديدي ، الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص٢٩٠ .

(٢) د. زكريا إبراهيم ، مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ص١٠٩ – ١١٠ .
عن: Ayer, A. J., Language, Truth and Logic, Gollanez, London, 1948, pp. 35 - 45 .

ويلاحظ أن الوضعيين المناطقة قصروا الفلسفة ومهامها وموضوعاتها على حقيقة واحدة هي : التجربة العلمية وأي معرفة إنسانية تقع خارج حدودها لا تعد معرفة حقة وموضوعية [1] .

ويجمع الوضعيون المناطقة على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم واتجاهاتهم العلمية والفلسفية على نقاط مهمة أهم هذه النقاط أربع هي [2] :

١ - إن مهمة الفلسفة هي تحليل ما يقوله العلماء وما يقوله الناس في حياتهم اليومية ، لا تفكير تأملي ينتهي بالفيلسوف إلى نتائج معينة يصف بها حقائق الكون وما فيه .

٢ - هي نتيجة ترتبت على النقطة الأولى، وهي حذف الميتافيزيقا من مجال الكلام المشروع؛ لأن التحليل - تحليل عباراتها الرئيسة تحليلاً منطقياً - حتى يبين أنها خالية من المعنى، أي أنها ليست بذات مدلول حتى يصح وصفها بالصواب والخطأ .

٣ - اتفاقهم على أن نظرية « هيوم » في تحليل السببية تحليلاً يجعل العلاقة بين السبب والمسبب علاقة ارتباط في التجربة ، لا علاقة ضرورية عقلية ، أي أننا إذا شاهدنا في تجاربنا شيئين «أ» و «ب» متصلين دائماً ، حدث بينهما ارتباط في أذهاننا بحيث إذا حدثت بعد ذلك « أ » توقعنا أن تحدث معها «ب» وهو ما نسميه ارتباط العلة بالمعلول ، او السبب بالمسبب، إلا أن الأمر كله أمر ترجيح ، لا ضرورة ويقين . «وبهذه النظرة تغير الرأي في القوانين العلمية كلها، إذ أصبحت هذه القوانين قائمة على درجة كبيرة من الاحتمال لا على أنها يقينية حتمية، وبعبارة أخرى أكثر وضوحاً وتصريحاً أصبح العلم الطبيعي يقوم على نفس الأساس الذي يقوم عليه الإحصاء، فإن دل الإحصاء على أن ظاهرة معينة مرجحة الوقوع في ظروف معينة كان ذلك قانوناً علمياً ، مع أن لا يقين هناك، إذ ما يدل الإحصاء على أنه يقع غالباً قد يحدث أحياناً ألا يقع .

---

(١) نفس المرجع ، ص١١٢ .

(٢) د. زكي نجيب محمود ، حياة الفكر في العالم الجديد ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧، ص ص٢٣٨ - ٢٣٩ .

٤- إن قضايا الرياضة - وأيضاً قضايا المنطق الصوري - تحصيلات حاصل لا تضيف عن العالم الخارجي علماً جديداً ، فالقضية الرياضية مثل قولنا ٢ + ٢ = ٤ إن هي إلا تكرار لحقيقة واحدة برمزين مختلفين ، فالرياضة معادلات والمعادلة تعني أن جانبيها متساويان، أي أن ما عبرنا عنه برمز معين في ناحية نعبر عنه هو نفسه برمز آخر في ناحية أخرى ، مما يعني أن قضايا الرياضة كلها تحليلية أو تكرارية، وهي تحصيل حاصل Tautology وهذه هي إحدى النتائج الخطيرة التي إنتهت إليها تحليلات الوضعية المنطقية ؛ لأنها حاولت تفسير يقين الرياضة .

والحقيقة إن هذه الدعوة ليست جديدة كل الجدة بل إنها قد عرفت منذ قرنين من الزمان فهي تعود إلى ديفيد هيوم جد الوضعية المنطقية غير منازع - فقد صرح في كتابه « بحث في العقل الإنساني » An enquiry concerning human understanding أنه يرفض التفكير القبلي كأداة لكشف أسرار الكون المحجب ، وجعل التجربة والرياضة مصدر المعرفة والعلم الصادقين ، وقد أعجب دعاة الوضعية المنطقية بآراء هيوم فرددوا آرائه وحاولوا أن يصلوا بها إلى قمتها عن طريق مبدأ التحقيق Principle of verification وعلى رأسهم كارناب فقاموا جميعاً باستبعاد ما بعد الطبيعة من مجال البحث لأن عباراته لا تدخل في نطاق القضايا التحليلية ولا في مجال القضايا التركيبية، وإنما هي عبارات خلو من المعنى [١] .

وكان لانضمام كارناب إلى هذه الدعوة أكبر الأثر في نشرها وإلباسها ثوب الاتجاهات العلمية، وساعده انضمامه إلى زملائه الآخرين أن يترك لنا إنتاجاً كبيراً ومتمايزاً يكاد يستوعب كل فروع المعرفة العلمية، وقد استمر في نشر إنتاجه العلمي حتى بعد انحسار موجة المد التي امتدت لعقدين كاملين ، ومما

---

(١) د. توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٧٩م ، ص ص٢٧٥ - ٢٧٦ .

وأيضاً : Henle Paul, Meaning and verifiability, in : the philosoply of : Rudolf Carnap, edited by : Paul Arthur Schilpp, La salle Illinois, open court, 1963, pp. 165 - 167.

ساعد على انحسارها أيضاً انفراط عقد الجماعة سواء بالموت أو بالهجرة كما حدث بالنسبة لكارناب .

وسوف نرى كيف انطلق كارناب من هذه الأسس الفكرية للوضعية المنطقية نحو التحليل المنطقي للغة وخاصة دراسة البناء المنطقي للغة العلم «اللغة الكمية» ، وأيضاً الرموز والدلالات والتركيب ، وتركيزه على ما أطلق عليه اسم النحو المنطقي وتأكيده على ضرورة وجوده وإسهاماته فيما عرف في تاريخ الفكر الفلسفي باسم قضايا البروتوكول ومدى ارتباطها بنظرية المعنى (التحقق التجريبي) إلى جانب نظريته في الاحتمال والاستقراء ، كل هذا إنما يقع تحت اسم دراسة اللغة .

ولقد اضطلع كارناب بمهمة مهمة منذ السنوات الأولى لإنشاء الوضعية المنطقية وهي تكوين « تصور للفلسفة » يتسق مع معتقدات الوضعية المنطقية، فإذا كان لودفيج ڤتجنشتين في كتابه « رسالة منطقية وفلسفية » (١٩٢٢) وقد انتهى إلى أن مهمة الفلسفة هي توضيح الأفكار ومبادىء العلوم دون أن يكون لها الحق في بناء الأفكار والمبادىء العلمية ، فحصر بذلك مهمة الفلسفة في دائرة ضيقة ، إلا أن كارناب أراد أن يوسع من تصور ڤتجنشتين فذكر أن مهمة الفلسفة لازالت قائمة ولكنها أصبحت تقوم بتحليل التصورات على غرار ما تقوم به الذرية المنطقية (*) ، إلا أنه يختلف عنها في ناحيتين [1] :

(*) فلسفة الذرية المنطقية The philosophy of logical Atomism قال بها برتراند رسل تحت تأثير فلسفة الرياضيات ، وانسبب الذي أطلقه رسل على مذهبه « ذرية منطقية » ، هو أن الذرات التي يريد الوصول إليها في نهاية تحليله إنما هي ذرات منطقية ، وليست ذرات فيزيائية ، وجزئياته قد تكون اللون أو الصوت أو المحمولات أو العلاقات، إذاً فهو يريد أن يصل إلى ذرة التحليل المنطقي ، وليست ذرة التحليل الفيزيائي.

Russell, Bertrand, The philosophy of logical atomism, Gordon Square, London, 1981, p. 8 .

وفي الترجمة العربية للدكتور ماهر عبد القادر محمد ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٨م، ص٢٩ .

(١) د. السيد نفادي ، مقدمة كتاب رودولف كارناب ، الأسس الفلسفية للفيزياء ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص١١ .

١– يرى الذريون أن التحليل يزودنا بلغة واضحة تكافيء قضايا اللغة العادية بشرط أن يكون معناها وصدقها خاضعين للفهم من قبل الحس المشترك ، فاللغة إذا اختزلت إلى المستوى الذري النهائي لكانت صور مثالية للواقع، إلا أن كارناب رفض هذا الرأي لأنه لا يتسق ووجهة نظر الوضعية المنطقية إذ أن القضايا تتحدث عن علاقة اللغة بالواقعة التي كان يعتقد أنها لا تخضع للإثبات والتحقق .

٢– يرى الذريون أن القضايا التي لا تنتمي إلى المنطق لا يكون لها معنى «معرفي» Epistemological meaning في حين يرى الوضعيون أن للفلسفة معنى « معرفي » ولا يعني هذا أن يكون لها معنى « تجريبي » فالقضايا الفلسفية تتحدث عن العلاقات المنطقية (السيمانطيقية) وخواص التعبيرات اللغوية ، ومن ثم تتماثل الفلسفة مع المنطق بحيث يتسع هذا المنطق وبشكل مناسب لتغطية سيمانطيقا لغة العلوم الواقعية بالإضافة إلى سيمانطيقا الرياضيات، وعليه تصبح الفلسفة أكثر من مجرد منطق للرياضيات ، وفي ذات الوقت تظل الفلسفة مغايرة تماماً للعلوم الواقعية ؛ لأن العلوم الواقعية إنما هي بحث في الطبيعة بينما الفلسفة بحث منطقي في لغة العلوم الواقعية (*) .

« ويحدد كارناب التحليل بقوله : إنه استخراج للمبادىء المنطقية من التركيب اللغوي . وأياً كان الأمر ، فإن الوحدة التي يقع عليها التحليل هي الجملة أو القضية. ويهدف التحليل الذي ينطلق من الجملة (وهي هنا تقوم بدور الواقعة المعطاة أو الملموسة) إلى تفكيك هذا المعطى إلى عناصره المكونة . والجملة الواحدة موضوع التحليل هي الجملة التي بلغت من البساطة حداً يستحيل معه انقسامها إلى جملتين أو أكثر . ولا يصل التحليل إلى هذه البساطة إلا متى صارت الأسماء الواردة في الجملة أسماء أعلام أي أسماء لحالات جزئية، أو لمجموعة من « الأحداث » events ترتبط في شيء أو في كلمة. ذلك

(*) انظر أيضاً :

Ayer, A. J. (editor), Logical positivism, the free press, A division of MacMillan publishing Co, Inc. New York, 1959 .

أن قوام العالم كما يرى رسل أحداث يتبع بعضها بعضاً ، وأشياء العالم مجموعات ترتبط فيها هذه الحوادث فتصير كل مجموعة شيئاً واحداً » [1] .

وكان لابد أن يضع الوضعيون المناطقة معياراً يتحققون به من صدق أفكارهم فجعلوا معيار التحقق verifiability جزءاً لا يتجزأ من نظرية المعنى التي تفرق بين ماله معنى نظري أو « معرفي » وبين الفارغ من المعنى النظري « أو الذي يفتقر إلى المعنى المعرفي » ، وينقسم المعنى الخالي من المعنى النظري / المعرفي إلى ثلاث فئات فرعية هي :

١ - الخلو من المعنى (أي الكلام غير المفهوم كلية) مثل الكلام الذي يتفوه به الطفل متظاهراً بالحديث .

٢ - أساليب الكلام التي تخل بقواعد السنتاكس syntax (أي قواعد بناء الجملة الصحيحة) مثل تلك العبارة التي وردت في كتاب الفيلسوف الوجودي مارتن هيدجر « ما الميتافيزيقا ؟ » والتي مفادها أن « العدم يعدم نفسه » فهذه العبارة خاطئة من جهتين : الأولى أنها تستخدم فعل « يعدم » وهو فارغ من المعنى (أي لا يعطينا مضموناً معرفياً يقابله في الواقع) ، والثانية أنها تتعامل مع الكلمة « عدم » بوصفها اسماً ، وهي في الحقيقة كلمة مشتقة من فعل .

٣ - التعبيرات « الإنفعالية » ويدخل تحت المعنى « الإنفعالي » كل الجمل الميتافيزيقية بالإضافة إلى الشعر والأخلاق المعيارية ، والدراسات الدينية (أي أن الدين لديهم فارغ من المعنى بالمنظار الذي ينظرون به إلى الأمور وهو منظار أعمى) .

أما القضايا ذات المعنى فهي القضايا القابلة لمعيار التحقق من جهة ، أو القابلة للنفي أو الإثبات مثل « إما ق أو لا ق » فهي قضية صدقها ضروري لأنه يمكن التحقق منها عن طريق البرهنة أو الإحصاء الرياضي [2] .

---

(١) موسى وهبه ، التحليل ، الموسوعة الفلسفية العربية ، رئيس التحرير د/ محمد زيادة ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ ، ص٢٣٨ .

(٢) د. السيد نفادي ، مقدمة كتاب « كارناب » ، الأسس الفلسفية للفيزياء ، ص ص١٠ - ١١ .

ثالثاً: الدراسة الفلسفية للغة

وقع كارناب تحت تأثير رسل وڤتجنشتين الذي أعلن في رسالته المنطقية الفلسفية عام ١٩٢٢ أن: «معظم القضايا والتساؤلات التي تتناولها موضوعات الفلسفة ليست كاذبة ولكنها لا معنى لها (*)، لهذا فنحن لا نستطيع الإجابة عن تساؤلات من نوع معين، ولكننا نستطيع أن نذكر حالات الخلو من المعنى، كما أن معظم نتائج الفلاسفة الناتجة عن هذه التساؤلات والقضايا ناتجة عن عدم فهمنا لمنطق اللغة ... وأن الفلسفة هي نقد اللغة Critique of language (١).

كذلك تأثر كارناب بنيوراث وتشارلز موريس فيلسوف اللغة الأمريكي مما جعله ينكب على الدراسة الفلسفية مستبعداً منها كافة العلوم المعيارية كالأخلاق وعلم الجمال وعلم النفس والميتافيزيقا لأن أحكامها تقريرية ولا تخضع للتحقق التجريبي من صدقها، ولكنه لم يفصل الفلسفة عن المنطق، واهتم بالتحليل المنطقي للغة بشكل عام، ولغة العلم بشكل خاص.

ويطلق كارناب على الدراسة الفلسفية العامة للغة اسم «السيميوطيقا Semiotics» أو علم الرموز - التي تنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام هي:

١- البرجماطيقات Pragmatics

وهي تتناول العلاقة بين المتحدثين والسامعين للكلمات التي تنطق أو تسمع وتهتم بالتحليل الفزيولوجي للعمليات التي يؤديها الجهاز العصبي والتي تؤديها أعضاء الكلام كاللسان والأحبال الصوتية والحنجرة.

ثم التحليل السيكولوجي (النفسي) للعلاقات التي تربط بين عملية الكلام -وهي نوع من أنواع السلوك الإنساني- وبين مختلف أنواع السلوك إذاً فالبرجماطيقيات تبحث في الرموز اللغوية وهي مازالت محصورة في الإنسان

(*) " Most propositions and questions that have been written about philosophical matters, are not false but senseless ".

(1) Flew, Antony, in the : " Logic and Language" (First series), edited with an introduction by Antony Few, Basil Blackwell, Oxford, 1955, p. 6 .

الذي يستخدمها وهي تعبر عن عقائد قائليها كما أنها تعبر عن علاقة تربط بين الجملة وبين حالة عقلية أو ميل شخصي لدى قائلها [١] .

٢- التركيب أو البناء اللغوي (السينتاكس)

يتناول التركيب أو البناء اللغوي Syntax العلاقة بين الكلمات والكلمات كما يقول بوبكين [٢] ويمثل – من وجهة نظر كارناب – درجة أعلى من درجات التجريد، فإذا كانت الدراسة البرجماطيقية تشتمل على عناصر ثلاثة هي : العلامات والدلالات والأشخاص الذين يستخدمون تلك العلامات، فإن السيمانطيقا تسقط من حسابها هؤلاء الأشخاص الناطقين بالألفاظ موضوع البحث، لكي تركز انتباهها حول العلامات ودلالاتها في حين يتجه البحث البنائي أو التركيبي Syntax نحو إغفال دلالات العلامات، وتجاهل القائمين علي استخدام تلك العلامات من أجل التوقف على العلامات Sings دون غيرها ، مع الاهتمام بدراسة القواعد التي يمكن بمقتضاها التأليف بين تلك العلامات وتداولها وهي التي يسميها كارناب بقواعد التكوين Formation rules أي قواعد تكوين قضايا اللغة ، بينما يشمل النوع الثاني من القواعد ، قواعد التحويل Transformation rules أي تلك القواعد المستخدمة لاشتقاق قضايا من قضايا [٣] .

وفي مجال البناء المنطقي للغة اهتم كارناب ببيان الفرق بين لغة الموضوع Object - language (*) وبين ما بعد اللغة Meta - Language (**) .

---

(1) Popkin, Richard, H., and Avrum, Stroll, Philosophy, Heinemann, London, Second edition, 1981, p. 309 .

وأيضاً : د. زكي نجيب محمود ، موقف من الميتافيزيقا، دار الشروق ، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م، ص ص٢٠٤ – ٢٠٥ .

وأيضاً : د. علي محسن جمجوم، السيميوطيقا ومشكلات الفلسفة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص٥٦ .

(2) Ibid .

(3) Carnap, Rudolf, The logical syntax of language, Trans. Amethe smeaton, Routledge and Kegan Paul Ltd, London, 1971, p. 2. and pp. 167 - 172 .

(*) Objeksprache .

(**) Metasprache .

أما لغة الموضوع فهي اللغة الرمزية الصناعية أو الاصطناعية التي يصطنعها المتحدث ، وأما ما بعد اللغة فهي تلك اللغة التي توضع فيها القواعد الصادقة على لغة الموضوع، بالإضافة إلى أن نتائج ما بعد اللغة تصاغ بهذه اللغة وتودع بها كل النتائج النظرية المتعلقة بلغة الموضوع وعادة ما تستخدم لغة التخاطب باعتبارها ما بعد اللغة ، ويعزو سبب تسميتها « ما بعد اللغة » إلى أن هذه اللغة تستعمل للتعبير عن لغة الموضوع ، فهي تأتي بعد لغة الموضوع ، ويستعمل هذا النوع في قضايا الهوية المنطقية اتفادي الوقوع في الخلط والتناقضات (١) .

إذاً يعني كارناب بالبناء المنطقي للغة تلك النظرية الصورية للأشكال اللغوية لتلك اللغة ، أي العبارات النسقية للقواعد الصورية التي تحكم ترابطها معاً وتطور نتائجها التي تنتج عن هذه القواعد (٢) ، من أجل أن يقرر في هذا الموضع أن الحدين الأوليين في عملية التركيب المنطقي هما « النملة » Statement و « النتيجة المباشرة » Consequence فضلاً عن أن هناك حدوداً تركيبية أخرى يهتم كارناب بالإفاضة في شرحها ، مثل كلمة « صحيح » أو « شرعي » Valid التي تكاد تساوي لديه كلمة « تحصيل حاصل » Tautology وكلمة « غير صحيح » أو « غير شرعي » Contra Valid التي تكاد تساوي عنده مفهوم « التناقض الذاتي » وهاتان الفئتان من الجمل الصحيحة وغير الصحيحة تكونان من وجهة نظره فئة « الجمل المحددة » Determinate في حين أن كل ما عداها هي « جمل غير محددة » Indeterminate (٣) .

٢- علم المعاني (السيمانطيقا)

إن علم الدلالة ليس نسقاً واحداً متكامل البنيان تكاملاً جيداً ، كما أنه ليس مستوى لغوياً محدداً بوضوح وليس أيضاً علماً من علوم النحو ، ولكنه مجموعة متكاملة من الدراسات في كيفية استخدام اللغة في علاقتها بخبرات إنسانية

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي ، كارناب ، ص ٢٥٣ .

(2) Op. Cit. p. 1.

(٣) د. زكريا إبراهيم ، دراسات في الفلسفة المعاصرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٨ ، ص ص٢٩٧ – ٢٩٨ .

كثيرة مختلفة ومتباينة بإزاء النص اللغوي وغير اللغوي ، وكذلك للمشتركين في حوار ما حيث يختلف باختلاف معارفهم وخبراتهم وظروف تناول اللغة في المواقف المختلفة (١) .

أو هو « الدراسة العلمية للمعنى في اللغة » (٢) ويقول بيير جيرو في كتابه «علم الدلالة » أنه العلم الذي يهتم بدراسة الكلمات » (٣) بينما يذهب بوبكين إلى أن السيمانطيقا تتناول النسق الفكري في علاقته باللغة وما تشير إليه من معانٍ ، أو بين الاسم والمسمى ، أو العلاقات الدالة بالمدلول (المعنى Refernce and signification فهو علم يدرس نظرية المعنى Notion of meaning على وجه العموم (٤) .

وهو ليس بالعلم الجديد ولكن المصطلح ذاته لم يستخدم على نطاق واسع إلا في القرن العشرين فقد درسه من قبل فلاسفة ومناطقة أمثال أفلاطون وأرسطو والاسميون وغيرهم .

وعلم المعاني عند كارناب عبارة عن عملية تجريد نقوم بها بدءاً من الدراسة « البرجماطيقية » ومروراً بالتركيب البنائي المنطقي للجملة وحتى علم المعاني الذي يهتم فيه الباحث بالألفاظ أو العلامات، مع العناية في ذات الوقت بدلالتها أو معانيها، مما يعني معه عدم توجيه الباحث اهتمامه نحو الناطقين باللغة أو مستخدمي الكلمات أو السامعين، ولا يرى كارناب مانعاً من القول بوجود ضربين من علم المعاني أو السيمانطيقا :

١ - علم معاني وصفي وهو عبارة عن دراسة تجريبية للعلامات ومعانيها الواقعية المستخدمة بالفعل في الاستعمال العادي أو الشعبي من جهة .

---

(1) Jackson, Howard, Words and their meaning, Longman, New York, Second impression, 1989, (first published 1988), p. 245. see too : Palmer, Frank, semantics, Cambridge 1981, p. 206 .

(٢) ديفيد كريستال ، علم الدلالة ، ترجمة وتعليق مازن الوعر .

(٣) بيير جارو، علم الدلالة ، ترجمة أنطوان أبو زيد ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م ، ص٥ .

(4) Richard, Popkin, philosophy, p. 310 .

٢- علم معاني محض أو خالص لا يمكن اعتباره دراسة تجريبية بل هي دراسة معيارية تضع قواعد العلامات وتحدد معانيها الصحيحة من جهة أخرى.

وحين يتحدث كارناب عن نسق أو نظام سيمانطيقي خالص، فإنه يعني به لغة اصطناعية تتكون من قواعد محددة تنص على بعض الدلالات ، وتشير إلى مجموعة من العلامات اللغوية، ويضرب كارناب مثالاً لمثل هذه العبارات أو الجمل السيمانطيقية فيقول : إنها « الصفة اللفظية « الواسعة التي تشير إلى خاصية الاتساع بالمعنى « المادي « وهي عبارة سيمانطيقية صرفة تبين لنا كيف ينبغي أن تستخدم كلمة « واسع « في مجال لغة اصطناعية معلومة .

بيد أننا إذا تحدثنا مثلاً عن « مستوى واسع « أو « درجة واسعة « لكان هذا التعبير اللغوي تعبيراً خاطئاً في مجال النسق السيمانطيقي « الذى وردت فيه القاعدة السابقة « [١] .

وقد بدأ اهتمام كارناب بفلسفة اللغة يتجه أولاً إلى الدراسة التركيبية أو البنائية Syntax ولكنه سرعان ما وسع مجال الدراسة فاتجه في بحثه نحو الاتجاهين الآخرين (البرجماطيقيات والسيمانطيقات) فذكر في كتابه «المدخل إلى السيمانطيقا « أو « مقدمة لعلم المعاني « Introduction to semantics « إنني الآن أرى كثيراً من الأبحاث والتحليلات السابقة غير كاملة ، ولو أنها صحيحة، ولابد من اتمامها بتحليل سيمانطيقي يقابلها إذ أن مجال الفلسفة النظرية لم يعد مقصوراً على التركيب المنطقي بل إنه كذلك يشمل كل تحليل آخر للغة بما في ذلك التركيب المنطقي وعلم المعاني بل ربما شمل أيضاً البرجماطيقيات « [٢] .

و « لقد نجح كارناب بادىء ذي بدء في تناوله لفلسفة اللغة - من حيث تكوين عباراتها - متجاهلاً تجاهلاً تاماً أن للكلمات التي يبحثها معان ، أما الآن فلم يعد يقتصر على بحث القواعد التي تتحكم في البناء الصوري للغة، بل أضاف إلى ذلك محاولة أخرى، هي البحث في القواعد التي تجعل للعبارات معنى، فبناؤه الفلسفي قوامه قواعد يزعم أنها تنطبق انطباقاً عاماً وضرورياً على أية لغة كائنة ما كانت، وإذا فهمت هذه القواعد فقد فهمت طريقة استخدام اللغة

---

(١) د. زكريا إبراهيم ، دراسات في الفلسفة المعاصرة ، ص٢٩٦ .

(٢) د. علي محسن جمجوم، السيميوطيقا ومشكلات الفلسفة، ص٥٩ .

على الوجه الصحيح ، وبالتالي فقد عرفت كيف تتجنب الأخطاء الناشئة عن سوء استخدام اللغة » [١] .

ويرجع « موريس كورنفورث » اهتمام كارناب بعناصر السيميوطيقا الثلاثة إلى دراسة تشارلز موريس في كتابه « أسس نظرية العلامات » semiotics Foundations of the theory of signs حيث اهتم بقضية الرمز ذي الشعب الثلاث : شخص يستخدم الرمز، وشيء يرمز إليه ، والرموز الأخرى المشتركة في بناء صيغة أو عبارة ما .

وقد بسط كارناب اهتمامه بعلم المعاني الخالص لأول مرة في كتابه « المدخل إلى علم المعاني » الذي ظهر لأول مرة عام ١٩٤٢م، وفيه يحاول الكشف عن ماهية اللغات في ذاتها وبذاتها ، بعكس ما فعله غيره من الباحثين حين اهتموا بالعمل على ربط استعمال اللغة بالعالم التجريبي ، وليس هناك من سبيل - كما يقول كارناب - للبحث في أي لغة من اللغات، اللهم إلا بالإلتجاء إلى لغة أخرى يكون من الممكن استخدامها لمناقشة اللغة الأولى ووصفها ، وهي التي يسميها الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه : موقف من الميتافيزيقا -باللغة الشارحة - بينما يطلق كارناب على اللغة الأولى ولغة الموضوع و « اللغة الثانية » « ما وراء اللغة » وهو يقصد بها اللغة التي تدور حول اللغة » [٢] .

وبعد عرض أقسام أو عناصر السيميوطيقا التي وضعها كارناب لدراسة اللغة دراسة منطقية، فإننا سنجد إنه يطبقها أيضاً على كافة الموضوعات الأخرى التي درسها سواء اللغة الكمية (لغة العلم) ، أو نقده للميتافيزيقا ، أو في نظرية الصدق والاحتمال .

رابعاً : آراء كارناب في الاحتمال

قد لا تكون آراء كارناب في الاحتمال ومنطق الاستدلال الاستقرائي جديدة كل الجدة، أو حتى بعضها ، إلا أن عرض هذه الآراء مهمة في هذا السياق لارتباط آرائه في الاحتمال بفلسفته في السيمانطيقا (علم المعاني) .

---

(١) د. زكي نجيب محمود، موقف من الميتافيزيقا ، ص٢٠٦ .

عن : Cornforth, Maurice, In defence of philosoply, p. 84.

(2) Carnap, Logical syntax of language, p. xiii, p. 286 .

وفي كتاب د. زكريا إبراهيم ، دراسات في الفلسفة المعاصرة ، ص ص٣٠٢ - ٣٠٣ .

ويرى كارناب أن العبارات التي تقال مثل : « من المحتمل لدرجة عالية بناءً على ما تحت أيدينا من شواهد أن سميث مذنب فيما اتهم به » .

فإن مثل هذا النوع من العبارات لا يمكن شرحه اعتماداً على نسب التردد Frequency التي يمكن التحقق منها تجريبياً في فئة من الأحداث التي تعد وتتكرر، كما هو الحال في عبارة مثل :

« نسبة احتمال الحصول على وجه عملة بقطعة نقد تلقى لعدد كاف من المرات تبلغ النصف » .

وتقرر مثل هذه العبارة في حقيقة الأمر أنه في سلسلة طويلة من الرميات التي تلقى فيها قطعة النقد ، تسقط القطعة على ظهرها فيما يقرب من نصف عدد الرميات .

أما عبارة النوع الأول فيعتقد كارناب أن كلمة « محتمل » تشير إلى علاقة منطقية بين الشواهد والفرض الذي أقمناه على أساسها ولما كان هذا المعنى المنطقي للاحتمال هو – فيما يعتقد كارناب – المعني الذي نقصده في تقديرنا لقوة الشواهد التي تنهض على صدق نتيجة ما في البحوث الاستقرائية ، هذا وقد حاول كارناب أن يضع جهازاً رمزياً واضحاً لتمثيل هذه العلاقات المنطقية ، وابتكر أيضاً أنواعاً مختلفة ومتباينة من المقاييس العددية لقياس درجات الاحتمال المنطقي (١) .

إذاً فإن كارناب يفرق بين نوعين من الاحتمال : الاحتمال العشوائي Random probability وتمثله العبارة الثانية، والاحتمال المنطقي Logical probability الذي لا يعتمد على الصدفة وإنما يعتمد على علاقات منطقية تعبر بالتالي عن درجة التأييد، وقد أخذ كارناب أيضاً بتصور الاحتمال لأن المشكلة الأساسية في مجال العلوم الاستقرائية ، مشكلة منطقية وسيمانطيقية، وهذا أيضاً ما يميزها عن المشكلات المنهجية Method logical problems (٢) .

---

(١) فؤاد كامل وآخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ص٢٤٤ – ٢٤٥ .
وأيضاً : Kemeny, John G., Carnap's theory of probability and induction,
in : the philosophy of Rudolf Carnap, pp.711 - 718 .

(٢) د. ماهر عبد القادر ، فلسفة العلوم الطبيعية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠، ص ص١٤٩ – ١٥٠ .

ولكن لماذا أخذ كارناب جانب الاحتمال المنطقي ؟

إن كارناب حين يأخذ بالاحتمال المنطقي فإنه يعني به العلاقة بين فرض ما والشواهد التجريبية التي تقوم دليلاً على صدقه ، وهو لا يقصد مجرد تدعيم الفرض بأمثلة أو حالات جزئية تؤيده ، وإنما يأخذ التدعيم بمعنى خاص ، وهذا المعنى يتمثل في التحليل المنطقي للعلاقات بين الفرض والشواهد ، لكي يبرز إبرازاً واضحاً العلاقات بين معانيها، وهو بيت القصيد؛ لأننا إذا فهمنا علم المعاني بأنه نظرية في معاني الجمل في لغة ما إذاً تكون العلاقات بين فرض ما والشواهد التي تؤيده علاقات تقوم على علم المعاني أي علاقات سيمانطيقية؛ ويدخل ضمن المنطق الاستقرائي وليس المنطق الصوري الاستنباطي ، لذلك يسميه بالاحتمال المنطقي أو الاستقرائي ويعتمد في تحقيق صدق الفروض على التركيب المنطقي للشواهد وقوانين الاستدلال الاحتمالي ، وينأى عن الوقائع الفيزيائية أو التنبؤ بحوادث مستقبلية (١) .

وكان من الطبيعي أن يواجه كارناب نقداً من الفلاسفة التجريبيين فهم يرون أن تصور الاحتمال ينكر مبدأ التجريبية ، وأن تصور الاحتمال الذي أخذت به نظرية تكرار الحدوث هو التصور الوحيد المقبول الذي يتسق مع الاتجاه التجريبي .

ومن الطبيعي أن يرد كارناب قائلاً إن نظرية تكرار الحدوث تمثل تصوراً عددياً لاحتمال ما مثل « احتمال سقوط المطر غداً » فتصور التجريبيين تصوراً خاطئاً حيث لا يتمثل بالضرورة طبيعة قضية الاحتمال فنحن في هذا التصور لا ننسب قيمة عددية لاحتمال سقوط المطر غداً ، وإنما القيمة العددية تنسحب فقط على العلاقة بين التنبؤ بالمطر ، والتقدير الذي لدينا من الأرصاد الجوية ، فنحن نأخذ في اعتبارنا فقط العلاقة المنطقية ، فالقضية تكون صادقة صدقاً

= Carnap, R., The Two concepts of probability, in : Readings in : عن philosophical Analysis ed, H., Feigl and W. Sellars, New York, 1949, pp. 336 - 337 .

(١) د. محمود فهمي زيدان ، مناهج البحث في العلوم الطبيعية المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص٩٢ .

تحليلياً إذا كانت صادقة ، وعلى هذا فإنها ليست بحاجة للتحقيق بطريق ملاحظة الطقس غداً، أو أية وقائع أخرى » (١) .

وبهذا أراد كارناب للاحتمال أن يكون علاقة منطقية أكثر مما أراد كينز ، وعليه فقد أضاع الهدف الأساسي لنظرية الاحتمالات عند العلماء ، وهو : ما معيار الصدق الاحتمالي لأي نظرية علمية (٢) ؟

خامساً : نظرية إمكان التحقيق التجريبي

إذا أردنا أن نتحدث عن « قضايا البروتوكول » وهي لب فلسفة اللغة عند كارناب والأساس الذي أقام عليه البناء المنطقي للغة العلم ، فلابد من الإشارة إلى نظرية إمكان التحقيق التجريبي عند مدرسة الوضعية المنطقية التي كان كارناب من أهم ممثليها وأكثرهم نضجاً خاصة في مجال علم المعاني .

وقد أدرك فلاسفة الوضعية المنطقية مبدأ التحقيق التجريبي وأهميته بازاء تحقيق القضايا التجريبية، إلا أنهم لم يتفقوا على معيار محدد لتمييز هذا المبدأ رغم أنهم « يشتركون في تصورات واحدة بعينها ويواجهون المسائل بنفس الطريقة » ، فالقضايا التي تعبر عن عالم الواقع، وبقية قضايا العلم والتعميمات الاستقرائية هي من هذا النوع من القضايا المسمى « بالقضايا التجريبية » ويتوقف صدقها على إمكان تحقيقها تحقيقاً لا على الاستنباط الصوري (٣) .

ويسمى الوضعيون المنطقيون نظرية إمكان التحقيق التجريبي Verifiability بنظرية المعنى التي مؤداها أن « معنى قضية ما هو طريقة تحقيقها » . ويقصد بها هنا القضايا التجريبية أو التركيبية وهي ليست قضايا الرياضيات البحتة والمنطق والقضية التجريبية يكتسب معناها في حالة إمكان خضوعها للتحقيق

---

(١) د. ماهر عبد القادر ، فلسفة العلوم الطبيعية ، ص١٥٢ ، عن نفس المصدر ، ص٣٤٢ .
(٢) د. محمود فهمي زيدان ، مناهج البحث في العلوم الطبيعية المعاصرة ، ص٩٣ .
(٣) انظر :
أ- د. ماهر عبد القادر ، فلسفة العلوم الطبيعية ، ص١٩٩ .
ب- د. محمود فهمي زيدان ، الاستقراء والمنهج العلمي ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦٦، ص١١١ .
جـ- د. محمد ثابت الفندي ، مع الفيلسوف ، دار النهضة العربية ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٧٤، ص٢١٦ .

التجريبي مما يمكننا من الحكم عليها صدقاً أو كذباً ، أما وسيلتنا إلى ذلك فهو إمكان تحقيقها تجريبياً بطريقة مباشرة ، أو استنباط ما يلزم عنها من قضايا تخضع للتحقيق التجريبي المباشر وهو ما تسميه الوضعية المنطقية بمبدأ إمكان التحقيق القوي ، إلا أن هذا المبدأ لم يستطع أن يصمد أمام سهام النقد التي وجهت إليه خاصة من المناطقة وفلاسفة العلم ، مما جعلهم يلجأون إلى استبدال التحقيق بالتدعيم confirmation ، أي يكفي لتحديد معنى قضية ما أن يكون من الممكن أن ترتبط بمجموعة قضايا تؤيدها ، وتدعمها بدرجة ما ، وذلك بأن تكون على درجة عالية من احتمال صدقها » (١) .

ويذكر كارناب في هذا الصدد « لا أظن أنه من الإنصاف أن نقول إن أغلب الفلاسفة أو على الأقل التجريبيين منهم – يتفقون اليوم على أن تصور التحقيق بالمعنى الدقيق لا ينطبق على قضايا عن الأشياء الطبيعية ، ويذهب بعض الفلاسفة أيضاً إلى القول أننا لا نستطيع الوصول إلى معرفة يقينية مطلقة عن الأشياء (٢) .

ولقد وضع كارناب قواعد لتصوره الجديد عن تركيب المعرفة التجريبية ، أكثر تساهلاً من النظرية الأصلية وهذه القواعد هي (٣) :

١ – كل الأقوال التركيبية يجب أن تكون قابلة للتحقيق تحقيقاً تاماً ، وهذا هو مبدأ التحقيق التام .

٢ – كل الأقوال التركيبية يجب أن تكون قابلة للتأكيد تأييداً تاماً ، وهذا هو مبدأ التأييد التام .

٣ – كل القضايا التركيبية يجب أن تكون قابلة للتحقيق ، وهذا هو مبدأ التحقيق.

٤ – كل القضايا التركيبية يجب أن تكون قابلة للتأييد ، وهذا هو مبدأ التأييد .

ولقد رأى أوتو نيوراث أن موريتس شليك أوقع نفسه واتفق معه كارناب في أول أمره – في مأزق ميتافيزيقي حين اشترط ربط القضية بالواقع أو بتحقيقها

---

(١) د. محمود فهمي زيدان ، في فلسفة اللغة ، ص١٢٥ .

(٢) د. محمود فهمي زيدان ، مناهج البحث في العلوم الطبيعية المعاصرة ، ص٩١ .

(٣) د. عبد الرحمن بدوي ، كارناب ، ص٢٠٢ .

التجريبي كي يكون لها معنى، وابتعد عن هذا الشرط وأراد في ذات الوقت أن يظل مخلصاً للاتجاه التجريبي المتطرف، فنادى بموقف جديد في صورته -وإن كان قديماً في مضمونه - وهو الاعتماد على ما أسماه بـ « القضايا البروتوكولية » (١) .

سادساً : القضايا البروتوكولية

تكتسب الكلمات في اللغة مدلولاتها ومعانيها عن طريق ردها إلى كلمات أخرى في اللغة ، وهو ما يمكن أن نسميها « جمل المشاهدة » أو « جمل العبارات / القضايا البروتوكولية Protocol statements » .

أما ما هي القضايا البروتوكولية ؟ فيقول عنها كارناب : « إنه بالنظر إلى أهدافنا ، فمن الممكن أن نتجاهل تماماً التساؤل عن محتوى الجمل الأولية وصورتها والجمل أو العبارات البروتوكولية والذي لم تتم الإجابة عنه بالتحديد حتى الآن ، وبغض النظر عن تنوع الآراء واختلافها ، فمن المؤكد أن تسلسلاً من الكلمات يكتسب مدلولاً فقط إذا تم رد علاقات استنباطه إلى الجمل البروتوكولية ، مهما تكن مميزات هذه الجمل البروتوكولية ، وبالمثل يقال لكلمة إنها ذات معنى أو فحوى أو محتوى أو مضمون إذا أمكن إرجاع الجمل التي ترد فيها إلى جمل بروتوكولية (٢) .

ويتم رد الجمل أو القضايا أو العبارات البروتوكولية عن طريق سلسلة من التعريفات التي ترد بالتالي إلى مجموعة من الرموز الموجودة في تلك الجمل أو القضايا أو العبارات ، والرمز بهذا المعنى يمكن تقديمه كرمز بسيط أولي primitive symbol ، ويأتي عن طريق قضايا بروتوكولية أولية أيضاً ولكنها قابلة للتحقق .

ولنأخذ مثالاً على ذلك :

---

(١) د. محمود فهمي زيدان ، في فلسفة اللغة ، ص١٢٧ .

(2) Carnap, Rudolf, The elimination of metaphysics Through logical analysis of language, in : Ayer. A.J. Logical Positivism, ed, the free press, Glencoe, Illinois, 1959, p. 63.

تبدأ القضايا البروتوكولية من العبارات التي يتم مشاهدتها في صورتها العادية أو المعتادة ، فقوة الطاقة الموجية في المجال الكهربائي في الفيزياء الكلاسيكية (التقليدية) ليست محددة برموز كتلك التي توجد في الجمل أو القضايا البروتوكولية، بل إنها تقدم لنا كرموز بسيطة أولية جاءت في معادلات ماكسويل Maxwell equations (*) التي صاغها كقضايا بروتوكولية بسيطة بحيث لا توجد عبارة أو قضية تكافيء هذه المعادلة التي قدمها ماكسويل والتي تحتوي فقط على رموز تلك القضايا البروتوكولية على الرغم من استدلال تلك القضايا بطريقة متزامنة مع القضايا الأولية للفيزياء الكلاسيكية .

وبناءً عليه فإن نظرية ماكسويل نظرية يمكن التحقق منها تجريبياً (١) وهذه هي القضايا البروتوكولية القابلة للتحقيق وتتفق ومبدأ التحقيق الذي وضعه كارناب، وقاعدته الثالثة من قواعد تصوره الجديد عن تركيب المعرفة التجريبية .

وقضايا البروتوكول هي أبسط القضايا وأقربها إلى التحقيق المباشر وتعبر عن خبرات مباشرة، ويشترط أن تحوي ضمير المتكلم ، فيقول أوتو نيوراث لنفسه - على سبيل المثال - في الساعة ٣و ١٦ دقيقة قال أوتو لنفسه في الساعة ٣ و١٥ كانت توجد منضدة أدركها ، أوتو ، ومعنى بروتوكول Protocol هو تسجيل دقيق لما عاناه الشخص في خبرته، أي أنها معاناة شخصية . ويذهب نيوراث إلى أن معيار معنى أي قضية هو ردها إلى قضية أو أكثر - من قضايا البروتوكول - وهي القضايا البسيطة - لكن القصد من هذا المعيار لم يكن ربط القضية بالواقع التجريبي كي يكون لها معنى كما قصد شليك ، وإنما القصد ربط القضية ذات المعنى باتساقها مع قضايا بروتوكول أخرى واتساقها مع سائر القضايا التي ترتبط بالقضية الأصلية أو ما يلزم عنها ، فإذا تعارضت قضية ما مع نسق القضايا المقبولة حكمنا عليها بالكذب ، إذاً فمعيار المعنى هو معيار الاتساق Coherence لا معيار مطابقة الواقع أو مناظرته Correspondence (٢).

(*) كلارك ماكسويل Clarck Maxwell له أبحاث في مجال خواص الغازات عن طريق الفرض الذري، وتعريف الكتلة Mass وغيرها من مجالات الفيزياء الحديثة .

(1) Carnap, R , The logical syntax of language, p. 319 .

(٢) نفس المرجع ، ص ص١٢٧ - ١٢٨ .

عن : Neurath, Otto, protocol sentences in : logical positivism, ed, by : Ayer .

ويرى كارناب أن التناسق أو الاتساق بين مجموعة من القضايا ليس كل ما نرغب فيه ، وإنما نريد التناسق والاتساق في المجموعة التي تتضمن قضية من قضايا البروتوكول ، ويستند صدق هذه القضية بدورها إلى نتائج الملاحظات التي يقوم بها العلماء المعاصرون وهذا أساس ثقتنا في قضايا البروتوكول (١) .

وعلى الرغم من هجوم شليك وجيلز إير على فكرة القضايا البروتوكولية إلا أن كارناب قبل صياغة نيوراث لمعيار صدق المعنى ومبدأ إمكان التحقيق ثم قام بإعادة صياغتها بشكل أبسط وأعطانا أمثلة أكثر وضوحاً لقضايا البروتوكول مثل : الآن يفرح Joy Now أو هنا أزرق الآن Here now blue ، أحمر ، هناك There, red ، مما يعني أن أي قضية تجريبية أو قانون علمي يجب أن يرتد إلى قضية ملاحظة مشابهة لتلك القضايا ، فضلاً عن توفر شرط ضروري وهو الاتساق بين قضايا البروتوكول والقضايا المطلوب تحديد معناها ، ثم عاد كارناب وتخلى عن معيار الاتساق وفكرة قضايا البروتوكول بعد هجوم شليك وإير الذي أشرت إليه (٢) .

وقد فعل كارناب خيراً إذ غيّر موقفه تجاه فكرة القضايا البروتوكولية لأنه من غير المقبول بل ومن المحير أن نمضي من هذه القضايا إلى إثبات قوانين العلم، وهي قضايا غير مفهومة بالإضافة إلى تخلي أصحابها عن صياغتها وفقاً لقواعد النحو المتعارف عليها في أية لغة ، وافتقارها أيضاً إلى قواعد النحو المنطقي وحتى الصيغة التي تعتبر مفهومة إلى حد ما – وليس على الإطلاق – التي أوردها نيوراث ، حكم نيوراث نفسه بوجوب وجود صيغة المتكلم بها وهو بهذا يحيل العلم من الموضوعية التي ينادي بها العلماء وفلاسفة العلم إلى الذاتية غير المرغوب فيها في مجالات العلوم المختلفة .

وقد رفض في نفس الوقت كل من كارناب ونيوراث وجود الوقائع الذرية atomic facts التي قال بها رسل في كتابه : « فلسفة الذرية المنطقية » على أساس أنها لا توجد لا في الخبرة المكتسبة ولا في الاستدلال المنطقي دون الرجوع إلى القضايا الذرية atomic propositions وأنكرا كذلك إمكان مقارنة

---

(١) د. محمود فهمي زيدان ، الاستقراء والمنهج العلمي ، ص١٩٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص١٢٨ .

القضايا مع الواقع غير اللغوي ، وأحلا مكانه المبدأ القائل « كل قضية يجب أن تكون مقررة بدرجة محددة من الاحتمال » فالقضايا يجب أن تقارن بقضايا مثلها ، أما تحقيق القضايا فيتم بمقارنتها بقضايا البروتوكول لا بمقارنتها مع الوقائع المختبرة » (1) .

وكان تأثير ألفريد تارسكي (١٩٠٢ -- ١٩٨٣) Alfred Tarski على كارناب عظيماً مما جعل الثاني يعدل عن قوله بأن صدق القضية يأتي من اتساقها مع قضايا أخرى سبق لنا قبولها ، وقال إن صدقها يأتي من مطابقتها للواقع وليس من اتساقها مع قضايا أخرى سبق قبولها، وهذا ما أطلق عليه تارسكي عليه اسم « النظرية السيمانطيقية للصدق » مما جعل كارناب يتأكد من أن اللغة ليست فقط قواعد بناء جمل وتراكيبها وإنما دلالات على واقع وتعبير عن معنى في الدرجة الأولى، وبهذا تحول كارناب عن طوره الأول الذي كتب فيه كتابه « التركيب المنطقي للغة » Logical Syntax of language إلى طوره الثاني الذي عني فيه بالسيمانطيقا أو علم المعاني ، وكان ذلك بدءاً من عام ١٩٤٢ ، حين نشر كتابه «مقدمة أو مدخل إلى علم المعاني » Introduction to semantics في كتاب «المعنى والضرورة Meaning and Necessity (2) .

سابعاً : النظرية السيمانطيقية للصدق

فرض واقع العلم وواقع اللغة على كارناب أن يتحول إلى الاشتغال بعلم المعاني ويسمى أحياناً بعلم الدلالة أو السيمانطيقا بعد أن اقتصر عمله على النحو، ففي هذين المجالين ترد المفاهيم الدلالية كالمدلول والصدق، إذ لا يمكن استبعادها أو التغاضي عن أهميتها ، فضلاً عن أنه يصعب على الأبحاث النحوية معالجتها ؛ لأن الصدق لا يتعامل إلا مع صور العبارات فقط، وقد استند

---

(1) Fuller, B. G., A History of philosophy, Oxford and I B H publishing Co., New Delhi, 1955, p. 599 .

(2) Nagel, Ernest, Carnap, in : the Concise Encylopedia of Western philosophy and philosophers, edited by : O. Urmson and Jonathan Rée, Routledge, London and New York, 1989, p. 316 .
وأيضاً : د. محمود زيدان ، في فلسفة اللغة ، ص١٢٨ .

كارناب على دراسات تارسكي الذي مايز من قبل بين اللغة التي نتكلم عنها واللغة التي نتكلم بها ، فلا يجوز بناء علم المعاني للغة ما باللغة نفسها ، بل يجب استخدام لغة أخرى صورية يمكن بواسطتها صياغة المفاهيم الدلالية ، كالصدق ، صياغة دقيقة (١) .

فإننا إذا وصفنا عبارة ما بأنها « صادقة » فكلمة « صدق » True هنا تعتبر كلمة زائدة ، لا ضرورة لها ، لأن قولنا عن عبارة ما أنها صحيحة مساوٍ لقولنا إن تلك العبارة ليست صادقة ، فقولنا على سبيل المثال ، « القمر مستدير عبارة صادقة » ، مساوٍ لقولنا « القمر مستدير » .

ذلك لأننا إذا نطقنا بعبارة كان هناك أمامنا شيئان :

١- الشيء الذي نشير إليه بالعبارة التي نطقنا بها وهو ما سماه كارناب - Object subject .

٢- العبارة نفسها .

والمفروض هو أن تكون العبارة تصوير للشيء كأننا نصف أمامنا شيئاً وصورته وأصبحت كلمة « صادقة » بغير مدلول لأن الشيء المصور ليس فيه جزء نسميه صدقاً ، وبالتالي فهي اسم بغير مسمى، أعني أنه رمز لا موجب له، فيجب حذفه، ومن الواضح أنه إذا اقتصر باحث في بحثه على التشكيلات اللغوية وحدها، أعني أنه لو اقتصر على بحثه للطريقة التي تتكون بها العبارات اللغوية ، والطريقة التي يمكن بها اشتقاق عبارة من عبارة - وهذان هما قوام البناء المنطقي للعبارة السينتاكس Syntax لما كان هنالك حاجة إلى استخدام كلمة « صدق » True أو كلمة كذب "false" إطلاقاً ، إذ تبدأ الحاجة إلى استعمال هاتين الكلمتين حين نلتفت إلى عالم الأشياء لنرى هل التركيبة اللفظية تصور أولاً شيئاً من الواقع ، ولعل هذا هو ما حدا بكارناب أن يضيف بحثه في علم المعاني إلى بحوثه المنطقية النحوية الأولى (٢) .

---

(١) د. وداد الحاج حسن ، رودولف كارناب ونهاية الوضعية المنطقية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ ، ص١٣٦ .

(٢) د. علي محسن جمجوم السيميوطيقا ومشكلات الفلسفة ، ص ص٦٥ - ٦٦ .

وكلمة « صدق » هنا مستخدمة بالمعنى السيمانطيقي الذي وصفه العالم المنطقي تارسكي حين قال : إنك حين تقرر أن جملة ما « صادقة » فإنك في الحقيقة لا تقرر شيئاً آخر سوى الجملة نفسها، وإذا كان من الملائم هنا استخدام هذا التصور السيمانطيقي للصدق ، فما ذلك إلا لأنه - فيما يقول كارناب - يسمح لنا بأن ننتقل انتقالاً مباشراً من مستوى إلى مستوى آخر ، كأن ننتقل مثلاً مما وراء اللغة Meta - language إلى لغة الموضوع Object - subject [1] . وهي نقطة ثالثة يتأثر فيها كارناب بتارسكي، ويتجلى التأثر في أنه قرر أن صدق جملة ما يكون في الحقيقة لا شيء سوى تقرير الجملة نفسها ، وهو ما أوضحناه سلفاً .

ولكن إذا كان صدق العبارة معناه مطابقتها للشيء الخارجي أو للواقعة الخارجية، فماذا نقول في صدق قواعد المنطق نفسها، مع أن هذه القواعد صدقها يعتبر صدقاً ضرورياً يستحيل عليه الخطأ ؟

خذ - على سبيل المثال - قاعدة أن النقيضين لا يجتمعان معاً ، فلا يجوز قبول عبارة كهذه « س ولا س » هذه قاعدة « صادقة » بالضرورة ، فما معنى « صادقة » في هذه العبارة ، مع أنه ليست هناك في عالم الأشياء الواقعية ما نرجع إليه لنطابق بينه وبين قولنا إن « س ولا س » لا يجتمعان معاً ؟

هنا يقول كارناب إن قواعد المنطق صادقة بمعنى أننا اتفقنا عليها ، حين اتفقنا على رموز اللغة وطريقة استخدامها ، فقواعد المنطق مختارة منا اتفاقاً ، وصدقها اتفاقي كأن يتفق اثنان - مثلاً - على أن يتفاهما برمز معين مثل هذا الرمز « - » على أنه يعني عدم وجود الشيء الذي يجيء هذا الرمز سابقاً لاسمه فإن قال أحدهما « - س » فهم منها الآخر أن س غير موجودة ، فدوام معناه ودوام صدقه هو نتيجة اتفاقهما ، فقولنا عن العبارتين الآتيتين « نابليون ولد في كورسيكا » و « نابليون لم يولد في كورسيكا » أنهما جملتان متناقضتان، أي أن الواحدة منهما تنفي الأخرى منطقياً ، معناه أننا اصطلحنا في اللغة ، على أن

---

(١) د. زكريا إبراهيم ، دراسات في الفلسفة المعاصرة ، ص ص٣٠٣ - ٣٠٤ .

كلمة النفي « لم » إذا وجدت في جملة تصبح متناقضة مع نفس الجملة إذا خلت منها ، فيستحيل صدقهما معاً أو كذبهما معاً » (١) .

ولقد تعرض « إير » لهذه النقطة فتساءل كيف أتيح لنا أن نوقن بأن قوانين المنطق لن تخالف الواقع ؟ والجواب هو أنه لا معنى لقولنا إن العالم منطقي أو غير منطقي ، إذ أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوصف بكونه منطقياً أو غير منطقي هو استدلال عبارة من عبارة أخرى، والاستدلال المنطقي هو ما تجريه وفق قوانين المنطق، وقوانين المنطق هي قواعد وضعناها لإجراء مثل هذا الاستدلال ، إن قوانين المنطق يستحيل أن تتعارض مع الواقع؛ لأنها في ذاتها لا تقول شيئاً عن الواقع، فنحن نستطيع أن نشتق عبارة من عبارة أخرى صحيحة، لكن المنطق وحده ليس هو الذي يقول عن العبارة الأولى أنها صحيحة؛ لأن ذلك موكول إلى الخبرة وحدها (٢) .

إننا في تكويننا للغة التي نقرر فيما بيننا أن تكون أداة للتفاهم ، نكون عندئذ أحراراً في أي القواعد نضع لهذه اللغة كي تكون أداة صالحة مستقيمة موفية لأغراضها، حتى إذا ما تمت هذه الخطوة لم يعد لنا مجال للاختيار ، وههنا يقول كارناب لا تظل مبادىء المنطق جزافاً ، بل تصبح ضرورية الصدق، ويرجع صدقها الضروري هذا إلى أن القواعد السيمانطيقية التي وضعت لتخلع على العبارات اللغوية معانيها ، ولما كانت هذه القواعد السيمانطيقية ثابتة أبداً ، كانت النتائج المترتبة عليها - أعني مبادىء المنطق الصوري - صادقة هي الأخرى صدقاً لا يخطىء ، وتوضيحاً لذلك نقول أن اللغة أقدم عهداً من المنطق، وبحكم ضرورات الحياة فإن الوظيفة الرئيسة للغة سيمانطيقية أي الدلالة على الأشياء وبحكم العلاقات التي بين اللغة وعلم المنطق مثل الكلمات المنطقية مثل أداة النفي (لا) فإن استعمال هذه الكلمة في مجال اللغة لابد أن يؤدي معيناً تستقيم معه الأشياء ، أي أن قانون عدم التناقض الذي يقول إنه من

---

(1) Carnap, The logical syntax of language, pp. 325 - 327 .

وأيضاً : د. علي جمجوم ، السيميوطيقا ... ص ص٦٦ - ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص٦٨ - ٦٩ .

الخطأ القول أن « س ولا س » صحيح ، وهو قانون صحيح ، ويمثل اتفاقاً مع طبيعة الأشياء المادية وذلك لأن أداة النفي المستخدمة في علم المنطق هي أداة النفي التي نستخدمها في اللغة ، لذلك فإن اللغة بسبب أقدميتها قد انعكست على علم المنطق بإعارته بعض كلماتها التي لها معنى محدد ثابت لا يتغير ، فكان ذلك سبباً في وجود اتفاقاً بين صدق قانون عدم التناقض (المنطقي) وصدقه إذا أحللنا رموزه بأشياء مادية [1] .

ومن خلال عرضنا لآراء كارناب في النظرية السيمانطيقية للصدق تبين لنا تأثره بتارسكي في قوله بأن تقريرنا لصدق جملة ما هو إلا تقريرنا للجملة نفسها كما أوضحنا ، كذلك تبين لنا أنه جعل المنطق حقيقة موضوعية أو شيء تواضع الناس على صحته كاللغة تماماً ولكن ما يؤخذ عليه هو أنه أقر بأن قوانين المنطق صحيحة لأنها في الواقع لا تقول شيئاً عن الواقع ، وما يتحدث عن الواقع هو العمل التي نقيم عليها الاستدلالات المنطقية، في حين أنه يقرر في موضع آخر أن قانوناً ما – مثل قانون عدم التناقض – من قوانين المنطق يمثل اتفاقاً مع طبيعة الأشياء المادية أي أن الأشياء جبلت على عدم التناقض ، فكيف أن قوانين المنطق لا تقول شيئاً عن الواقع وتمثل اتفاقاً في آن واحد .

وكارناب في ربطه بين المنطق واللغة قد يعتبر موافقاً للاتجاه الذي يحاول ربط المنطق باللغة أو بمعنى آخر ابتلاع اللغة للمنطق وهذا ما يتبدى جلياً في حديثه عن النحو المنطقي .

ثامناً : الجمل أو العبارات أو القضايا الزائفة

بدأ كارناب تفلسفه بأن اتخذ موقفاً معيناً من الفلسفة التقليدية وبمعنى أوضح وأدق معادياً من الميتافيزيقا وذهب مع من ذهب إلى أن الميتافيزيقا لغو بسبب ما تحتويه من جمل زائفة وعبارات لا معنى لها وقضايا طالما أنها لا تخضع لمعيار التحقيق التجريبي الدقيق فهي لغو لا طائل تحته، ولقد بنى كارناب موقفه هذا بناءً على دراسة طرق الحديث التي يتحدث بها الفلاسفة واعتبرها

---

(١) المرجع السابق ، ص ص٧٠ – ٧١ .

--كما قلت – مضللة – وغير ذات معنى أو خلو من المعنى بسبب مخالفتها لما أراد أن يطلق عليه اسم « النحو المنطقي » .

ولعل غالبية الأخطاء المنطقية القائمة في القضايا الزائفة تقوم على الصدع المنطقي المستشري في استعمال كلمة « يكون » في لغتنا العربية ومعظم اللغات الأوروبية ، فهذه الكلمة تستعمل أحياناً كأداة وصل بين الموضوع والمحمول (أنا أكون جائعاً) كما تستعمل أحياناً أخرى للإشارة إلى الوجود « أنا أكون » ، وإغفال الميتافيزيقيون لهذا الغموض يعمق الصدع المنطقي .

أما الخطأ الثاني فيكمن في صيغة الفعل بمعناه الثاني « الوجود » ، حيث يتم اصطناع محمول لا موضوع له ويستثنى منه تطبيقه على المحاميل ولا يستثنى تطبيقه على الأشياء ونجد هذا النوع من الخطأ في عبارة رينيه ديكارت « أنا أفكر إذاً أنا موجود I think therefore I am فإننا إذا أغفلنا الاعتراضات المادية نجد أن الخطأ يتركز في النتيجة أولاً « أنا موجود » وثانياً في خلط أنماط المفاهيم (١) .

وبادىء ذي بدء يجب علينا أن نلقي الضوء على ما اصطلح كارناب على تسميته باسم « الجمل الموضوعية الزائفة » Pseudo statements وذلك في مقال له بعنوان : « استبعاد الميتافيزيقا من خلال التحليل المنطقي للغة » (*) مايز فيه بين نوعين من العبارات هما (٢) :

١ – العبارات التي تحتوي على لفظ يُظن خطأ ، أن له معنى تجريبياً .

٢ – العبارات التي قد تبدو أن لها معنى أو أن مكوناتها تبدو أنها ذات معنى، إلا أن هذه المكونات توضع بطريقة تنافي الطريقة البنائية الصحيحة Countersyntactical .

---

(١) أي . جي . مور ، كيف يرى الوضعيون الفلسفة ؟ ، ترجمة د. نجيب الحصادي ، الدار الجماهيرية للنشر بليبيا ، ودار الآفاق الجديدة بالمغرب ، ١٩٩٤، ص ص١٦١ – ١٦٤ .

(*) The elimination of metaphysics through logical analysis of language 1923 .

(٢) د. وداد الحاج ، رودولف كارناب ، ص٨٠ .

أما الأمثلة على العبارات المزيفة التي رتبت ترتيباً يخالف قواعد النحو فهي: « قيصر هو » و « قيصر هو عدد أوليّ » الأوليّ تعد مزيفة لأنها شُكلت بطريقة تخالف قواعد النحو التي تفترض وجود صفة أو اسم في الموقع الثالث. والثانية ، على الرغم من أنها صحيحة نحوياً إلا أنها تظل من دون مدلول ؛ لأن كلمة « عدد أوليّ » تحمل على الأعداد وليس على الأفراد والأشخاص ، فلا يمكن بالتالي إنكارها أو إثباتها ، أي لا يمكن أن تعبّر عن قضية صادقة ولا عن أخرى كاذبة » [١] .

وقد يقصد كارناب بالجملة المزيفة Pseudo - sentence أيضاً تسلسل من الكلمات يبدو كحكم للوهلة الأولى ، لذلك فعلينا أن نفهم عبارة « لا تحيل إلى شيء » أو خلو من المعنى non meaning بالمعنى الضيق وليس بالمعنى الواسع ، فبالمعنى الواسع يكون حكم مثل : « كان في فيينا ستة أفراد عام ١٩١٠ » من دون مدلول ، فقط بمعنى أنه من العقم أن نسأل عنه أو أن نذهب في تأكيده كل مذهب ، ولكن من جهة أخرى ، ذا مدلول رغم أنه كاذب أو عديم الفائدة ، أما بالمعنى الضيق فسيكون تسلسل ما من الكلمات من دون مدلول إذا لم يشكل حكماً في سياق لغة معينة ، أما إذا بدا هكذا تسلسل من الكلمات حكماً ، للوهلة الأولى ، ففي هذه الحالة نسميه حكماً مزيفاً Pseudo - judgment ومن هنا جاء حكم كارناب – وأصحاب الاتجاه الوضعي بصفة عادية – بأن الأحكام الميتافيزيقية المزعومة ليست سوى أحكام مزيفة [٢] .

إن الأصل في أشباه المسائل أو المشكلات الزائفة إنما هي أمثال هذه العبارات الموضوعية الزائفة Pseudo - object sentences التي إذا أردنا تجنب الوقوع في براثن أخطائها – كما يرى الوضعيون ومن بينهم كارناب أيضاً – فعلينا الأخذ بوسائل فنية ناجحة تكشف أخطاء الفلاسفة السابقين ، وبالتالي فهي

---

(١) د. عزمي إسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ ، ص ص١٦٦ – ١٦٧ .

عن : Carnap, the elimination of metaphysics, p. 45.

(2) Carnap, the elimination of metaphysics, p. 61.

وانظر أيضاً : د. وداد الحاج ، رودولف كارناب ، ص٧٨ .

تساعدنا جميعاً على إحراز تقدم حقيقي في مضمار التفكير الفلسفي ، ويضرب كارناب مثلاً بمشكلة الكليات Universals التي يراها أنها ليست مشكلة حقيقية، بل هي شبه مشكلة تترتب على الخلط بين « الطريقة المادية » في الحديث و«الطريقة الصورية » في الحديث ، ومثال على ذلك قولنا « إن الوردة شيء » فهي عبارة موضوعية زائفة ، على حين أن من حقنا أن نصطنع الطريقة الصورية في الحديث فنستخدم ألفاظاً بوصفها صفات Predicate words إلا أنه ليس من حقنا اصطناع الطريقة المادية في الحديث ، فنتحدث عن الكليات بوصفها أشياء (١) .

إن استخدام الطريقة المادية في الحديث ، فنتحدث عن الكليات بوصفها أشياء (٢) .

١- لأنها قد توحي بأن شيئاً ما قيل عن موضوع ما كائناً ما كان في حين أن ثمة شيئاً آخر قد قيل عن بعض الكلمات أو بعض العبارات .

٢- لأنها تمنع عنا هذه الحقيقة وهي أن الجمل الفلسفية لا تدور إلا حول نسق أو نظام معين من اللغة ، أو عدد من الأنظمة اللغوية .

٣- أنها تخدعنا فتجعلنا نتوهم أن تقريراً عن الواقع في العبارة التي نحن بصددها ، بينما لا نكون نحن في الحقيقة إلا بازاء اقتراح لغوي أو مواضعة لغوية .

وبناءً على الملاحظات اقترح كارناب أن نتحول من التعبير بالطريقة المادية إلى التعبير بالطريقة الصورية، فالجمل أو العبارات التي تدور حول الدلالة والمعنى، هي عبارات شبه موضوعية أو جمل بنائية صرفة، مما جعل كارناب يقول إن توضيح المعاني يعتمد في المقام الأول على عملية صياغة التركيب المنطقي ، ويضيف برتراند رسل قوله :

« إن معنى جملة من الجمل هو في معناها المحدد مع الطريقة التي يمكن أن نحدد بها صدقها أو كذبها. والعبارة يكون لها معنى إذا كان هذا التحديد

---

(١) د. زكريا إبراهيم ، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص٣٠٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ص٣٠١ - ٣٠٢ .

ممكناً فقط ويبسط كارناب رأيه أكثر بقوله : إن العبارة تكون ذات معنى إذا كانت قابلة للتحقيق ويكمن معناها في طريقة أو منهج تحقيقها، ويكمن خطر هذه الطريقة في تطبيقها داخل حدود اللغة العلمية، مما جعله لا يخرج منها العبارات الميتافيزيقية فقط ولكنه أخرج أيضاً بعض القضايا العلمية المحددة ذات المعنى الواقعي ، (١) .

وهكذا ومن النص السابق لرسل نتبين أن كارناب طوّف بين العديد من الأفكار والنظريات والآراء ثم عاد مرة أخرى إلى مبدأ إمكان التحقيق Possibility of verification وإلى الخبرة experience .

ولكننا نتساءل عن كيفية تطبيق منهج كارناب في تحديد المعاني اللغوية الصحيحة في مجال الموجودات المجردة abstract entities فنحن بإزاء أشكال لغوية مجردة ومصطلحات فنية يجدر بنا استخدامها في مجال علم المعاني أو الدلالة أو السيمانطيقا ولكن يكمن وراء الأشياء التي نعبّر عنها كثير من المتغيرات Variables أو التي يسميها كارناب المعطيات الظاهرية Phenomenal data فهل هذه الوسائل والأشكال اللغوية المجردة مناسبة هنا بل ومثمرة في ذات الوقت أم أن العكس هو الصحيح ؟

لقد تجنب كارناب طرح مثل هذه التساؤلات لأنه سيطلب منه الإجابة عنها بنعم أو لا ، ولكن الموضوع الذي أمامنا موضوع درجة ، ومن بين هؤلاء الفلاسفة الذين خاضوا في علم المعاني وتحليلاته بدءاً من أفلاطون وأرسطو وانتهاء بتشارلز ساندرز بيرس وفريجه فقد قبل أغلبية هؤلاء الفلاسفة وجود الموجودات المجردة دون الخوض في رمالها المتحركة ومناطقها الوعرة ، بل قبلوها ولم يقدموا عليها البراهين ، بل قبلت وكفى (٢) .

---

(1) Russell, Bertrand, An inquiry into meaning and truth, George Allen and Unwin Ltd., London, 1951, (first Published 1940), p. 307 .

(2) Carnap, Rudolf, Empiricism, Semantics, and Ontology, in : Modern philosophy of language, edited by : Maria Baghramian, J. M dent, London, 1998, p. 95 .

على حين وقف التجريبيون بصفة عامة موقف الشك بل ورفض وجود أية موجودات مجردة لأنها لا تخضع للحواس والتجارب الحسية ، وعلى الرغم من هذا الشك والرفض إلا أنهم شعروا أنهم بإزاء موجودات مجردة مثل الصفات والعلاقات والأعداد وغيرها ولكنهم عاجزون عن إثباتها إثباتاً حسياً (١) .

تاسعاً : اللغة الكمية

تبنى كارناب مع نيوراث موقف الفلسفة الطبيعية ، والذي يدل على أن عبارات أو قضايا البروتوكول في العلم يمكن التعبير عنها على أنها أوصاف كمية لنقطة مكانية أو زمانية ، أو زمكانية محددة، مما يترتب عليه أن يتكون العلم جميعه سواء علوم الحياة ، أو العلوم النفسية ، أو العلوم الفيزيائية (الطبيعية) من عبارات تكافيء لغة البروتوكول الفيزيائية (٢) .

فاللغة الفيزيائية عامة ومشتركة بين جميع الأفراد لاعتمادها على الحواس، وهي عامة وكلية على أساس أن العبارات في جميع العلوم قابلة لترجمتها إلى عبارات بروتوكول ، وكلمة الترجمة هنا هي نوع من الردية Reduction أي تلك العبارات التي يمكن ردها إلى عبارات بروتوكولية بسيطة وأولية تخضع للتحقيق التجريبي (٣) .

ولقد ناقش كارناب فكرته عن اللغة الكمية the quantitative language التي تستخدم في الفلسفة الطبيعية في كتابه « الأسس الفلسفية للفيزياء » -philosophi cal foundations of physics ، القسم الثاني منه حيث ذكر أن المفاهيم الكمية لا تستمد من الطبيعة ، وإنما من ممارستنا لتطبيق الأعداد على الظواهر الطبيعية ، فهي جزء من لغتنا وليست جزء من الطبيعة ، ويحق لنا أن نتساءل لماذا نتكبد كل هذه المتاعب في إبتكار القواعد والمسلمات المعقدة لكي نحصل في نهاية المطاف على مقادير قياسها بمقاييس عددية (٤) .

---

(1) Ibid, p. 85 .

وانظر أيضاً : آي. جي . مور، كيف يرى الوضعيون الفلسفة ؟ ص ص١٦٠ - ١٦١ .

(٢) د. عزمي إسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، ص١٦٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص ص١٦٨ - ١٦٩

(4) Carnap, Rudolf, philosophical foundations of physics, Basic Book, Inc, New York, London, 1966, p. 105 . =

وتكمن الإجابة في أن التقدم الهائل الذي تم تحقيقه في مجال العلم لم يكن متاحاً بدون استخدام المنهج الكمي - الذى أدخله جاليليو - ولازالت الفيزياء تسعى كلما أمكنها ذلك إلى إدخال مفاهيم كمية ، ولقد حذت علوم أخرى حذوها في العقود الأخيرة ، ولا شك أن هذا ينطوي على فوائد عدة منها :

١- قبل أن ندخل مفهوم الكم كنا نستخدم العديد من الألفاظ والصفات الكيفية لنصف الحالات المتعددة لمقدار موضوع ما ، ففي غياب مفهوم درجة الحرارة مثلاً كنا نتحدث عن شيء ما بوصفه « ساخن جداً » ، أو « ساخن » أو « دافيء » أو « فاتر » أو « بارد نوعاً ما » ، أو « بارد » أو « بارد جداً » وهكذا ... ونطلق على هذا اسم المفاهيم التصنيفية Classificatory concepts .

ولكن هناك صعوبة في هذه الطريقة وهي الاحتفاظ في الذاكرة بمئات من هذه الصفات وأيضاً تذكر انتظامها ولكن إذا أدخلنا مفهوماً واحداً لدرجة الحرارة بحيث يرتبط هذا المفهوم بحالات جسم ما عن طريق الأعداد ، فلن يكون علينا سوى أن نتذكر لفظاً واحداً فقط ، ونعوض انتظام المقدار في الحال عن طريق انتظام الأعداد ، وهذه الفائدة ثانوية للمنهج الكمي ولكن يصعب علينا إغفالها [1] .

٢- وهناك فائدة أكثر أهمية تتمثل في أن المفاهيم الكمية تسمح لنا أن نصوغ قوانين كمية ، ومثل هذه القوانين بوصفها وسائل لتفسير الظواهر تعد أكثر قوة إلى حد بعيد ، كما أنها تعد وسيلة فعالة للتنبؤ بظواهر جديدة ، أما اللغة الكيفية فإنها حتى في حالة إثراء مثل هذه اللغة فإن ذاكرتنا لن تنوء فقط بحمل المئات من الصفات الكيفية ، وإنما سنواجه كذلك بصعوبة بالغة في التعبير حتى عن أبسط القوانين the simplest laws .

وهنا يفرض هذا التساؤل نفسه على بساط البحث ويتعلق بحقيقة فقدنا لشيء ما عند وصفنا للعالم عن طريق الأعداد .

= وللكتاب ترجمة عربية بقلم : « الدكتور السيد نفادي بعنوان : الأسس الفلسفية للفيزياء ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م ، ص١١٨ .

(1) Ibid, p. 106 .

تأتي الإجابة هنا على لسان كارناب وهي كالآتي [1] :

لكي نتمكن من إعطاء إجابة واضحة عن التساؤل الذي يتعلق بحقيقة فقدنا لشيء ما عند وصفنا للعالم عن طريق الأعداد ، كما يعتقد بعض الفلاسفة ، فإننا ينبغي أن نميز بوضوح بين موقفين لغويين : لغة مثل تهمل بالفعل كيفيات معينة لموضوعات تقوم بوصفها ، ولغة يبدو أنها تهمل كيفيات معينة ولكنها لا تفعل ذلك بالفعل !! . وإنني لعلى يقين من أن كثيراً من الاضطراب الذي يحدث في تفكير هؤلاء الفلاسفة ، إنما هو نتيجة مباشرة لفشلهم في عقد هذا التمايز .

واللغة هنا تستخدم بمعني واسع على غير العادة ، إذ أنها تشير إلى أي منهج عن طريقه يتم نقل معلومة عن العالم ، بالكلمات وبالصور وبالرسوم البيانية ... إلخ .

ودعنا نفترض الآن لغة تهمل مظاهر معينة من الموضوعات التي تقوم بوصفها ، افترض أنك ترى مجلة مصورة لحي مانهاتن مأخوذة بالأبيض والأسود ، ووجدت تحتها تعليق « صورة ظلية لمباني نيويورك صورت من الغرب » الحقيقة أن هذه الصورة تنقل لك معلومة عن نيويورك في لغة صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود، فهي ليست لغة بالمعنى العادي للكلمة وإنما هي لغة بالمعنى العمومي الأكثر الذي يعطي معلومة .

ومع ذلك فإن هذه الصورة تفتقر إلى مجموعة من الأشياء : أولها أنها لا تعطي بُعداً للعمق كما أنها لا تخبرنا بشيء عن ألوان المباني ، ولا يعني هذا أنك لا يمكنك أن تجري استدلالات صحيحة عن العمق واللون ، لأنك إذا رأيت صورة لثمرة الكرز مأخوذة بالأبيض والأسود ، فإنك تفترض أن ثمرة الكرز ربما كانت حمراء اللون ولكن هذا مجرد استدلال ؛ لأن الصورة نفسها لا تنقل لون ثمرة الكرز .

---

(1) Ibid, pp. 112 - 114 .

وفي الترجمة العربية ص ص١٢٥ - ١٢٧ .

والآن دعنا نعود إلى الموقف الذي تبدو فيه الكيفيات وكأنها بلا لغة وهي في الحقيقة ليست كذلك ، افترض أنك ترى لأول مرة صحيفة موسيقية فيها مجموعة من العلامات الموسيقية ربما تتساءل كطفل قائلاً : ما هذه الأشياء الغريبة التي أراها هنا ؟ إنني أرى خمسة خطوط مستقيمة مرسومة بعرض الصحيفة وهذه الخطوط مغطاة ببقع سوداء ولبعض هذه البقع ذيول » . ويقال لك: « إنما هذه هي الموسيقى وكما ترى أنها متسعة الأصوات بشكل جميل جداً » وتحتج قائلاً : « ولكني لا أسمع أي موسيقى » .

والحقيقة أن هذه المجموعة من العلامات لم تنقل أنساق الأصوات بنفس الطريقة التي ينقلها الحاكي مثلاً ، إذ أنك لم تسمع أشياء ، ولا يظهر اتساق الأصوات إلا بعد أن يكون عزفها شخص ما على البيانو ، ومع ذلك ليس ثمة شك في أن أنغام الأصوات متضمنة في مجموعة العلامات الموسيقية وإننا نحتاج بالطبع إلى مفتاح لتحويل هذه العلامات إلى أصوات ، وهذا المفتاح هو القواعد التي تحدد لنا كيفية نقل هذه العلامات إلى أصوات، وربما كان في إمكان موسيقي مدرب أن يسمع الأصوات في عقله في الحال، ومن الواضح أن لدينا هنا موقفاً لغوياً يختلف تماماً عن ذلك المتعلق بالصورة الفوتوغرافية الأبيض والأسود لأن الصورة تفتقر إلى الألوان بالفعل أما مجموعة العلامات الموسيقية فيبدو أنها تفتقر إلى الأنغام ، ولكنها ليست كذلك بالفعل [١] .

وبعد أن عرضنا التمايز الذي ارتآه كارناب بين لغة تهمل الكيفيات بالفعل ولغة يبدو أنها تفعل ذلك بينما هي لا تفعل ذلك، وكان ذلك بمثابة دفاعاً عن اللغة الكمية، ولكن لي بضع ملاحظات على ما قاله، حيث أنه في الحالة الأولى يقول : إننا نستطيع إجراء استدلالات صحيحة بالنسبة لصورة الكرز الأبيض والأسود، فنقول ربما يكون ثمرة الكرز حمراء، ولا أدري لِمَ لَمْ يقول « ربما تكون خضراء وذلك لأن الخبرة الحسيّة تخبرنا بأن لون الثمرة أحمر، وكذلك قد يكون شخص ما قد رأى حي ما نهاتن فيدلون بألون المباني واتساعها لذا فلا أرى داعياً للجوء لمسألة الاستدلال » ولا أرى كذلك داعياً للجوء لكلمة « ربما » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص١٢٥ - ١٢٦ .

وكذلك بالنسبة للنوتة الموسيقية فهي لا تتضمن الأنغام، ولولا الخبرة ما تسنى للموسيقي المدرب أن يعرف أنها تتضمن أنغاماً ، ولكن مثل الطفل الذي يتساءل « ما هذه الأشياء ؟ » ولذلك فاعتقد أن كارناب لم يكمل الصورة كما يجب في الحديث عن المثالين الذين اختارهما ، ورأى أنه قد ذكر المثال الثاني خصيصاً ليتحدث عن المفتاح الذي ارتأى كارناب أنه يحول رموز اللغة الكمية ومفرداتها إلى لغتنا الكيفية ، وهذا ما سوف يأتي ببيانه فيما يأتي :

« أما في حالة اللغة المعتادة فقد اعتدنا على الكلمات وغالباً ما ننسى أنها ليست علامات طبيعية ، فإذا سمعت كلمة « الأزرق » فإنك تتخيل في الحال اللون الأزرق، وتكون انطباعاً كالأطفال تماماً بأن كلمات اللون في لغتنا لا تنقل اللون بالفعل ، ومن ناحية أخرى إذا قرأنا عبارة قال بها فيزيائي بأن هناك تذبذبات كهرومغناطيسية معينة ذات شدة وتردد معينين، فلن نتخيل في الحال اللون الذي يصفه لنا ، ومع ذلك إذا عرفنا مفتاح التحويل - الذي تحدثنا عنه - فإنك تستطيع أن تحدد اللون بنفس الدقة وربما بدقة أكبر مما لو سمعت كلمة اللون، فأنت إذا لم تتعامل بنفسك مع المطياف - منظار التحليل الطيفي - لكان عليك أن تعرف عن طريق القلب أي الألوان التي تنطبق على أي الترددات ، وفي تلك الحالة ربما تدلك عبارة الفيزيائي وفي الحال إنه يتحدث عن اللون الأزرق المخضر » (1) .

عاشراً : النظرة السحرية للغة

مصطلح اللغة السحرية أو « سحر الكلمة » أو « تعبير النظرة السحرية للغة » ورد لأول مرة في كتاب كل من أوجدن C. K. Ogden وريتشاردز I. A. Richards وهو بعنوان : « معنى المعنى » The Meaning of Meaning -والذي أشرت إليه من قبل- وقد أشار إليه كارناب في كتابه « الأسس الفلسفية للفيزياء »، في القسم الثاني أيضاً حيث قال : إن للعديد من الناس نظرة سحرية للغة، وهي تلك النظرة التي ترى أن هناك ارتباط من نوع ما ، ولكنه ارتباط طبيعي وخفي ، بين كلمات معينة، وهي بالطبع الكلمات التي تكون مألوفة لدينا فقط ،

---

(1) المرجع السابق ، ص ص١٢٦ - ١٢٧ .

والحقيقة أن المصادفة التاريخية وحدها – في مسار تطور ثقافتنا -- هي التي جعلت لكلمة « أزرق » –على سبيل المثال – معنى لونياً معيناً، ففي اللغة الألمانية ينطبق هذا اللون Blau (Blue) مع اللون المقصود ، وفي لغات أخرى نجد أصوات أخرى مرتبطة به كذلك ، فمن الطبيعي إذاً أن يعتقد الأطفال الذين اعتادوا على كلمة أزرق في لغتهم الأصلية أنها كلمة طبيعية، في حين أن الكلمات الأخرى لها تعد خاطئة تماماً أو هي غريبة بالتأكيد، ولكن نفس هؤلاء الأطفال عندما يشبون عن الطوق ، يصبحون أكثر تسامحاً ويقولون : « ربما يستخدم الناس الآخرون الكلمة Blau/blue ولكنهم يستخدمونها ليعنوا بها شيئاً هو أزرق بالفعل » أما بالنسبة للطفل الصغير فالمنزل هو المنزل والوردة هي الوردة ولا شيء غير ذلك » [١] .

فاللغة وكلمات اللغة لهما سجلاً تاريخياً منذ أقدم العصور ، وكان لهما أثاراً عظيمة حتى أن الرجل البدائي إذا عرف اسم عدوه استطاع أن يسلط عليه قواه السحرية، ومازلنا نستخدم نحن عبارات مثل « باسم القانون » وقد اهتم بهذه النظريات كل من أفلاطون في العصور القديمة وكارناب في القرن العشرين [٢] .

وقد ذهب الفلاسفة إلى أن العلم يعتمد على اللغة الكمية بسبب علاقتنا السيكولوجية (النفسية) بكلمات اللغة قبل العلمية ، تلك الكلمات التي تعلمناها ونحن أطفالاً صغاراً ، وهي تختلف اختلافاً بيّناً عن علاقتنا السيكولوجية بتلك الأرقام المعقدة التي دخلت مؤخراً إلى لغة الفيزياء ، ومن السهل أن ندرك كيف يمكن لهؤلاء الأطفال أن يعتقدوا في كلمات معينة بأنها تحمل منطوقها ، والكيفيات التي تشير إليها ، وقد أراد كارناب أن يكون منصفاً وعادلاً ولكن الشك يتسرب إلى نفسه في أن بعض هؤلاء الفلاسفة يقعون في نفس الأخطاء التي يقع فيها الأطفال فيما يتعلق بردود أفعالهم تجاه الكلمات والرموز العلمية .

---

(1) Ibid, p. 116 .

وفي الترجمة العربية ص ص١٢٨ – ١٢٩ .

(2) Russell, An inquiry into meaning and Truth, p. 23 .

وأيضاً :

Russell,Bertrand, My philosophical development, George Allen and Unwin, London, 1969 (First Published 1959), p. 149 .

ويوضح كارناب أن النظرة السحرية للغة تلازم الإنسان منذ طفولته لأنها تكتسب لديهم معاني بعينها تظل كامنة بل ومحفورة في تفكيرهم وفي ملاحظاتهم التي لن يصرحوا بها ، وهذا يعني - ولو بطريقة غير مباشرة - أن كارناب يريد أن يجعلنا نفهم أن الصعوبة التي تواجه عملية تقبل الناس بعامة والفلاسفة على وجه الخصوص للغة الكمية بسبب تعود الناس على استعمال اللغة الكيفية في كافة المجالات الحياتية والعلمية فضلاً عن ارتباطهم السيكولوجي والاجتماعي بها، مثل ارتباط الإنجليز بكلمة Home والفرنسيين بكلمة Maison والعرب بكلمة منزل وبيت وصعوبة تقبل أحدهم للمرادف المقابل في اللغات الأخرى، وأصبح لاستخدام اللغة الكمية نظرة سحرية وافتتان جماعي، مما أضحى معه استخدام اللغة الكمية صعب ومستغرب ، بل قد يكون مرفوضاً لدى البعض ممن تعود على اللغة الكيفية، مما يجعل بالتالي هناك صعوبة على الاستفادة من اللغة الكمية لدى جميع الناس وتخلصهم من سيطرة اللغة الكيفية وحكم العادة [1] .

ويعطينا كارناب مثالاً آخر على النظرة السحرية للغة من كتاب كورت ريزلر Kurt Riezler « الفيزياء ، والواقع physics and reality الذي تخيل عودة أرسطو إلى عالمنا مرة أخرى ويعرض على البشرية وجهة نظره التي هي في الحقيقة وجهة نظر ريزلر نفسه في العلم الحديث .

ويبدأ أرسطو أو ريزلر بالثناء على العلم الحديث وانجازاته العظيمة ، ثم يبدي بعض التحفظات التي هي ملاحظات ريزلر وأهمها « أننا لا نتفق في لغة الحياة اليومية الكيفية على كلمات مثل « حار » و « بارد » فإذا وصل أحد الإسكيمو من جريندلاند إلى البقعة التي تكون عليها درجة الحرارة ٥٠، فإنه سوف يقول « إن هذا اليوم حار نوعاً » ، أما الزنجي الذي يصل من أفريقيا إلى نفس البقعة فإنه سوف يقول : « إنه يوم بارد » ولم يتفق الرجلان على معنى «حار » و « بارد » ويتخيل ريزلر فيزيائياً يقول : « دعونا ننسى هاتين الكلمتين ، ونتحدث بدلاً من ذلك عن درجة الحرارة ، ونتفق جميعاً على أن درجة حرارة اليوم هي ٥٠ درجة، عندئذ يمكنكما أن تتوصلا إلى اتفاق » [٢] .

---

(1) Ibid, p. 116 .

(٢) كارناب ، الأسس الفلسفية للفيزياء ، ص١٣٠ .

من الجدل والنقاش السابق نتبين أن اعتماد العلم على المفاهيم الكمية اعتماد قاصر ، بل على العلم والمشتغلين به الاهتمام بما يبدو في الطبيعة وألا نحوّل كل مظاهرها إلى رموز رياضية والدليل على ذلك أن علم الجمال لم يحدث فيه تقدم علمي كبير فيما يختص بالمفاهيم الكمية وكذلك الأخلاق والأدب خاصة الشعر منه لذلك أخرجها كارناب من دائرة بحثه حتى لا يتعرض للنقد لعلمه سلفاً بصعوبة تطبيق نظرياته في هذا المجال مما يعرضه للنقد ، وقد يهدم نظرياته ويخرجها من دائرة اهتمام المفكرين على اختلاف مشاربهم إلى دائرة الدراسات التاريخية .

تعقيب ونقد

كثرت الأقاويل عن الفلسفة المعاصرة أنها تتميز باهتمامها باللغة والدراسات التي تدور من حولها ، وخاصة نظرية « المعنى » Meaning لأن المعنى هو محور فلسفة الفلاسفة ، ومحور فكر المفكرين بل والمتكلمين والسامعين على السواء ، واتفق معظم الفلاسفة المعاصرين على معاداة الميتافيزيقا Metaphysics باعتبارها لغو وكلام لا معنى له طالما أنه لا يخضع للحواس وبالتالي للتجربة .

وقد بدأت الدعوة للهجوم على الميتافيزيقا كعلم ؟ والمقصود بالتساؤل أن تخضع الميتافيزيقا للحواس والتجربة وتطبيق المناهج العلمية على موضوعاتها ثم ازداد اقتناع أصحاب الوضعية المنطقية وخاصة كارناب بالهجوم على الميتافيزيقا أمام النجاحات المتواصلة للعلم التجريبي وتحقيقه لانتصارات تلو الانتصارات وركز كارناب في فلسفته على مشكلات بعينها منها الفلسفة الطبيعية ووحدة العلم التي تعني أن هناك مبدأ واحداً يجمع العلم وأن جميع العلوم التجريبية واحدة في أساسها بسبب تطبيق المناهج العلمية عليها ، وذلك تحت تأثير كنط وبور ورسل وفريجه وتارسكي وفتجنشتين .

وكذلك امتد اهتمام كارناب بالمنطق والرياضيات من أجل إيجاد نظرية للتعبيرات اللغوية ساعده في ذلك دراساته المنطقية والرياضية على أساس مبدأ الرد وإمكان التحقيق وتطبيقهما على دراسة المعاني ونظرية المفاهيم أو التصورات الخاصة بالمعنى وبالصدق المنطقي والصدق الواقعي وهو من أهم

المميزات في هذا المجال ، فضلاً عن اهتمامه بقضايا الاحتمال والمحمولات الأولية ومحمولات العلاقات .

وكانت محاولة كارناب الأولى تتمثل في جعل العالم قائماً على أساس قواعد البناء Logical construction فبدأ باستخدام « الأفكار الأولية » Primitive ideas لبناء هذا العالم ، ولكنه أقام كل ذلك على أساس صوري بحت بسبب صعوبة الوصول إلى العالم العام the public world الذي يطلبه حثيثاً منذ بداية الحصول على الخبرة الخاصة .

ثم كانت خطوة كارناب التالية وهي إقامة العالم على الأساس الثاني وهو قضايا البروتوكول وهي القضايا التي يمكن وصفها بطريقة مباشرة من الخبرة ، مقتنعاً بأن الفيزياء هي لغة العلم ، وأن كل القضايا يمكن التعبير عنها بلغة الفيزياء .

ولكن إقامة العالم على أسس منطقية يجافي المنطق ذاته وينافي الواقع المعاش، فمنهج التحليل المنطقي يستخدم في مجالات العلم والمنطق أما في الحياة اليومية فهو من الصعوبة بمكان، لقد أراد كارناب وأصحابه من الوضعيين إعادة بناء ومفاهيم كل مجالات المعرفة بناءً عقلياً ، باعتبار أنها مفاهيم تحيل إلى المعطى المباشر، وأراد للفلسفة أن تقوم بهذه المهمة ، وإن كان كارناب نفسه قد سحب من الفلسفة عدة وظائف مهمة بل وشكك في قدرة الفلسفة على اكتشاف طبيعة العالم وطبيعة العلاقات التي تحكمه ، وربما يعود موقفه هذا من الفلسفة إلى اعتقاده اللامحدود في قدرة العلم على سبر أغوار العالم وأشيائه باستخدام منهج القياس الكمي ومحو المنهج الكيفي على أهميته القصوى في الحياة .

كذلك وجه كثير من الفلاسفة التجريبيين نقدهم لكارناب بسبب نظريته في الاحتمال ففي نظرهم أن تصور الاحتمال ينكر مبدأ التجريبية وأن تصور الاحتمال الذي أخذت به نظرية تكرار الحدوث هو التصور الوحيد المقبول الذي يتسق مع التجريبيين ، ولكن كارناب يرد عليهم ضمن ردوده المختلفة التي وردت بالجزء الأخير من الكتاب الذي أصدره بول آرثر شلب عنه قائلاً : إن نظرية تكرار الحدوث حين نقول مثلاً إن احتمال سقوط المطر غداً هو ١/٥

فكيف نحققه ؟ وإذا كنا نريد تحقيق العلاقة المنطقية بين التنبؤ بالمطر وتقرير الأرصاد الجوية ، فنحن لا نحتاج إلى تحقيق تجريبي بملاحظة طقس الغد .

وكان اهتمام كارناب نابعاً من رغبته في بيان الأخطاء اللغوية الاشتقاقية والأخطاء الدلالية أو أخطاء المعاني ولم تكن محاولته هذه جديدة كل الجدة بل سبقه إليها سقراط عندما أراد أن يحدد المعاني من أجل إقامة علم بمعنى الكلمة وأراد ديكارت أن يواصل نفس هذه المهمة خاصة بعد أن شهد التردي الذي وصلت إليه الفلسفة والعلم في العصور الوسطى فاقترح منهجاً جديداً – إلى حد ما – كان هدفه الأسمى إقامة العلم بل الوصول به إلى مرحلة العلم الموحد ، وحاول ليبنتز أن يقدم للبشرية لغة مثالية وهي في حقيقتها لغة رياضية تتسم بالصدق واليقين والتمايز لذلك أطلق عليها لفظ « مثالية » وحاول أيضاً نفس المحاولة كل من كنط وبيرس وكاسيرر، وتشارلز موريس وأوتو نيوراث حاولوا جميعاً أن يتوصلوا إلى لغة مثالية دقيقة وقدم كل منهم مشروعة الخاص ، وتحدث كارناب في مشروعه عن اللغة الشيئية أو لغة الموضوع الذي يتناول الموضوعات الخارجية ، وكذلك لغة الموضوع أو ما وراء اللغة Meta - language وهو لفظ مستعار من مصطلح فيما وراء الطبيعة « ميتافيزيقا » Metaphysics حتى يصل إلى جمل أو عبارات أو قضايا صادقة ويتجنب الجمل أو العبارات أو القضايا الزائفة التي انتهى من بحثه فيها إلى اقتراح النحو المنطقي Syntax وإن كانت مثل هذه الدراسات تدخل في باب الجدل الكنطي أكثر منها في أي شيء آخر لأن الإنسان العادي عندما يتحدث لا يقول عبارة كالتي ساقها كارناب كمثال على صدق نظريته « قيصر عدد أوليّ » لأن مثل هذه العبارة لغو لا معنى لها وإن أخذت شكل العبارات المتداولة .

ويفهم من ذلك أن كارناب يقترح نحواً منطقياً لا تقتصر وظيفته على بيان الأخطاء اللغوية أو الاشتقاقية ، بل بيان الأخطاء الدلالية أو أخطاء المعاني ، ومنوط به وظيفة أخرى هي وضع تقسيمات تكون كل طائفة من الألفاظ تابعة لتقسيم معين، حتى لا يقر النحو المنطقي من المتتابعات الكلامية أو الجمل ما يقره نحو اللغات الطبيعية ، ولعل رأيه في النحو المنطقي موجه بالتأكيد لمهاجمة الميتافيزيقا من ناحيتها اللغوية .

لذلك أقول إن مناقشة « صدق القضايا » لم يكن من عمل كارناب وحده ولكن شاركه فيه كثيرون بدءاً من سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ومروراً بفلاسفة عصر النهضة والتنوير سواء في المذهب العقلي أو المذهب التجريبي وأحيته البرجماتية وفلاسفتها ومناطقة أوروبا المعاصرون أمثال فريجه وتارسكي وغيرهما كثيرون .

وأتفق مع الرأي القائل بأن هناك غموضاً اكتنف بعض آراء كارناب خاصة في حديثه عن اللغة الاصطناعية الملاحظة ، وأيضاً آراءه في فلسفة الفيزياء ومجال بناء الأنظمة السيمانطيقية أو علم المعاني والدلالة والتي بدأها بوضع تصنيف للعلامات التي سوف يحتاجها في بناء النسق، وفي هذا تأثر بآراء ودراسات نوام (ناعوم) تشومسكي Noam Chomsky وأسماه كارناب «البراجماطيقيات » ثم مروراً بقواعد الصياغة والدلالة وهي دراسات تارسكي وفريجه وبيرس وموريس وأطلق عليها السيمانطيقا أو علم المعاني أو الدلالة ، ووصولاً إلى قواعد الصدق المنطقي أو البناء أو التركيب المنطقي «السينتاكس» .

وعلى الرغم من قيمة التحليل اللغوي الذي شيد نظمه ونسقه كارناب إلا أنه من الصعوبة بمكان إجبار الفكر الإنساني على الوقوف عند حدود هذا التحليل اللفظي وقواعد الصدق المنطقي؛ لأن المضمون أحياناً ما يكون أهم من الشكل الخارجي أو كما يقال الجوهر أهم من المظهر .

وقد تخلى كارناب بمرور الوقت وتقدم العمر والفكر عن كثير من مبادىء الوضعية المنطقية فقد وافق كارناب على قول نلسون جودمان بأن مهمة الفلسفة الأساسية هو بناء أنساق ، ويعد بناء الأنساق بمثابة خرائط للخبرة ، وليس صوراً لها ، فالجدل ليس هو ما تهدف إليه الفلسفة بل بناء الأنساق وليس تحليل المفاهيم خاصة مفاهيم العلم تحليلاً يقتصر على الاشتغال بنحو لغة العلم ظاناً -كما ظن الوضعيون المنطقيون - أن الاشتغال بنحو لغة العلم سيكون الضامن لإبعاد الميتافيزيقا - عدوهم اللدود - عن دائرة فلسفة العلم ، ولضمان ذلك فلابد من التمسك بوصف المفاهيم وصفاً صورياً بحتاً ، والعلم لا يقوم على مفاهيم صورية بحتة فقط .

وساعدت دراسات نلسون جودمان والنتائج التي توصل إليها في مجال الفيزياء إلى بيان مدى تهافت الحجج الموجهة ضد النزعة الظاهرية ، وجعلت هدف كارناب من وحدة العلم هدفاً بعيد المنال ، وأضعفت هذه النتائج الأساس الفيزيائي الذي اعتمد عليه كارناب كأساس للعلم الموحد ، وهو هدف مازال كثير من العلماء في الولايات المتحدة الأمريكية الآن يسعون نحو تحقيقه على ضوء التطورات العلمية الهائلة التي واكبت العقد الأخير من القرن العشرين .

الفصل السادس

من أبرز أعلام الدراسات اللغوية



الفصل السادس
من أبرز أعلام الدراسات اللغوية

المقدمة

ساهم كثير من العلماء والفلاسفة والمفكرون على اختلاف توجهاتهم في إثراء الدراسات اللغوية شرقاً وغرباً ... شمالاً وجنوباً ... محاولين فهم هذا اللغز الكبير كيف يتكلم الناس وما الكلام ... وهل الكلام هو اللغة ... وما اللغة .. مما كان له أبعد الأثر في سبر أغوار « اللغة » هذا المخلوق العجيب ، فخاضوا هذا المجال الحيوي والمهم لأنه يتصل بالإنسان ليس اتصالاً مباشراً فقط ولكنه اتصال وثيق اتصال السدى باللحمة ... فلا حياة للإنسان بدون اللغة ، ولا معنى للغة بلا إنسان .

وهناك من الأعلام كثيرون ... أشرت إلى الكثير منهم في متن الكتاب ، يمكن الرجوع إليهم، ومنهم من لم يجد له مكاناً بين سطور الكتاب فوضعته في هذا الفصل الذي اعتمدت فيه على كثير من الكتابات المنتشرة هنا وهناك وعلى ما نشرته القواميس اللغوية مثل لسان العرب ، والقاموس المحيط ، والوسيط ، ودائرة معارف القرن العشرين ... وعلى ما نشرته بعض وسائل الإعلام ... وكان همي أن استكمل هذا العمل لكي أضع بين يديّ القارىء أو المتلقي العربي الكريم من أجل استكمال الفائدة .

ولقد اتبعت المنهج التاريخي في ترتيب هؤلاء الأعلام بحسب تاريخ الوفاة كل منهم حتي يتبين لنا مدى صحة التأثير والتأثر ... ويكون ترتيب الكلام منطقياً فأنهى القرون الأولى ثم الذي يليها فالذي يليها . فإذا تساوى علمان في نفس السنة ولم أجد تاريخ ميلاد اليوم والشهر أضع الترتيب بسب حروف الهجاء للاسم الأول ، وليس للاسم الذي عرف به ، مثل العقاد ، ارجع لاسمه الأول عباس وهكذا ...

١- أبو نصر الفارابي

هو محمد بن محمد بن طَرْخان بن أوزلغ، المعروف باسم أبو نصر الفارابي ولد في فاراب على نهر جيحون (٢٦٠هـ ٨٧٤م - ٣٣٩هـ - ٩٥٠م)

ومنها انتقل إلى بغداد ، فنشأ فيها ، وألف فيها أكثر كتبه ، ويعرف بالمعلم الثاني بعد أرسطو ، ويعتبر الفارابي من أكبر فلاسفة المسلمين ، تركي الأصل . مستعرب .

رحل الفارابي إلى مصر والشام ، واتصل بسيف الدولة بن حمدان . ووافته المنية بدمشق. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره . ويقال إن الألة الموسيقية المعروفة بالقانون، من وضعه ، ولعله أخذها عن الفرس فوسّعها وزادها إتقاناً فنسبها الناس إليه . وعرف بالمعلم الثاني - كما ذكرت - لشرحه مؤلفات أرسطو باعتباره في نظرهم المعلم الأول ، وكان الفارابي زاهداً في الزخارف ، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب ، يميل إلى الوحدة والإنفراد بنفسه ، ولم يكن يوجد غالباً في مدة إقامته بدمشق إلا عند مجتمع ما ، أو مشتبك رياض. له نحو مئة كتاب، منها « الفصوص . ط » ترجم إلى الألمانية، و«إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها – ط » ، و « آراء أهل المدينة الفاضلة – ط» و « المدخل إلى صناعة الموسيقى– خ » و« الآداب الملوكية– خ » و«مبادىء الموجودات » رسالة ترجمت إلى العبرية وطبعت بها، و « إبطال أحكام النجوم – خ » نسخته بطهران » و « أغراض ما بعد الطبيعة – خ » و « السياسة المدنية – خ » و « جوامع السياسة – ط » ، رسالة ، و « النواميس » و « الخطابة » و « ديوان الأدب – خ » و « ما ينبغي أن تقدم الفلسفة » وكتاب في أن « حركة الفلك سرمدية » . ولمصطفى عبد الرازق ، كتاب « فيلسوف العرب – ط » في سيرته، ومثله « الفارابي – ط » لإلياس فرح ، و « الفارابي – ط » لعباس محمود العقاد (١) .

---

(١) الزركلي ، الأعلام ، ٧ : ٢٤٢ – ٢٤٣ .
وأيضاً : وفيات الأعيان ٢ : ٧٦ ، وطبقات الأطباء ٢ : ١٣٤ و Brock, I 232 و 2101, S. I: 375 . وتاريخ حكماء الإسلام ٣٠ وابن الوردي ١ : ٢٨٤ ، وآداب اللغة ٢ : ٢١٣، والبداية والنهاية ١١ : ٢٢٤ وفيه « كان يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني » وفي المقتطف ٥٧ : ٣١٤ و٤٠٢ و٤٩٠ بحث مستفيض عنه ، ومفتاح السعادة ١ : ٢٥٩ وأخبار الحكماء ١٨٢ وكارا دى فو B. Carra de Vaux في دائرة المعارف الإسلامية ١ : ٤٠٧ – ٤١٢ والذريعة ١ : ٦٦ ثم ٢ : ٢٣٦ وإحصاء العلوم : مقدمته . وانظر أيضاً : Huart 281 ومحاضرات الفلسفة العربية للكونت دى جلارزا ٤ – ٣٥ .

ذكرت أن الفارابي ترك لنا فيما تركه من آثار تدل عليه كتاب « إحصاء العلوم » لمعرفة أغراضها، ولم يقصد من كتابه هذا وضع تصنيف جديد للعلوم وإنما إحصاء أهم العلوم في زمانه مرتبة ترتيباً منطقياً ، وقد وضع الفارابي علم اللغة في قائمة العلوم التي أحصاها، ويسميه « علم اللسان » ، يليه علم المنطق، تليه الرياضيات البحتة (ويسميها علم التعاليم)، يليه العلم الطبيعى والعلم الإلهي، يليه علوم الأخلاق فالسياسة فعلم الفقه فعلم الكلام .

ويعتبر الفارابي أول من رأى ضرورة علم اللغة لدراسة المنطق . ويشير إلى علم اللغة بفروعه المختلفة من نحو وصرف وشعر وكتابة وقراءة ويعطي مبحثاً في أنواع الألفاظ وقواعد كل نوع (١) .

ويعود سبب اهتمام الفارابي بعلم اللغة وربطه بالمنطق هو أن الفارابي لما نزل بغداد أخذ بعض علومه عن أبي بكر بن السرّاج النحوي البغدادي من أعلام اللغة وقرأ الفارابي عليه صناعة النحو وكان ابن السراج يقرأ على الفارابي صناعة المنطق وقد صحب بن السرّاج المبرِّد إمام نحاة البصرة وتلميذ سيبويه، وكان أبو سعيد السيرافي أحد تلاميذ بن السرّاج ومن هنا جاء اهتمام الفارابي بعلم اللغة وربطه بالمنطق والفلسفة (٢) .

وقد توسع الفارابي في كتابه « الحروف » في أبحاث لغوية بحتة ، على الرغم من أن موضوعه شرح كتابيّ « المقولات » و « ما بعد الطبيعة » لأرسطو.

٢- ابن جنّى الموصلي

أبو الفتح عثمان بن جنيّ الموصلي (؟ - ٣٩٢هـ - ؟ - ١٠٠٢م) من أئمة الأدب والنحو ، وله شعر . ولد بالموصل وتوفيٌ ببغداد ، عن عمر يناهز ٦٥ عاماً . كان أبوه مملوكاً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي .

---

(١) انظر : * الفارابي ، إحصاء العلوم ، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عثمان أمين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٩م .
* د. محمود فهمي زيدان ، في فلسفة اللغة ، ص١٥٥ .

(٢) مقدمة محسن مهدي لكتاب الحروف للفارابي . ص٤٥ .
نقلاً عن عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة .

له تصانيف فكرية عديدة منها رسالة في « من نسب إلى أمه من الشعراء – خ » و « شرح ديوان المتنبي – خ » و « المبهج – ط » في اشتقاق أسماء رجال الحماسة، و « المحتسب – خ » في شواذ القرآت ، و « سر الصناعة – خ » في اللغة ، و « الخصائص » في اللغة ، كبير ، طبع منه مجلد واحد ، و « اللمع – خ » في النحو ، و « التصريف الملوكي – ط » و « التنبيه – خ » في شرح ديوان الحماسة، و « إعراب أبيات ما استصعب من الحماسة – خ » و« المقتضب من كلام العرب – ط » رسالة ، وغير ذلك وهو كثير . وكان المتنبي يقول : ابن جنيّ أعرف بشعري مني [1] .

وكان ابن جنيّ يحس ضعة عند الناس أن لم يكن من أصل عربيّ ، وإن كان ينتمي إلى أصل أكبر وأعمق وهو انتسابه للإسلام ، فعنى أن ينضح عن نفسه ، وكان يقول في إحدى قصائده الطويلة :

فإن أصبح بلا نسبٍ ∴ فعلمي في الورى نسبيّ

على أني أءول إلى ∴ قـروم سـادة نجبِ

قياصرة إذا نطقوا ∴ أرمّ الدهر ذو الخطب [2]

وقد اشتهر ابن جنيّ ببلاغة العبارة وحسن تصريف الكلام ، والإبانة عن المعاني بأحسن وجوه الأداء ، وهو يسمو في عبارته ، ويبلغ بها ذروة الفصاحة، في المسائل العلمية الجافة البعيدة عن الخيال ووجوه النظرية. ويقول عنه الأبيوردي في أبي عليّ أحمد بن محمد المرزوقي : « وهو يتفاصح في تصانيفه كابن جنيّ » [3] .

---

(١) الزركلي ، الأعلام، ٤ : ٣٦٤ .
وأيضاً : إرشاد الأريب ٥ : ١٥ – ٣٢ ، وابن خلكان ١ : ٣١٣، وآداب اللغة ٢ : ٣٠٢، و191 : Brock. 51 وشذرات ٣ : ١٤٠ ومفتاح السعادة ١ : ١١٤ والفهرس التمهيدي ٢٩٨ ونزهة الألبا ٤٠٦ ويتيمة الدهر ١ : ٧٧ ، وهدية العارفين (إسماعيل باشا) ١ : ٥٣٤ .

(٢) أرم : سكت و « ذو الخطب » أي المنطيق بأفعال وآثاره ، فالخطب بضم ففتح جمع خطبة . ابن جني ، الخصائص ، الجزء الأول ، تحقيق محمد على النجار ، من المقدمة ، ص٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص٢٧ .
وانظر أيضاً : معجم الأدباء في ترجمة المرزوقي .

وكان ابن جنيّ واسع الرواية والدراية في اللغة ، ومن أمثلة هذا ما جاء في « الخصائص » في « باب في الشيء يسمع من الفصيح لا يسمع من غيره » فقد أورد البيت :

مـاريـة لؤلؤان اللـون أودّهـا ∴ طلٌّ وبنّس عنها فرقدٌ خصرِ (*)

ويتبين أمر علمه باللغة من خلال آثاره الشعرية التى تنبيء عن علم بأدق أسرارها وخباياها ومفرداتها وتصاريفها النحوية . وكان ابن جنيّ – كشيخه أبي عليّ – بصرياً يدين بالمذهب النحوي لأهل البصرة ، وان لم يمنع نفسه من الأخذ بما كان يراه مناسباً من المذاهب النحوية الأخرى سواء مذهب الكوفيين أو البغداديين (١) .

« كان ابن جنيّ إماماً في النحو والصرف ، وهو على إمامته فيهما فهو في النحو أمثل منه في الصرف ، كما يذكره الكاتبون لترجمته ، وإن كان لا يعرف إلا بالنحوىّ ، فالنحو – بالمعنى العام – منتظم الصرف. ومردّ نبوغه في الصرف وتفوقه فيه أن عجزه أمام أبي عليّ كان في مسألة صرفية ، كما سبق ايراده ، فكان جدّه في الصرف أكثر وأبلغ من جدّه في النحو » (٢) .

وقد ترك ابن جني ٤٩ كتاباً في مسائل شتى من اللغة والنحو وعلم الكلام إذ كان ابن جني معتزلياً ، كشيخه أبى عليّ ، كما كان حنفياً كأغلب نحويّ العراق، كالسيرافي الذي كان يقضي على مذهب العراقيين، ولكنه لم يكن شعوبياً أو شيعياً كما يدّعى البعض من أهل سيبويه وعن أستاذه أبى عليّ ، وهو يستشهد بالشعر والقصص، ويجول في فنون المعرفة . وهو يدنو في هذا بعض الشيء من الجاحظ في استطراده وتنويعه ، فقد كان يتمتع بخاصة الحفظ الجيد والنقل الأمين ، فضلاً عن خط واضح كثير الضبط المعقد، سلك فيه طريقة شيخه أبى الفتح .

ومات ابن جنيّ في بغداد ليلة الجمعة من صفر سنة ٣٩٢هـ أو ٣٩٣هـ .

(*) يقال أن بنس عنها إنما هو النوم ، ويقال للبقرة .

(١) نفس المرجع السابق ، ص٤٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص٤٧ .

٣- أحمد بن فارس

هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (٣٢٩ هـ – ٩٤١م – ٣٩٥هـ – ١٠٠٤م) ، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان . أصله من قزوين ، وأقام مدة في همذان ، ثم انتقل إلى الريّ (بكسر الراء) فتوفي فيها، وإليها نسبته (١) .

ترك لنا أحمد بن فارس مجموعة من الأعمال (التصانيف) منها ، مقاييس اللغة – ط ، (٢) ستة أجزاء ، و ، المجمل – خ ، و ، الصاحبيّ – ط ، في علم العربية، ألفه لخزانة الصاحب ابن عباد ، و ، جامع التأويل ، في تفسير القرآن ، أربع مجلدات ، و ، النيروز – خ ، و ، الاتباع والمزاوجة – ط ، و ، الحماسة المحدثة ، و ، الفصيح ، و ، تمام الفصيح ، و ، متخير الألفاظ ، و ، فقه اللغة ، وذمّ الخطأ في الشعر – ط ، ، و ، اللامات – خ ، و ، أوجز السير لخير البشر – ط ، في ٨ صحف ، و ، كتاب الثلاثة – خ ، في الكلمات المكونة من ثلاثة حروف متماثلة . وله شعر حسن .

وكان لبعض الآراء التي ساقها بن فارس في كتابه ، الصاحبيّ ، أثرها السلبيّ عندما استعان بها بعض سيء النية والموالين للغرب على حساب دينهم ولسانهم وأعني القضية التي ثارت في عالمنا العربي الإسلامي المعاصر وهي قضية الفرق بين الفصحى والعامية أو بين الفصحى واللهجات وترجع هذه الإشكالية أساساً إلى اعتقاد شاع في الدراسات اللغوية القديمة ، حيث ربط القدماء بين اللغة التي تنزل بها القرآن الكريم أو بين المستوى اللغوي الذي نزل به القرآن

---

(١) خير الدين الزركلي ، (ت ١٩٧٦) الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ./١٩٦٩م، الجزء الأول ص١٨٤

(٢) يشير حرف الطاء (ط) إلى أن الكتاب طبع ، والخاء (خ) إلى أنه مازال مخطوطاً .

وانظر أيضاً : إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩هـ) ، هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : جامعة استنبول ، الجزء الأول ، ص٦٠٦ .

وانباه الرواة ، على أبناء النحاة للقفطي، الجزء الثاني ص١٨٨ .

وابن خلكان ١ : ٣٥ ، والأنباري ٣٩٢ ، واليتيمة ١٣ : ٢١٤ .

وآداب اللغة ٢ : ٣٠٩ ومجلة المجمع العلميّ ٢٢ : ٥٠١ ومحمد بن شنب في دائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٤٧ .

الكريم وبين قبيلة قريش فقالوا إن الفصحى هي لغة قريش أو لهجة قريش وهي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم يقول أحمد بن فارس في « الصاحبيّ » :

« أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمد ﷺ . فجعل قريشاً نطاق حرمه وجيران بيته الحرام وولاته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم وأشعارهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم وعجرفية قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس » (١) .

ولكننا نجد أن النبيّ ﷺ أشار إلى فصاحة قبيلة « سعد بن بكر » وهي من عليا هوازن ولم يشد بفصاحة قريشاً ، ويؤكد جلال الدين السيوطي ذلك في «المزهر » فيقول :

« ... والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربيّ من بين القبائل قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمهم وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل وكنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملة لم يأخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم التى تجاور سائر الأمم الذين حولهم » (٢) .

وهذه قضية من أخطر القضايا لأن المغرضين يريدون أن ينفذوا منها لهدم الثوابت الإسلامية وأولها القرآن الكريم ، وكانت هناك صولات وجولات ومعارك

---

(١) أحمد بن فارس ، الصاحبي ، ص ص٣٣ - ٣٤ .
حاشية كتاب جون ليونز ، نظرية تشومسكي اللغوية ، بقلم الدكتور حلمي خليل ، مترجم الكتاب ص٤٧ .

(٢) السيوطي ، الاقتراح ، ص٥٦ .
عن حاشية كتاب جون ليونز ، د. حلمي خليل ، ص ص٤٧ - ٤٨ .

فكرية ، ومهاجمون ومدافعون عن الفصحى والعامية كل واحد من هؤلاء وأولئك يريد أن يصل إلى غرضه ومآربه ، ومع ذلك نجد أن عميد الأدب العربيّ الدكتور طه حسين ينبري للدفاع عن قضية الفصحى على الرغم من المحاولات التي حاولت أن تنال منه ومن مكانته ومن دينه وهي جزء من الحملة على المسلمين ، وهي الانتقاص من رموز الثقافة في العالم الإسلاميّ حتى لا يجد المسلمون من يشيدون به غير رموز الثقافة الغربية فقط ، انظروا معي ماذا كتب الدكتور طه حسين :

« أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالالتجاء إلى اللهجات العامية إلى شيء خطير ما أرى أنهم قد فكروا فيه فأحسنوا التفكير . وهو أن العالم العربيّ الآن وكثيراً من أهل العالم الشرقيّ كله يفهم العربية الفصحى ، ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح القوي بين أقطاره المتباعدة ، فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية ، فيمعن كل قطر في لهجته ، وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتنافر ، ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم إلى لهجته كتب السوريين ، واللبنانيين ، والعراقيين ، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق إلى مثل ما يحتاج إليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية إلى لهجاتهم ، كما يترجم الفرنسيون عن الإيطاليين والأسبانيين ، وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين ، ولنسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خير أن تكون للعالم العربيّ كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى ، يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق ، أم أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الأقطار التي تأتلف منها ، وأن يترجم بعض عن بعض ، كما يترجم بعض الأوروبيين عن بعض . أما أنا فأوثر وحدة اللغة وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر وأرى غير متردد أن وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون بها ، وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون » (1) .

هذا هو رأي الدكتور طه حسين ، عميد الأدب العربيّ ، على الرغم من كل ما حاول المغرضون أن يرموه به ، فهل لنا أن نفيق من غفلتنا ، وأن نعود

---

(1) طه حسين ، مجلة الحصاد ، العدد الأول ، ديسمبر ، (كانون أول) ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص٢٦ .

إلى الصواب فنتجنب التشرذم والتفرقة والشحناء ، وأن ننسحب من سوق النخاسة الذى يبيع فيه بعضنا كل شيء حتى ورقة التوت في سبيل المال أو سلطة أو مركز أو شهرة وكلها أعراض زائلة ، وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

٤- ابن حزم الأندلسيّ

هو أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (٣٨٤هـ - ٩٩٤ - ٤٥٦هـ - ١٠٦٤م) ، المنتسب إلى الأندلس حيث ولد ونشأ وترعرع ، يراه الكثيرون عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الإسلام . كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه ، يقال لهم « الحزْمية » . ولد بقرطبة . وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة ، فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف . فكان من صدور الباحثين فقيهاً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة ، بعيداً عن المصانعة .

انتقد ابن حزم كثيراً من العلماء والفقهاء ، فتمالأوا على بغضه ، وأجمعوا على تضليله وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو منه ، فأقصته الملوك وطاردته عن جهل وعمى قلب ومفسدة ، فرحل إلى بادية لبْلة (من بلاد الأندلس) فتوفيّ فيها .

وقد روى عن ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو ٤٠٠ مجلداً . تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة . وكان يقال : لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان . أشهر مصنفاته « الفصل في الملك والأهواء والنحل - ط » وله « المحلى - ط » في ١١ جزءاً ، في الفقه ، و « جمهرة الأنساب - ط » و« الناسخ والمنسوخ - ط » و « الإحكام لأصول الأحكام - ط » ثماني مجلدات ، و « إبطال القياس والرأي - خ » و « المفاضلة بين الصحابة - ط » وهى رسالة اشتمل عليها كتاب « ابن حزم الأندلسى - ط » لسعيد الأفغاني ، و « مداواة النفوس - ط » رسالة في الأخلاق ، ومن كتبه التي اشتهر بها في مجال الأدب « طوق الحمامة - ط » وغيره كثير [1] .

---

(١) الزركلي ، الأعلام ، ٥ : ٥٩ .
وانظر أيضاً : نفح الطيب ١ : ٣٦٤ ، وسيّر النبلاء - خ - المجلد الخامس عشر . وآداب اللغة =

ويعتبر ابن حزم الأندلسي من المؤيدين للنظرية التي تقول بأن اللغات الإنسانية على اختلاف أنواعها وطرق تراكيبها ترجع كلها إلى أصل واحد ، وقد كشفت بعض الأساطير حول تبلبل الألسنة في بابل حيث كانت اللغة الإنسانية واحدة ، وظهرت الفكرة لدى اليونان ثم الرومان ثم العرب . فقد لاحظ ابن حزم تشابهاً بين اللغات العربية والعبرانية والسريانية ، واستمر الاعتقاد بهذه النظرية حتى القرن التاسع عشر حيث درس فقه اللغة المقارنة أوجه الشبه بين اللغات الإنسانية المختلفة ، ومنها انبجست فكرة العائلات اللغوية التي قسمت وفقاً للتشابه الصوتي والصرفي والنحوي ، وكان التركيب النحوي هو الأساس الذي بنيت عليه نظرية العائلات اللغوية (١) .

٥- عبد القاهر الجُرْجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجُرْجاني (؟ – ٤٧١ هـ – ١٠٧٨م) واضع أصول البلاغة . كان من أئمة اللغة . من أهل جرجان وتقع بين طبرستان وخراسان . له شعر رقيق من كتبه « أسرار البلاغة – ط » و« دلائل الإعجاز – ط » و« الجمل – خ » في النحو ، و« التتمة – خ » نحو ، و« المغني » في شرح الإيضاح ، ثلاثون جزءاً . اختصره في شرح آخر سماه « المقتصد – خ » الجزء الثاني منه ، و« إعجاز القرآن – ط » و« العمدة » في تصريف الأفعال ، و« العوامل المئة – ط » (٢) .

ويعتبر الكتابان اللذان كتبهما عبد القاهر الجرْجاني وهما « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » من الكتب المهمة في مجال الدراسات اللغوية نبين كيف كان الجرْجاني فيلسوف وعالم لغة بكل المقاييس العصرية لهذا الوصف وأنه –

= ٣ : ٩٦ ، وأخبار الحكماء ١٥٦ ، وإرشاد الأريب ٥ : ٨٦ – ٩٧ ، ولسان الميزان ٤ : ١٩٨ وابن بسام في الذخيرة : المجلد الأول من القسم الأول ١٤٠ ، وللمستشرق أرندنك C. Van Arendonk في دائرة المعارف الإسلامية ١ : ١٣٦ – ١٤٤ وغيرها كثير .

(١) د. حلمي خليل ، حاشية كتاب جون ليونز ، نظرية تشومسكى اللغوية ، ص٢٣٨ .

(٢) الزركلي ، الأعلام ، ٤ : ١٧٤ .

وأيضاً : فوات الوفيات ١ : ٢٩٧ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٤٣ ، وبغية الدعاة ٣١٠ ، وآداب اللغة ٣ : ٤٤ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٠١ ، وطبقات الشافعية ٣ : ٢٤٢ ، ونزهة الألبا ٤٣٤ ، إنباه الرواة ٢ : ١٨٨ وأيضاً : Brock. 1 : 341, S.1 : 503 .

كسائر رموز الثقافة والعلم والمعرفة ، المسلمين لم يأخذوا حقهم بالبحث في حياتهم وأعمالهم بينما اتكببنا على تراث الغرب وكأنهم أتوا بما لم يأت به الأوائل وهذه فرية كاذبة ، ومحض اختلاق ، ودعاية مسمومة وقعنا تحت تأثيرها بسبب اعلامنا المتهافت المضل، وبسبب أقلام مسمومة وظفت نفسها للدعاية من شأن رفع أهل الغرب ، والحط من شأن أهل الشرق وهم النبع الصافي لكل حضارة وعلم ودين .

وضع الجُرْجاني يده على أسرار اللغة فيما كتبه - خاصة في الكتابان المذكوران - وقد وضعهما على أساس نقدي وبلاغي ، رفع فيهما راية العلم ، ووضع الأسس والقوانين على أسس منهجية سليمة ، وبنيت الدراسات التي قام الجرجاني بها على ركيزتين أصيلتين في دراسة الفن الأدبي : أولاها : ناحية البناء والنظم والتركيب، والثانية ناحية الصياغة والتصوير والجمال، مما مكّن الجرْجاني من إقامة أساس علم البلاغة القائم على توخي الترتيب في المعاني وتعميق الفكر هناك ، مع إيمانه العميق بأن العلم بمواقع المعاني في النفس هو علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق .

فليست الفضيلة فقط في التقاط اللفظ واستحسانه ، وإنما بما له أيضاً من وقع في النفوس البشرية فاللفظ الحسن يعطي معنى حسناً لا يفوت باستحسان اللفظ. ولعل موقف الجرْجاني أبلغ رد على من اتهم العرب - علماء وفلاسفة وفقهاء ومفكرين على اختلاف مشاربهم - بأنهم اهتموا باللفظ دون المعنى . وكيف يهتمون بالألفاظ دون المعاني إذا كانت الألفاظ تبّن المعاني ، وهي قَوالب تنسكب فيها المعانى ، فالكلمة لديهم موضوعة بإزاء الفكرة ، اللفظ بإزاء المعنى ، والألفاظ (الكلمات) تأتي من داخل النفس وليس من خارجها ، لذلك فهي تحرك لواعج النفس وتثير شجونها .

وقد زاد الأمر وضوحاً عند مناقشة المترادفات وهل هي كلمات زائدة أم لابد أن تعبر عن شيء ، يلخص لنا أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) هذه القضية في كتابه « الفروق في اللغة » بقوله :

« ... والشاهد على أن اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أن الاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة

فعرف فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد فإن أشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول كان ذلك صواباً فهذا يدل على أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر وإلا لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه » [1] .

إذاً كان مقصد الجُرْجاني الرئيس بيان أمر المعاني كيف تتفق وتختلف ، ومن أين تجتمع وتفترق ، وتفصيل أجناسها وأنواعها ، وتتبع خاصها ومشاعها ، ففصّل القول في التشبيه والتمثيل والإستعارة وهي - عنده - لب التصوير الأدبي ، وذخيرته التى لا تنفد [2] .

يقول الجُرْجاني « ... فإنك لترى بها الجماد حيّاً ناطقاً والأعجم فصيحاً (يقصد الاستعارة) والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية خلية ... وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خفايا العقل كأنها جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفتْ الأوصاف الجسمانية ، حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون » [3] .

ولا يفوت الجُرْجاني النظر في الجانب النفسي للمعاني لأنه متصل بموضوع التشبيهات من الناحية التي تعتبرها ركناً من أركان الخَلْق الأدبيّ ، ومن ناحية أخرى متصل بموضوع المفاضلة بين الأدباء والحكم عليهم من حيث الإبتكار أو التقليد [4] .

ويؤكد الجُرْجاني في معرض استكشافه لحضور العقل في إفراز لغوي على إلحاق الكلام بجملة الصناعات التي يصدر فيها الإنسان عن مهارة وحذق يأخذهما بالمران والتناول ، وترتبط القضية لديه بإشكالية اكتساب اللغة وتحصيلها على أساس أن الكلام ككل الصناعات وسائر الأعمال المنسوبة إلى

---

(١) أبو هلال العسكري ، الفروق في اللغة ، ص ١٣ .

(٢) د. محمد خلف الله أحمد ، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، مجلة كلية الآداب ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٩٠ - ١٩٧٠ ، ص٢٨ .

(٣) عبد القاهر الجُرْجاني ، أسرار البلاغة ، ص٣٣ .

(٤) د. محمد خلف الله ، من الوجهة النفسية ، ص٤٠ .

الدقة ويستدعي جودة القريحة ، والحذق ، ودقة الفكر ، ولطف النظر ونفاد الخاطر» (١) .

ويهتدي الجُرْجاني إلى حقيقة مهمة للغاية وهي أن الظاهرة اللغوية تقوم على مبدأ التباين والاختلاف في الأجزاء مما يجعل الحدث اللساني نظاماً من المتنافرات والمتباينات والأجنبيات جمعت أعناقها في ربقة واحدة ، وعقد بينها معاقد نسب وشبكة ، ويصل الجرْجاني من استقرائه لما يحدث في الظاهرة اللغوية إلى « إيجاد الائتلاف في المختلفات » أي أن الوحدة تقوم على الكثرة والائتلاف يقوم على الاختلاف ، والكل يقوم على الجزء .

٦- الجلال السُيُوطي

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي (٨٤٩هـ - ١٤٤٥م - ٩١١هـ - ١٥٠٥م) إمام حافظ مؤرخ أديب . له نحو ٦٠٠ مصنفاً ، منها الكتاب الكبير ، والرسالة الصغيرة . نشأ في القاهرة يتيماً (فقد مات والده وعمره خمس سنوات) ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس ، وخلا بنفسه في روضة المقياس ، على النيل ، منزوياً عن أصحابه جميعاً ، كأنه لا يعرف أحداً منهم ، فألف أكثر كتبه . وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها . وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه ، وأرسل إليه هدايا فردها . وبقي على ذلك إلى أن توفي .

من بين كتبه الكثيرة « الإتقان في علوم القرآن - ط » و « إتمام الدراية لقراء النقاية - ط » كلاهما له، في علوم مختلفة ; و « الأحاديث المنيفة - خ » ، و « الأرج في الفرج - ط» والاذدكار في ما عقده الشعراء من الآثار - خ» و«إسعاف المبطأ في رجال الموطأ - ط » و « الأشباه والنظائر - ط » في العربية ، و« الأشباه والنظائر - ط » في فروع الشافعية ، و« الاقتراح - ط » في أصول النحو ، و« الإكليل في استنباط التنزيل - ط » و « الألفاظ المعربة - خ » و«الألفية في مصطلح الحديث - ط» و « الألفية في النحو - ط » واسمها «الفريدة» وله شرح عليها، و« إنباه الأذكياء لحياة الأنبياء - ط » رسالة، و « بغية

(١) الجرْجاني . أسرار البلاغة ، ص ص١١٨ - ١١٩ .
وأيضاً : د. عبد السلام المسدي ، اللسانيات ، ص ص ١٢٠ - ٢٢١ .

الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة – ط ، و « التاج في إعراب مشكل المنهاج – خ » و « تاريخ أسيوط » وكان أبوه من سكانها ، و « تاريخ الخلفاء – ط » و«الحبير لعلم التفسير – خ » و « تحفة المجالس ونزهة المجالس – ط » و « تحفة الناسك – خ » و « تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي » – ط .

ولم يقف الأمر بجلال الدين السيوطي عند هذا الحد بل له مؤلفات أخرى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي :

« ترجمان القرآن – ط » و « تفسير الجلالين – ط » و « تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك – ط » و « الجامع الصغير – ط » في الحديث، و «جمع الجوامع – ط » مع شرحه ، و « الحاوي للفتاوى – ط » و « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة – ط » و « الخصائص والمعجزات النبوية – ط » و « درّ السحابة ، في من دخل مصر من الصحابة – خ » و « الدر المنثور في التفسير بالمأثور – ط » ستة أجزاء ، و « الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير – ط » و « الدراري في أبناء السراري – خ » و« الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة – ط » و « الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج – ط » و « ديوان الحيوان – ط » اختصره من حياة الحيوان للدميري، وقد ترجم إلى اللاتينية ، و « رشف الزلال – ط» ويعرف بمقامة النساء، و«زهر الربى – ط » في شرح سنن النسائي، و « زيارات الجامع الصغير – ط» مرتبة على الحروف ، والسبل الجلية في الآباء العلية – ط » و « شرح شواهد المغني – ط » سماه « فتح القريب » و«الشماريخ في علم التاريخ – ط » رسالة ، و « صون المنطق والكلام » عن فن المنطق والكلام – ط » و « طبقات الحفاظ – ط » ، و« طبقات المفسرين – ط » و« عقود الجمان في المعاني والبيان – ط » أرجوزة ، و « عقود الزبرجد على سند الإمام أحمد – خ » و« قطف الثمر في موافقات عمر – خ » واللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة – ط » و « لب اللباب في تحرير الأنساب – ط » و « لباب النقول في أسباب النزول – ط » و « ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين – خ » و « متشابه القرآن – ط » و « مجموعان » مخطوطان ، يشتملان على ٤٣ رسالة – ذكر أسماءها حبيب الزيات في «خزائن الكتب » .

ولا يتسع المقام هنا لذكر كل آثار جلال السيوطي ولكني ألقي الضوء على بعض مؤلفاته الأخرى مثل : « المحاضرات والمحاورات – خ » و « المذهب في ما وقع في القرآن من المعرب – خ » و « المزهر – ط » في اللغة ، و « مسالك الحنفا في والدي المصطفى – ط » و « المستطرف من أخبار الجواري – خ » و « مشتهى العقول في منتهى النقول – ط » و « مصباح الزجاجة – ط » في شرح سنن ابن ماجه ، و « مفحمات الأقران في مبهمات القرآن – ط » و « مقامات – ط » في الأدب ، و « المقامة السنوسية في النسبة المصطفوية – ط » و « مناقب أبى حنيفة – ط » و « مناقب مالك – ط » و « مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا – ط » و « المنجم في المعجم – خ » ترجم به أشياخه ، و « النفحة المسكية والتحفة المكية – خ » في عدة علوم ، و « نواهد الأبكار – خ » حاشية على البيضاوي ، و « همع الهوامع – ط » في النحو ، و « الوسائل إلى معرفة الأوائل – خ » وغير ذلك (١) .

ولقد وضع السيوطي يده على بعض حقائق الدراسات اللغوية العربية القديمة ، خاصة في مجال اللغة المنطوقة حيث يمثل مبدأ السماع الوسيلة المعتمدة عند علماء العربية في جمع المادة اللغوية ، وبناءً على هذا المبدأ يحدد السيوطي في كتابه « المزهر » الفرق بين عمل النحوي وعمل اللغوي فيقول : «اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه » (٢) الأول يسجل الواقعة اللغوية كما هي فلا يتدخل فيها لأنه يرى أن تدخله غير جائز فلابد من التزام الموضوعية التامة ، بينما يتمتع النحوي ببعض حرية التصرف في أن ينقل ما يقول به اللغوي ثم يقيس السابق على اللاحق ، وما يسمع على ما تعارف عليه النحاة وما درجت عليه العرب، وهم لا ينطقون كيفما اتفق ولكنهم يتبعون ما تعارفوا عليه من قواعد نحوية وأساليب لغوية ، وبلاغة تعبيرية ، فالنحوي يتبع الطريقة التطبيقية فيما يصله من علم لغوي عن طريق اللغوي الذي برع في نقل اللغة التي يسمعها في غير تحريف .

---

(١) الزركلي ، الأعلام ، ٤ : ٧١ – ٧٣ .
وأيضاً : وفيات الأعيان ، ٢ : ٤١٠ .

(٢) د. حلمي خليل ، مترجم كتاب جون ليونز ، نظرية تشومسكي اللغوية ، ص٤٢ (الحاشية) . عن : السيوطي ، المزهر ، الجزء الأول ، ص٥٩ .

ويشرح الدكتور حلمي خليل موقف العرب من الدراسات اللغوية العربية القديمة فيذكر أن الأصل لدى العرب هو المادة اللغوية المسموعة والمنقولة مشافهة ورواية ، ولذلك كان من البدهي أن يبدأ هؤلاء العلماء الدراسة اللغوية بدراسة المستوى الصوتي ، وسرعان ما تتحول اللغة المنطوقة إلى لغة مكتوبة ولذلك يقال إن الكسائي استنفد خمسة عشرة قنينة من الحبر في كتابة ما سمعه من الأعراب ومعنى هذا أن عملية الملاحظة أو تصنيف الظواهر النحوية واللغوية وتحريرها علمياً كانت تتم في مرحلة تالية لمرحلة السماع أي بعد التدوين والكتابة .

ويعني هذا أيضاً أن علماء اللغة العربية كانوا على وعيٍ تام بأهمية اللغة المنطوقة ، ولكنهم عندما أرادوا بحث المادة اللغوية بحثاً علمياً مجرداً كانوا يعودون إلى النصوص المكتوبة مما جعل قيمة السماع والمشافهة تقل من حيث الأهمية عند دراسة النحو العربيّ دراسة علمية منظمة (١) .

٧- أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق

ولد أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق (١٢١٩هـ - ١٨٠٤م - ١٣٠٤هـ - ١٨٨٧م) في قرية عشقوت بلبنان وأبواه نصرانيان مارونيان سمياه فارساً ويعتبر أحد علماء اللغة والأدب . رحل إلى مصر - قبلة العرب والمسلمين بالحضارة الإنسانية - فتلقى الأدب عن علمائها . ورحل إلى مالطا فأدار فيها أعمال المطبعة الأمريكية . وتنقل في أوروبا ، ثم سافر إلى تونس حيث اعتنق الدين الإسلامي وتسمى « أحمد فارس » ودعي إلى الآستانة فأقام فيها بضع سنين : وهناك أصدر جريدة « الجوائب » سنة ١٢٧٧هـ فعاشت مصدراً للتنوير ٢٣ سنة . وتوفيّ بالآستانة ، ونقل جثمانه إلى لبنان مسقط رأسه ودفن بها .

ترك لنا أحمد فارس الشدياق مجموعة من الآثار العلمية تدل عليه وهي «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب - ط » سبع مجلدات ، اختارها ابنه سليم من مقالاته في الجوائب ، و « سرّ الليال في القلب والإبدال » في اللغة ، جزآن ، طبع الأول منهما و « الواسطة في أحوال مالطة (مالطا) - ط » و « كشف المخبا عن فنون أوروبا - ط » و « الجاسوس على القاموس - ط » و « اللفيف في كل

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص٤٢ - ٤٣ .

معنى طريف – ط » ، و « الساق على الساق في ما هو الفارياق – ط » و « غنية الطالب – ط » و « الباكورة الشهية في نحو اللغة الانجليزية – ط » (١) و « سند الراوي في الصرف الفرنساوي – ط » . وله عدة كتب لم تزل مخطوطة ، منها « ديوان شعره » يشتمل على اثنين وعشرين ألف بيت ، وفي شعره رقة وحسن انسجام ، و « المرآة في عكس التوراة » وكتاب في « تراجم الرجال » وكتاب في «علم البديع » (٢) .

٨- عباس محمود العقاد

ولد عباس محمود إبراهيم مصطفى العقاد (١٨٨٩ – ١٩٦٤) (*) في مدينة أسوان في صعيد مصر، ويقال إنه كردي الأصل ، كما يقال إن والده سماه «عباس » حباً من والديه بآل بيت النبى ﷺ، وإنه لا ينتسب إلى الخديوي عباس، وإنما إلى العباس عم رسول الله ﷺ . وحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة أسوان عام ١٩٠٣، ولم يكن لديهم مدرسة ثانوية ، وإنما تقع أقرب مدرسة ثانوية في قنا المدينة التى تبتعد عن أسوان بعدة مئات من الكيلو مترات، فآثر عباس العقاد الاكتفاء بهذه الشهادة ، وآل على نفسه أن يثقف نفسه، وكأنه كان فى عناد مع الظروف فأصبح بفضل قوة شكيمته واصراره موسوعة ثقافية كاتبة وناطقة ومتحركة .

عمل العقاد بالصحف المصرية الموجودة في عصر « الدستور » و « المؤيد » لسان حال حزب مصطفى كامل ، وجريدتيّ « الجريدة » و « البيان » لأصحابها أحمد لطفى السيد – أستاذ الجيل– و « محمد المويلحى » . وأصدر أول كتبه عام ١٩١٢ بعنوان « خلاصة يومية » ثم نشر في نفس السنة تقريباً كتابه « الإنسان الثاني » . وله من الكتب والمقالات واليوميات ما لا تحتمله هذه الأسطر القليلة ولكننا نشير إلى العبقريات المشهورة و « الإسلام وأباطيل خصومه » و « الله »

---

(١) كتبها بالكاف وليس بالجيم « الانكليزية » على عادة أهل زمانه .

(٢) الزركلي ، الأعلام ١ : ١٨٤ ، ص ص١٨٤ – ١٨٥ ، وأيضاً : أعيان البيان ١١١ وآداب شيخو ٢ : ٧٩ ، وآداب اللغة ٤ : ٢٦١ ومجلة الهلال : المجلد الثاني ، وفيه : اللبنانيين ٧٥ وتاريخ الصحافة العربية ١ : ٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٤٩٠ والجامع المفصل في تاريخ الموارنة ٥٣٤ .

(*) يقال إنه ولد في أول يوليو عام ١٨٨٩ ومات صباح يوم الجمعة ١٢ مارس ١٩٦٤ .

وإبراهيم أبو الأنبياء » ، وله من القصص « سارة » (١٩٣٨) وله من الشعر الكثير حتى أراد له عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أن ينصبه أميراً للشعر بعد وفاة الشاعر أحمد شوقي، وانضم العقاد إلى مجمع اللغة العربية ومات وهو عضواً مبرزاً فيه (*) .

ونحن نعلم من خلال الدراسات اللغوية أن اللغة الإنسانية باعتبارها هبة الله تعالى للإنسان بها يستكمل هبة العقل تلك الجوهرة المكنونة ، وبها يبلغ الله تعالى رسالاته إلى الإنسانية جمعاء تلك اللغة قادرة على الإشارة إلى أشياء وأحداث بعيدة عن المتكلم ، زماناً ومكاناً وعن طريق الأفعال نشير إلى وحدات الزمن الثلاث زمن الماضي، أو زمن الحاضر ، أو زمن المستقبل غير المنظور. وقد نظر العقاد في « اللغة » خاصة « اللغة العربية » ولم يكن غريباً عليه معرفة اللغة الإنجليزية معرفة تامة ، فوجد أن اللغة العربية تحتوي على كلمات أخرى تدل على الزمن مثل : اليوم والنهار والليل . وفي مقدور اللغة العربية التفرقة بين معنى اليوم ومعنى النهار ، ولهذا وجدت للأوقات كلمات مختلفة بحسب الطول والقصر في المدة .

وإذا أنعمنا النظر نجد أن المدة شاملة لجميع المقادير من امتداد الزمن ، وينطوي فيها اللحظة أو اللمحة للوقت القصير ، والبرهة والردح للوقت الأكثر طولاً من اللحظة أو اللمحة ، والفترة للمدة المعترضة بين وقتين ، بل وجد فيها « الحين » للزمن المقصود المعيّن، والعهد للزمن المقترن بمناسباته ، و « الزمن » للدلالة على جنس الوقت كيفما كان ، و « الدهر » للمدة المحيطة بجميع الأزمنة والعهود والأحيان .

وقد كشف العقاد عن أصالة اللغة العربية أو ما سمّاه باللغة الشاعرة ؛ بسبب ما لها من مزايا خاصة في الفن والتعبير ، مكّنت هذه المزايا اللغوية من التفرقة

(*) من هذه العبقريات : عبقرية محمد ﷺ وعبقريات : الصديق ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ، وخالد، وعائشة بنت أبي بكر (رضيّ الله عنهم أجمعين) وغيرهم كثير ، حتى أنه تناول عبقريات غير إسلامية مثل : فرانكلين ، فرنسيس بيكون ، غاندي ، وبرنارد شو وغيرهم أيضاً.

الدقيقة بين أحكام الإعراب ، أو بين صيغ المشتقات ، أو بين أوزان الجمع والمثنى ، وجموع الكثرة والقلة في الأوزان السامية [١] .

ويتلاقى في اللغة العربية تعبير الحقيقة وتعبير المجاز ، على نحو لا يعهد له نظير في سائر اللغات العالمية ، ومن ثم فهي لغة شاعرة ، يكثر فيها الشعر والشعراء ، ولكن بما لها من « عبقرية » جعلت العقاد يدافع عنها بقوله :

« من واجب القارىء العربي إلى جانب غيرته على لغته ، أن يذكر أنه لا يطالب بحماية لسانه (لغته) ولا مزيد على ذلك ، ولكنه مطالب بحماية العالم من خسارة فادحة تصيبه بما يصيب هذه الأداة العالمية من أدوات المنطق الإنساني ، بعد أن بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال، وإن بيت القصيد هنا أعظم من القصيد كله ؛ لأن السهم في هذه الرمية يسدد على القلب ولا يقف عند الفم واللسان ، وما ينطقان به في كلام منظوم أو منثور » [٢] .

واللغة العربية كثيرة المزايا والآثار ومن ميزاتها أنها لغة تاريخية وقد تعد أقدم لغة تاريخية في العالم ، وأنها لغة روحية - لا لأن القرآن الكريم نزل بها فقط ولكن لأنها اللغة التي يغلب على خصائصها الطابع الروحي أو طابع المثالية بوجه عام [٣] .

ومن هنا جاء اهتمام العرب الأولين باللغة فأوسعوها دراسات فقهية ونحوية وإنشائية واشتقاق ومجاز واستعارات وتشبيهات ، كيف لا وهي تمثل عز العرب ومجدهم وثقافتهم وفنهم وعلامة إعجازهم ، كيف لا وهي مستودع المفاخر ، والأنساب والغارات ، والسوابق والذكريات ، حتى سمى العرب التاريخ بالأيام ... أيام العرب وقد استوفت حظها من الأساليب المختلفة مثل أسلوب الكلمات المستفادة من التصريف والاشتقاق أو من الأدوات المصطلح على تخصيصها لمعانيها ، وأسلوب آخر هو أسلوب التعبيرات التي تدخل في عداد الجمل والتراكيب ، وأسلوب الدلالة على الزمن وغيرها .

---

(١) جلال العشري ، العقاد والعقادية ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ ، ص١٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ص ١٧ - ١٨ . عن كتاب العقاد « اللغة الشاعرة » .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص١٤٣ .

وإذا نظرنا إلى الأفعال من وجهة الأجرومية فنرى أن أوضاعها في اللغة العربية أدل على التطور والارتقاء من لغات أخرى كثيرة تحسب في طليعة اللغات دقة وأداءً للمعاني الذهنية على ما يقول العقاد .

هذه هي اللغة الشاعرية كما وصفها العقاد لكي يدلل بهذه التسمية على معانٍ عدة ، ففيها يكثر الشعر والشعراء ، وهي لغة موسيقية تستريح الأذن إلى ألفاظها كما تستريح إلى اللفظ المرتل ، وهي لغة شاعرة أيضاً تصنع مادة الشعر وتشاكله في قوامه وبنيانه معتمدة في ذلك على الوزن والحركة ، وهي في جملتها لغة منظومة منسقة الأوزان والأصوات .

وقد تصدى العقاد ومفكرو الإسلام لمعاول الهدم التي أرادت أن بنيان اللغة العربية فكتب العقاد اللغة الشاعرة ، وتصدى جمال الدين الأفغاني للرد على أكاذيب « إرنست رينان » وتصدى الإمام محمد عبده لتفنيد أكاذيب « جبريل هانوتو » ، بينما تصدى قاسم أمين لدحض أقاويل « الدوق داركور » ، وتصدى مصطفى عبد الرازق لبيان تهافت آراء « تتمان » و « لامانس » و « جوتييه » وهم كثر ، وياليتنا ننتبه الآن مثلما تنبه السابقون إلى لغتنا الجميلة فهي لغة العرض والدين المعبّرة عن حياتنا الاجتماعية والثقافية والعلمية ، وهي لسان حال الفكر والضمير ، وبدونها لا يبقى للمسلم العربي كيان ولا قوام فيندثر [١] .

٩- باسم زكي صالح

الدكتور باسم زكي صالح ، أستاذ مصري يعمل أستاذاً لعلم « التراث » في جامعة هارفارد Harvard ، في كلية القانون ، اهتم باسم زكي بموضوع « تاريخ اللغات » وحظيت اللغة العربية ومكانتها ودورها باهتمامه الكبير ، له نظرية متكاملة جديدة في تاريخ اللغات يستند فيها إلى علوم ونظريات، تاريخ الثقافات، والتفاعل الثقافي، والانتشار الثقافي ، ويرى أن الإنسان القديم ، أنشأ أو ابتكر في أماكن عديدة من العالم ، منظومات لغوية مختلفة ، ولكنها تتشابه في بعض جوانبها ، ويرجع سبب هذا التشابه – في نظر باسم زكي – إلى التشابه في

---

(١) ارجع إلى كتاب العقاد ، اللغة الشاعرة ، وإلى كتاب جلال العشري ، العقاد والعقادية، وغيرهما كثير .

التكوين الفزيولوجي للمخ ، ثم راحت تتفاعل معاً تفاعلات عديدة وعميقة ومختلفة ، وتتمايز في ذات الوقت ، وتنشق عنها لهجات محلية إلى آخر هذه العملية .

ومن أهم اكتشافات الدكتور باسم اللغوية والتى ينقض بها أسس النظرية القديمة ، اكتشافه لوجود تشابهات وصلت إلى أكثر من عشرين ألف كلمة حتى اعلان الخبر عام ١٩٩٣ (١) ، بين اللغة العربية القديمة، وبين كل من اللغة الألمانية القديمة ، وإحدى لغات غرب أوروبا العتيقة الميتة وهي اللغة « السلتية » وذلك على الرغم من عدم وجود اتصال جغرافي بين الشعوب الثلاثة ، وعدم التوصل إلى معلومات مهمة عن « هجرات » متبادلة تمت بينهما ، ثم – وهذا هو الأهم – على الرغم من عدم وجود هذه الكلمات في أي لغة « وسيطة » بين اللغات الثلاث .

وقد قام الدكتور باسم زكي صالح بعدة زيارات علمية لبعض الدول الأوروبية كما زار مصر أيضاً وألقى فيها عدداً من المحاضرات ، في الجمعية الجغرافية المصريه ، وفي مدرسة اللغات الشرقية بجامعة القاهرة ، ودارت هذه المحاضرات حول الموضوعات مثار اهتمامات الدكتور باسم زكي .

١٠- فردريك لودفيج جوتلوب فريجه

ولد فردريك لودفيج جوتلوب فريجه (١٨٤٨ – ١٩٢٥) في مدينة « ڤيمار » Wiemar ومات بمدينة باد كلاين Bad Kleinen بألمانيا ويعرف بأنه منطقي ورياضي ألماني A German mathematical -logician ، وعمل أستاذاً للرياضيات بجامعة « يينا » Jena في الفترة من عام ١٨٧٩ وحتى عام ١٩١٨ ، ويعتبر مؤسس المنطق الرياضي الحديث مع چورچ بول George Boole (١٨١٥ – ١٨٦٤) ، كما شارك في المحاولات التي نشطت لكي يضع قواعد لغة مثالية معاصرة .

ويعتبر فريجه الآن – كما يقول ألفريد تارسكي – شخصاً من أعظم مناطقة القرن التاسع عشر ، على الرغم من أنه إما لم يكن معروفاً لدى البعض ، أو كان

---

(١) الأهرام ، ١٩٩٣/٢/٥م ، ص١٣ .

معروفاً ولكنه أسيء فهمه ، ربما لأنه جمع عدداً من الاتجاهات معاً ، فهو يعرف بأنه فيلسوف رياضي أفلاطوني ، وفيلسوف تحليلي ومنطقي ، اهتم بالأسس الإبستمولوجية والوجودية لنظرية العدد .

أما أهم مؤلفات فريجه فهو « التصورات » (١٨٧٩) Begriffsschrift ، وقد ظهر في هذا العمل للمرة الأولى موضوع « حساب القضايا » في صورتها الحديثة The propositional calculus ، ونظرية أو فكرة « القضايا الوظيفية » propositional function ، واستخدام الدلالات الكمية Quantifiers ، وأوضح فريجه موضوع القواعد المبدئية للدالة Primitive Rules of inference ، وفكرة الثروة الموروثة والتحليل المنطقي للبرهان عن طريق الاستدلال الرياضي mathematical induction ، وربما كان هذا هو أهم عنصر في تعريف « العدد الأصلي » cardinal number وهو الذي أمد فريجه بأسس اشتقاق علم الحساب من المنطق في كتابه « أسس الحساب » (١٨٨٤) (*) (١) .

وقد أفادت الدراسات المنطقية فريجه ودراسة التعريفات عندما مايز بين المعنى والمدلول sense and Reference ، فقد أشار إلى وجود تعبيرين يختلفان في المعنى ولهما نفس المدلول مثل قولنا « نجمة المساء » The evening star و« نجمة الصباح » The morning star ، والاثنان لهما نفس المدلول وهو «فينوس» Venus ربة الجمال عند اليونان القدماء ، أو كوكب الزهرة وقد اعتبر فريجه أن هذا من عيوب اللغة ؛ لأننا يمكننا وضع جزء من التعبير مكان الآخر دون أن يطرأ تغير في المعنى . إن وجود تعبيران لهما نفس المعنى سوف يؤدي إلى وجود نفس المدلول بينما لن يتغير المدلول إذا استبدلنا جزء من التعبير محل الجزء الآخر له نفس المدلول (٢) .

(*) مؤلف جورج بول الأساسي « دراسة قوانين الفكر » .

(1) Grundlagen der arithmetic.

وانظر : Runes, Dagobert D., (editor) Dictionary of philosophy, A Helux Book, Rowman and Allanheld, Totowa, New Jersey, 1984, p. 127.

وأيضاً : Reese, W., Dictionary of Philosophy.

(2) Ibid. p. 182 .

see : Jourdain, P.E.B., Gottlob Frege, the Quartery Journal of pure and Applied Mathematics, Vol. 43 (1912), pp. 237 - 269 .

وكان من جرّاء اهتمام فريجه بتحليل اللغة والكشف عن تراكيبها وغموض عباراتها قد مكّن من تسليط الضوء على كثير من المشكلات الفلسفية التي ظهرت إلى الوجود نتيجة سوء استعمال لقواعد اللغة، كما مكّن من تطوير المنهج التحليلي للغة الحياة اليومية، بالإضافة إلى المنطق والرياضيات، وأصبح هذا المنهج هو المنهج العلمي المتبع في الدراسات الفلسفية على اختلاف موضوعاتها. واتخذ المنهج التحليلي المنطقي في دراسات فريحه عدة أوجه هي كما يأتي(١):

أ – تحليل لغة التداول والاستفادة من المقومات أو الأفكار والروابط المنطقية الموجودة فيها، مع بيان عدم صلاحيتها لأن تكون لغة علمية دقيقة.

ب– تعريف المفاهيم والأفكار المستخدمة في المنطق والرياضيات ووضع القواعد الخاصة بالتعريف.

جـ– كشف القوانين والمبادئ الأساسية في الرياضيات وبيان كيفية الحصول عليها من الأفكار والروابط والعلاقات المنطقية عن طريق تركيبها في صيغ هي إما بدهيات أو قوانين استنتاجية.

وطالما أن اللغة التي يتداولها الناس تستخدم عبارات صوتية أو كتابية ذات قواعد يجب مراعاتها، إلا أن اللغة ليست مجرد هذه الأصوات غير المنتظمة ، بل نجدها تخضع لقواعد صوتية وصرفية ونحوية تبين لنا الكيفية التي تتشكل بها لغة الحياة اليومية . فهناك عبارات ، لغوية ، لها علاقة أساسية – إلى أبعد الحدود – بالفكر من ناحية وبالأشياء في العالم الخارجي من ناحية أخرى ، ولكن استعمالات اللغة الكثيرة والإستعارة والتشبيه والمجاز فيها قد زاد من تعقيدها خاصة من حيث المعنى، وانعكست هذه الفعالية في مجالات كثيرة سواء أكانت في الحياة اليومية أو في الأدب ، وأصبح للفظة الواحدة أكثر من معنى حقيقي ومجازي. وكان من جرّاء هذه الاستعمالات أن زادت اللغة غموضاً وإبهاماً ، وأصبحت العبارات غير دقيقة في التعبير ، بحيث لا يمكن الاعتماد عليها في التعبير عن حقائق الرياضيات والمنطق والعلوم الطبيعية . لذلك نجد أن العلماء في هذه العلوم يحاولون بناء لغات اصطناعية رمزية للتعبير الدقيق

---

(١) د. ياسين خليل ، مقدمة في الفلسفة المعاصرة ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، بنغازي ، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م ، ص٤١ .

وتفادياً للأخطاء التي تنشأ من استعمال لغة التداول ، ولكن ذلك لا يعني مطلقاً أن العلوم أهملت دراسة اللغة ، بل بالعكس ، نشطت دراسات كثيرة لبحث الأوجه المختلفة للغة وكان نصيب المنطق كبيراً إذ بحث تراكيبها ومعانيها والإستفادة من المقومات المنطقية فيها ، (١) .

اهتم فريجه بالدراسات اللغوية من هذا المنطلق المنطقي فكانت مقالته «حول المعنى والدلالة» ، من أكثر المقالات دراسة للغة وصلتها بالمنطق ، نجده يفرق فيها بين ثلاثة مستويات جعلها أساساً للدراسة المنطقية ، هي (٢) :

أ- مستوى الرموز والصيغ والتراكيب والأشكال تبدو في الناحية الصورية للغة .

ب- مستوى المعنى ، وتتجلى في الناحية الفكرية وارتباط الأفكار بالرموز ، والصيغ والأشكال .

جـ- مستوى الدلالة ، وتتجلى فيها الناحية الشيئية أو المادية التي تشير إليها العبارات اللغوية المختلفة ، فصفة المادية لا توجد في اللغة ذاتها ، بل في الأشياء الخارجة عنها .

ومن خلال التحليل المنطقي للأسماء والعبارات والقضايا من زاوية الدلالة أو الأشياء التي تشير إليها ، نجد أنفسنا أمام ثلاثة نماذج معبرة هي :

أ- اسم له معنى وليس له دلالة ، فهو اسم فارغ ، مثل اسم التنين .

ب- عبارة لها معنى وليس لها دلالة ، فهي عبارة فارغة ، مثل رئيس شرطة القمر .

جـ- قضية لها معنى وليس لها دلالة ، فهي قضية فارغة ، مثل الامبراطور الروماني الحالي حاكم مستبد .

ثم لخص فريجه منهجه التحليلي في كتابه «أسس علم الحساب» Die Grundlagen der Arithmetik (٣) :

أ- ضرورة فصل الجانب السيكولوجي عن الجانب المنطقي، والجانب الذاتي عن الجانب الموضوعي .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص٤١ - ٤٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص٤٧ .

ب- يجب البحث عن دلالة الألفاظ في نطاق القضية وليس منفرداً عنها .
جـ- ضرورة التفرقة بين الفكرة notion - Begriff والشيء دائماً .

وسعى فريجه نحو بناء لغة رمزية في كتابه « اللغة الرمزية » تناول فيه الأفكار المنطقية والروابط التي تؤلف ألف باء اللغة المنطقية على أساس أنها أوليات النظرية الاستدلالية التي يقوم عليها على المنطق والحساب مثل الثابت والمتغير ، والقضية والإلزام (الجمل الشرطية) والنفي ، والذاتية (المساواة) ، والدالة والكلية . ثم ناقش في مقالة أخرى موضوع الدالة تحت عنوان « الدالة والفكرة » Funktion und Begriff ، حيث بيّن فيه العلاقة الوثيقة بين المفهومين الرياضى والمنطقى .

ورأى فريجه أن موضوع « التعريف » مهماً للغاية إذا أراد بناء نسق لغوى يقوم على التحليل المنطقى الصحيح ، حيث ذكر أن الغاية من التعريف تكمن في تحديد المعنى للرمز بشكل تام ، ويمكن تلخيص موقف فريجه كما جاء في كتابه « القوانين الأساسية لعلم الحساب » (بجزئين) فيما يأتي [١] :

١- أوجد فريجه مفاهيم دقيقة من خلال إيجاد لغة رمزية دقيقة أيضاً ، وهذا يعني :

أ- تقديم نظرية منطقية في الاستنباط والاشتقاق تكون أساساً لكل عملية برهانية في المنطق والرياضيات .

ب- تعريف المفاهيم الرياضية بمفاهيم منطقية تحقيقاً لبرنامجه في ارجاع الرياضيات إلى المنطق .

٢- وضع منهجاً عاماً للدراسات المنطقية والرياضية على السواء يشترط فيه الرمزية والدقة في التعبير ، وتكامل السلسلة الاستنتاجية من دون حاجة إلى استخدام شروحات جانبية تفسد عليه البرهان الرمزية البحتة . وهذا يعني :

أ- ضرورة التفرقة بين البدهيات والمبرهنات ، والأخذ بالمنهج البدهي في المنطق والرياضيات ، وهو المنهج الذي بدأ به إقليدس في الهندسة .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص ٥٩ - ٦٠ .

ب - استبعاد الشروحات الجانبية في عملية البرهان والاكتفاء بالصيغ الرمزية وقدرتها على الانتقال من خطوة إلى أخرى تلزم عنها بمساعدة القوانين الاستنتاجية .

وقد خدم فريجه بهذه الأبحاث موضوع بناء اللغة المنطقية المعتمدة على اللغة الرمزية أكثر من خدم الدراسات اللغوية العامة ، فكانت أبحاثه فتحاً جديداً في تأسيس المنطق الرياضي والفلسفة الرياضية ، والتي تركت تأثيرها على غيره من فلاسفة الرياضيات أمثال هوايتهد ورسل ، كما أنها ساهمت – إلى حد كبير – في تحقيق حلم ليبنتز الفلسفي في الإستعاضة عن لغة الحياة اليومية بلغة فلسفية رمزية رياضية أكثر دقة .

١١ - إدوارد سابير

إدوارد سابير Edward Sapir (١٨٨١ - ١٩٣٩) هو مؤسس علم اللغة الثقافي - الاجتماعي الحديث ، وقد أصبح هذا العلم بفضل تلميذ سابير بنيامين فورف : أحد الفروع الرئيسة لعلم اجتماع اللغة والثقافة .

بدأ سابير حياته العلمية - بعد تخرجه من جامعة كولومبيا Columbia بالعمل في أصول وتحولات اللغات الجرمانية تحت اشراف أستاذه فرانتس بواس Frantz Boas ، الذي وجه تلميذه بعد ذلك إلى دراسة لغات الهنود الحمر في أمريكا الشمالية حيث أصبح فيما بعد من أبرز خبرائها ، وقد عمل في جامعات شيكاغو ، ثم ييل حيث أصبح أستاذاً لعلوم اللغويات Linguistics والأنثروبولوجيا Anthropology ، وهناك تطورت نظريته عن علاقة اللغة بكل من الإطار الاجتماعي الحضاري ، والثقافة .

أصدر إدوارد سابير كتاباً في اللغويات بعنوان « اللغة » عام ١٩٢١ ، ثم أعاد كتابته ونشر عام ١٩٣٧ في ضوء التطورات العلمية المتلاحقة ، وقد أكد في كتابه على أن التفاعل المستمر بين « نوع اللغة » و « نوع الثقافة » ، من حيث تأثير النظام النحوي والصرفي وتركيب بناء الجملة أو ترتيب الأسماء والأفعال والصفات فيها وأيضاً من حيث وفرة أو ندرة ما تستخدمه اللغة من « تشبيهات » أو مجازات وكنايات واستعارات ، وتأثير كل ذلك في نوع الثقافة التي تتبلور في اللغة المعنية ثم تأثير الثقافة الواسع في اللغة ، من حيث : النظام أو النسق

المعرفي، وترتيب هذا النسق المعرفي أو المنظومة المعرفية، ونوع الأنشطة العملية ، وطريقة تصور الطبيعة والتركيب الاجتماعي والعلاقات بين أطراف تلك التركيبات في « الثقافة » المعنية .

ومن رأي سابير – وأرى أنه لم يأت فيه بجديد – أنه يجب دراسة اللغة في إطارها الاجتماعي ، فاللغة تعتبر « مرشداً لتصور الواقع الاجتماعي الذي نشأت في إطاره وعبّرت عنه ؛ لأن العالم الواقعي تتشكل صورته في ذهن الإنسان -إلى درجة كبيرة -- بواسطة العادات اللغوية السائدة لدى أصحاب اللغة والثقافة المعنيين » .

وقد أكد سابير على أهمية التفاعل بين مختلف عناصر كل من الثقافة ، واللغة، في داخل « التركيبة اللغوية – الذهنية (العقلية) » ذاتها واعتبر أن الترتيب الشكلي للوحدات اللغوية أكثر أهمية من « الحقائق المادية » التي تعبّر عنها المفردات الداخلة في صنع هذه الوحدات؛ وتنبه سابير قبل ناعوم أو نوام تشومسكي بوقت طويل إلى أهمية التفرقة بين « البنية السطحية » و « البنية التحتية (العميقة) » للغة ، وأطلق عليها تعبير « اللغة الوصفية » و « الأنماط الحاكمة » في تلك اللغة الوصفية ، وهي الأنماط التي قال إنها تؤدى إلى إيجاد ما يسمى بـ « الحقيقة النفسية » داخل أذهان مستخدمي اللغة .

وترك لنا سابير أعمالاً كثيرة في هذا المجال لعل أهمها مجلدات « كتابات مختارة في اللغة والثقافة والشخصية » والتى صدرت في كاليفورنيا بعد وفاته بعدة سنوات ، وتدل على اكتمال نضجه الفكري في مجال تخصصه .

١٢- بنيامين لي فورف

قام بنيامين لي فورف Benjamin Lee Whorf (١٨٩٧ – ١٩٤١) الـذي كان موظفاً بشركة تأمين ضد الحريق بولاية كونيكتيكت ، بعدة دراسات في مجال لغات شعوب الأزتكس Aztecs والمايا Maya القدامى ، ولغات قبائل الأبوريني Aborigines في القارة الأمريكية الشمالية ، وتوصل من خلال هذه الدراسات إلى نظرية « اللغة والفكر والواقع » خلاصتها أن « اللغات المختلفة

تعكس العالم بطرق متباينة ، ويكتسب المرء اللغة الأم منذ نعومة أظفاره ، ومن ثم يدرك العالم منذ طفولته المبكرة من خلال نفس منظار لغة الأم » (١) .

ويعتبر بنيامين لي فورف أبرز تلامذة العالم اللغوي إدوار سابير الذي أسس نظرية العلاقة بين « اللغة » و « الثقافة » ، بل وأبعد من ذلك ساهم في توسيع الدراسات حول علم لغات الأجناس Ethnolinguistics أضيف إلى الدراسات اللغوية السابقة واللاحقة بعد ذلك ، وقد نشأ هذا العلم في موقع متوسط أو موقع وسط على تخوم علوم اللغة والأجناس والتاريخ والحضارات ، ويتناول دراسة العلاقات المتبادلة بين اللغة والحضارة والثقافة والعالم المحيط بالإنسان .

وعلى الرغم من أن فورف رفض العمل الأكاديمي الذي عرضه عليه مراراً وتكراراً أستاذه « سابير » لكي يستطيع أن يعملا سوياً في معهد ماساشوستش للتكنولوجيا (حيث درس فورف وحصل على دكتوراه فلسفة العلم في الكيمياء العضوية والهندسة الكيميائية العضوية وتطبيقاتها على كيمياء المخ البشري ، إلا أن فورف ظل يعمل بمفرده - في منزله وفي معمله الخاص - حتى خرج على العالم بنظريته الجديدة عن العلاقة بين نوع « النحو » والقواعد النحوية في كل لغة ، وبين نوع التفكير الذي تنتجه الثقافة التي تستخدم أو تتحدث هذه اللغة .

كان سابير قد أكد العلاقة بين اللغة والثقافة - واللغة التي يقصدها هي اللغة باعتبارها بناءً نحوياً ومنطقياً يعكس صورة العالم في ذهن من يتحدثها وما ينتج عنها من تصورات عن العالم - وقد ذكر سابير أيضاً أنه ينبغي دراسة اللغة في إطارها الاجتماعي، ونظر إليها على أساس أنها تعمل كمرشد إلى « الحقيقة الاجتماعية » طالما أن صورة العالم ترتسم في ذهن الناس بالشكل الذي تحدده بين عاداتهم اللغوية ، وقد عمل فورف - بناء على أفكار سابير - على تأسيس

---

(١) كندراتوف ، الأصوات والإشارات ، ص٦٧ .

وانظر أيضاً :

* Whorf, Benjamin Lee, (ed. J. B. Carroll language, thought and Reality, Wiley, New York, 1956 .

فكرته حول « النسبية اللغوية » والتي عرفت أيضاً بين علماء وفلاسفة اللغويات باسم « فرض فورف » Whorf Hypothesis ، وعقد من أجل دراسته ندوات ضمت علماء ومناطقة وعلماء نفس وأنثروبولوجيا وفلسفة وعلماء في الإثنوجرافيا ، ومن بينها « ندوة شيكاغو » توصل فيها إلى أن « كل لغة تصبغ العالم بطريقتها الخاصة ، بيد أن فحوى رسالتها عن الواقع يظل بشكل كامل ومطلق انعكاساً صحيحاً وصادقاً » (١) .

كما يذهب فرض فورف أيضاً إلى « أن الجماعات التي تستخدم منظومات نحوية مختلفة تصل كل منها إلى تصور مختلف عن العالم » .

ونشر فورف عام ١٩٣٩ « مقالة » مشهورة بعنوان : « العلاقة بين عادات الفكر والسلوك وبين اللغة » أثبت فيه أن مستخدمي اللغات الأوروبية (أو ما يطلق عليه : لغة أوروبية أنموذجية) يتوصلون إلى تصورات مشتركة خاصة عن الظواهر ، أو هكذا تتضمن أذهانهم وأفكارهم ، وهذه التصورات هي : المكان ، والزمان والمادة ، وأن هذه التصورات تختلف كيفياً عما يتضمنه فكر مستخدمي اللغات القديمة في أمريكا والتي تطورت قبل ما يسمى زعماً «العصر الكولومبي» أى قبل إعادة اكتشاف القارة الأمريكية على يد كولومبوس واحتكاك شعوب العالم الجديد باللغات الأوروبية .

إن فورف يرى أننا نعيش أسرى اللفظ ، فإذا كنا ندرك منذ طفولتنا لغتنا الأم على نحو تلقائي (وبطريقة غير واعية) فنحن نكتسب أيضاً وفي نفس الوقت وبطريقة غير واعية كذلك أسلوباً نوعياً للتفكير أي نكتسب ما يسميه «ميتافيزيقا » باطنية خافية .

والأمثلة على فكرة فورف كثيرة في لغات الشعوب القديمة ، كما نجدها في لغات الشعوب الحديثة مثل الروسية والألمانية ، إلا أن لغاتها تطورت . فكلمة Tier الألمانية القديمة تعني كل الحيوانات مثل الوحوش ذات الأربع وتقال في مقابل الحيوانات الأليفة . وكلمة Fogel كانت تعني كل الطيور ، أما الآن فأصبحت تعني نوعاً واحداً منها هو النحل والفراشات بل والذباب أيضاً . وتعني

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص٦٩ .

كلمة Wurm الزواحف بعد أن كانت تعني الديدان والثعابين والعصي والعناكب . وكلمة Fisch تعنى كل السابحات في الماء ثم أصبحت تعني « السمك » ، وغيرها كثير (١) .

لقد استطاع فورف أن يضع « جدول » خاص لتقسيم كل من الفكر والنحو بحسب نوع المنطق المسيطر على كل منهما ، إلا أنه مات في حريق –وهو مراقب الحرائق في بلدته – قبل استكمال مشروعه الذي أكمله زملاؤه وتلامذة سابير نفسه بعد ذلك .

١٣- لودفيج ڤتجنشتين

يعتبر لودفيج جوزيف يوهان ڤتجنشتين Ludwig Joseph Johann Wittgenstein (١٨٨٩ – ١٩٥١) من أشهر الأسماء التي ظهرت في سماء الفكر الإنساني وبخاصة الفلسفي وعلى الأخص في مجاليّ المنطق وفلسفة اللغة في القرن العشرين وقد ولد في النمسا لأسرة يهودية An Austrian of Jewish descent درس في بداية حياته الهندسة في جامعة برلين ثم في جامعة مانشستر بإنجلترا حتى أصبح من البارزين في آلات الطيران ، كما درس الرياضيات والمنطق ، وانتقل إلى جامعة يينا الألمانية لدراسة الرياضيات مع جوتلوب فريجه : وكرّس فترة بسيطة من حياته لدراسة الفلسفة وكانت حياته مضطربة أشد الاضطراب بسبب المرض والحرب .

اصطحبه أستاذه فريجه إلى جامعة كمبردج ليدرس المنطق على يد برتراند رسل الذي بدأت شهرته تتسع ، ولكن رسل بما عرف عنه من تواضع العلماء ذكر فيما بعد أنه تعلم من ڤتجنشتين بقدر ما عمله هو . وفي كمبردج (بين عامي ١٩١١ – ١٩١٨) بدأ اهتمامه يتزايد فأثارته العلاقات البادية بين اللغة والمنطق وعالم الحقائق المادية . ولما نشبت الحرب العالمية الأولى انضم للجيش النمساوي وأسر في ايطاليا ، وفي الأسر كتب « المخطوط » الكبير الذي أرسله إلى برتراند رسل وهو الكتاب الذي نشر عام ١٩٢١ تحت عنوان « بحوث منطقية وفلسفية » Tractatus logico - philosophicus (*) . وترجم إلى اللغة

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص٦٦ – ٦٧ .

(*) Logic - Philosophical Investigations .

الإنجليزية ومنها إلى العربية ولغات أخرى عالمية ، ر الكتاب الوحيد الذي نشره ڤتجنشتين في حياته . واعتقد أنه ، قدم بذلك كل ما يتعين عليه القيام به كفيلسوف ، وقد اعتزل بالفعل الفلسفة وعاد إلى النمسا ليعمل بها كمدرس في مدرسة ريفية ، وليقع فريسة مرض عضال ، وفي عام ١٩٢٧ أقنعه الفيلسوف الوضعي وأستاذه موريتز (موريس) شليك بالعودة إلى الفلسفة فاشترك مدة وجيزة في أعمال فلاسفة ، دائرة فيينا ، Vienna Civcle وهم جماعة من الفلاسفة والمناطقة من الوضعيين اشتركوا معاً للتعبير عن آرائهم وإحياء دعوة أوجست كونت الوضعية ولكن بصورة أخرى ، ثم عاد إلى كمبردج عام ١٩٢٩ ليصبح أستاذاً للفلسفة العقلية والمنطق خلفاً للفيلسوف المنطقي والرياضي جورج أدوارد مور George Edward Moore (١٨٧٣ - ١٩٥٨) ، غير أن حالته النفسية تدهور بسرعة حتى استقال عام ١٩٤٧ ومات بعدها بأربع سنوات قضاها في عزلة تامة يكتب كراسات متناثرة عرفت باسم ، الكراسات الزرقاء والبنية Blue and Brown Books ويقال إنها محاضرات ألقاها على تلاميذه فيما بين ١٩٣٣ - ١٩٣٥م ، كما كتب ، ملاحظات حول أسس الرياضيات (١٩٥٦) Remarks on the Foundations of Mathematics نشر بعد وفاته عام ١٩٥١ .

وكانت كراساته (أو كتبه) الزرقاء والبنية تدور حول اللغة وعلاقتها بالتفكير والمنطق وقضية الاتصال (نقل الأفكار والمعلومات ، السيبرنتيكا ،) ، ثم ،فلسفة النحو اللغوي ، ، وأخيراً : ، حول اليقين ، فضلاً عن مجلدين من الملاحظات والفقرات والأقوال التي لم تتخذ شكل الكتاب المنهجي .

وضع ڤتجنشتين في هذه المؤلفات أسساً جديدة لنظريته الفلسفية تمثلت في نظرته الجديدة إلى اللغة ، حيث ذكر أن نظرته القديمة التي عرضها في ،البحوث ، كانت تجعل المبدأ الوحيد هو اللغة العلمية التي تصف العالم باعتبار أن هذه اللغة ما هي إلا نسق لأنشطة اجتماعية وكل منها يخدم غرض مختلف عن الآخر. هذه الأنساق المختلفة أو الطرق المختلفة لاستخدام اللغة سماها ڤتجنشتين ، لعبة اللغة ، a language game تقوم على أساس ، تصوير ، العالم، Picturing ولكن هناك استخدامات أخرى للعالم تتمثل في الصلاة والتحية واللعن والشكر والتساؤل والأمر وغيرها من صور استخدام اللغة وأشكالها وأغراضها. وقد أعطى مثالاً لها في الفقرة ٢٣ من كتابه ، البحوث ، وذكر أنها

تهتم بمقارنة الأدوات متعددة الاستخدام في اللغة وفي وسائل استخدامي عرض رأى المناطقة في اللغة (١) .

ويمكن تقسيم ، فلسفة ، فتجنشتين إلى مرحلتين رئيستين : الأولى تمثلت فيما اصدره في كتابه الأساسي ، بحوث منطقية وفلسفية ، وفيها عالج موضوع اللغة بوصفه مجرد ، تصوير ، للواقع المعاش أي للعالم المادي، والثانية ، تمثلت بصفة أساسية فيما أصدره خلال عمله بجامعة كمبردج «الاستقصاءات» و «فلسفة النحو ، وفيهما عالج اللغة بوصفها أداة للتعبير عن مجموعات الفروض والتصورات والمعاني ، بعد أن تتحول في الذهن إلى رموز من ناحية وإلى بناء منطقي من ناحية أخرى ، وتخضع أخيراً للظروف المحيطة والمواضعات الاجتماعية والتاريخية وللخصائص الثقافية الخاصة التي تكتسبها رموز اللغة نفسها من ناحية ثالثة .

لقد نظر فتجنشتين إلى الفلسفة برمتها باعتبارها نشاطاً عملياً وليس نشاطاً نظرياً ، ومن هنا جاء اهتمامه البالغ بالتحليل العملي للغة بوصفها أكثر نشاط يمثل عقل الإنسان كما يعكس كلاً من علاقته بالعالم ، وتأثره بالعالم وتأثيره فيه. وقد بدأ مرحلة تفلسفه الأولى بالتساؤل عن كيفية إمكان نشأة اللغة وبالتالي نشأة وتطور عملية التفكير المعقدة التي يتميز بها الإنسان وحده . وتجيء الإجابة كأنها الحل النهائي - في نظر فتجنشتين بأنه لكي يكون للغة معنى فإنها لابد أن تتضمن ، فروضاً ، ، وهذه الفروض لابد أن تتكون من صور للحقائق التي يتكون منها العالم وتنقلها الحواس إلى العقل ، فلاشك أن ، الحقائق، أو «الوقائع» يجب أن تكون من النوع القابل للتصوير أي يمكن للإنسان أن يتصورها في الواقع، والإنسان لا يستطيع أن يتصور شيئاً في الواقع إلا في صورة مادية .

ولكن الفروض التي تؤكدها اللغة ليست ذات طبيعة صورية بسيطة، إلا أنها لابد أن تكون مساوية لمجموعات العناصر البسيطة التي يتلقاها العقل من الحواس (أو عن طريق الحدوس الحسيّة كما يقول كنط) ، قبل أن يتولى الذهن تحويلها بواسطة آليته المنطقية إلى دلالات يمكنه أن يستخلص منها المعاني

---

(1) Urmson, J. O., Wittgenstein, in: The Concise Encyclopedia, p. 329.

المطلقة والمجردة ، وهي نفس الآلية المنطقية التي تحدث عنها رسل وفريجه ولم يكن فتجنشتين قد تعرف عليهما بعد ، أي أن كل منهم توصل إلى نفس الفكرة في معزل عن الآخر . ولذلك فإن الحقائق المنطقية والرياضية هي «كليات » Universals يتجمع في كل منها جوانب الحقيقة الواحدة أو مجموعات الحقائق المادية ، ومن هنا ظهرت الفجوات الواسعة بين الحقائق المادية والفروض الصورية أو الذهنية اللغوية المتولدة عنها في الذهن ، ولذلك كذلك فإن كل الفلسفات الميتافيزيقية التي عالجت الفروض لا الحقائق بوصفها حقائق موجودة وملموسة هي فلسفات فارغة من المعنى أو خلو من المعنى .

لقد تركت هذه المرحلة في فكر وفلسفة فتجنشتين آثارها الشديدة على كبار فلاسفة الوضعية المنطقية ، وخاصة رودولف كارناب وموريتز شليك . ويواصل فتجنشتين في المرحلة الثانية « نشاطه الفلسفي » بوصفه « توضيحاً وشرحاً منطقياً للتفكير » يهدف إلى : « التخلص من المعضلات » أو « الألغاز والأحاجي الفلسفية » التي تنشأ من التضارب والتضاد بين الصياغات المنطقية المحددة للأفكار ، وهي صياغات تقريبية احتمالية ، تنأى عن اليقين مما يجعل الشك العملي يحيط بها ، وبين الفروض القاطعة والقناعات المستقرة الجامدة التي تقوم عليها الأفكار الشائعة بين العوام ، وهي أفكار تنشأ عن امتزاج أو خلط صور حقائق العالم بالأهواء والتحيزات ذات الأصول الاجتماعية والتاريخية والأيديولوجية وغيرها، والعلاج يكمن في « آلية التذكر المنطقية » التي تكشف عن مصدر التناقض الفلسفي وهو ما تمتليء به اللغة (الفكر) الناشئة عن سوء فهم وسوء تصور وميل مع الهوى وذاتية تقضي على الموضوعية المطلوبة .

١٤- جون لانجشو أوستين

ولد جون لانجشو أوستين John Langshaw Austin (١٩١١ - ١٩٦٠) في مقاطعة لانكستر Lancaster بإنجلترا ومات بأكسفورد ، وهو من الفلاسفة التحليليين، وله اهتمامات فلسفية متعددة مثل الابستمولوجيا ، وفلسفة اللغة ، وفلسفة العقل، قام بالتدريس بجامعة أكسفورد، وتأثر في أعماله الفلسفية بأرسطو، كما عمل أستاذاً زائراً visiting professor بجامعة كاليفورنيا ، كلية بركلي في العام الدراسي ١٩٥٨ - ١٩٥٩م ، درّس الفلسفة الأخلاقية منذ تخرجه وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٥٢ .

ومن أهم مؤلفات أوستين التي تركها « أوراق فلسفية » (١٩٦١) philosophical papers (الطبعة الثانية ١٩٧٠) و « كيف تؤدي الأشياء بالكلمات » (١٩٦٢) How to do things with words (الطبعة الثانية ١٩٧٥) و« الإحساس والقدرة على الحس » (١٩٦٢) sense and sensibilia ، كما صدرت عنه بعض الدراسات مثل دراسة « جيوفري وارنوك » Geoffrey Warnock عام ١٩٩١ بعنوان « ج. ل. أوستين » .

كان أوستين جم النشاط ، ولكنه مات صغيراً ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان « رائد » مدرسة أوكسفورد الفلسفية – اللغوية – الوضعية التي سيطرت على الفكر الأنجلو- أمريكي منذ منتصف الخمسينيات وحتى منتصف السبعينيات من القرن العشرين بفضل جهود أوستين مع عدد محدود من أساتذة المدرسة نفسها أمثال جلبرت رايل Gilbert Ryle (١٩٠٠ – ١٩٧٦)، وهارت H. L. A. Hart ، وبيتر ستروصون P. F. Strawson ، وتوملين S.E. Toumlin وغيرهم .

وقد اهتم فلاسفة أكسفورد بالفلسفة كلها بلا استثناء ، بعد أن درسوا بعمق الإنسانيات الكلاسيكية ، مما جعلهم يهتمون بالكلمات ، وبناء الجمل والعبارات الخاصة بكل لغة ، مستخدمين في ذلك التحليل اللغوي من أجل حل إشكاليات الفلسفة ، أنهم يهتمون باللغة بما هي لغة ، ويعتبرون أن اللغات الطبيعية تحتوى على ثروة من التصورات والتمايزات البالغة الدقة ، وتؤدى العديد من الوظائف الحيوية التي يظل الفلاسفة في العادة عاجزين عن إدراكها (١) .

ويتميز نشاط أوستين الذهني بالوضوح فيعبر بقوة ووضوح عن أفكاره فضلاً عن نظرته « العملية » القائمة على رصد الحقائق وإخضاع « الفكرة للواقع الفعلي » وتجلت في أعماله فكرة الصدام المحير بين الفروض الفلسفية وبين المعتقدات الشائعة بين الناس والذي يرجع في المقام الأول إلى سوء فهم اللغة

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي ، اللغة ، ملحق موسوعة الفلسفة ، ص ص٢٥٦ – ٢٥٧ .
عن : La philosophie analytique, Paris, Editions de Minuit, 1962 (Cahiers de Royaumont, philosophie, No. IV).
(رويومو Royaumont مكان بجوار باريس عقد فيه فلاسفة أكسفورد ندوة بعنوان « الفلسفة التحليلية ») .

السائدة التي يستخدمها الناس والفلاسفة على حد سواء ، وهي الفكرة التي أشار إلى چورج بركلي في كتابه « مبادىء المعرفة الإنسانية » (١٧١٠) ، وقد شارك أوستين نفس الفكرة عدد من أبرز فلاسفة أكسفورد أمثال رايل وڤتجنشتين . وأن كان أوستين قد برع أكثر بفضل تحرره المنهجي وفي نفس الوقت دقته في التعامل مع المعجم اللغوي الذي ضم كل المفردات والتراكيب والدلالات ، وتواريخها وتطوراتها لكل من اللغة المكتوبة ، أو الرسمية ، واللغة المنطوقة في غالبية البلاد التي تتكلم الإنجليزية في عصره .

ومن أهم ثماره الفكرية هجومه اللاذع على فكرة – يراها مضادة – مؤداها أن كل ما ندركه ليس سوى أفكارنا وأحاسيسنا نحن ، وجاء هذا الهجوم في كتابه « الإحساس والقدرة على الحس » ، بالإضافة إلى تفرقته الواضحة بين الألفاظ مثل الأدائية (أو الأداتية) performatives والألفاظ « الإثباتية » أو التأكيدية أو الدوجماطيقية (الاعتقادية) . النوع الأول يشير إلى الألفاظ التي تعبر عن فعل شيء أو إنجازه مثل: يقرأ ، يصلي ، يشرب ، ينام ، والنوع الثاني ينقل معلومة ، مثل أنها تمطر ، أو ينضج ، ثم عاد وناقش العلاقات بين « الحقيقة والادعاء والأعذار المختلفة » A plea for excuses الشائعة في اللغة – سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة – وعلاقتها بكل من البنية الأخلاقية للمجتمع وبنيته الفكرية المتشابكتين مع بنى أخرى كثيرة موجودة في البناء الثقافي الكلي للمجتمع وبالتالي موجودة في اللغة التي يشترك في التفاهم بها أفراد هذا المجتمع .

في مقالته المشهورة المشار إليها « الحقيقة والادعاء ... » يطلق أوستين اسم « الأشكال الثقافية للحياة » على نفس ما سمّاه ڤتجنشتين بـ « الألعاب اللغوية » ، وذهب إلى أن للفلسفة وظيفة علاجية بالنسبة للغة ، وهي شفاؤها من ميلها نحو التجريد وإلى إثارة التنافر بين الحقائق الفعلية للواقع وبين الأفكار أو التصورات الشائعة بين الناس عن تلك الحقائق بسبب سوء استخدام المفردات وتراكيب اللغة التي ينأى معناها عن الحقيقة ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل أوستين يسمي فلسفته بـ « فلسفة اللغة العادية » .

ومما ذهب إليه أيضاً قوله : « إن مخزون الكلمات الذي نملكه بالفعل يجسد كل ظلال الدلالات والمعاني ، وكل ما بينها من فروق التي رأى البشر أنها

تستحق أن تصاغ وأن تسجل باللغة ، وذلك عبر السنين والقرون التي عاشتها أجيال عديدة ، ومن المؤكد أن تلك الكلمات جديرة بأن تكون أكثر عدداً ، وأكثر معقولية ، وأكثر دقة من أي كلمات أخرى يمكن أن نفكر فيها -- أنا أو نحن (أنا أعد بأن ...) وأنا اسمي هذه السفينة ... (وأنا أسلم بأن ... أو أورث ...) (*) ونحن نجلس على مقاعدنا الوثيرة أصيل يوم لطيف » .

ولم يمض أوستين بأفكاره دون نقد على عادة الفلسفة وأهلها ، فأرسدين يقول بأن استخدام اللغة العادية كافية ، ويمكن أن يساعدنا استخدامها على تسجيل الحكمة الشعبية وربما يؤدي بنا إلى تقديس شيء ما من الأشياء ، ولكن هذه الفكرة لن تساعدنا على تطوير الخطاب الفلسفي الذي يحتاجه العلم والفكر الأكثر تطوراً وتقدماً وقدرة على معالجة القضايا المركبة التي يتداولها -بالضرورة - كل من العلم والفكر .

١٥ - **برتراند رسل**

هو برتراند آرثر وليم رسل Bertrand Arthur William Russell (١٨٧٢ - ١٩٧٠) ولد في تريلك Trellek بويلز يوم ١٨ مايو ، ومات يوم ٢ فبراير في بندرين ديورايث Penrhyndeudraeth ، ويصنف باعتباره منطقي تجريبي logical empiricist (مع بعض التحفظات) وله عدة اهتمامات بالمنطور الرياضي والميتافيزيقا وفلسفة العقل ، والسياسة ، وفلسفة العلم ، وتاريخ الفلسفة وهو يعارض الدين opposition to religion ، تلقى تعليمه في كلية ترينتي Trinity بكمبردج . وتأثر بكل من هيوم وبيانو Peano ومور وفتجنشتين ، علم بعدة جامعات في أوروبا والولايات المتحدة حيث عمل هناك أستاذاً زائراً (many visiting appointments) في العديد من الجامعات .

ويعتبر رسل من الفلاسفة أصحاب المؤلفات الغزيرة فقد عاش عمراً مديداً تغيرت خلاله أفكاره المتعددة والمتكثرة عدة مرات بسبب التطورات المتلاحقة للعلوم المختلفة خلال قرن من الزمن عاشه رسل ، فضلاً عن تجاربه الشخصية ونمو عقله المتنامي إلى حدود بعيدة .

(*) I promise to..., I name this ship..., I hereby bequeath ...

اهتم برتراند رسل بفلسفة اللغة وناقشها في العديد من أعماله إلا أننا سوف نركز على ما كتبه في كتابه « تطوري الفلسفي » (*) وهو سيرة ذاتية لتطور أفكار رسل خلال أخصب فترات حياته .

بدأ اهتمام رسل بموضوع اللغة عام ١٩١٨ ، عندما بدأ يهتم بتعريف «المعنى» ، وبعلاقة اللغة بالواقع ، وحتى ذلك الوقت اعتبر رسل أن اللغة شيئاً «واضحاً» Transparent ولم يبحث عن الأسباب في عدم علاقتها بالعالم غير اللغوي non - linguistic world ، وظهرت بوادر نتائج عمله في الفصل العاشر من كتابه « تحليل العقل » The Analysis of Mind (١٩٢١) .

وأول شيء صدم رسل هو التجاهل المقصود من جانب الكتّاب السابقين عليه في نفس الموضوع ، وهو اعتبار العالم « كلّ » universal ، وأن الأنّات instances ما هي إلا حالات أو مناسبات occasions ، فاللحظة أو الآنة في العالم هي ما يتم فيها الكلام أو السمع أو الكتابة أو القراءة ، فإن هؤلاء الفلاسفة الذين يتفلسفون حول الكليات يدركون أن الاسم « كلب » هو اسم كلي لأنه يوجد كلاب كثيرة ، إلا أن هؤلاء الفلاسفة فشلوا في أن يلاحظوا أن كلمة « كلب » هيَ اسم كلي بنفس المعنى .

أما هؤلاء الذين ينكرون الكليات فإنهم دائماً ما يتكلمون باعتبار أنه لا يوجد غير عالم واحد يطبق عليه كل الأنّات ، وهذا مناقض للحقيقة وللواقع تماماً ، فهناك عدد لا حصر له من « الكلب » وعدد لا حصر له من الأنّات في العالم تشتمل على كلمة « كلب » إن كل انّة من الأنّات لها علاقة معينة بكل الأنّات الأخرى التي تتضمن الحديث أو استيعاب ذوات الأربع quadruped . ولكن العالم ذاته له حالات يطلق عليها حالات ميتافيزيقية metaphysical status لها علاقات بالكلب الأفلاطوني Platonic dog موجود في السماء (*) . إن هذه

(*) My philosophical Development, Allen & Unwin, London, 1959, pp. 145 - 155 .

(*) الإشارة هنا إلى نظرية المثل الأفلاطونية بأن كل شيء موجود على الأرض ، في هذا العالم ، عالم الأشباح هو صورة لشيء حقيقي مثالي موجود في عالم المثل ، عالم الحقيقة ، عالم الشمس الباهرة التي لا نستطيع مقاومة نورها عندما تزال عن أعيننا غشاوات الدنيا – عالم –

الحقيقة مهمة للغاية طالما أنها تجعل « العوالم » worlds مختلفة قليلاً – عما اعتقدوا – عن الأشياء التي تعنيها . وأصبح واضحاً أن « المعنى » يجب أن تكون له علاقة ارتباط بينه وبين اللحظة أو الآنة الفردية an individual instance العالم، وآنة فردية أحادية لما يعنيه العالم . وهذا يعني أنه إذا أردنا تفسير أو شرح معنى كلمة « كلب » فعليك أن تفحص حالات النطق الفردية (الجزئية) particular utterances لهذه الكلمة ، وتهتم بالعلاقة الناشئة بين « الكل » وبين الأفراد الجزئية لنفس الأنواع الكلية التي تحدث عنها the canine species .

ويعرّف رسل ما يقصده باستخدام « كلمة بطريقة صحيحة » ، فيقول : « إن الكلمة التي تستخدم بطريقة صحيحة هي الكلمة التي تؤثر في معدل السامع بما يقصده صاحبها، وهذا المعنى معنى سيكولوجياً وليس معنى حرفياً » ما أقوله عن تعريف الصحة أو ما هو صحيح correctness (*) .

إن ما يحكم علاقة كلمة ما بمعناها كما يحكم أفعالنا عندما [illegible] هو قانون العادة، فلا يوجد هنالك سبب لأي شخص يستخدم كلمة بطريقة صحيحة ويمكننا أن نخبر الآخرين عن معناها ، مثلما نقول أنه لا حاجة للشخص الذي [illegible] بطريقته أن يعرف قوانين كبلر التي أخذها عن العرب المسلمين .

وأهم شيء في فهمنا للكلمة المستهدفة هو أن تشترك الكلمة في بعض الصفات لما تعنيه هذه الكلمة ، فعلى سبيل المثال إذا اشتبهت ذات في [illegible] الليل على صرخة ما تقول « حريق » فإنك سوف تتصرف بنفس الطريقة كما لو أنك تشم رائحة الاحتراق . وهنالك بالطبع اختلافات بين الكلمة ومعناها فكلمة « حريق » أو « نار » لا يمكن أن تجعلك تشعر بالسخونة أو تتسبب في موتك ولكنها علاقات تشابه سببية ، وأيضاً فروق سببية هي التي تتضمن تعريف المعنى .

– الأشباح الذي نراه على جدران الكهف ، ألا يذكرنا هذا بالحديث : الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا ، كما يذكرنا بالآية الكريمة ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ (ق الآية ٢٢) .

(*) A w[illegible] is used " Correctly " when the average hearer will be affected by it [illegible] the way intended . This is a psychological, not a literary, definition. of " [illegible]rectness ".

لقد بدأ رسل في مناقشة فلسفة اللغة متخذاً موقف فرنسيس هربرت برادلي Francis Herbert Bradly (١٨٤٦ - ١٩٢٤) ، ممثل الهيجلية الجديدة في إنجلترا - الذي رأى أن كل ما يعتقده الإحساس العام هو مجرد ظاهر لا حقيقة له ، وذهب يردد مع مور أن كل ما يرى الإحساس العام إنه واقعى فهو واقعي ، ثم عدّل من موقفه واعتبر أن ما يقول به الإحساس العام إنما هو شكل فج من المعرفة العلمية خالٍ من كل نقد (١) .

وقد توصل رسل عن طريق تحليله لنظرية المعرفة إلى أن هناك نوعان من المعرفة : المعرفة بالاتصال المباشر Acquaintance ، والمعرفة بالوصف Description ، وتتم التفرقة بينهما على أساس تحليل اللغة العامة الشائعة العادية واللغة العلمية . « وهذا التحليل اللغوي سيكون هو المفهوم الجديد لنظرية المعرفة، وسيكون في الوقت نفسه جزءاً مهماً من مفهوم المنطق عند رسل . وسيؤدي إلى التفرقة بين نوعين من اللغة : لغة شيئية ولغة منطقية . وليس المقصود باللغة الشيئية اللغة التي تحتوى على كلمات تقابل أشياء أو موضوعات خارجية بالمعنى الشائع لكلمة أشياء بل المقصود بها اللغة التي تحتوى على كلمات تفهم معانيها في عزلة عن المعاني الأخرى، وهى الكلمات التي حصلنا عليها بالمعرفة بالاتصال المباشر . أما اللغة المنطقية فهي التي تحتوي على ألفاظ بنيوية (مثل : و ، أو ، إذا) » (٢) .

وقد اهتم رسل اهتماماً بالغاً بمسألة اللغة والعلاقة بينها وبين المنطق . وقد بدأ بأن أكد أن « تأثير اللغة في الفلسفة كان عميقاً ولم يول الانتباه الكافي . فإن كان علينا ألا ننخدع بهذا التأثير فمن الضروري أن نكون على وعي به ، وأن نسائل أنفسنا إلى أي مدي هذا التأثر مشروع ؟ » (٣) .

---

(١) د. عبد الرحمن بدوى ، اللغة ، ص٢٥٢ .

(٢) د. يحي هويدي ، الفيلسوف الرياضي في منطقه الجديد ، في : الفكر المعاصر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، العدد الرابع والثلاثون ، ديسمبر ١٩٦٧ ، ص ص٢٤ - ٢٥ .

(3) Russell, B., logical Atomism, p. 367 .
في : د. عبد الرحمن بدوى ، اللغة ، ص٢٥٣ .

وساهم رسل في مجال الدراسات اللغوية بنظريته الفلسفية القائمة على التحليل المنطقي وهي « النظرية الوصفية : theory of description وفيها يمايز رسل بين اسم العلم والوصف المحدد تمايزاً قاطعاً . والمقصود بالوصف المحدد أي عبارة اسمية أو وصفية فريدة محددة لا تنطبق إلا على شخص واحد فقط هو مسمى اسم العلم ، وأن ذلك الوصف المحدد لا يمكن اعتباره اسم علم . كما حاول رسل إيجاد مخرج منطقي للحديث عن معاني الكلمات والعبارات التي لا تدل على واقع محسوس دون افتراض عالم المعاني المستقل عن الوجود الانساني (١) .

في القضية « هوميروس مؤلف الإلياذة » نجد أن هوميروس اسم علم ، رمز بسيط ، بينما مؤلف الإلياذة وصف محدد ورمز مركب لا ينطبق على شيء ، ويمكن أن يظهر اسم العلم ويختفي الوصف المحدد ، أو أن يختفي اسم العلم ويظهر الوصف المحدد فنقول مثلاً اسم العلم « مؤلف الإلياذة » هو هوميروس . أما في حالات القضايا التي نعبر بها عن [illegible] وجود « [illegible] » فنحكم عليها بالكذب ، مثل القضية التي ضرب لنا بها رسل المثل بقوله « ملك فرنسا الحاضر أصلع » ، إذ لا يوجد شخص معين يحكم فرنسا الآن ملكاً ، فلا معنى إذن إلى إثبات أنه أصلع أم لا ؛ لأنه لا وجود أصلي لمن نصفه بالصلع ، فهي قضية كاذبة (٢) .

من هنا جاء نقد رسل لكارناب ونيوراث وهمبل – وهم فلاسفة الوضعية المنطقية – وقال في نقده : « إن الوصف من وراء الكلمات – على الرغم من أن الفلاسفة فيما يبدو يتناسون هذه الحقيقة – أن نعالج أشياء بدلاً من أن نعالج كلمات مثلها . فإذا ذهبت إلى مطعم وأمرت بإحضار العشاء ، فإنني لا أريد أن تأتيني كلماتي نسقاً من الكلمات الأخرى بل أريدها في إحضار الطعام ، لقد [illegible] هذه العبارات ذراً للرماد في العيون .

بينما يصرح كارناب في رسالته الفلسفية والمنطقية بأن تأثير رسل عليه كان أقوى من تأثير فتجنشتين . ونحن نعلم أن فتجنشتين تلميذ رسل ،

---

(١) د. محمود زيدان ، في فلسفة اللغة ، ص١٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص٢١ .

ومعنى ذلك أن رسل هو أساس النظرية المنطقية الذرية والوضعية المنطقية على السواء (١) .

ثم صاغ رسل نظرية أخرى كان قد نشرها في السنوات الأولى من القرن العشرين سماها « نظرية الأنماط المنطقية » Theory of logical types حاول أن يحل بها بعض المفارقات في المنطق وفلسفة الرياضيات ، ثم حاول تطبيقها لحل بعض الإشكاليات في استخدامنا للغة العادية ولغة العلماء والفلاسفة توصل منها إلى وجوب « وجود » الواقع الذي تدل عليه القضية للحكم عليها بالصدق أو بالكذب ، ولابد أن يدل الاسم الواحد على الشخص الواحد مثل « سقراط » و«أفلاطون » فهما اسمان عن نمط واحد لأننا إذا قلنا « سقراط فيلسوف » و«أفلاطون فيلسوف » ، كانت القضيتان ذات معنى واحد ، وتعبر كلتا الجملتين عن وقائع محددة .

وقد انحاز رسل إلى اللغة المثالية باعتباره منطقياً ورياضياً ووجه سهام نقده نحو استخدام اللغة العادية باعتبارها غير قادرة على التعبير بدقة عن الفكر العلمي، فاللغة العادية مضللة ، مما جعله ينادي بوجوب التفرقة بين الشكل النظمي أو التركيبي syntactical form للجملة وبين الشكل المنطقي لها . ثم قسّم رسل الفلاسفة إلى أنماط ثلاثة ، فيما يتصل بالعلاقات بين الألفاظ وبين الوقائع غير اللفظية (٢) :

أ- فلاسفة يستنتجون خواص العالم من خواص اللغة ، ويؤلفون نخبة ممتازة ، ويندرج تحتهم : بارمنيدس ، وأفلاطون ، وسبينوزا ، وهيجل ، وبرادلي .

ب- فلاسفة يقررون أن ثم معرفة لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ ولكنهم يستعملون ألفاظاً ليخبرونا عن ماهية هذه المعرفة . ومن هؤلاء : برجسون وفتجنشتين ، وبعض جوانب من هيجل وبرادلي .

جـ- فلاسفة يقررون أن المعرفة هي فقط معرفة بألفاظ .

والحديث عن فلسفة اللغة عند رسل لا ينتهي بسبب تطور أفكاره عبر ما يقرب من قرن الزمان وتغير أفكاره بسبب ما يطرأ على الأفكار من تغيرات

---

(١) د. يحي هويدي ، الفيلسوف الرياضي في منطقه الجديد ، ص٣١ .

(٢) د. عبد الرحمن بدوى ، اللغة ، ص٢٥٤ .

واكتشافات وإسهامات غيره من المفكرين في نفس هذا المجال أمثال مور وفتجنشتين وكارنب وكاسيرر وغيرهم كثيرون من الفلاسفة والمناطقة والعلماء الذين اختلطت أعمالهم وتداخلت فيها الاختصاصات وكثرت فيها الآراء والنظريات .

١٢ - اميل بنفنست

ينظر إلى إميل بنفنست Emile Benveniste (١٩٠٢ - ١٩٧٦) باعتباره من أهم علماء اللغة الفرنسيين في مجال علم اللغة الهندوأوروبية، غير أن اهتماماته تجاوزت إطار هذا التخصص الضيق نوعاً ما حتى أصبحت فلسفة اللغة هي محور اهتماماته العلمية في السنوات الأخيرة من حياته .

ويتميز مجهود بنفنست العلمي باستقلاله عن التيارات النظرية السائدة في العصر الحديث فكان حريصاً على ألا يكبل فكره بمصادرات قائمة وقد استقرت في أذهان الكثيرين ، أو أن يلتزم بأي من المقولات الشائعة مما جعل عمله يتجدد ويتشعب في اتجاهات متنوعة بحيث أخذ يؤثر في بقية الفروع المعرفية الأخرى الوثيقة بعلم اللغة مثل علم الإنسان ودراسة الأساطير وعلم النفس ونظرية الأدب .

وقد أحصيت أعمال إميل بنفنست في ثمانية عشر كتاباً ومائتين وواحد وتسعين مقالاً بالإضافة إلى ثلاثمائة عرض لكتب ومقالات مختلفة . غير أن أهم مقالاته جمعت في مجلدين بعنوان « إشكاليات علم اللغة العام » (١٩٧٤) Problèmes de linguistique générale . ويحتوي هذان المجلدان على ثروة في فلسفة اللغة يعود إليها الباحثون في جميع مجالات الدراسات الإنسانية . كذلك فإن من بين هذه المقالات المهمة مقال بعنوان « سيميولوجيا اللغة » ، وآخر بعنوان « الإنسان في اللغة » و « الإنصال الحيواني والاتصال الإنساني » و « ملاحظات حول وظيفة اللغة في الاكتشاف الفرويدي » وغيرها كثير (١) .

---

(١) [illegible] ، في [illegible] مدخل إلى [illegible]

١٧- وارين ويفر

١٨- كلود إيلوود شانون

ينظر إلى كل من كلود إيلود شانون Claude Shannon (١٩١٦- ٢٠٠١)، ووارين ويفر (١٨٩٤ - ١٩٧٨) Warren Weaver باعتبارهما رائدين من رواد نظرية المعلومات والاتصالات في الولايات المتحدة ، وقد قاما بتأسيس هذه النظرية على أساس قواعد كل من الرياضيات الحديثة ، وعلم الإشارات الرمزية (السيميولوجيا) ، واللغويات الرياضية واستطاعا أن يجعلا النظرية Theory « علم مستقر » . وقد بدأ العمل أولاً كلود شانون بعد التحاقه بالعمل كباحث أكاديمي في جامعة ميتشيجان Michigan وأثناء عمله باحثاً متفرغاً في شركة «بل» Bell للتليفونات .

نشر كلود شانون بحثه الكلاسيكي عن النظرية الرياضية للاتصالات عام ١٩٤٨ ، وفيه وضع الأسس الهندسية للنظرية - رياضياً - من ناحيتها التكنيكية ، ساعياً إلى صياغة أسس القياس الكمي للمعلومات (أو الرسائل ، كما سمّاها) المطلوب تخزينها وتشفيرها - أي المطلوب تحويل لغتها الطبيعية إلى لغة اصطناعية ، أو شفرة Code - ونقلها ، ضمن رسائل أو معلومات أخرى عبر قنوات ذات كفاءة عالية محددة . ولكن النظرية اكتملت بنشر الكتاب الذي اشترك في كتابته كل من شانون وويفر معاً ، بعنوان : « النظرية الرياضية للاتصالات » ، ولم تكن مساهمة ويفر عرضية بل ساهم مساهمة فعّالة ساعدت أخذ الكتاب لشكله العلمي . فهو الذي قسّم البحث العلمي إلى أقسامه الثلاثة : الهندسي والإشاري والوظيفي.

وكان الجانب الهندسي يتعلق بالقاعدة الرياضية لاختبار ما يمكن تسميته «معلومة » Data ينبغي نقلها ، وهو اختيار يقوم أساساً على إسقاط الفائض اللغوي الذي يشير إلى ما هو بدهي أو شائع أو مجرد طنطنة وتكرار . ثم يقوم على أساس تحديد العلاقة بين طاقة جهاز الاختزان والتشفير والنقل والاستقبال والترجمة (الجهاز الشبكي أو المنظومة) وبين كمية المعلومات المطلوب التعامل معها أو معالجتها بصرف النظر عن « المضمون » أو « الإشاري » .

أما الجانب الدلالي فيتعلق بعملية « فهم » الرسالة وإدراكها بعد ترجمة (فك)

شفرتها ، والحل هو تصميم نظام التشفير تصميماً له اتجاهان ، بحيث يمكن أن يرتد ، أي يمكن استرجاع الإشارة « الشفرية » ثم تسترجع من الشفرة بنفس صورتها الأصلية تماماً (أى بنفس حروف وتراكيب وترتيب مفردات الرسالة في لغتها الأصلية دون أي تعديل أو تحريف) فعلى سبيل المثال القرآن الكريم مكتوب بالخط العثماني والمشكول والمنقوط بفواصله ، يتم تشفيره بكل ما فيه من أشكال وبالشفرة المألوفة للعقل الإلكتروني – وهي : واحد – صفر – واحد . ويسترجع من الشفرة – على الشاشة أو على الورق ، بنفس الشكل ، أو بأي خط عربي آخر بحسب البرنامج الموضوع – دون تحريف نهائي – .

أما القسم الثالث للنظرية فهو المتعلق بمشكلة « فعالية » عملية التشفير وتأثيرها العقلي والنفسي، وما إذا كان سيكون رد فعلها مطابقاً لما توقعه المرسل ، وهل سيتذكر الرسالة ، ومن الواضح أن الجانب الأول من النظرية يرتبط بالرياضيات الحديثة . بينما يرتبط الجانب الثاني بعلم الإشارات (نظرية العلامات) ، ويرتبط الجانب الثالث بعلم النفس السلوكي ، الفردي والجماعي أو الاجتماعي ، وترتبط الجوانب الثلاثة بكل من المنطق الرياضي من ناحية ، وبالفيزياء الكمية من ناحية أخرى ، وباللغويات الحديثة من ناحية ثالثة ، وبالإنسانيات السيكولوجية – الاجتماعية من ناحية رابعة ، فنظرية المعلومات عند شانون وويفر كانت أساساً من أسس إزالة الحواجز بين العلوم الطبيعية والإنسانيات، وتثبيت منهج « تداخل الأنظمة العلمية » في العلم الحديث بأجمعه، وهى المحاولة التي يقوم بها عدد من علماء المناهج والمفكرين في العالم وهي ما تسمى بنظرية العلم الموحد Unified Science التي حاولها رودولف كارناب ، ومعظم فلاسفة وعلماء ورياضيو دائرة فيينا من قبل ، كما رصد المركز القومي الجديد لعلوم الليزر ، وهو مركز تابع لجامعة « كالتك » عشرة ملايين دولار من أجل البحث في إمكان قيام العلم الموحد برئاسة العالم المصرى الشهير أحمد زويل وتأكيد نظرية تشابك العلوم بما يسمى Multi - Discipline [١] .

---

(١) انظر للمؤلف ، في فلسفة العلوم ، خاصة الصحف ١٨٧ ، ٢٣٢ .

١٩- ألفريد تارسكي

ولد ألفريد تارسكي Alfred Tarski (١٩٠٢ – ١٩٨٥) ، في بولندا ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحصل على جنسيتها ، وأصبح من كبار المتخصصين في المنطق واللغة ، ويقال إنه المؤسس الأول للمنطق الموضوعي الحديث الذي يكشف عن العلاقة الداخلية بين كل من الرياضيات والتعبير اللغوي الموضوعي ، أو بين قواعد المنطق وقواعد التعبير اللغوي في سعيه الدائب إلى « تصوير العالم » الحقيقي . كما يعدّ تارسكي أيضاً أحد المؤسسين الأوائل لعلم اسيموطيقا (العلامات) بحيث الامتداد الطبيعي لمنجزات تيار الفلسفة التحليلية المعاصرة .

ولد ألفريد تارسكي في العاصمة البولندية وارسو حين كانت خاضعة لروسيا القيصرية ، وتعلم في جامعات بطرسبرج الروسية - البلدة المحببة إلى قلب الأديب الروسي الكبير « فيودور دوستويفسكي » ، كما درس في بودا الألمانية . ثم برز نجمه وسطع منذ عام ١٩٢٥ كواحد من أهم المناطقة الجدد الذين ظهروا في بولندا في فترة ما بين الحربين وكان مازال يافعاً شاباً في الثالثة والعشرين من عمره المديد ، ولذلك عين أستاذاً في معهد الرياضيات التابع لجامعة وارسو ، ولكنه طرد منه بسبب يهوديته ، فاضطر للعمل بالتدريس في المدارس الثانوية الى أن أعيد إلى الجامعة قبل الغزو الألماني النازي لبلاده مما اضطره إلى التخفي حتى تمكن من الهرب إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٢ ، ومنذ ذلك الحين وهو يعمل في جامعة كاليفورنيا (بركلي) حتى وافته المنية عام ١٩٨٥ عن عمر يناهز الثالثة والثمانين لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً .

بدأت شهرة تارسكي تلفت إليه الأنظار بسبب اهتمامه بعدة قضايا تتعلق بالرياضيات « الحديثة آنذاك » ، والمنطق وسعيه الدائم نحو إيجاد قانون موحد لهما ، وذاعت دراساته عن « الحساب التعادلي » وتطويره للأفكار الشائعة بين كل من الفلاسفة التحليليين وعلماء المنطق في أوروبا عن التوافق الثابت بين عناصر أو مكونات « التعبير اللغوي » ، وبين كمال نظريات المنطق الشكلية أو الصورية .

ونشر عام ١٩٣٣ مقالة طويلة عن « مفهوم الحقيقة في اللغات التقليدية المقننة » باللغة الألمانية فأثار ردود فعل واسعة النطاق ، وجذب الاهتمام إليه

أكثر بكشفه عن العلاقة الداخلية بين قواعد صياغة اللغة (التي تنشأ تلقائياً) وبين قواعد صياغة الرموز الجبرية في المعادلات الرياضية.

وقد ترجمت المقالة إلى الإنجليزية في كتاب المنطقي الإنجليزي جيمس ووديجر وهو بعنوان : « المنطق وعلم العلامات والرياضيات » عام ١٩٥٦ ، وكانت هذه المقالة بداية فتح جديد فتح بها الباب على مصراعيه كمناقشات فلسفية ومنطقية حول علاقة بناء اللغة والمنطق والرياضيات ، حيث أعادت أعمال تارسكي واهتماماته « الاحترام » للنظرية الكلاسيكية التقليدية عن التوافق بين وسائل التعبير عن « الصدق » أو « الحقيقة » Truth ، وذلك عن طريق استخدام المصطلح والمنهج المنطقي التحليلي (الموضوعي) المعاصر .

وقد واصل ألفريد تارسكي عمله بجامعة بركلي بسان فرنسيسكو بولاية كاليفورنيا من أجل الكشف عن المزيد من الروابط بين البناء اللغوي (النحوي) وبين المنطق من خلال مشاركته القوية في تطوير السيميوطيقا (العلامات) سعياً إلى الكشف عن قوانين تحكم العلاقة بين اللغة ، باعتبارها تجسيداً حياً للفكر ووسيلة لتوصيله ، وبين العالم الخارجي الموضوعي المعاش ، وهي نفس العلاقة التي أشار إليها الفيلسوف المنطقي لودفيج فتجنشتين في أعماله السابقة ، ولكن الريادة أصبحت لتارسكي باعتباره كشف المزيد عن مثل هذه العلاقات فأصبح رائداً لهذا التيار المنطقي الموضوعي في رده على الفيلسوف الأمريكي التصوري والتأملي « ويلارد كوين » Willard Quine الذي انتقد التفرقة التي أقامها تارسكي بين التحليل المنطقي للغة ، وبين الكشف عن تركيبها في ذات الوقت .

وقد دار نقاش منطقي علمي في منتصف الستينيات من القرن العشرين ظهر فيه تحقق السيادة الكاملة للفلسفة التحليلية وللمنطق الموضوعي وسيطرة روادها على « الأكاديمية الأمريكية » على الرغم من انتشار نزعة كوين التأملية أو التصورية بين أساتذة الجيل اللاحق ، ومع ذلك فقد اعترف كل من رودولف كارناب وكارل پوپر بتأثرهما البعيد بـ « منطق تارسكي » وهو ما ذهب إليه كارل پوپر وأكده في كتابه المهم « المعرفة الموضوعية » Objective knowledge عام ١٩٧٤ .

٢٠- بول جرايس

يعتبر بول جرايس Paul Grice (١٩١٣ – ١٩٨٨) أحد فلاسفة اللغة البريطانيين المعاصرين، وأحد زملاء جون أوستين في جامعة أكسفورد حتى عام ١٩٦٧ حين انتقل من جامعة بركلي الأمريكية في سان فرنسيسكو بولاية كاليفورنيا لكي يصبح أستاذاً لفلسفة اللغة بها حتى وفاته .

يعلم جرايس في جامعتي لندن وأكسفورد وانشغل مع أستاذه ألفريد نورث هوايتهد Alfred North Whitehead (١٨٦١ – ١٩٤٧) بالاشتغال في الفلسفة يشاركهم ، إيفور ريتشاردز ، أستاذ جرايس الآخر وأستاذ فلسفة اللغة والتحليل اللغوي في ذات الوقت ، وقد شغلتهم جميعاً قضية ، المعنى ، Meaning . واستطاع جرايس أن يطوّر في فلسفته موضوع الحدود الفاصلة بين المعنى الذي يقصده المتكلم ، والمعنى الذي يقصده ، اللغوي ، والعلاقة بينهما .

واشتهرت بين عدد كبير من الفلاسفة في مجالات فلسفات المعرفة والتحليل اللغوي واللغويات الاجتماعية والتطور الثقافي أو الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) ومن أهم هذه الأفكار التي ذاعت فكرة : الدلالة الضمنية المحددة للغة عند المتكلم conversational implicature وتدور هذه الفكرة حول البحث عن العوامل التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد الفوارق والعلاقات بين ما يعنيه المتكلم من دلالات متضمنة في كلامه – أي في استخدامه المباشر للغة – في مقابل – وبين – ما يقوله ، والدلالة المعجمية (أو الحرفية) literal .

أدت الفكرة التي أذاعها جرايس إلى تحسين وتطوير كبير لكل من «المعاجم» وعلم اللغويات بشكل عام ، وسهلت إقامة علاقة وثيقة بين هذا العلم وبين كل من فلسفة التحليل اللغوي وبينها وبين اللغويات الاجتماعية وفلسفة المعرفة . ويستكمل هذه الفكرة بفكرة أخرى لا تقل أهمية عن فكرته الأولى وتدور حول «النوايا المنعكسة ، التي أكدت وجود ، معنى للغة لدى المتكلم ، كما أنها ساهمت اسهاماً جوهرياً في بناء نظرية التواصل أو التبادل communication theory .

وقد ذهب جرايس في هذه الفكرة إلى أن المعنى الذي يقوله ويحدده المتكلم للغة ، سابق على / و أوليّ بالنسبة إلى المعنى المعجمي ، أو حتى اللغوي . وأدت هذه الرؤية إلى التأكيد على أن الدلالة أو المعنى أو السيمانطيقا يخضع أو هكذا

ينبغي أن تخضع للموقف « الذهني – النفسي – المعرفي » . المتكلم ، وهو الموقف الذي يجسده المتكلم . وبهذه الطريقة تحددت العلاقة وتأكدت الفوارق بين ما هو علاماتي أو إشاري (سيميوطيقي) في اللغة وعلومها، وبين ما هو عملي practical كما تحددت أيضاً المجالات التي تتعامل مع اللغويات بشكل عام ، وفي فلسفة اللغة بشكل خاص ، خاصة مع تحديد العلاقة والفوارق بين « معنى » اللغة وبين استخداماتها الفعلية .

٢١ - ألفريد جولز إير

يصنف ألفريد جولز إير Alfred Jules Ayer (١٩١٠ – ١٩٨٩) على أنه فيلسوف « منطقي وضعيّ » logical positivist ذو اهتمامات بالابستمولوجيا ، والمنطق الفلسفي philosophical logic والأخلاق، تعلم بأكسفورد حيث تأثر بكل من رسل وكارناب وجلبرت رايل ، عمل أستاذاً بعدة جامعات بإنجلترا ، وله ١٥ مؤلفاً تدور حول اهتماماته الفلسفية المتعددة.

ذكرت الآن أن إير كان منطقياً وضعياً على الرغم من أنه لم يكن أحد الأعضاء المؤسسين لدائرة أو جماعة فيينا ، ولكنه عندما سمع بها سافر إلى فيينا واتصل بفلاسفة الوضعية المنطقية وساهم في نشر أفكارها بين المتحدثين باللغة الإنجليزية عندما نشر كتابه « اللغة والصدق والمنطق » (*) (١٩٣٦)، وبدأ إير عمله برفض الميتافيزيقا وحاول أن يقيم – مثلهم – نظرية في المعنى، وأن يدعو إلى أن الفلسفة ليست سوى توضيح أفكار وتصورات وقضايا وليست من مهامها إقامة أنساق فلسفية ونظريات تفسر العالم على أسس غير تجريبية (١) .

دافع إير عن نظرية المعنى : وذكر أن العبارة ذات المعنى هي العبارة التي يمكن التحقق منها بالخبرة (**) ، ثم عدّل من رأيه في الطبعة الثانية من كتابه سالف الذكر والذي صدر عام ١٩٤٦ ، فذكر أن العبارة ذات المعنى هي العبارة التي يمكن التحقق منها تحقيقاً مباشراً إذا كانت هذه القضية تقبل الملاحظة

(*) Language, truth and logic .

(٢) د. محمود زيدان ، في فلسفة اللغة ، ص١٣٢ .

(**) Thesis was that a sentence is significant only of it is verifiable by experience .

المباشرة أو إذا ارتبطت بقضية أخرى يلزم عنها قضية ملاحظة ، ويكون صدقها صدقاً احتمالياً شأنها شأن كل القضايا التجريبية الاستقرائية .

وفي نهاية المطاف لم يعد إير فيلسوفاً وضعياً منطقياً بسبب آرائه المختلفة عن أصحاب هذا الاتجاه في نظرية المعنى ، بالإضافة إلى أنه لديه نظريات ميتافيزيقية في وجود العالم الخارجي ومشكلة النفس الإنسانية ومشكلة حرية الإنسان ومشكلات المعرفة وفلسفة العلوم وغيرها (١) .

٢٢- زليج سابيتاي هاريس

زليج سابيتاى هاريس Zellig Sabbetai Harris (١٩٠٩ - ١٩٩٢) هو أستاذ تشومسكي المباشر، ولد في روسيا، ورحل عنها وهو مازال طفلاً في الرابعة من عمره عام ١٩١٣ إلى الولايات المتحدة ، وحصل هناك على الجنسية الأمريكية عام ١٩٢١ ، ودرس في جامعة بنسلفانيا حتى حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٣٤ ، وعين أستاذاً في تخصص علم اللغة التحويلي .

ولم تحظى مجهودات هاريس العلمية في مجال الدراسات اللغوية بالإهتمام الذي تستحق لأسباب مجهولة ، وعلى الرغم من كثرة كتبه ومقالاته إلا أن الباحثين ركزوا على كتابه « مناهج في اللغويات البنيوية » Methods in structural linguistics الذي تناول فيه الحديث عن نظريته « التوزيعية » Distributional التي ناقشها فيما سمّاه « علم اللغة التوزيعي » . « إن التوزيعية تشير إلى أن الجمل أو السياقات اللغوية يتواجد فيها أحد العناصر اللغوية ، وتؤدي تلك الجمل أو السياقات إلى التأثير فيه ، ومن أمثلة ذلك العنصر up في الجمل الثلاث الآتية :

1- John rang up his mother .

2- John stood up his date .

3- John looked up her phone number .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص١٣٤ .

وانظر أيضاً : Foster, John, A. J. Ayer, Routledge, London, 1985 .

إن العنصر up تكرر في الجمل الثلاث السابقة ، وقد شكّل مع الفعل الواقع بعده ثلاثة تراكيب فعلية » (١) .

وقد تتصل التوزيعية بإختصار بعض الأشخاص في الإجابة مثل :

المتكلم الأول : - where did he go ?

المتكلم الثاني : - up the hill .

وذلك بدلاً من استخدام الجملة الكاملة وهى :

- He went up the hill .

وقد أشار الدكتور محمود ياقوت إلى النظرية التوزيعية وتطبيقاتها في مجال اللغة العربية ، فالكلمة في النحو العربي تتحدد وظيفتها ونوعها بحسب السياق الذي أتت فية مثال العنصر اللغوي « ما » .

انظر الأمثلة الآتية (٢) :

١- ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ (الأنبياء / ٣٤) ما هنا حرف نفى غير عامل، أي لا يؤثر فيما بعده .

٢- ﴿ ما هذا بشراً ﴾ (يوسف/٣١) حرف نفي يعمل عمل « ليس » أي يرفع المبتدأ وينصب الخبر حسب الاستعمال اللهجي عند أهل الحجاز .

٣- ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ (طه/١٧) اسم استفهام، في محل رفع مبتدأ، أى إن له محلا من الإعراب ؛ لأنه اسم .

٤- ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ (البقرة/١٩٧) اسم شرط يؤثر فيما بعده من الأفعال (تفعلوا) و(يعلم) ، وله وظيفة محددة هي الربط بين فعل الشرط والجواب .

٥- ﴿ قُتل الإنسان ما أكفره ﴾ (عبس/١٧) اسم تعجب ، وظيفته تعجبية ، ومن ناحية الوظيفة النحوية فإنه مبتدأ .

---

(١) د. محمود سليمان ياقوت ، منهج البحث اللغوى ، ص١٣٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص١٣٧ .

عن : Radford, Andrew , Transformational grammar, pp. 69 - 71 .

ولم يكن عمل هاريس بمنأى عن أعمال الآخرين ، فعلم اللغة التوزيعي يكمل المذهب الوصفي عند بلومفيلد ويصححه ويتجاوزه حيث استخدم بلومفيلد معياران هما :

- معيار المعنى .
- معيار التوزيع .

« وقد عنى بتوزيع وحدة مجموع الكلمات التي يمكن أن تتواجد في محيطها اللغوي، فلكي نعرف - مثلاً - أن (L) و (R) فونيمان يكفي أن نلاحظ أنهما يميزان بين كلمتين من نحو (*) Life و Rife ، ويقوم هذا التمييز على معنى الكلمتين . وتعد هذه الطريقة سبيلاً مختصراً فقط ، يستخدمه عالم اللغة أو غيره من أجل الوصول إلى الفروق الحقيقية التوزيعية » (١) .

وقد أخذ تشومسكي - تلميذ هاريس - الطريقة التوزيعية وطوّرها وأضاف إليها وذلك في كتابه « البناءات التركيبية » .

٢٣- جون تيرنس ديبن ويزدم

يعتبر جون تيرنس ديبن ويزدم (١٩٠٤ - ١٩٩٣) (Arthur) John Terence Dibben Wisdom فيلسوف إنجليزى معاصر ، اشتغل في بداية حياته كأستاذ للفلسفة بجامعة كمبردج ، وعلى الرغم من أن لأعماله صلة وثيقة بموضوعات كثيرة ومتنوعة ، إلا أنه اهتم بالناحية المنهجية وجعل له منهجاً خاصاً به وهو ألا يؤكد على شيء ، ولكنه يكتفى بأن يذكر المقابل لأقواله وينتظر أن تحقق الأيام صدق ما ذهب إليه ، أو ما توصل إليه من البحث .

لقد كان جون ويزدم يتبع أسلوباً أراد به أن يكون مختلفاً في بيان أفكاره ، فهو يهتم ببيان المتشابهات والمختلفات بين أقوال الفلاسفة مما يبين منطق الكلام المتبع . ويعترف ويزدم بفضل فتجنشتين عليه وليس فقط بسبب ما تعلمه منه من رفض الميتافيزيقا التقليدية ، التي تتعامل مع موجودات غريبة -في نظره - ولكنه وجد أن هذا الموقف ذو قيمة لأنه يعبّر عن عدم الرضا

(*) الحياة ومنتشر أو سائد أو حافل بـ ...

(١) نفس المرجع السابق ، ص١٣٨ .

وأيضاً : د. محمود سليمان ياقوت ، فقه اللغة وعلم اللغة ، ص١٨٤ .

عن استخدام لغتنا العادية ، كما أنه يمثل صراعاً بين الأفكار المتواضع عليها في اللغة linguistic conventions (*) .

إن مثل هذه الصراعات بين أفكار الفلاسفة بعضهم والبعض الآخر هي التي أضاءت له السبيل ، حيث يقابل بينها وبين الأفكار التي تتسم بالشك ولكنها تتسلط على الفكر بشكل أو بآخر . إذاً فالفلسفة لها قدرة علاجية، وقيمة علاجية a therapeutic value تجعلنا نقارن بينها وبين التحليل النفسي psychoanalysis .

٢٤- جوزيف جرينبرج

جوزيف جرينبرج (١٩١٥ - ٢٠٠١) Joseph Greenberg أحد علماء اللغة والأنثروبولوجيا المهاجر إلى الولايات المتحدة ، وقد عرف منذ الستينيات من القرن العشرين بأنه مؤسس « علم تصنيف اللغات وتاريخها » الحديث ، في مقابل علم اللغة في القرن التاسع عشر .

ولد جوزيف جرينبرج في مدينة نيويورك وحصل على أولى درجاته العلمية من جامعة كولومبيا عام ١٩٣٦ ، وفي عام ١٩٤٠ حصل على درجة الدكتوراه الفلسفة في الأنثروبولوجيا من جامعة نورث وسيتزن ، ثم عمل أستاذاً للغات والأديان القديمة في أفريقيا وآسيا في جامعتي مينوسوتا ثم كولومبيا ، ومنذ عام ١٩٦٢ أصبح أستاذاً للأنثروبولوجيا في جامعة ستانفورد كاليفورنيا .

تنوعت وتداخلت وترابطت مجالات اهتمامات جرينبرج العلمية . غير أنه يمكننا القول بأن أكبر إنجازاته العلمية وأشملها كانت في مجال « تصنيف اللغات» classification of languages ، وفي مجال «الكليات اللغوية » universals of languages .

وضع جرينبرج أسس تصنيف جديد للغات في العالم في كتابه الكبير «لغات أفريقيا » languages of Africa عام ١٩٦٣ ، وذلك من خلال إعادة تصنيفه للغات أفريقيا – وهي أكثر من ألف لغة – والشرق الأدنى . وقد رأى أن

(*) نظرية المواضعة اللغوية هي حصيلة محاولة الفلاسفة المعاصرين لتفسير الطبيعة الغريبة لقضايا الرياضيات والمنطق في إطار التعبير اللغوي ، وأن صدق هذه القضايا ويقينها قائم في طبيعة التركيب اللغوى والرمزية اللذين صيغت فيها تلك القضايا .
(انظر : د. محمود زيدان ، في فلسفة اللغة ، ص٦٤ وما بعدها) .

هذه اللغات جميعاً تنقسم إلى أربع مجموعات سلالية رئيسة هي : لغة النيجركردفانية : واللغة النيلية الصحراوية ، واللغة الأفروآسيوية وكانت تسمى في التصنيف القديم : الحاميات السامية. ورفض جرينبرج هذه التسمية لأنها تنطلق من رؤى عنصرية ، كما أنها لا تعبر عن حقيقة الإنتماء الثقافي - الجغرافي لأصحاب اللغة نفسها ، وأخيراً اللغة الخويسانية .

وبناءً على هذه الدراسة كشف جرينبرج عن زيف ، وخطأ وصف اللغات الأفريقية بأنها لغات « حامية » ، وذهب إلى أن هذه التسمية العنصرية لا أساس لها من الصحة ، بالإضافة إلى أنها عارية عن الحقيقة من حيث الأساس اللغوي والثقافي . وذكر أن من اللغات التي كانت تسمى « حامية » مثل لغات قابل الفولاني والماساي والهوسا والناما لا يجمعها كلها جامع أو أساس واحد ، وإنما هي موزعة بين السلالات الأربع الرئيسة المذكورة .

كما اكتشف جرينبرج أن لغات مناطق بحيرة تشاد وجنوب الصحراء ترتبط بالمجموعة - أو بالسلالة - الأفروأسيوية جنباً إلى جنب ولغات شمال أفريقيا والشرق الأوسط كاللغة الأمازيجية (البربرية) والمصرية القديمة والصومالية والعبرية والكنعانية والآرامية . وكان جرينبرج في كتابه « مقالات في (عن) اللغويات » Essays on linguistics قد وضع فيه تصوراً جديداً لتاريخ الانتشار والتفاعل اللغوي في آسيا واستراليا وشرق وجنوب أوروبا (شرق العالم القديم المتحضر)، قال فيه إن شمال شرق أفريقيا (من المغرب إلى مصر إلى الصومال) أطلق الموجات التي انتشرت حتى استراليا شرقاً وحوض الدانوب شمالاً (مروراً بالأناضول واليونان وجزر البحر المتوسط) ، مما مكّن جرينبرج من إقامة نظريته على أساس تاريخي أثري - لغوي - ثقافي - وراثي .

وأحدث جرينبرج ثورة علمية حقيقية في علم اللغويات إبان عنها في كتابه « كليات اللغة » عام ١٩٦٣ عندما ذكر فيه أن التحليل النحوي واللفظي التصريفي لمئات اللغات في العالم ينفي فكرة أن لكل لغة أو حتى كل مجموعة لغات بنيتها الفقهية الخاصة ، ويؤكد هذا التحليل على وجود أسس عامة ومشتركة و « كلية » أو عالمية تنطلق منها أسس تصنيف الكلام مثل الاسم والفعل والصفة وغيرها . والعلاقات التصنيفية وترتيبها مع لوازمها كحروف في الإضافة والإشارة وغيرها أيضاً .

وذهب جرنبرج إلى أن الكثير من هذه الكليات اللغوية نشأت من خلال التغير والتراكم المعرفي والتفاعل الحيّ « اللغوي – الثقافي » عبر قرون التاريخ الطويلة ، بما يعني أنها ليست كليات أبدية وإنما قابلة للتغير والإضافة والحذف مع تراكم المعرفة وتغير الممارسات العملية والتفاعل مع ثقافات أو لغات أخرى .

٢٥- أندريه مارتينيه

ينظر إلى أندريه مارتينيه (١٩٠٨ - ؟) André Martiné كأحد أبرز علماء اللغويات وفقهاء اللغة الفرنسيين المعاصرين ، تخرج في جامعة باريس حيث أنهى دراساته العليا ، وعمل بالتدريس حتى عام ١٩٤٥ ، ولكنه أصبح رئيساً لقسم اللغويات في جامعة كولومبيا الأمريكية بنيويورك عام ١٩٤٧ وعاد إلى جامعة باريس عام ١٩٥٥ لكي يشغل - أيضاً - منصب أستاذ اللغويات والصوتيات في « معهد الدراسات العليا للغويات » بدءاً من عام ١٩٥٧ .

أعلن أندريه مارتينيه في أولى محاضراته بالمعهد تأثره بالمنهج الذي وضعه عالم اللغويات الروسي الشهير « نيكولاي تروبتسكي » مؤسس « مدرسة براغ » التي تعد واحدة من رائدات علوم اللغويات الحديثة بسبب جهود مؤسسها في تطوير فلسفة عالم اللغويات الشهير - أيضاً - الفرنسي (السويسري) فردينان دي سوسور .

وقد درس مارتينيه العلاقة بين تغير « صوتيات » اللغة - أي طرق نطقها وطرق تغير مخارج حروفها - وبين تغير اللغة ذاتها ، ويعد هو المسؤول الرئيس عن تحويل هذه العلاقة إلى فرع أساسي من فروع علم الصوتيات اللغوية ، واللغويات الحديثة بشكل عام .

استطاع مارتينيه استخدام المنهج « الوظيفي » Functionalism المستخدم في علم الأنثروبولوجيا وطبقه على دراسة اللغة حيث تبرز أهمية تأكيد عملية « تنشيط » أجزاء المنطوق أو النسق اللغوي وتنظيم التعارضات القائمة بين « الوحدات اللغوية » Phonemes ، التي تغير معنى كلمتين إذا استبدلت إحداهما بالأخرى .

ويختلف المنهج الوظيفي الذي يعتمد على التركيز على وظيفة العضو أو الكلمة أو غيرها عن المنهج الوصفي في دراسة علم اللغة والذي يعتمد على الدراسة التقابلية التي تستهدف مقارنة اللغوية الأصلية باللغة الأجنبية ، كأن

ندرس الأصوات أو التراكيب اللغوية أو النحوية لكل من اللغة العربية أو اللغة الإنجليزية ، أو اللغة الفرنسية واللغة العربية أو الإنجليزية وهكذا ، من أجل إبراز الفروق بين اللغتين ، وكذلك استخدامها عند اعداد مادة تعليمية في الكتب الدراسية المدرسية (١) .

ولعل أكبر اسهامات مارتينيه في مجال الدراسات اللغوية تتمثل في دراسته لعملية التغير اللغوي ، أو ما يسمى بالتحوير اللغوي المستمر والطبيعي الذي تتعرض له كل اللغات الإنسانية في العالم ، وهو ما قام بعرضه في كتابه «اقتصاديات التغيرات الصوتية » الذي نشره عام ١٩٥٥ ، وفيه يعتبر عملية «تحور اللغة » نتاجاً طبيعياً ومفهوماً بسبب التعارض والتفاعل الدائمين بين الاحتياجات التي تفرزها – بالضرورة – عملية التخاطب بالكلام بين الناس، وبين الميل الفطرى لدى البشر إلى تقليل الجهد العقلي والعضلي المبذول في «فعل » التكلم والنطق إلى أقل درجة ممكنة .

وقد أشار مارتينيه في كتابه المذكور إلى أن « الجهاز » اللغوي لدى البشر – وهو جهاز فزيولوجي – عضوي – عصبي – في وقت واحد يعمل كمنظومة أو سيمفونية متداخلة الأجزاء ، يسعى هذا الجهاز إلى « الاقتصاد » باستمرار من أجل إيجاد التوازن بين كل أجزاء هذه المنظومة والعوامل المؤثرة فيها . ويذكر أن السعى إلى هذا التوازن مستمر أبداً بسبب تغير كل من : المدلولات التي يريد الإنسان أن يعبر عنها بالنطق ، أي تغير أو تجدد الأشياء والعلاقات والأفكار والمعاني وغيرها ، وتغير إدراك الإنسان وفهمه لهذه « المعرفة » التي يريد أن يعبر عنها ، وأيضاً من أسباب هذا السعى إلى التوازن هو ضخامة ما يريد «العقل» أن يعبر عنه بجهاز النطق ، بالنسبة لقدرات جهاز النطق نفسه .

ويعتبر مارتينيه أول من نبّه إلى انطباق قانون السببية causality – وهي سببية داخلية أو عضوية بين مكونات أجهزة التفكير والتذكر والنطق – على العلاقة بين « مخ الإنسان » وجهاز النطق لديه والتغيرات الصوتية في عملية النطق والكلام .

---

(١) انظر : الفصل الأول من الكتاب ، الفقرة رابعاً .

وأيضاً : د. فاطمة محجوب ، دراسات في علم اللغة ، ص١ .

٢٦- بيتر فريدريك ستروصون

ولد بيتر فردريك ستروصون (ستروسون) (١٩١٩ - ؟) Peter Fredrick Strawson في لندن ويصنف باعتباره فيلسوفاً تحليلاً في المنطق واللغة Analytical philosopher of logic and language ، وله اهتمامات في مجال الابستمولوجيا (المعرفة العلمية) Epistemology والميتافيزيقا Metaphysics ، تعلم في كلية القديس جون بأكسفورد ، وتأثر بالفلسفة التحليلية التي كانت سائدة في أكسفورد، وخاصة لدى هـ . ب . جريس H. P. Grice . عين عام ١٩٤٦ محاضراً مساعداً في الفلسفة في جامعة شمال ويلز ، ثم في كلية جامعة أكسفورد وهكذا تدرج في الوظائف العلمية حتى أصبح عضواً في الأكاديمية الأوروبية وله زيارات علمية كأستاذ زائر في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا .

ترك ستراوصون العديد من المؤلفات من بينها : مقدمة في النظرية المنطقية (١٩٥٢) Introduction to logical theory و « الأفـراد » (١٩٥٩) Individuals وهو كتاب في الميتافيزيقا الوصفية ، وكتاب « أوراق في علم اللغة المنطقي » (١٩٧١) Logico - linguistic papers ، وآخر كتبه أصدره عام ١٩٩٢ بعنوان « التحليل والميتافيزيقا : مقدمة في الفلسفة Analysis and Metaphysics An Introduction to Philosophy :

وينظر إلى ستراصون باعتباره مؤسس « الميتافيزيقا الوضعية » كأحد التيارات المعاصرة الكبرى في فلسفة العلم والفلسفة الوضعية في العالم الناطق بالإنجليزية منذ أواخر الخمسينيات وحتى أواخر القرن العشرين ، ومازال حتى الآن .

اجتذب ستراصون إليه الأنظار باعتباره فيلسوف المنطق والمعرفة واللغة عندما نشر مقالته الشهيرة « حول الإحالة » أو « عن الاسناد » On referring هاجم فيه فكرة برتراند رسل ذات الأهمية والشهرة الكبيرة في عالم الفلسفة ، واتهم ستروصون نظرية رسل عن « الصفات المحدودة » Theory of definite descriptions ، أو « التوصيف التعريفي القاطع » والتي أعطى فيها هذه العبارة «ملك فرنسا حكيم » (*) ووصفها بأنها قضية كاذبة False ، قال عنها ستروصون

(*) The King of France is wise .

إنها تشويه متعمد للاستخدام الطبيعي للغة والتي هي تعبير صحيح وسوي عن «المعرفة » المباشرة ، وأنها نظرية تستهدف بشكل مفتعل - رفض ومراجعة المستوى العادى للتعبير اللغوي وللمعرفة المباشرة بغرض غير منطقي - هو تقديم تصور عن « الحقيقة لا علاقة له بالحقيقة أو بالواقع ، فعبارة رسل استهدفت شخص غير موجود أساساً في الواقع فكيف نضعه في قضية ونصفها بالصدق أو بالكذب ، إنه التعسف ، وكذلك اتهم ستروصون رسل بأنه فشل في التفرقة بين الجمل أو التعبيرات وبين استخدامها ونطقها utterance .

وبعد أن هاجم ستروصون رسل حدد منهجه وموقفه المنطقي والفلسفي بشكل عام : منهج « الوصف الموضوعى المحايد » رافضاً منهج « المراجعة » أو المواضعة الذي يقوم على تجاهل المعرفة المباشرة والموضوعية والعملية لدى معظم إن لم يكن جميع الناس . وكان ستروصون يسعى إلى تحديد صفات وبنية تلك المعرفة المباشرة أو الحس السليم common sense (الإدراك العام) التي يكتسبها البشر من خلال خبراتهم العملية واحتكاكهم المباشر بالطبيعة والأشياء وبعضهم بالبعض حيث يركنون إلى نوع من الحس الفطري السليم وإلى الاستنتاج المنطقى البسيط .

وظهر اهتمام ستروصون بالعلاقة بين المنطق الصوري Formal logic وبين اللغة العادية في كتابه « مقدمة في النظرية المنطقية » (١٩٥٢) الذي كان يهدف في جزء منه إلى الإشارة للاختلاف والتقارب بين استخدام الكلمات في اللغة العادية أو الكلام العادى وبين استخدام الرموز داخل النسق المنطقي (١) . فالمناطقة الصوريون لا يستطيعون اعطاءنا التعبيرات المنطقية النسقية الصحيحة لكل الكلام الذي نستخدمه في حياتنا اليومية لأنه باختصار « لا يوجد نسق منطقي صحيح لمثل هذه التعبيرات (٢) ، فالمنطق الصوري « تجريد مثالي » idealized ligic يكشف لنا عن السمات التركيبية (البنيوية) للغة العادية ، ولكنه يحذف السمات الأخرى .

---

(1) between the behaviour of words in ordinary speech and the behaviour of symbols in a logical system.

(2) Strawson, P. F., Introduction to logical theory, Methuen, London, 1952, p. 57.

ثم قام ستروصون بتطوير قضية « التسمية » أو « التعريف » والأسماء أيضاً من خلال مناقشة أفكار برتراند رسل على أساس إعادة استكشاف المبادىء المنهجية الرئيسة لفلسفة الفيلسوف الألماني (البروسي) إيمانويل كنط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) في المعرفة . وذهب ستروصون إلى أنه على الرغم من قوة حجة كنط الذي ذكر فيها وجود « أشياء » سواء تقع في نطاق معارفنا (عالم الظواهر) أو تقع خارج نطاق معارفنا (الأشياء في ذاتها أو النومينا) Noumena فإنها يجب أن تتصل من الناحية المنطقية بالتأكيد على وجود الأشياء المادية -- سواء أكانت الناس الآخرين أو الجمادات وغيرها - فإنها تعتبر بالنسبة لإدراكنا « موجودات مستقلة ومنفردة بصفة جوهرية » وإننا على أساس هذا الإدراك نتمكن من تحديد المعنى المقصود من كلمة موجود أو كيان entity مستقل ، ثم من خلال ما نتبينه من علاقات قائمة بالفعل بينها نستطيع أن نحدد هل هذه الأشياء « أنواعاً » أو أشياء عرضية وحالات منفردة لا يؤخذ بها . فنحن لا نعرف إذا كان الفرد « المعروف » فرداً من « نوع » يمثل كياناً مادياً إلا بهذا التحديد .

وكانت هذه الفكرة هي المساهمة الحقيقية الجادة لستروصون في مجال المعرفة العلمية حيث دافع عن « الواقعية المباشرة » في الإدراك دون أن يتجاهل إمكانية الشك في الإدراك الحسيّ للعالم الخارجي ، ونادى بضرورة البحث عما قد يكون كامناً وراء ما تدركه الحواس وحدها .

وقد حمل دونالد هربرت ديفيدسون (١٩١٧ - ٢٠٠٣) Donald Herbert Davidson لواء نقد ستراصون في كتابه « الحرية والاستياء » (١٩٧٤) Freedom and Resentment ، بينما نشر كواين نقده في مجلة « مايند » Mind عام ١٩٥٣ (١) .

---

(١) انظر أيضاً

Leggatt Stuart, Strawson, in : One Hundred Twentieth - century philosophers .

٢٧- أفرام نوام (ناعوم) تشومسكي

سبق أن تحدثت عن أفرام (ناعوم، تشومسكي / ١٩٢٨ -) Avram Noam Chomsky فى الفصل الثالث الفقرة (٨) ، وأوجزها هنا ما سبق أن فصلته لكى يحتل تشومسكى مكانه بين أعلام ، اللغة ، فلسفة وعلماً ... قلت إن تشومسكي فيلسوف يهودي لغوي أمريكي (مناهض للحكومات الأمريكية وسياستها الخارجية الاستعمارية القائمة على الظلم والقمع والاضطهاد واستغلال الغير من أجل فرض الأنموذج الأمريكى على العالم لأسباب تتعلق بأهداف الصهيونية العالمية والتي ستؤدي إلى انهيار الحليفان ... الصهيونية والولايات المتحدة لنفس الأسباب التي أدت سقوط غيرهم من الأمم الظالمة ... التي تجاوزت حدودها من قبل) .

أصدر تشومسكي كتابه الأساسي عام ١٩٥٧ بعنوان ، بناءات التركيبات اللغوية ، syntactics structures وكان يعتبر في تلك الفترة فتحاً جديداً ، وثورة في عالم الدراسات اللغوية حيث ركز فيه على قواعد اللغة وحوّلها إلى نظرية صورية ذات قوة مؤثرة (*) .

إن قواعد اللغة بالنسبة لتشومسكى هي مجرد آلة Device تخضع لها كل العبارات اللغوية ، ولهذا فلابد من تعريف القواعد (النحو) ، والنوع الوحيد من النحو الذي يخضع للقدرات الإنسانية هو ، النحو ، الذي يقام على أساس ، البناء أو التركيب العميق ، deep structure مع مجموعة من ، القواعد التحويلية ، transformational rules التي ينتج عنها أو تبدو في ، البناءات الفوقية ، surface structures ، ولكن لابد من الرجوع إلى التفرقة التي قام بها دى سوسور De saussure بين اللغة والكلام langue et parale (*) وهي الأساس الذي قامت عليه ،البنيوية structuralism ، .

، والنحو التحويلي أو التوليدي ، عند تشومسكي ليس نظرية علمية فحسب ، بل أنه يدخل في تكوين الشفرة المستخدمة في ثنايا اللغة بالفعل ، فضلاً عن مساعدته لنا في وضع نظام من القواعد يصلح للتطبيق على الجمل في اللغات

(*) into a powerful formal theory .

(*) انظر الفصل الثالث ، الفقرة (٧) .

كلها، وهو نظام يفوق نظام تحليل اللغة في ضوء مناهج النظر في « علم اللغة البنيوي » لما يتميز به من قصور؛ لأنه ببساطة شديدة إذا أردت أن تعرف لغة ما ، فعليك معرفة نحوها ... أي قواعدها وسميت قواعد لأنها بمثابة القواعد من البيت بدونه لا يقوم البيت ، وإلا أصبح بناءً ضعيفاً على شفا جرف هار ، يمكن أن ينهار به في أى لحظة شاء .

وذكر تشومسكي في كتابه « اللغة والعقل » (١٩٦٨) language and Mind أن تحليله للقدرات اللغوية في أي لغة والتي استخدم فيها بناءات عقلية/ ذهنية مجردة يمكن تعميمها لكي تصبح « وجهة نظر مقبولة لدراسة العمليات العقلية الإنسانية » (*) . وكانت هذه النظرية هي بمثابة الأمل الذي نتج عنه تطور الذكاء الاصطناعي Artificial intelligence وأصبحت هي العتبة الفارقة بين علم الكمبيوتر وعلم النفس (*) .

وبناءً على ما سبق فإن اعتقاد تشومسكي يقوم على استحالة تعلم الأطفال لغة ما بطريقة غير مقصودة (عن طريق الخربشة العفوية) from scratch ، بل يجب أن يتسلحوا بمعرفة فطرية innate knowledge وبعموميات أو كليات لغوية linguistic universals ، وبهذا يعتقد تشومسكي أنه يحتل مكانة ديكارت في الفلسفة العقلية الكلاسيكية في مقابل المعرفة التجريبية عند لوك (*) .

٢٨- تزفيتان تودوروف

ولد تزفيتان تودوروف (١٩٣٩ -) Tzvetan Todorov في بلغاريا وتعلم بها كما تلقى تعليماً في بطرسبرج وفيينا ، ثم هاجر إلى فرنسا عام ١٩٦٣ وظل بها حتى الآن وكان عمره آنذاك اثنتان وعشرون سنة وفي باريس استكمل دراساته العليا في السوربون ، وجذب الإنتباه إليه بسبب اجتهاده ثم خطف

(*) A remarkably favourable perspective for the study of human mental processes .

(*) يمكن أن نقول عنه : computing science and psychology علم الحاسوب وعلم النفس .

(*) انظر : Rée, Jonathan, Chomsky, in : The concise Encyclopedia, pp. 60 - 61 .

الأنظار إليه عام ١٩٦٩ عندما أصدر كتابه «علم نحو الديكاميرون» ثم كتاب «الديكاميرون» أو «الليالي العشر» وهي مجموعة قصص في شكل حكايات ألفها الإيطالي بوكاشيو في القرن الخامس عشر في قالب روائى متأثراً بذلك بالقالب القصصي لحكايات ألف ليلة وليلة العربية .

استطاع تودوروف باجتهاده أن يمزج في كتابه «علم الديكاميرون» بين التحليل اللغوي – البلاغي والأسلوبي والنحوي .. وبين التحليل البنيوية والدلالي للنص الأدبي، أي المزج بين مناهج اللغويات وعلم الدلالة من أجل تحسين وتطوير النقد الأدبي .

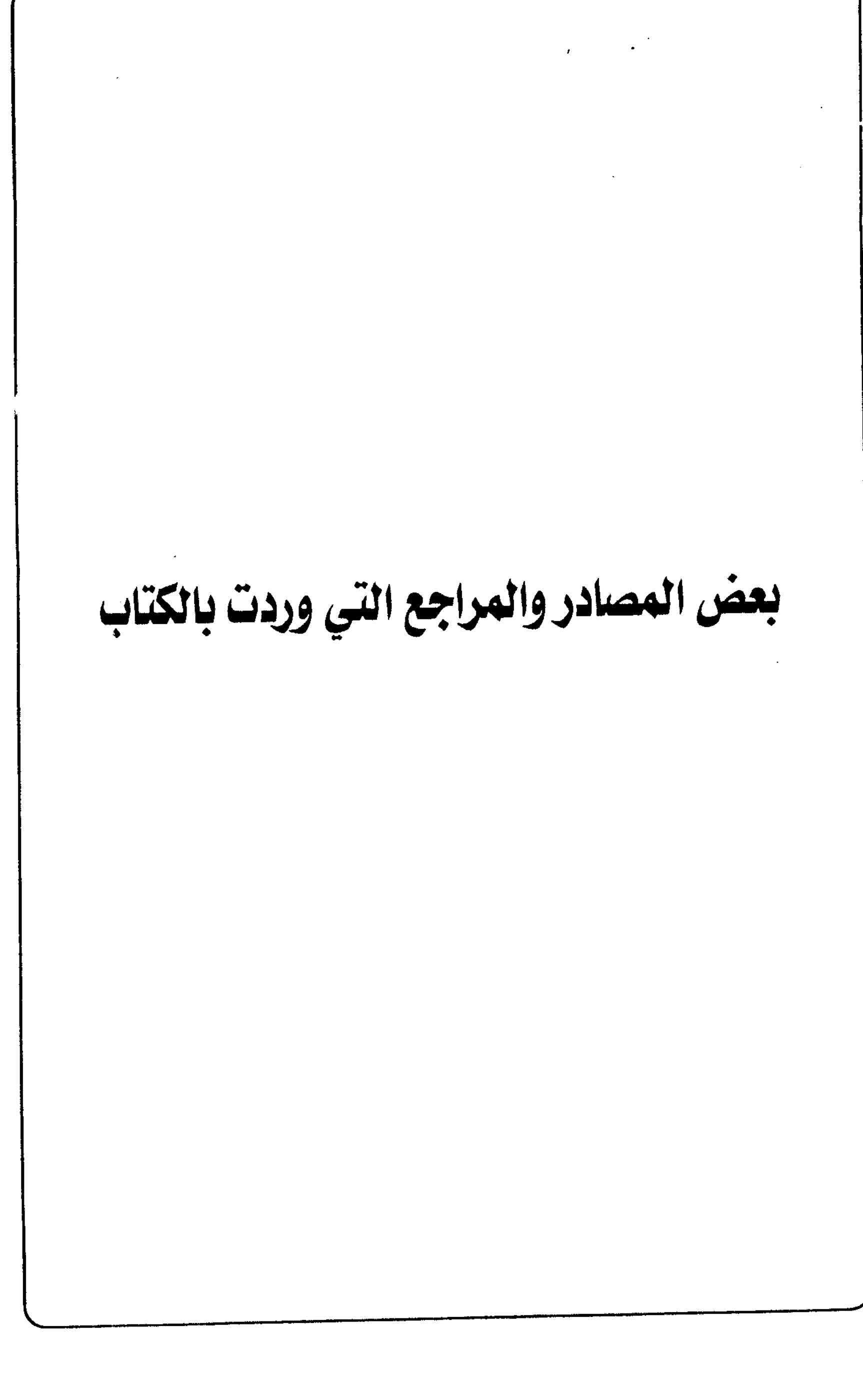
وفي كتابه التالي «مقدمة لدراسة الأدب الخيالي» استطاع دفع المدرسة البنيوية خطوة أخرى عن طريق دمج منهج علم الدلالة والرياضيات واللغويات والسيميوطيقا (علم العلامات) ، بسبب تأثير العلوم الجديدة في المنطق والرياضيات واللغويات والفلسفة الرمزية فيه فكان علمه نابعاً من تفاعل هذه العلوم معاً مع مقولات البنيوية عن علاقة اللغة بتحديد صورة الواقع في ذهن الإنسان ، وعلاقتها بالخيال بالتالي .

وأصدر عام ١٩٧١ كتابه المشهور «فن النثر» Poetique de la prose أكمل فيه الاتجاه نفسه ، وأحس أنه أدى رسالته في هذا الاتجاه وخدم البنيوية بما فيه الكفاية فابتعد عنها، وبدأ في أعماله التالية من خلال تطوير البنيوية الذي حدث أن يجعلها علماً متكاملاً للتفسير عن طريق التحليل المتكامل لعملية تكوين الرموز الثقافية باستخدام مناهج علم الدلالة واللغويات ، وعلم التفسير التقليدي (أي الهرمونطيقا) (*) وكيفية إدراك كل ثقافة لأي ثقافة «أخرى» وهو ما حققه في كتبه «نظرية الرموز» عام ١٩٧٧ ، ثم «النزعة الرمزية والتفسيرية» عام ١٩٧٨ ، ثم «غزو أمريكا : مسألة الآخر» عام ١٩٨٢ وهو الكتاب الذي فجر الصراع الثقافي ضد غزو الثقافة الأمريكية لفرنسا ، ونهبها من ناحية أخرى للثقافة الفرنسية وغيرها من الثقافات . وأسهم تودوروف بكتب أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها حول الشكلانيين الروس ، وحول أعمال الفيلسوف اللغوي

(*) انظر الفصل الثالث ، الفقرة (١٠) .

«ميخائيل باختين » وبهذا قدمهم للقراء في الغرب لأنه سبق بهذه الأعمال أي عمل آخر عنهم ، فكان له السبق والريادة .

لقد أصبح تزفيتان تودوروف من المفكرين المعاصرين في مجال علوم اللغويات وفلسفة اللغة والنقد الأدبى وتاريخ الثقافة الغربية وتاريخ الأفكار، وله إسهاماته المعروفة في مجال تجديد مناهج ومنطلقات آليات المدرسة البنيوية وفلسفتها وربطها بمناهج البحث الموضوعية بعيداً عن النزعة التأملية الموروثة التي حلقت بعيداً وأغرقت نفسها في الخيال أو التأمل خلال القرن التاسع عشر .



بعض المصادر والمراجع التي وردت بالكتاب



المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

١- د. إبراهيم قشقوش ، مدخل لدراسة علم النفس المعرفي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

٢- أبو حيان التوحيدي ، وأبو علي مسكويه ، الهوامل والشوامل ، نشر أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٥١م .

٣- أبو يعقوب بن علي السكاكي ، مفتاح العلوم ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٣٧م .

٤- أبو الفتح ابن جنيّ ، الخصائص ، الجزء الأول ، تحقيق الشيخ محمد على النجار ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٢م .

٥- أبو نصر الفارابي ، شرح كتاب أرسطوطاليس في العبارة ، نشر فلهلم كوتش اليسوعي وستانلي مارو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠م.

٦- ابن جنيّ، سر صناعة الإعراب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ١٩٥٤م.

٧- أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، كتب هوامشه وضبطه حسين بن إبراهيم زهران ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

٨- د. أحمد أبو زيد ، الفكر واللغة ، في : عالم الفكر ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، وزارة الاعلام ، الكويت ١٩٧١م .

٩- د. أحمد أبو زيد ، حضارة اللغة ، في عالم الفكر ، المجلد الثانى ، العدد الأول .

١٠- أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، تحقيق عبد السلام أحمد النونجي الحلبي ، مكتب الإعلام والبحوث والنشر ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ديسمبر ١٩٩٥م .

١١- أحمد عبد الغفور عطار ، آراء في اللغة ، المؤسسة العربية للطباعة ، جدة ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م .

١٢- د. أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب (مع دراسة قضية التأثير والتأثر) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١م .

١٣- أي . جي . مور ، كيف يرى الوضعيون الفلسفة ؟ ترجمة د. نجيب الحصادي ، الدار الجماهيرية للنشر بليبيا ، ودار الآفاق الجديدة بالمغرب ، ١٩٩٤م .

١٤- إرنست كاسيرر ، في المعرفة التاريخية ، ترجمة د. أحمد حمدي محمود ، مراجعة د. علي أدهم ، الألف كتاب الثاني ٢٦٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٩٧م .

١٥- إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٣٧٧هـ .

١٦- ألبرت شفيتسر ، فلسفة الحضارة ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٣م .

١٧- د. السيد عبد العاطي ، علم اجتماع المعرفة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٩م .

١٨- الفيروز أبادي ، المثلث المختلف المعنى ، تحقيق ودراسة د. عبد الجليل مغتاظ عودة التميمي ، منشورات جامعة بنها ، ١٩٨٨ .

١٩- د. أنيس فريحه ، نظريات في اللغة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م .

٢٠- بانيه ديانى ، اللغات والتاريخ الأفريقي ، في كتاب : تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الأول ، اليونسكو ١٩٩٧م .

٢١- بيير جارو ، علم الدلالة ، ترجمة أنطوان أبو زيد ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

٢٢- جرجي زيدان ، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، دار الهلال ، القاهرة ، د.ت .

٢٣- جون ليونز ، نظرية تشومسكي اللغوية ، ترجمة وتعليق د. حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٥م .

٢٤- د. حبيب الشاروني ، فلسفة مين دي بيران ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢م .

٢٥- د. رمضان عبد التواب ، المدخل إلى علم اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م .

٢٦- د. رمضان محمد القذافي ، علم النفس العام ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ١٩٨٣م .

٢٧- د. رمضان بسطاويسي محمد ، علم اللغة النفسي ، في : المجلة العربية ، العدد ٢٢٢ لسنة ٢٠ ، الرياض رجب ١٤١٦هـ - ديسمبر ١٩٩٥م .

٢٨- ريتشارد شاخت ، روّاد الفلسفة الحديثة ، ترجمة د. أحمد حمدي محمود ، الألف كتاب الثاني ١٣٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣م .

٢٩- د. زكريا إبراهيم ، مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٧٦م .

٣٠- د. زكي نجيب محمود ، موقف من الميتافيزيقا ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

٣١- د. زكي نجيب محمود ، نافذة على فلسفة العصر ، كتاب العربي الكتاب السابع والعشرون ، الكويت ، ١٥ أبريل ١٩٩٠م .

٣٢- د. سعد جلال ، علم النفس الاجتماعي ، جامعة قاريونس ، بنغازي ١٣٩٢هـ/ مايو ١٩٧٢م .

٣٣- د. سيد محمد غنيم ، اللغة والفكر عند الطفل ، في : عالم الفكر ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، وزارة الإعلام ، الكويت ١٩٧١ .

٣٤- صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م .

٣٥- عباس محمود العقاد ، بحوث في اللغة والأدب ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٧٠.

٣٦- عباس محمود العقاد ، إبراهيم أبو الأنبياء ، نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ٢٠٠١م .

٣٧- د. عبد الرحمن بدوي ، اللغة ، في : ملحق موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .
٣٨- د. عبد الرحمن بدوي ، اللغة والمنطق في الدراسات الحالية ، في : عالم المعرفة .
٣٩- د. عبد الغفار مكاوي ، لِمَ الفلسفة ؟ ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٨١م .
٤٠- د. عبده الراجحي ، اللغة وعلوم المجتمع ، مطبعة الإسكندرية ، كلية الآداب ، الإسكندرية ١٩٧٧م .
٤١- عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م .
٤٢- د. عبد الله عبد الحميد سويد ، اللغة العربية ، ودورها في تنمية اللغات الأفريقية ، في : الجديد للعلوم الإنسانية ، المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية ، العدد الخامس ، طرابلس ٢٠٠٠م .
٤٣- د. عبد الغفار مكاوي ، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الثالثة عشر ، ١٩٩٢م .
٤٤- د. عبد الوهاب جعفر ، البنيوية في الأنثروبولوجيا وموقف سارتر منها ، دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٨٠م .
٤٥- د. عبد الوهاب جعفر ، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م .
٤٦- د. عبد الوهاب جعفر ، مقالات في الفكر الفلسفي المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٠م .
٤٧- د. علي عبد المعطي محمد ، تيارات فلسفية حديثة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٥م .
٤٨- د. علي عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية د.ت .

٤٩- د. علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة ، ملتزم الطبع والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .

٥٠- د. عثمان أمين ، الفلسفة الرواقية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧١م .

٥١- د. عثمان أمين ، روّاد المثالية في الفلسفة الغربية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٥م .

٥٢- د. عزمي إسلام ، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٩٧١م .

٥٣- د. فاطمة محجوب ، دراسات في علم اللغة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦م .

٥٤- فرانك ر. بالمر ، علم الدلالة : إطار جديد ، ترجمة د. صبري إبراهيم السيد ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٥ .

٥٥- فريال جبوري غزول ، علم العلامات (السيميوطيقا) مدخل استهلالي ، في كتاب : مدخل إلى السيميوطيقا : أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة ، إشراف سيزا قاسم ود. نصر حامد أبو زيد ، دار إلياس العصرية ، القاهرة ، د. ت .

٥٦- د. قباري محمد إسماعيل ، علم الاجتماع والفلسفة ، الجزء الثاني (نظرية المعرفة) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٦٦م .

٥٧- د. كريم متى ، الفلسفة الحديثة : عرض نقدي ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م .

٥٨- كمال يوسف الحاج ، فلسفة اللغة ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٥٦م .

٥٩- كمال يوسف الحاج، هنري برجسون، الجزء الأول ، دار النشر للجامعيين، د.ت .

٦٠- كندراتوف، أ.، الأصوات والإشارات ، ترجمة د. شوقي جلال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢م .

٦١- لفيف من الأساتذة ، المعجم الفلسفي المختصر ، ترجمة توفيق سلوم ، دار التقدم ، موسكو ١٩٨٦م .

٦٢- محمد بن إسحق بن النديم ، الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٤٨م .

٦٣- محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع ، الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية أصول الدين ، إشراف الدكتور أحمد حسن فرحات ، الرياض ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٦٤- د. محمد ثابت الفندي ، مع الفيلسوف ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٧م .

٦٥- د. محمد على أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس إلى أفلاطون ، الجز الأول ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ١٩٦٥م .

٦٦- د. محمد على الخولي ، دراسات لغوية ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٦٧- د. محمد فتحي الشنيطي ، أسس المنطق والمنهج العلمي ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٠م .

٦٨- د. محمد فتحي عبد الله ، نظرية المعرفة عند فلاسفة اليونان ، الدار الأندلسية ، الإسكندرية ، ١٩٩٢م .

٦٩- د. محمد مهران ، فلسفة برتراند رسل ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

٧٠- د. مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثاني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٨م .

٧١- د. محمود السعران ، علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي ، دار الفكر العربي ، القاهرة رجب ١٤١٢هـ ، يناير ١٩٩٢م .

٧٢- د. محمود حمدي زقزوق ، تمهيد الفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ١٩٩٤م .

٧٣- د. محمود سيد أحمد ، البرجماطيقا عند هابرماس ، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع ، طنطا ٢٠٠٠م .

٧٤- د. محمود سليمان ياقوت ، منهج البحث اللغوي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ٢٠٠٠م .

٧٥- د. محمود فهمي زيدان ، كنط وفلسفته النظرية ، دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٦٨م .

٧٦- د. محمود فهمي زيدان ، المنطق الرمزي : نشأته وتطوره ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٣م .

٧٧- د. محمود فهمي زيدان ، في فلسفة اللغة ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٧٨- د. محمود فهمي زيدان ، مناهج البحث في العلوم الطبيعية المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٠م .

٧٩- د. محمود فهمي حجازي ، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، دار غريب ، القاهرة ، د.ت .

٨٠- إم . م . بوشنسكي ، الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ترجمة د. عزت قرني ، عالم المعرفة العدد ١٦٥ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ربيع أول ١٤١٣هـ - سبتمبر ١٩٩٢م .

٨١- د. مها معاذ ، أنثروبولوجيا اللغة ، في كتاب : المدخل إلى علم الإنسان ، مركز سروات للأبحاث ، الإسكندرية ٩٧ - ١٩٩٨م .

٨٢- د. نوال محمد عطية ، علم النفس اللغوي ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٩٥م .

٨٣- نوربيرت ڤينر ، السيبرنتيكا ، ترجمة د. رمسيس شحاته ، د. إسحق إبراهيم حنا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢م .

٨٤- د. نوري جعفر ، الفكر : طبيعته وتطوره ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، بنغازي ، الطبعة الأولى ١٣٩٠ - ١٩٧٠م .

٨٥- د. هاشم طه شلاش وآخرون ، المهذب في علم التصريف ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، بيت الحكمة ، د.ت .

٨٦- وداد الحاج حسن ، رودلف كارناب ونهاية الوضعية المنطقية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ٢٠٠١م .

٨٧- د. يحيي هويدي ، بركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، العدد ١٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٨٨- د. ياسين خليل ، مقدمة في الفلسفة المعاصرة : دراسة تحليلية ونقدية للاتجاهات العلمية في فلسفة القرن العشرين ، الجامعة الليبية (كلية الآداب) ، بنغازي ، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م .

ثانيًا : المصادر والمراجع الأجنبية :

1- Ashcraft, Mark H., Human Memory and Cognition, Scott, Fores-man and Company, Glenview, Illinois, 1989.

2- Ayer, A. J., The Genesis of Metaphysics, in : Philosophy and Analysis, by : M. Macdonald.

3- Baldinger, Kurt, Semantic Theory : Towards a Modern Semantics, Oxford, 1980.

4- Benveniste, Émile, Sémiologie de la langue, Problémes de linguis-tique générale, Paris, Gallimard, 1965.

5- Berkeley, George, A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge, The Open Court Series, Oxford, 1710.

6- Bergson, Henri - Louis, L'Évolution Créatice, Alcan, Paris, 1907.

7- Borgmann, Albert, The Philosophy of Language: Historical Foundations and Contemporary Issues, Martinus Nijhoff, The Hague, 1984.

8- Carroll, John B., The Study of Language, Harvard University Press, Cambridge, 1966.

9- Cassier, Ernest, The Philosophy of Symbolic forms, Vol. I, Trans. by Ralph Manheim, New Haven, Yale University Press, 1961.

10- Crystal, David, in : The Cambridge Encyclopedia of Language, Cambridge University Press, 1989

11- Darley, J., E., Increased Liking as a Result of the Anticipation of Personal Contact: Human Relations, New York, 1967.

12- De Saussure, F., Course de linguistique générale pub. Par Charles Balley et Albert Sechehaye, Payot, Lausanne, 1916.

13- E. T. Hall, The Silent Language, Doubleday, New York, 1959.

14- E. T. Hall, The Hidden Dimension, Doubleday, New York, 1966.

15- Ewing, A. C., A Short Commentary on Kant's Critique of Pure Reason, The University of Chicago Press, 1950.

16- Forber, Greek Pioneers in Philosophy and Grammar, The Classical Review, Vol. 47, 1933.

17- Gerald, J. Goodwin, Peirce, in : The MacGraw-Hill Encyclopedia of World Biography, Vol. 8, MacGraw-Hill Inc., U.S.A., 1973.

18- Gianni Vattimo : Essere, Storia e linguaggio in Heidegger, Torino, 1963.

19- Gray's Foundation of Language, New York, 2nd Edition, 1958.

20- Habermas, J., Knowledge and Human Interests, An English Trans., by Jeremy, J. Shapiro, Beacon Press, Boston, 1971.

21- Hayes, Francis, Gestures : A Working Bibliography, Southern Folklore Quarterly, XXI Dec., 1957.

22- Hendel, Charles W., Preface of the Symbolic forms, Yale University Press, Inc., 1957.

23- Hegel, F., Philosophy of History, Trans. J. L. Homes, Wiley and Sons, 1973.

24- Howard, Darline V., Cognitive Psychology, Macmillan Publishing Co., Inc. New York, 1983.

25- Jackson, Howard, Words and Their Meaning, Longman, New York, Second Impression, 1989.

26- Jones, L. and Thurstone, L., The Psychophysics of Semantics . An Experimental Investigation, J. App. Psychol. Vol. 39, 1955.

27- Jones, W. T., A History of Western Philosophy, The Twentieth Century to Wittgenstein and Sartre, 2nd., Vol. V, Hartcourt Brace Jovanovich, Inc., N. Y., 1975.

28- Kant, E., Critique of Pure Reason, Trans. by Norman Kemp Smith, Macmillan Press Ltd., London, 1976.

29- Katz, Jerrald, J., Linguistic Philosophy, George Allen and Unwin, London, 1972.

30- Kirk, G. S. and Raven, J. E., The Presocratic Philosophers, Cambridge, London, 1966.

31- Körner, Stephen, Kant, in : The Concise Encyclopedia of Western Philosophy and Philosophers.

32- Koestler, Arthur, Act of Creation, Pan Books, London, 1964.

33- Lacroix, Jean, Panorama de la Philosophie Francaise Contemporaire, (P.U.F.), 1966.

34- Leibniz, G., Nouveaux Essais sur L'entendement Humain, Raspe, Paris, 1765.

35- Maine De Biran, Influence de l'habitude sur la faculté de pensée, Paris, 1799.

36- McCarthy, Dorothea, Language Development in : L. Carmichael (ed.), Manual of Child Psychology, New York, Wiley, 1965.

37- Meillet, A., Linguistic historique et linguistique générale, h. 158, Paris, 1936.

38- Millar, Neal & Dollar, John, Social Learning and Imitation, New York, 1957.

39- Miller, G. A., Language and Communication, McGraw - Hill, New York, 1946.

40- Mills, Stephen, Chomsky, in : One Hundred Twentieth Century Philosophers, Edited by : Stuart Brown, Diane' Collinson, Robert Wilkinson, Routeledge, London and New York, 1998.

41- Moore, G. E., A Defence of Common Sense, in : Contemporary British Philosophy, Vol. II, Unwin, London, 1925.

42- Morris, Charles, Signification and Significance : A Stury of the Relations of Signs and Values, Cambridge MIT Press, 1964.

43- Osgood, C. E., & Sebeok, T. A., Psycholinguistics : A Survey of Theory and Research Problems, Supplement to the Journal of Abnormal & Social Psychology, 49, No. 4, Part 2, New York, 1954.

44- Pei, Marion, TRhc Story of Language, Mentor Books, New York, 1960.

45- Peirce, Charles Sanders, The Collected Papers of Ch. S. Peirce, 8 Vols., ed. by C. Hartshorne, Paul Weiss and A. Beaks, Cambridge Harvard University Press, 193 - 35, 1958.

46- Reese, William L., Dictionary of Philosophy and Religion Eastern and Western Thought, New Jersey, Humanities Press, 1980.

47- R. H., Robins, Grammatical Theory, New York, 1939.

48- Russell, Bertrand, Our Knowledge of External World, George Allen and Unwin, London 2nd. ed., 1926.

49- Russell, Bertrand, Logical Atomism, in Contemporary British Philosophy, ed Mecirhead, London, 1952.

50- Russell, B., My Philosophical Development, Allen and Unwin, London, 1959.

51- Ruth, N., An Enquiry into its Meaning and Education, New York, 1957.

52- Sapir, Edward, Language, Harvest Books, London, 1921.

53- Urmson, J. O., Philosophical Analysis : Its Development Between the Two World Wars, Oxford University Press, London, 1956.

54- Vendryes, J., Language : A Linguistics Introduction to History, New York, R. 4 D., First ed., 1925.

55- Vygotsky, L. S., Thought and Language, M.I.T., 1962.

56- Wright, William Kelley, A History of Modern Philosophy, Macmillan Company, New York, 1946.

محتويات الكتاب

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الخامس

